جامعة الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية
قسم التاريخ

المرأة المغربية في عهد المرابطين

(448هـ-541هـ/1056م-1146م)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالبة

مليكة حميدي

إشراف

د.صالح بن قربة

السنة الجامعية 1422 هـ-1423 هـ/

2001م-2002م

بسم الله الرحمن الرحيم

"...وما توفيقي إلاّ باللهِ
عَلَيْهِ توكّلتُ
وَإِلَيْهِ أُنيبُ."

سورة هود: الآية 88

إهــــداء

إلى من كان لهما الفضل في وجودي في الحياة

إلى روح أمي :

التي لم تنعم بحرية الاستقلال.

وإلى روح أبي الذي سقى دمه شجرة الحرية

وإلى كل شهدائنا الأبرار.

إلى روح فايزة الطاهرة التي إختارها الله تعالى إلى جواره

إلى كل أفراد عائلتي الواسعة

خاصة إخوتي وأخواتي حفظهم الله.

إلى كل امرأة في وطني الحبيب وفي ديار الإسلام :

أمّا وأختا وزوجة وبنتا ...

أهدي هذا العمل المتواضع

شكر وعرفان

أتقدم بخالص الشكر والإمتنان لأستاذي

المشرف صالح بن قربة ، الذي لم يبخل علي بإرشاداته

وتوجيهاته طيلة فترة إنجاز البحث

وكنت كلما وسعت العمل أو حددته عرضت ذلك عليه

فيتوقف معي باحثا ، ويوقفني مرشدا ناصحا ، ويشجعني أبا

حانيا حتى أشرف العمل على الكمال.

لقد كان بحق نعم الأستاذ والمشرف والموجه الذي يرعى

بصبر وأناة طلبته ويقوم عثراتهم

فمهما أظهرت من إمتنان وشكر وعرفان فإني لن أفيه حقه

فجزاه الله عزوجل عني خير الجزاء.

المختصرات

جزء: ج

مجلد : مج

طبعة: ط

قسم : ق

مسألة: م

ورقة: و

تحقيق: تق

ترجمة: تر

دون تاريخ الطبع : د ت

دون مكان الطبع : د م

رضي الله عنه : ض

T: Tome

VOL: Volume

ED: Edition

Fax :Fascicule

IMP: Imprimerie

المقدمة

تعد دراسة موضوع المرأة المغربية من الجانب التاريخي نادرة التناول، رغم أنه يقال "أن المرأة نصف المجتمع، وأن من وراء كل عظيم امرأة". وقد تنحصر مهمة المرأة الأساسية في رعاية شؤون الأسرة وتربية الأبناء، بيد أنه في الواقع تعدت هذه المسؤولية لتساهم في الحياة العامة للدولة تاركة بصماتها في مختلف مجالات الحياة. إلا أن أغلب الدراسات عن المرأة المسلمة ركزت على إبراز دور المرأة في المشرق الإسلامي أكثر من مثيلتها في المغرب الإسلامي؛ وإن كانت مساهمة هذه الأخيرة لا تقل أهمية عن الأولى، فقد اشتهرت عدّة نساء مغربيات أثناء حكم الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الإسلامي. ومن هؤلاء بروز المرأة في الدولة المرابطية التي حكمت ما بين (448هـ-541هـ/1056م-1146م).

ورغم أهمية الموضوع تواجه الباحث ندرة النصوص والمعلومات التاريخية الأصيلة. فهي عبارة عن نتف وشذرات متناثرة بين مختلف مؤلفات التاريخ والفقه والتراجم والرحالات والأدب، بدليل أن موضوع المرأة المرابطية لم يحض باهتمام الباحثين والمؤرخين كموضوع مستقل بنفسه باستثناء ما أشار إليه: إبراهيم القادري بوتشيش في كتابه:"المغرب والأندلس في عصر المرابطين". وعصمت عبد اللطيف دندش في كتابها:"أضواء جديدة على المرابطين". ومع ذلك ظل موضوع المرأة في عهد المرابطين يفتقر إلى مزيد من الدراسات والتقصي والبحث لمعرفة جوانبه المضيئة في تاريخ المغرب، وذلك ضمن دراسة علمية متكاملة ومستقلة بذاتها، وهذا ما قصدت تحقيقه من خلال معالجة هذا الموضوع.

ومن بين الدوافع الأخرى التي حفزتني هو البحث عما اشتهرت به المرأة المرابطية في مختلف مجالات الحياة. كما حظيت بالصدارة في المجتمع بدليل أن الأبناء إنتسبوا لأمهاتهم وليس لآبائهم عند بعض قبائل الملثمين. ومن خلال دراستي السابقة كان يجذبني إسم "زينب النفزاوية" التي اقترن إسمها بقيام الدولة المرابطية من خلال تثبيت وتدعيم الحكم لزوجها يوسف بن تاشفين. فكان يحز في نفسي التعرف أكثر على الأعمال التي قامت بها، وكشف النقاب على هذه الشخصية الفذة التي ظلت في طيّ التهميش والنسيان والتي لا تقل أهمية عن نساء الحكام في المشرق.

كما ضمت الدولة المرابطية نساء عالمات وفقيهات في الدين وأديبات وشواعر وفنانات وخطاطات، وزاهدات في الحياة، بالإضافة إلى العاملات في مختلف الأنشطة الاقتصادية اللائي ساهمن في البناء الحضاري للدولة. وكان هدفي من معالجة هذا البحث المتواضع اخراجه من طي النسيان وإزالة الغبار على هذه الشريحة الهامة في الدولة المرابطية التي اعتبرت الركيزة الأساسية في بناء المجتمع. ونظرا للإتساع السياسي الذي شملته الدولة المرابطية فقد تناولت المرأة الأندلسية جنبا إلى جانب مع أختها المغربية عن طريق المقارنة ما أمكن لي ذلك.

إشكالية الموضوع:

هل تعتبر بعض ادعاءات الداعية الموحدي محمد بن تومرت للمرأة المرابطية على أنها سافرة ومنحرفة عن الدين حقيقة تاريخية إستوجبت محاربة المرابطين والإطاحة بدولتهم ؟ أم أن نظرة عبد الواحد المراكشي التاريخية لهذه المرأة ضمن كتابه:"المعجب في تلخيص أخبار المغرب" والتي وصفها بالتهور والفساد وإضعاف كيان الدولة، هو فعلا الواقع الذي عاشته في نهاية الدولة ؟ أم كلا القولين ما هما إلا افتراء وإدعاء لا أساس لهما من الصحة يندرجان ضمن أغراض شخصية ؟

فما صحة هاذين الرأيين في ضوء الحقائق التاريخية ؟ فما هي أهم الأسباب والظروف التي دافعت بها إلى أن تعيش ذلك الوضع المنحرف عن جادة الطريق، وفيما تجلت مظاهره ؟ وما نتائج ذلك على الوضع العام للدولة المرابطية ؟

ومن أجل إنجاز هذا البحث اتبعت المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي، بحيث انطلقت من دراسة النصوص التاريخية وآراء المؤرخين، ثم قمت بتحليلها وبمقارنتها بواقع الحياة العامة المعاشة بالنسبة للمرأة، ثم استخلصت بعض الحقائق التاريخية. كما جمعت بين الدراسة النظرية والدراسة التطبيقية، وذلك بالمقارنة بين واقع المرأة في العهد المرابطي ووضعها الحالي في المجتمعين الطوارقي وبلاد شنقيط (موريتانيا) بهدف ربط القديم بالحديث ومعرفة مدى تواصل العادات والتقاليد بين الفترتين.

وقد واجهتني عدّة صعوبات أذكر منها ندرة الكتابات في الموضوع وتناثر مادته العلمية بين مختلف أنواع المؤلفات: التاريخية، الفقهية، الجغرافية، الأدبية وكتب التراجم، حتى خشيت من تشعب البحث. لكن في الحقيقة أهم مشكلة صادفتها هي فقدان المصنفات التاريخية الأصيلة والمعاصرة لموضوع البحث مثل:"كتاب الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية" لابن الصيرفي، و"كتاب المقتبس في أخبار المغرب والأندلس وفاس" لأبي مروان عبد الملك بن موسى الوراق. والتي أخذ عنهما المؤرخون أمثال: ابن عذاري، وابن أبي زرع، وابن الخطيب، وغيرهم... وربما يرجع ضياع المؤلفات التاريخية المعاصرة إلى الوضع السياسي الذي عرفته الدولة المرابطية في نهاية عهدها وسياسة الموحدين والتي كانت تعمل على محو كل الآثار المادية والمعنوية للمرابطين، أو نتيجة للغزو المسيحي على الأندلس الذي عبث بالتراث المغربي الإسلامي. ولم يبق من تاريخ المرابطين إلا ما نقلته المؤلفات اللاحقة لعهدهم. بالإضافة إلى ما وجهتني من صعوبات مادية وقلّة الخدمات المكتبية وخاصة ضيق الوقت.

وقد قسمت الموضوع إلى مقدمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة وضمنته مجموعة من الفهارس. تعرضت في **مقدمة البحث** إلى أهمية الموضوع وأسباب إختياره. وطرحت من خلالها إشكالية البحث والمنهج المتبع في دراسته والصعوبات التي واجهتني والخطة المتبعة. وأتبعت ذلك بدراسة تحليلية لأهم مصادر البحث ومراجعه وخاتمة البحث.

المدخل التاريخي: هو دراسة تمهيدية للموضوع، تعرضت من خلاله إلى الجانب التاريخي للدولة من حيث أصل المرابطين وظهورهم على مسرح الأحداث مع إبراز دور رباط عبد الله بن ياسين في الدعوة والجهاد. واختصرت أحداث تأسيس الدولة المرابطية في ثلاثة مراحل أساسية.

وأوجزت من خلالها مميزات كل مرحلة مع التركيز على جهود يوسف بن تاشفين في تأسيس الدولة التي ساهمت فيها زوجته زينب النفزاوية ماديا ومعنويا. أما في المرحلة الأخيرة فقد ذكرت جملة من العوامل التي تظافرت في إضعاف الدولة وسقوطها نظرا لما وصفت به المرأة اللمتونية والمسوفية من فساد وتهور، واستحواذ النساء على أمير المسلمين. واستهدفت من هذا المدخل التاريخي تسليط الضوء على الإطار العام للدولة التي عاشت فيه المرأة المرابطية متأثرة ومؤثرة في الكثير من أحداثه.

أما الفصل الأول:"دور المرأة السياسي والعسكري" فقد تعرضت في بدايته إلى إعطاء لمحة تاريخية لمسيرة المرأة المسلمة عبر التاريخ إلى غاية تأسيس الدولة المرابطية. أبرزت من خلالها إسهامات المرأة منذ تأسيس الدولة الإسلامية إنطلاقا من المدينة المنورة. وانتقيت نماذج لأشهر النساء اللائي كان لهن دورًا مؤثرًا في الدول التي تعاقبت في حكم المغرب الإسلامي. مما يؤكد على أنه لم يحضر على المرأة المشاركة في الحياة العامة.بيد أن مشاركتها كانت متفاوتة بين المشرق والمغرب الإسلاميين.

وقصدت من خلال هذا المبحث ربط الصلة بين المرأة المسلمة مشرقا ومغربا، وأن مساهمتها في البناء الحضاري ارتبطت بالظروف البيئية والاجتماعية والأفكار الدينية والسياسية التي فتحت لها مجال المشاركة في الحياة العامة. وتعرضت للدعاية الموحدية التي استهدفت المرأة المرابطية وأوردت من خلالها بعض الاتهامات والانتقادات التي وجهها المهدي بن تومرت للمرأة المرابطية ضمن دعوته في انتقاد الحكم المرابطي. ودعم سياسة ابن تومرت فيما بعد مؤرخ البلاط الموحدي عبد الواحد المراكشي. ولإعطاء صورة واضحة على دور المرأة في الجانب السياسي، خصصت لكل واحدة من النساء البارزات في هذا المجال مبحثا خاصا، تأتي في طليعتهن زينب النفزاوية كنموذج للمرأة في حسن التسيير والتدبير والجمال والمال. والأميرتان حواء بنت تاشفين ومريم بنت إبراهيم تفلويت اللتان مدحهما أكبر شعراء الأندلس آنذاك/ وتشفع الناس بهما لدى الأمراء لقضاء حوائجهم. وتحدثت عن الدور السلبي للجارية قمر –أم ولد- زوجة أمير المسلمين علي بن يوسف الذي انعكست خطورته على الوضع العام في الأندلس أولا، ثم في المغرب بعد وفاة علي بن يوسف. كما أشرت لبعض الإسهامات المادية والمعنوية للمرأة في حالة الحرب مع الموحدين وفي جهاد النصارى بالأندلس. ونتيجة لهذه الصراعات استفحلت ظاهرة الأسر والسبي إذ كان لبعض الأسيرات جرأة وشجاعة في استرجاع حريتهن. وختمت الفصل بإبراز بطولة الفتاة المرابطية المقاتلة فانو بنت يانتان التي أدهشت بشجاعتها وبسالة قتالها جند الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي. ولم يستول على قصر الحجر –دار الإمارة- إلى بعد مقتلها في عام 541هـ/1146م.

أما الفصل الثاني: فقد خصصته لدور المرأة في الحياة الاجتماعية والتي تمثل فيه المرأة الدعامة الأساسية. وتحدثت فيه عن تكوين الأسرة التي هي الخلية الأساسية في بناء المجتمع، والتي تنشأ عن طريق الزواج، ولذلك أوجزت الحديث عن نظرة المجتمع للزواج آنذاك. ثم تطرقت للزواج في المجتمع المرابطي من حيث مراحله وأركانه وشروطه والعادات التي كانت سائدة في مراسيمه. واختصرت الحديث عن العلاقات العائلية وبعض الخلافات التي انجرت من سوء معاملة الزوج لزوجته. كما تطرقت لمكانة الأم في مجتمع الملثمين، محاولة تفسير هذه الظاهرة، وذلك بالرجوع إلى الجذور التاريخية لها والبحث عن أسباب اختيار خط الإنتساب إلى الأم أو إلى الأب.

وحاولت قدر الإمكان توضيح العلاقة بين هذه المكانة وإمكانيات المرأة المادية بإمتلاكها لمصادر الثروة الاقتصادية التي مكنتها من فرض سلطتها والحفاظ على كرامتها في الأسرة وفي المجتمع. كما أبرزت مساهمتها في مختلف الأنشطة الاقتصادية: الفلاحة، الصناعة، التجارة، وارتباطها الوثيق بالظروف البيئية والاجتماعية التي كانت تحدد نوعية النشاط.

وقد أفردت الحديث عن عادة السفور لدى النساء المرابطيات ومدى تأثيرهن في المجتمع الأندلسي. أما في المجتمع المغربي فقد اعتبرها المهدي بن تومرت خروجا عن تعاليم الشرع. فحاولت تفسير هذه العادة وتوضيح الحكم الشرعي في شأنها. وأشرت باختصار إلى جانب من وضع نساء أهل الذمة وعلاقتهن بالمسلمات في المجتمع الأندلسي بالأخص.

كما خصصت جانبا من هذا الفصل للحديث عن لباس المرأة وأنواع الحلي وأدوات الزينة، ومستحضرات التجميل للحفاظ على صحتها وجمالها. وبالمقابل أوجزت الحديث عن فئة من النساء الزاهدات في الحياة واللائي تفرغن لأعمال البر والخير نتيجة لتيار الزهد والتصوف الذي ظهرت بوادره في نهاية العهد المرابطي.

أما الفصل الثالث: فقد خصصته لدور المرأة في الحياة الفكرية والفنية. إذ مهدت بإيجاز للوضع الثقافي العام للدولة ومدى اهتمام حكامها بالعلم والعلماء لاسيما في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف. وخلصت بنتيجة أن البيئة الدينية والعلمية التي ترعرعت فيها المرأة على عهد المرابطين أفرزت عددا

من النساء المتعلمات والعالمات، و ساهمت هذه الفئة المثقفة في العلوم الدينية والفقهية وفي الأدب والشعر. وأوردت نماذج لبعضهن سواء داخل البلاط المرابطي أو من خارجه. واتبعت ذلك بمساهمة نساء أخريات في بعض الفنون كالموسيقى والغناء، ولاسيما الخط الذي كان له دور كبير في عمليتي التدوين والنسخ وتأثيرهما على اتساع دائرة انتشار العلم والثقافة.

أما فيما يخص الآثار فقد أشرت إلى مساهمة زينب النفزاوية في بناء مدينة مراكش والتي ما تزال بعض بقايا مساهمتها ماثلة إلى حد الآن في مراكش، محاولة إعادة الاعتبار لهذه المرأة المغربية. وختمت الفصل بالحديث عن بقايا شواهد قبور بعض النساء مثل شاهد قبر الأميرة بدر بنت أبي الحسن بن تاعيشت التي تحتفظ بنوع من الزخرفة بالخط الكوفي الذي مهرت فيه الكثير من الخطاطات، وهي محفوظة حاليا بمتحف الآثار بمالقة. وفي نهاية كل فصل سجلت بعض الاستنتاجات.

أما نتائج البحث: فهي عبارة عن ملاحظات واستخلاصات عن وضعية المرأة في عهد المرابطين.

تحليل لأهم المصادر والمراجع المعتمدة عليها:

لقد تطلبت مني هذه الدراسة الرجوع إلى المصادر التاريخية بالدرجة الأولى. لكن بالقياس على ما تحتويه هذه المصادر من معلومات، فلم أجد فيها ضالتي. ولذلك لجأت إلى كتب الفقه -كتب النوازل والحسبة-، وكتب التراجم والطبقات، والجغرافية والرحلات، وكتب الأدب. وتناولت المصادر حسب الأهمية للموضوع وتأتي في أول هذه المصادر:

الرسائل الرسمية المرابطية التي نشرها حسين مؤنس، وهي "سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس" ، بالإضافة إلى "نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين". ورغم قيمتها التاريخية لدراسة التاريخ السياسي خاصة في الأندلس فإنها لم تتعرض لأمور تخص المرأة.

لكن استعنت كثيرا ببعض ما ألفه محمد بن تومرت من كتب ورسائل في الأصول والفقه والتوحيد والحديث والسياسة والجهاد. والتي عرفت "بأعز ما يطلب"، التي حققها د: عمار طالبي سنة 1986. تعرفت من خلالها على أفكار المهدي بن تومرت وأخذت منها جملة من الاتهامات والانتقادات

التي وجهها للمرابطين عامة وللمرأة خاصة مدعما أفكاره بجملة من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي استغلها لأغراض دعوية محضة.وهذا ما دفعني إلى مراجعة ما ورد من آيات قرآنية من المصحف الشريف ومراجعة كتب فقهية كصحيح البخاري، صحيح سنن أبي داود، وجامع الأحكام لابن القرطبي.

ومن المصادر التاريخية المهمة التي اعتمدت عليها كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين" للبيذق (أبو بكر الصنهاجي): تحقيق ليفي بروفنسال. ورغم أن حياة البيذق تبدو مجهولة إلا أنه إلتحق بابن تومرت في تونس إثر عودته من المشرق، ورافقه، وخدمه بإخلاص. فكان يحمل أمتعته ويقود بغلته. بيد أن لكتابه قيمة تاريخية إذ تميز بوصفه للأحداث التي عاشها بالدقة والتفصيل، فاستفدت منه في كثير من المواضع من هذا البحث. لاسيما في الدعوة الموحدية ضد نساء المرابطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مثل الإختلاط وإبداء الزينة والسفور. وهو الوحيد الذي وصف بطولة الفتاة المرابطية المقاتلة في زي الفارس دفاعا عن مدينة مراكش التي استولى عليها جند الموحدين. ويبدو أنه شهد هذه الواقعة. كما يلقي هذا الكتاب الضوء على تنظيمات ومراحل الصراع بين ابن تومرت والمرابطين.

وقد استفدت أيضا من حواشي هذا الكتاب الذي حققه عبد الحميد حاجيات. أما كتاب "المعجب في اختصار أخبار المغرب" لعبد الواحد المراكشي فيعد كتاب تاريخ وأدب. صنفه في عام 621هـ/1224م، في المشرق بعيدًا عن وطنه الأندلس ولقد كتبه معتمدًا على ذاكرته. ويعد "المعجب" من المصادر المهمة لأنه مفيد في كثير من النواحي السياسية رغم اختصاره للأخبار.

وقد اعتمدت على: طبعة الاستقامة بالقاهرة 1949. من تحقيق سعيد عريان ومحمد العلمي (كما اطلعت على طبعة القاهرة لعام 1960). يتناول الكتاب نشأة دولة المرابطين، وحركة محمد بن تومرت، وأحداث نهاية المرابطين إلى غاية عصره . لكن هذا الكتاب هو الوحيد الذي إنفرد بذكر استبداد النساء وفسادهن في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف قائلا : "واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كلّ امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقطاع سبيل وصاحب خمر وماخور..." بالإضافة إلى بعض الاستفادة منه في مواطن

أخرى. وكغيره من مؤلفي الدولة الموحدية رسم صورة سيئة لدولة المرابطين، وأشير أنه توقف في سرد الأحداث إلى غاية 621 هـ/1224م. وقد أتم المحققان "العلمي" و "عريان" أخبار نهاية الدولة الموحدية التي أراها تتشابه تماما بما وصفه المراكشي بنهاية دولة المرابطين. لكن للأسف أن هذا الوصف لم يأت من طرف المراكشي، ولا أجد غرابة في حكمه على المرابطين لأنه هو مؤرخ البلاط الموحدي. أما كتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب": لابن عذاري المراكشي (توفي في 695هـ/1295م) فيعد من أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذا البحث، يقع في أربعة أجزاء. لكني استفدت بالخصوص من الجزء الرابع المخصص لتاريخ المرابطين -تحقيق إحسان عباس- واستقيت منه معلومات قيمة فيما يخص مشاركة المرأة في الحياة السياسية ومساهمتها الأدبية، بالإضافة إلى أحداث سياسية أخرى استفدت منها في مواضع مختلفة من هذا البحث. أما الجزء الثالث تحقيق كولان وبروفنسال فقد أفادني بمعلومة قيّمة تخص "زايدة المسلمة زوج المؤمون بن عباد"، والتي اعتمد عليها ليفي بروفنسال في تبرئة ذمة المعتمد بن عباد من تهم الكتابات النصرانية له. أما القسم الخاص بالموحدين من "البيان المغرب" فقد أخذت منه أخبار الصراع المرابطي-الموحدي الذي شاركت فيه بعض النساء بمساهمتهن المادية أو القتالية. وللإشارة فقد شمل هذا القسم معلومات دقيقة عن آخر عهد المرابطين وتتبع حركة الموحدين في الأندلس بالإضافة إلى ذكر سيرة حكام الموحدين. ويكتسي هذا الكتاب أهمية بالغة لأن مؤلفه اعتمد كثيرًا على الروايات المعاصرة للأحداث.

بيد أن الجزء الرابع الخاص بالمرابطين أصابه خرم كبير في أحداث ما بين (469هـ-495هـ/1076م-1101م)، وقد حاول المحقق إحسان عباس استكمال هذا النقص عن طريق ملاحق في نهاية الكتاب للأحداث ما بين (479هـ-495هـ/1086م-1101م) واختص ابن عذاري بذكر أخبار زينب النفزاوية منذ زواجها بالأمير أبي بكر بن عمر إلى غاية سنة 469هـ /1076م. ومن المحتمل جدًا أن يكون قد ذكر بقية خبرها في الأوراق التي أتلفت. ولذا لجأت إلى البحث عنها في مؤلفات أخرى.

كما ضم كتاب "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" لابن أبي زرع (توفي حوالي 726هـ/1325م)، معلومات هامة عن الجوانب السياسية والاقتصادية

والاجتماعية للدولتين المرابطية والموحدية. وأورد أخبارا على بعض الأميرات المرابطيات وبعض الجواري -أمهات الأولاد- والأهم ما فيه أنه أورد الخبر عن زينب النفزاوية ودورها في تحويل الحكم من زوجها الأول إلى يوسف بن تاشفين في شكل حوار قصصي مطول. وهذا هو المعروف عن أسلوب هذا المؤلف في كتابه. لكن ما آخذه عليه الدارسون أن الأحداث التي أرخ لها سابقة لزمانها بحوالي ثمان سنوات بالمقارنة لما أرخ له ابن عذاري في البيان المغرب، ولذا اعتمدت في التأريخ لحوادث الدولة المرابطية على البيان المغرب.

أما كتاب "تاريخ الأندلس" لابن الكردبوس الذي عاش في القرن 6هـ/12م، فقد استفدت منه في معرفة القادة والولاة المرابطين الذين انتسبوا لأمهاتهم. ورغم ما حمله هذا الكاتب من كراهية للمرابطين إضافة إلى عدم موضوعيته فإنه ذكر جهادهم ضد النصارى. كما استعنت بحواشي الكتاب الذي حققه مختار العبادي.

أما كتاب "نظم الجمان" لابن القطان الكتامي (أبو علي الحسين) عاش في القرن (7هـ/13م) رغم أنه مذهبي الطابع لما أورده من أخبار محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي، إلا أنه خلال الصراع المرابطي-الموحدي ذكر أسماء بعض الأمراء والقادة الذين اقترنت أسماؤهم بأسماء أمهاتهم. فأفادني في معرفة بعض النساء ولو بالإشارة إلى أسماءهن، مما يؤكد إحدى عادات النظام الأمسي في المجتمع المرابطي. كما أني أخذت معلومات هامة من حواشي هذا الكتاب التي وضعها المحقق محمد علي مكي.

أما كتاب "الحلل الموشية في الأخبار المراكشية" لمؤلف مجهول عاش في القرن 6هـ/12م فقد استعنت به خاصة في الجانب السياسي للدولتين المرابطية والموحدية مما له من علاقة بالأحداث التي شاركت فيها المرأة، ولم يذكر أي امرأة مرابطية على الإطلاق. أما مؤلفات لسان الدين بن الخطيب (توفي في 776هـ/1374م) التي استعملت بعض ما جاء فيها في هذا البحث، هي :"كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام"، وبالأخص كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" يقع في أربع مجلدات من تحقيق عبد الله عنان. واعتمدت عليه في مختلف جوانب البحث. مثلا في المجلد

الأول ذكر النفوذ السياسي للجارية قمر، وبفضله استطعت تحديد سنة وفاة زينب النفزاوية بالتقريب الذي يخالف ما ذكره ابن أبي زرع في روض القرطاس. وأخذت عنه بعض مظاهر الحياة الاجتماعية للمرأة الأندلسية بالإضافة إلى مساهمتها في الحياة الأدبية والفنية. كما استعنت به في معرفة بعض الأحداث السياسية للمرابطين في الأندلس.

ومن أهم الكتب المغربية التي استعنت بها في هذا البحث، كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" للعلامة عبد الرحمن بن خلدون (المتوفي 808هـ/1405) الذي يحتوي على معلومات قيّمة، وما زاد في أهميته العلمية وصفه الدقيق للقبائل التي سكنت بلاد المغرب الإسلامي، وقد استفدت كثيرًا منه لاسيما فيما يخص قبائل صنهاجة وزناتة ومصمودة الذين شكلوا الوسط البيئي والاجتماعي الذي عاشت فيه المرأة على عهد المرابطين، اعتمدت على الكتاب لمعرفة الجذور التاريخية لقبائل صنهاجة وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية، والصراع الصنهاجي-المصمودي من أجل إمارة المغرب الإسلامي، فأورد الخبر عن مكانة الأم في الأسرة وفي المجتمع. هو الوحيد الذي ذكر أن زينب النفزاوية، كانت زوجة ليوسف بن علي بن عبد الرحمن بن واطاس قبل زواجها من لقوط بن يوسف المغراوي، مما يؤكد أن ذكر هاذين الشيخين يرجع لزواجهما من زينب النفزاوية.

وهذا الذي لم أجده عند المؤرخين الأندلسيين وعند ابن أبي زرع وابن عذاري. ومما زاد كتاب "العبر" أهمية في هذه الدراسة أنه أكد لي أن صنهاجة هم أجداد الطوارق الذين أثروا الصحراء على العمران، مما دفعني إلى المقارنة بين الطوارق الحاليين وصنهاجة القدامى في هذا البحث.

ومن الكتب المشرقية المهمة في هذا الموضوع "الكامل في التاريخ" لأبي الحسن بن الأثير (المتوفي:630هـ/1233م) وهي موسوعة علمية تحتوي على تاريخ المشرق والمغرب، يقع الكتاب في إحدى عشرة جزءا. وقد استفدت من الجزء الثامن الذي يذكر بعض نوادر زينب النفزاوية ضمن أحداث سنة 500هـ/1106م. وهذا الحدث لم أجد ذكره لدى المؤرخين المغاربة أو الأندلسيين. لكن يؤكد لي أن شهرة زينب النفزاوية زوجة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قد تعدت المغرب الإسلامي.

أما الجزء التاسع فاستفدت منه في الصراع المرابطي-الموحدي.

كتب الفقه:

اعتمدت على كتب النوازل والحسبة التي عاش أصحابها في العصر المرابطي ومن نصوصها يمكن تكوين رؤية أكثر تكاملا للواقع الاجتماعي لاسيما في الأندلس. وتكمن أهميتها في اشتمالها على معلومات عن مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. فقد إقترنت في معظم الأحيان بأحداث واقعية وقلّ منها ما هو نظري محض. لذلك كانت لي مصدرًا أساسيا في دراسة دور المرأة في الجانبي الاجتماعي والاقتصادي لاسيما بالنسبة للمرأة الأندلسية. وتأتي في مقدمة هذه المصادر: فتاوى أبي الوليد بن رشد (المتوفي 520هـ/1126م) التي حققها د:المختار بن الطاهر التليلي في ثلاثة أسفار. وقد حاولت قدر المستطاع انتقاء بعض الفتاوى لإبراز بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي ميّزت المرأة في الفترة المرابطية. كما استفدت من نوازل ابن الحاج: وهو أبو عبد الله محمد بن خلف بن الحاج الشهيد توفي في رمضان 529هـ/1134م. اعتمدت على نسخة لمخطوط بالخزانة العامة للوثائق بالرباط تحت رقم ج:55 ونظراً لأهميته الكبرى في هذه الدراسة حاولت اخذ بعض النصوص المتعلقة بإسهام المرأة في الجانب الاجتماعي والاقتصادي. وذلك رغم صعوبة فك طلاسمه.

كما استعنت بكتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب" لأحمد بن يحي الونشريسي (المتوفي عام 914هـ/1508م) وأشرف على إخراجه محمد حجي، يقع الكتاب في ثلاثة عشرة جزءا. ولقد انتقيت بعض النوازل من الجزء الثالث والرابع والخامس مما له علاقة بوضعية المرأة الأسرية ومساهمتها في الأنشطة الاقتصادية، ونظراً لأخذ الونشريسي على من سبقوه من القضاة أمثال: أبو الوليد بن رشد الذي عاصر المرابطين، فأوليت الأهمية لهذا الأخير.

كما استعنت بكتب الحسبة وهي "ثلاث رسائل في الحسبة" لابن عبدون التجيبي وابن عبد الرؤوف والجرسيفي. التي نشرها ليفي بورفنسال. والتي تعبر بصدق على جهود الفقهاء في الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاولتهم تجسيد نصوص المذهب المالكي لاسيما في المجتمع الأندلسي، فكانت لي بحق مرجعا عظيم الفائدة في دراسة الحياة الاجتماعية ومشاركة المرأة في الحياة العامة لاسيما وأن رسالة ابن عبدون في الحسبة ألفها في عام 500هـ/1106م.

أما كتاب الحسبة للسقطي (الذي عاش في القرن 6هـ/12م) فقد استفدت منه في معرفة بعض المستحضرات التي كانت تستعملها المرأة للحفاظ على صحتها أو جمالها والتي برع في استعمالها تجار الرقيق بالدرجة الأولى. واخترت بعض الوصفات من هذا الكتاب كنماذج لمعرفة ذوق المرأة الجمالي آنذاك.

كتب التراجم والطبقات:

لقد تناولت في معظمها مواضيع خاصة بالرجال باستثناء القلّة منها التي خصصت حيزًا ضيقا لذكر بعض النساء، أذكر من بينها: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس" لأحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة الضبي (المتوفي عام 599هـ/1203م) الذي خصص في آخر كتابه "باب النساء" ذكر خلاله ثلاث عشر امرأة برعن في الأدب. اخترت منهن من لها علاقة بالفترة المرابطية. كما استعنت بكتابي:"الحلّة السيراء" و "المقتصب من كتاب تحفة القادم" لابن الأبار القضاعي (المتوفي عام 635هـ/1238م) الذي ذكر بعض أديبات وشواعر الأندلس. بالإضافة إلى الاستفادة من كتاب "الصلة" لابن بشكوال (المتوفي عام 578هـ/1182م)، وكتاب "الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي (توفي في 703هـ/1309م) الذي يقع في ستة أجزاء. استفدت من الجزء الخامس والسادس إذ يذكر في عارض تراجم الرجال بعض النساء المتعلمات. أما كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" لكاتبه المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد) (المتوفي 1041هـ/1632م) فيعتبر موسوعة علمية هامة وأساسية في تاريخ المغرب والأندلس، ورغم أنه من المصادر العربية المتأخرة عن الفترة المرابطية، إلا أنني استفدت منه كثيرًا في دور المرأة في الحياة الفكرية والفنية التي ضمها الجزء الرابع من بين ثمانية أجزاء الكتاب. واخترت الأديبات والشاعرات اللائي برزن في العهد المرابطي أو من قاربن هذه الفترة. ويبدو أن المقرى لم يذكر كل أديبات الأندلس نظراً لما صرح به في نهاية "باب النساء" من الجزء الرابع لهذا الكتاب. قائلا: "ولنقتصر على هذا المقدار، ونعد على ما كنا فيه من جلب كلام بلغاء الأندلس ذوي الأقدار"، مثلما استفدت منه في مواضع أخرى من هذا البحث.

كما استعنت بكتاب "التشوف إلى رجال التصوف" ليوسف بن يحي بن الزيات التادلي (المتوفي عام 627هـ/1230م). لإضفاء الضوء على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية من خلال تراجم الزهاد

والمتصوفة أمثال الشيخ أبي يعزى الينور الذي عاش جزء من حياته في العهد المرابطي. ومن بين ما استفدت منه إحدى طرق علاج النساء المرضى. كما شمل الكتاب ذكر سيرة بعض النساء الزاهدات في الحياة واللائي انقطعن للعبادة وأعمال البر والخير.

<u>كتب الجغرافية والرحلات:</u>

كما اعتمدت في بحثي على بعض الكتب الجغرافية التي تتضمن أخبار تاريخية لها صلة بدور المرأة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وفي مقدمة هذه الكتب يأتي:"المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" للبكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز القرطبي) المتوفي في (487هـ/1094م). وترجع أهمية هذا الكتاب لكونه صنف في 460هـ/1067م. أي أن البكري عاصر دولة المرابطين في بداية قيامها، وقد استفدت منه خاصة فيما يتعلق بأخبار عبد الله بن ياسين في جهاده لقبائل بورغواطة، وبما وصف به من شذوذ في سلوكه. كما أفادني في الجانب الاجتماعي بذكر بعض العادات وطرائف النساء في بعض القبائل الصحراوية. لاسيما أن البكري دقيق فيما يكتب بحيث لا يأخذ بالخبر إلا إذا استوثق من صحته وهذا مما جعله مصدرًا أساسيا لكل دارس تاريخ المغرب والأندلس.

وكانت ليّ استفادة هامة من كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي (أبو عبيد الله المتوفي: 562هـ/1121م) وهو في مجلدين استعنت به فيما يخص مكانة المرأة في قبيلة صنهاجة ودور الأم تازكّاي العرجاء. مثلما استقيت منه معلومات قيّمة فيما يخص مشاركة المرأة في النشاط الاقتصادي، مثل نساء منطقة السوس وسجلماسة وقد وضح لي مدى حرس نساء هذه المناطق في الاسترزاق وبراعتهن في صناعة النسيج. ومن جانب آخر فهو ذو أهمية بالغة في معرفة عادات هاته المناطق من حيث لباس المرأة واحتجابها. فوصف نساء سوس بالجمال الفائق، ونساء سجلماسة بالسمنة. كما استعملت كتاب القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس الذي اقتبسه إسماعيل العربي من كتاب نزهة المشتاق. واستعنت في تحديد مواقع بعض المناطق المغربية والأندلسية ببعض الكتب الجغرافية التي وصفت المرأة من خلال نشاطها الاقتصادي أو معاملتها الاجتماعية. وأذكر منها كتاب "الاستبصار في عجائب الأمصار" لمؤلف مجهول عاش في القرن (6هـ/12م). حققه سعد زغلول.

و"معجم البلدان" ليقوت الحموي (627هـ/1228م) الذي يقع في سبعة أجزاء الذي يتحدث عن جغرافية العالم الإسلامي كله. وكتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار" للحميري (محمد بن عبد المنعم المتوفي عام 900هـ/1300م) وهو ذو أهمية كبيرة نظرًا لحجم المعلومات التي يحتويها سواء معلومات تاريخية أو جغرافية.

واطلعت على الرحلة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار" لابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (703هـ-779هـ/1303م-1377م). فقد زار ابن بطوطة منطقة الهقار أثناء رحلته عندما ترك (جاو "Gao") سنة 1305م متجها شمالا. وقد وصف الطوارق من عدّة جوانب وصفا دقيقا. وقد استعنت بكتابته في الجانب الاجتماعي لاسيما فيما يخص علاقة الرجال بالنساء وانتساب الأبناء لأهل الأم، ومؤكدا على مكانة المرأة عند الطوارق إذ يقول :"والمرأة في ذلك أعظم شأنا من الرجل". لكن تبدو بعض المبالغة في كتاباته بالمقارنة مع وضع المرأة في المجتمع الطوارق الحالي ورغم ذلك تبقى الأهمية العلمية لهذه الرحلة التي أخذ عنها الكثير من الدارسين العرب والأجانب.

وتطلبت منّي هذه الدراسة عن المرأة اللجوء إلى كتب الأدب ودواوين الشعراء المعاصرين للدولة المرابطية التي تكتسي أهمية بالغة. لأن الشاعر كما هو معلوم لسان حال الرعية التي يعيش بينها ومرآة لأحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ومن الشعراء الذين اعتمدت عليهم، هما: الأعمى التطيلي (المتوفي عام 525هـ/1130م) يحتوي ديوانه الذي حققه إحسان عباس على قصيدة ذات 49 بيتا يمدح فيها الأميرة حواء بنت تاشفين والتي استفدت منها كثيرًا في معرفة مكانة المرأة المرابطية في الأندلس، كما ضمن ديوانه قصيدة في رثاء زوجته وقصيدة أخرى في رثاء بعض النساء. أما ديوان ابن خفاجة المتوفي عام (533هـ/1138م). فقد ضم قصيدة طويلة كتبها للأميرة مريم بنت إبراهيم يتشفع بها إلى الأمير أبي طاهر تميم. ويشيد بأخلاق هذه الأميرة وبأعمال البر والخير التي تميزت بهما، فاستعانت بهاذين القصيدتين في دحض بعض الحجج التي استهدفت المرأة المرابطية بالسوء.

كما استعنت بكتاب "المغرب في حلى المغرب" لعلي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المتوفي في (685هـ/1286م). وهو في جزئين والذي صور أحوال الشعر الأندلسي في مختلف عصوره. وترجم لعدد كبير من الشعراء، وجدت فيه إشارات لبعض شواعر الأندلس مثل نزهون القلاعية وحفصة بنت الحاج الركونية.

ولا يفوتني ذكر كتاب "نزهة الجلساء في أشعار النساء" للسيوطي جلال الدين (المتوفي 911هـ/1505م) والذي اختص بذكر شواعر الأندلس في مختلف عهودها السياسية فاخترت منهن ما يتلاءم مع الفترة الزمنية لهذا البحث، بالإضافة إلى استفادتي من الموسوعة الأدبية:"نهاية الأرب في الفنون والأدب للنويري عاش في القرن 7هـ/12م" الذي خصص جزء منه لتاريخ المغرب والأندلس (حققه عبد الوهاب بن منصور).

هذا الكتاب الذي يروي بعض أخبار زينب النفزاوية ومعاقبتها القاضي ابن خلفون الذي فضل مدح حواء بنت تاشفين بالجمال دونها. والنويري هو الوحيد الذي ذكر هذه الحادثة. كما استفدت في مجال الفنون من كتاب: "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي (أبو العباس أحمد) المتوفي في (821هـ/1418م) الذي يقع في 13 جزء، فاستقيت معلومات قيمة عن فن الخط من الجزئين الثاني والثالث. هذا الفن الذي برعت فيه الكثير من الخططات في الأندلس اللائي كان لهن دورا عظيما في نشر العلم وتوسيع دائرة الثقافة في المغرب والأندلس، بواسطة التدوين والنسخ. ورغم أن هذا المؤلف يعد من أجمع الموسوعات الأدبية والتاريخية والاجتماعية للأمة العربية فإنه تميز بالاختصار الشديد في ذكر تاريخ المرابطين ولم يتطرق لدور نساء هذه الدولة.

أما الدراسات الحديثة: فقد أشارت في معظمها إلى دور المرأة المرابطية، لاسيما لنفوذها في الحكم بصفة مختصرة. أذكر منها: حسن أحمد محمود: في كتابه:"قيام دولة المرابطين"، وحسن علي حسن:"الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس" (عصر المرابطين والموحدين)، وعبد الله عنان:"عصر المرابطين والموحدين في المغرب المرابطين"، وعبد العزيز سالم:"تاريخ المغرب الكبير".

أما محمد الهادي شعيرة في كتابه:"المرابطون تاريخهم السياسي" فقد فاجأني باعتباره دور زينب النفزاوية في التوفيق بين أبي بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين ضربا من الخيال. وشبهه بالأسطورة اليونانية لأشيل وأندروماك. ورغم أهمية كتابه نظرا لما احتواه من معلومات قيّمة عن

التاريخ السياسي للمرابطين، إلا أنه أصدر حكما مجحفا في حق هذه السيّدة التي اعترفت لها كل المصادر التاريخية المغربية والمشرقية بالدور الذي قامت به في إرضاء الأمير أبي بكر بن عمر ورجوعه إلى الصحراء. وان هذا الحدث حقيقة تاريخية لاشك فيها.

أما المراجع التي استعنت بها فعلا في البحث فهي كتاب:"المغرب والأندلس في عصر المرابطين" الذي تعرض من خلاله إبراهيم القادري بوتشيش إلى الجانب الاجتماعي للدولة، وتتبع تكوين الأسرة ودور المرأة الأسرى ومكانتها الاجتماعية.

وقد أخذت منه بعض الأمثال الشعبية للزجال ابن قزمان لأنني لم أعثر عليها. ويكتسي هذا المرجع أهمية بالغة لأن صاحبه اعتمد في دراسته على مختلف المصادر التي عاصرت الفترة المرابطية مثل كتب المناقب والتصوف والنوازل الفقهية والنصوص الزجلية والأمثال الشعبية وكتب التراجم، ولذلك استفدت كثيرًا من جهوده، التي ذللت لي بعض الصعوبات. كما استفدت من دراسة عصمت دندش عبد اللطيف من خلال كتابيها "الأندلس في نهاية المرابطين وبداية الموحدين" و "أضواء جديدة على دولة المرابطين"وفي هذا الأخير خصصت فصلا لإبراز دور ثلاث نساء من البلاط المرابطي. وهي المحاضرة التي ألقتها عصمت دندش في الملتقى الإسباني المغربي الثاني للعلوم التاريخية عام 1989م ونشرت في مجلة "Agencia Española de Cooperacion Internacional" بمدريد عام 1992 تحمل عنوان:"أدوار سياسية للنساء في دولة المرابطين". وتعترف في بداية المقال بأن ندرة المعلومات حول الموضوع اضطرتها إلى دراسة ثلاث نساء فقط من البلاط المرابطي.

كما اطلعت على بعض الدراسات الحديثة والمحلية لبلاد شنقيط والمجتمع الطوارقي لربط التاريخ القديم بالحديث، وللبحث عن بعض الحقائق التاريخية ضمن العادات والتقاليد الموروثة عن الأجداد. أذكر منها ما كتبه "المختار بن حامد" في موسوعته التاريخية "تاريخ موريتانيا" في جزئين، الجزء الأول خاص بالجانب السياسي، أما الجزء الثاني خصصه للجانب الثقافي. تطرق من خلاله إلى وضع المجتمع الشنقيطي وإلى عدد كبير من قبائله مبرزًا دور شيوخها في الحياة الفكرية والثقافية، وتناول في ثناياه المرأة الموريتانية ودورها في المجتمع. وقد استفدت منه في عدّة مواضع من البحث.

ونظرًا لأهميته في دراسة تاريخ موريتانيا الحديث، فقد اعتمد عليه بعض الدارسين الأجانب أمثال: Attilio Gaudio : « Dossier de la Mauritanie ». كما استفدت من دراسة "محمد السويدي" التي هي عبارة عن دراسة سوسيو-انتروبولوجية لمجتمع الطوارق. وذلك من خلال كتابه:
"بدو الطوارق بين الثبات والتغير" والذي حاول من خلاله ابراز دور الأسرة في المجتمع ومكانة المرأة وذلك بتفنيد بعض الأخبار التي أوردها بعض الرحالة العرب على المرأة الصحراوية فيما يخص علاقتها الاجتماعية. وأصبحت هذه النصوص التاريخية مصدرًا للدراسات الأجنبية الحديثة. كما عالج من خلاله النظام الأمسي لدى الطوارق. أما الدراسة الأجنبية التي أخصها بالذكر هي التي قام بها الرحالة الفرنسي:ديفيريه وسجلها في كتابه:"طوارق الشمال". Henri Duveyrier : Les Touaregs du Nord.

فرغم الدراسة القيّمة والمعلومات التي استفدت منها على مختلف جوانب حياة قبائل الطوارق، إلا أنه يبدو متحيزًا لمسيحيته ومجحفا في أحكامه في حق الحرية والمكانة التي تتميز بها المرأة عند الطوارق، إذ يرجع أسباب ذلك لتأثرها بتعاليم الدين المسيحي الذي منح المرأة المسيحية الحرية والكرامة في المجْتمع الأوروبي. وفي الحقيقة ما لم يتفق عليه غيره من الكتاب، وهو بعيد عن الواقع التاريخي. لأن الحرية التي حظيت بها المرأة الطوارقية ترجع جذورها لعهد المرابطين الذين طبقوا شرائع الدين الإسلامي في إكرام المرأة، إضافة إلى حفاظهم على عادات قبلية تمجد الأمومة وذلك بشهادة العلامة عبد الرحمان بن خلدون. بيد أن المرأة المسيحية كانت حبيسة ظلمات وقيود سلطة الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى. ولم تنل حريتها إلا في مطلع القرن العشرين الميلادي.

أما فيما يخص النقوش المحفوظة إلى حد الآن فقد عثرت عليها في كتاب: ليفي بروفنسال Lévi Provençal : « Inscriptions Arabes d'Espagne »، وتتمثل في شواهد قبور بعض النساء، منها شاهدة قبر الأميرة بدر بنت أبي الحسن بن تاعيشت، وهي ما تزال محفوظة في متحف الآثار بمالقة. وهو ما أورده "أنتونيو فرنانديز بويرتاس" Antonio Fernandez Puertas، وهو -أستاذ كرسي الفن الإسلامي في جامعة غرناطة ومدير المتحف الوطني للفن الإسلامي الإسباني في

الحمراء- في مقال بعنوان:"فن الخط العربي في الأندلس". ضمن كتاب مركز دراسات الوحدة العربية.

وأشير في الأخير أني استعنت أيضا ببعض المجلات والمعاجم مثل مجلة هيسبريس Hespéris. ومعجم "أعلام نساء المغرب الأقصى" لابن عبد الله بن عبد العزيز، ومعجم "النساء" لرضا كحالة، ومعجم "البلدان" ليقوت الحموي لتحديد المواقع الجغرافية. بالإضافة إلى استعمالي لكتاب "جدول السنين الهجرية وما يوافقها من السنين الميلادية" لأنطوان بشارة قيقانو .وذلك في تحويل وضبط التواريخ التي أرخت لأحداث هذا الموضوع.

هذه قراءة في أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذا البحث العلمي المتواضع والمجهد لكنه جمع بين الطرافة والتشويق في نفس الوقت.

وقبل أن أطوي صفحة المقدمة علي أن أحمد الإله الرحمن الذي أعانني ووفقني لإتمام هذا البحث. وأتوجه بأيات الشكر والتقدير والإمتنان والعرفان لكل من ساعدني قولا وفعلا وشجعني على إتمام هذا البحث، يأتي في مقدمتهم أفراد أسرتي لاسيما أخي "علي" الذي كان لي أبا حانيا وخير معين في إنجاز هذا البحث ، فجزاه الله عني الجزاء الأوفى . كما أخص بالذكر قسم التاريخ إدارة وأساتذة، لاسيما أستاذنا الوقور الدكتور: موسى لقبال الذي أكن له كل التقدير والعرفان. والدكتور مختار حسني: الذي حفزني على اختيار هذا الموضوع، مرشدا وموجها لي ومشجعا فكان لي أبا حانيا وخير معين.

والدكتورة بوبة مجاني: التي أفادتني بنصائحها وبمساعدتها، والأستاذ: محمد لمين بلغيث على ما قدمه لي (من قرّة أعين) في سبيل العلم والمرابطة عليه. حفظه الله بالعلم وللعلم الذي ينشده. ولا أنسى الأستاذ عيسى بن ديب الذي أمدني بمفتاح هذا البحث وذلل لي الصعاب. وأخص بالشكر الأستاذ محمد لخضري بجامعة الرباط على كرمه وأخوته ومساعدته.

كما لا يفوتني في هذا المقام أن أنوّه بأخوة نشأت في سبيل العلم ولوجه الله وحده، شددّت بها أزري، وتيّسر بفضلها عسري، أخوة تكنها قلوب كل من أخواتي: الأستاذة جميلة بن موسى، والأستاذة صفية ديب. الأولى سافرت إلى فرنسا والثانية سافرت إلى المغرب الأقصى. فسهلتا علي بعض ما استعصى في هذه الدراسة. وأشيد كذلك بمساعدة رفيقتي في درب البحث العلمي حسنية، ونعيمة، وأخص بالشكر: فواز، فاطمة، نجاة، مريم وياسمينة.

كما اتوجه بالشكر الخاص إلى إدارة المجلس الإسلامي الأعلى لما تقدمه من خدمة نبيلة في سبيل البحث العلمي، وأذكر بالأخص السيدة الموقرة: "فاطمة الزهراء" بوعياد مديرة المكتبة وجميع الموظفين على معاملتهم اللطيفة للباحثين.

ولا يفوتني الشكر والتقدير وفائق الاحترام للسيد المستشار الأول في سفارة موريتانيا بالجزائر "حسني ولد الفقيه" على استقباله الأخوي وعلى مساعدته الثمينة في إنجازي لهذا البحث. وكذلك أعضاء المركز الوطني لتعميم التعليم إدارة وأساتذة، فجزاهم الله تعالى عنى أحسن الجزاء.

وأوجه شكر خاص لرئيس وأعضاء لجنة التحكيم على ما تجشموه من صعاب وما صرفوه من وقت ثمين في قراءة هذا العمل.

والحمد لله، خلق ورزق وعلّم وألهم وهدى للتي هي أقوم وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

مدخـــل تاريـــخي

I أصل المرابطين وظهورهم على مسرح الأحداث

II الدولة المرابطية

أ. مرحلة الدعوة
ب. مرحلة التأسيس والقوة
ت. مرحلة التراجع والانهيار

I- أصل المرابطين وظهورهم على مسرح الأحداث

قبل البدء في موضوع أصل المرابطين يستحسن أن أستشهد بقول الله عزّ وجلّ، بعد **بسم الله الرحمن الرحيم:"يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم."**(1)ذلك لتوافق هذه الآية الكريمة مع الموضوع، وإن المجتمع المغاربي يتشكل من عدّة قبائل. بحيث يتكون السكان البربر في المغرب الإسلامي من قسمين عظيمين هما البتر والبرانس، وأهم قبائل البتر: زنانة، لواتة مطغرة، مديونة...أما البرانس فأهم قبائلها هي صنهاجة، أوربة، مصمودة، وكتامة.(2)

أما عن أصل المرابطين فقد أجمع أغلب المؤرخين على أن أصلهم عربي من حمير. وأن مجموعة من هذه القبائل خرجت من اليمن في تاريخ غير مضبوط واتجهت نحو إفريقية منتشرة من غدامس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن جبال درن شمالا إلى تخوم السودان جنوبا(3)ولقد تهيأ للقبائل الصنهاجية بحكم سعة انتشارها أن تنوع حياتها الاجتماعية. فقد كانت بعض القبائل تحيا الاستقرار في إفريقية والجزء الشرقي من المغرب الأدنى، وبعضها الآخر قبائل جبلية تتركز في الأطلس المتوسط وساحل المحيط الأطلسي، وهي تنتقل عادة نقلة الشتاء والصيف طلبا للمرعى.

وكانت البطون الأخرى تحيا حياة بدوية عريقة في الصحراء الكبرى، حتى نهر السنغال ونهر النيجر(4)، وهم لا يعرفون حرثا ولا زرعا وخبزا إنما أموالهم الأنعام(5)وكانت هذه القبائل الصنهاجية وفيرة

---

[1] سورة الحجرات : الآية 13.

[2] البكري (أبو عبد الله): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، أدريان، ميزوناف، باريس1965ص192.ابن خلدون (عبد الرحمن): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج12 موفم للنشر، الجزائر 1995، ص231 و283-284. وأنظر حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ط2، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1416هـ-1996م، ص ص36، 37. أنظر: ملحق رقم 1.

[3] ابن الأثير(عز الدين): الكامل في التاريخ مراجعة: محمد يوسف الدقاق، المجلد8، ط3، دار الكتاب العلمية، بيروت، 1418هـ/ 1998م، ص 327، 328. مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، بيروت، 1979، ص19. وانظر في ذلك: المختار بن حامد: موسوعة حياة موريتانيا ج1: التاريخ السياسي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 10 و20.

[4] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس أوبسالا، 1846 ص 3713

ART «Murabitum » : in Encyclopédie de L'Islam T.VII, Leinden, New York Maisonneuve, Paris, 1993, P 584.Henri Lhote : Le Hoggar espace et temps, Armand Colin, Paris 1984, P175. حسن أحمد محمود: نفس المرجع، ص42.

[5] **ابن أبي زرع: نفس المصدر، ص** 73. ابن خلدون: العبر، ج12، ص34. وانظر المختار بن حامد: نفس المرجع، ص21.

العدد. قيل أنها تجاوزت السبعين عددا وعرفوا الديانة المجوسية وعبادة الأوثان، أما الإسلام فقد انتشر في ربوعهم مع مطلع الفتوحات الإسلامية.

ورغم تفرق شعب صنهاجة على هذه الصورة، ظلت رابطة الدم والثقافة المشتركة تؤلف بين أشتاته. وقد تمكنت بفضل ما نالته من حضارة، وهذا التنوع في الحياة الإجتماعية، وهذه الرابطة الأسرية الوثيقة من أن تسطر لنفسها تاريخا مجيدا في المغرب الإسلامي.(1)فأسست صنهاجة الجيل الأول دولة بني زيري من المغرب الأدنى وجزء المغرب الأوسط. وأسست صنهاجة الجيل الثاني دولة المرابطين بالمغرب الأقصى. أما الجيل الثالث فأسس دولة بني عانية في جزر البليار.(2)

وموضوع الدراسة في هذا الفصل، يتعلق بصنهاجة الجيل الثاني، الذي عرف في التاريخ بالملثمين. والملثمون يؤلفون مجموعة متعددة من القبائل التي تكونت منها دولة المرابطين، ولقد أرغمت الظروف(3) قبائلها، جدالة ومسوفة ولمتونة على التحالف فيما بينها لاستعادة دورهم التجاري في المنطقة. وكانت لمتونة تتولى رئاسة قبائل الملثمين، والرياسة فيها لبني ورتنطق ومنهم يوسف بن تاشفين(4) إلا أن هذه القبائل تميزت بالتنافس على الزعامة باستمرار.(5)

وفي أوائل القرن (5هـ/11م) آلت رئاسة قبائل صنهاجة إلى الأمير أبي عبد الله محمد بن تيفلوت اللمطي، وكان من أهل الفضل والدين والجهاد. ولما استشهد في حربه مع أهل السودان

[1] ومن هذه القبائل البربرية: مسوفة، ومسراتة ومداسة، كدالة وتريكة، ولمطة، هسكورة، ولمتونة. انظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ص 371. عنان عبد الله: دول الطوائف، ط1 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، 130هـ/1960م، ص 289. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 42. وانظر: حركات ابراهيم: المغرب عبر التاريخ: ج1، ط2، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة 1984 ص154.

[2] ابن خلدون: نفس المصدر، ص311، 425. حسن أحمد محمود:نفسه، ص42. حركات ابراهيم:المغرب عبر التاريخ ج1، ص154. حسن مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، مج2 ط1 العصر الحديث، بيروت، 1412-1992م، ص59.

[3] كانت مملكة غانة في بداية القرن 5هـ/11م قوية، وحربها مع الملثمين كانت صراعا اقتصاديا وتجاريا، فقد كان أهم طريق تجاري من الصحراء وجنوبها يمر بسجلماسة إلى أودغشت-كانت مركزا تجاريا هاما بقرب نهر النيجر- فكان السودان يدفع التبر والصوف والإبل بينما كان الشمال يدفع القمح والقطاني، وكانت القوافل تمر بديار الملثمين الذين سيطروا على تجارة الملح أيضا. فرغب الملثمون في الاستيلاء على أودغشت سنة 432هـ/1040م إلا أنهم انهزموا أمام الغانيين. انظر البكري: المصدر السابق، ص 172 173. وانظر حركات إبراهيم: النظام السياسي والحربي عند المرابطين، منشورات الوحدة العربية، الدار البيضاء، المغرب ص 42، 43.

[4] مجهول: كتاب مفاخر البربر. تحقيق محمد يعلى. المجلس الأعلى للأبحاث العلمية. الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي، مدريد، 1996، ص192.

[5] ابن خلدون: نفس المصدر، ص 373. عنان: دولة الطوائف، ص 289.
ATTILIO- Gaudio : Le dossier de la Mauritanie, nouvelles éditions Latines, Paris, 1978, P 19.
محمد الهادي شعيرة: المرابطون: تاريخهم السياسي ط1 دار الاتحاد العربي، القاهرة 1969 ص 29. عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ج2، دار النهضة العربية، بيروت، 1991 ص 691.

الوثنيين، ولي من بعده صهره الأمير يحيى ابن ابراهيم الجدالي، فانتقلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة التي كانت أقرب ديار السودان [1] ولكن يرجع الفضل في إسلام السودان للمتونة في القرن (3هـ/9م). [2] إن الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي كان متعطشا إلى علوم الدين، ففي (427هـ/ 1035م) قام برحلة إلى المشرق طالبا للعلم وأداء فريضة الحج، وإثر عودته نزل بالقيروان [3] فأتيحت له فرصة اللقاء بالفقيه المالكي أبو عمران الفاسي، وتأثر بوعظه وعلمه، فطلب منه أن يختار له فقيها من تلامذته، يصحبه إلى بلده ليتولى تعليم قومه وتثقيفهم بتعاليم الإسلام الصحيحة، لكنهم أبوا الذهاب معه نظرا لبعد بلادهم عن مواطن لمتونة [4]

فكتب الفقيه أبو عمران الفاسي إلى أحد طلبته في سجلماسة وهو الفقيه محمد بن وحاج بن زلو اللمطي، وما أن تلقى هذا الأخير رسالة أستاذه وحاج بن زللو حتى انتدب ليحي بن إبراهيم طالبا صنهاجي الأصل يدعى عبد الله بن ياسين الجزولي، [5] ولم يتردد عبد الله بن ياسين في قبول هذه المهمة التي رأى فيها لونا من الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الإسلام [6]

II- الدولة المرابطية

أ- مرحلة الدعوة

لما وصل عبد الله بن ياسين إلى قبيلة جداله أعجب به شيوخها واحتفلوا بقدومه، وأقبلوا عليه للسماع والتحصيل. وشرع عبد الله بن ياسين في تثقيفهم وإرشادهم إلى الأصول الصحيحة للدين والفقه، وعمد إلى تقويم أخلاقهم وتطبيق حدود الشريعة الإسلامية، بتغيير المنكر ومقاومة شهوات النفس، فانقادوا إليه انقيادا عظيما [7] لكن لما توفي الأمير يحيى بن إبراهيم الجبالي تولى الناس عن عبد

---

[1] البكري: المصدر السابق ص، 164. مجهول : مفاخر البربر. ص،192. عنان: دول الطوائف، ص 290. عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 691.

[2] ابن خلدون: المصدر السابق، ص 371. حركات ابراهيم: النظام السياسي والحربي، ص 9.

[3] البكري: نفس المصدر، ص 165. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية: ص 19-20. وانظر :مجهول: مفاخر البربر، ص 192. عنان: نفس المرجع، ص 290.

[4] البكري: نفس المصدر، ص165. ابن خلدون: نفس المصدر. ص 380. ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 74.
Lagardère-Vincent : Les Almoravides, L'Harmattan-Paris-1989 P-45,46

[5] البكري: نفسه، ص 165. مجهول: مفاخر البربر، ص 192. مجهول: الحلل الموشية ص 20 و19. الناصري: أبو العباس أحمد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2 تحقيق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء1984، ص66.

[6] مفاخر البربر: نفسه. عنان: نفس المرجع، ص 291. وانظر مقال: النانى ولد الحسين:"موريتانيا من عهد غانا إلى المرابطين ضمن تاريخ موريتانيا" (فصول ومعالجات)، نواكشوط 1999، ص25.

[7] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج8، ص328. وانظر : الحلل الموشية، ص 20. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص 102. عنان: دول الطوائف، ص 291.

الله بن ياسين نظرا لتذمرهم من تعاليمه. ولم يتمكن خلفه الأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين- من رؤساء لمتونة- أن يمنع قبيلته من التراجع عن عبد الله بن ياسين، والانقياد إلى فقيه منهم يعرف "بالجوهر بن سكم"، لذلك اضطر ابن ياسين إلى الخروج من ديار لمتونة.(1)

قصد عبد الله بن ياسين بلاد السودان املا أن يؤدي رسالته بين أهل هذا البلد ورافقه أبو بكر بن عمر وقلّة من أصحابه. فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بها الماء من جهاتها، فدخلوا في غياضها منفردين للعبادة.(2) ويرجح أن هذه الجزيرة تقع على نهر السنغال الأدنى، حسب ما ذهب إليه حسن أحمد محمود (3) في دراسة لموقع هذه الجزيرة التي اختلف في تحديد مكانها بالضبط. وفي هذه المنطقة أسس عبد الله بن ياسين رباط للعبادة ودعوة الحق، لكن ما لبث أن اشتهر أمره(4) وكثر أتباعه.

والرباط من المـرابطة، أي ملازمة الثغـور للجهاد حيث تربط خيل المجاهدين(5) مصداقا لقول الله تعالى:"**واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدّو والله وعدوكم**".(6)

فالرباط في الأصل هو المكان الذي تجتمع فيه الخيل استعدادا لمقاتلة العدو، وترتبط الكلمة بواجبات الجهاد، وحينئذ يقصد بالرباط الخيل إزاء العدو في الثغور.(7) ومنها جاء تصريف مرابط أي ملازم لثغر العدو أخذا من قول الله تعالى:"**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**".(8) والرباط هو بناء يجتمع فيه من تفرغ للعبادة من الزهاد والصالحين استعدادًا للجهاد في سبيل الله ضد أعداء الدين، فهو بناء يجمع بين الصفتين الدينية والحربية ويسمى من يسكنه مرابطا.(9) وضم رباط عبد الله بن ياسين حوالي ألف رجل أخلصوا له وأطاعوه. فعرفوا بالمرابطين

---

[1] البكري: المصدر السابق، ص 165. الحلل الموشية: ص20. ابن خلدون: العبر، ج12، ص 380. الناصري: الاستقصا: ج2، ص8.

[2] ابن خلدون: نفسه، ص380. عن حياة عبد الله بن ياسين في ديار لمتونة. انظر: حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص ص 106-109. وانظر: Lagardère : Op.Cit, P 47, 48, 50

[3] قيام دولة المرابطين: ص 112-113.

[4] البكري: نفس المصدر، ص 164. وانظر: ابن خلدون: العبر، ج1، ص 384. حسن أحمد محمود: نفس المرجع، ص 111.

[5] حسن أحمد محمود: نفس المرجع، ص 112-113. وانظر عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ط1، دار المعارف، مصر 1947، ص 201.

ART :«Ribat », in Encyclopédie de L'Islam, Leinden, New-York T.VIII, 1995, P 510.

[6] سورة الأنفال الأية : 60. عنان: دول الطوائف، ص 292.

[7] **حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين**، ص 111-112.

[8] سورة آل عمران: الآية 200.

[9] عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج 2، ص 294.

نسبة إلى هذا الرباط الذي تلقوا فيه تكوينهم الروحي والحربي.(1)وقيل أنهم سموا بالمرابطين لشدة صبرهم وحسن بلائهم على المشركين.(2)

كما عرفوا باللمتونيين نسبة إلى قبيلة لمتونة التي الت إليها الرئاسة. وعرف المرابطون بالملثمين نسبة إلى اللثام الذي يضعونه على وجوههم. وقد اختلفت الروايات (3) حول هذا اللثام وأسباب اتخاذه عادة من طرف الملثمين، فقيل كانوا يتلثمون من الحر والبرد كما يفعل العرب، أو أنهم كانوا يتخذون في أعراسهم نوعا خاصا من الحجاب، أو لأنه حدث مرّة في بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات حتى يحسبن رجالا.وكانوا يتلثمون وهم أطفال ولا يعرف الرجل منهم إلا إذا إنتقب(4)

ومما قيل في اللثام:

قوم لهم درك العلا من حمير وإن انتموا صنهاجة فهم هم

لما حووا إحراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا(5)

وعندما بلغ عدد المرابطين ألفا، قال لهم عبد الله بن ياسين:"إن ألفا من تعلب من قلّة وقد تعيّن علي القيام بالحق والدعاء إليه، وحمل الكافة عليه، فاخرجوا بنا بذلك"(6)وهكذا يتغير أسلوب الدعوة المرابطية من الاعتماد على الحجة والإقناع إلى استعمال القوة والعنف، وبهذه الوسيلة تمكن عبد الله بن ياسين من استئصال شأفة كل المخالفين عليه من لمتونة ومسوفة وجدالة وسائر القبائل الصنهاجية(7)

---

[1] ابن خلدون: العبر ج12، ص 380. سالم عبد العزيز : المرجع السابق، ص 295.

[2] الحلل الموشية: ص 21. عن مسألة الرباط وتسمية المرابطين أنظر : الناني ولد الحسين: المرجع السابق، ص 26، 27.

[3] ابن الأثير: المصدر السابق، ص 330. البكري: المصدر السابق، ص 170. وانظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 178. والحلل الموشية: ص 17. وانظر: ابن عذاري: البيان، ج4، ص 123 و128.

[4] ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، مج 7 دار صادر، بيروت، 1994 ص 130.

[5] ما تزال ظاهرة اللثام إلى حد الأن عند قبائل الطوارق: انظر Encyclopédie de l'islam T.VII P 84. ويبدو أن الصلة كبيرة بينهما. فلفظ الطوارق تحويل " لتوارغ" الذي هو جمع لـ " ترغة " إحدى قبائل الملثمين، ولا يزالون يشغلون نفس البقاع التى كان يشغلها الملثمون، مع العلم ان السلطة قد انتقلت إلى قبيلة ترغة بعد سقوط دولة المرابطين" أنظر حركات ابراهيم: النظام السياسي والحربى فى عهد المرابطين، ص 8و 9. " ولهؤلاء الطوارق عوائد خصوصية منها تلثم رجالهم وأهمية المرأة فى وسطهم الاجتماعي، وهى تمتاز بالفطنة والذكاء". وأنظر: جان وجيروم طارو: أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة أحمد بلفريج ومحمد الفاسي، الرباط 1409هـ/1988م، ج، ص 28. ولا يزال اللثام مستعملا حتى اليوم في قبائل التوارغ (الطوارق) لكنه يستعمل بشكل محدود في سوريتانيا، انظر المختار بن حامد: موسوعة حياة سوريتانيا ج1، التاريخ السياسي، ص21.

[6] البكري: المصدر السابق، ص 167. مفاخر البربر:ص 192. ابن خلدون: العبر، ج12، ص 375. عبد العزيز سالم: نفس المرجع، ص 297. الناصري: المصدر السابق، ج2، ص 9.

[7] ابن أبي زرع: نفسه، ص78. عنان: دول الطوائف، ص293.

كما تمكنوا في سنة (446هـ/1054م) من الاستيلاء على أودغشت مفتاح طرق تجارة القوافل، وإخضاع أهم ممالك السودان(1).

وبعد توفر الشروط المادية والدينية مضافة إلى شرط العصبية الذي هو أساسي في تأسيس الدول(2) بدأت أنظار المرابطين تتجه نحو المغرب الأقصى لإقامة دولة كبرى.

ب- مرحلة التأسيس والقوة.

كان المغرب الأقصى في هذه الفترة يعيش فوضى سياسية نظرا للصراعات الدائمة بين أمراء دويلاته، إضافة إلى المجاعات والأوبئة وكثرة الضرائب التي فرضت على سكانه، والضلال الذي تفشى نتيجة عقائد فاسدة للرافضة الجبلية والبرغواطيين(3) ولإذا كان لزاما على المرابطين توجيه أنظارهم نحو المغرب الأقصى، ففي عام (446هـ/1054م) خرج المرابطون في إعداد من الصحراء نحو درعة فاصطدموا بجيش مسعود بن وانودين أمير مغراوة وصاحب سجلماسة(4) وبعد مقتل هذا الأخير بادر المرابطون بإصلاح أحوال المدينة وتغيير المنكرات وامتدت فتوحاتهم حتى وادي تنسيفت من بلاد رجراجة(5).

وفي سنة (448هـ-1056م) استشهد الأمير يحيى بن عمر وهو يقاتل قبائل برغواطة (6) في السهل الساحلي، بعد أن أمضى واحد وعشرين عاما في تأسيس حركة المرابطين وإقامة دعائم دولتهم الكبيرة. فخلفه أخوه أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي كانت أمه من إحدى الأسر الشريفة من كدالة(7)

---

[1] البكري: المصدر السابق، ص 168. وانظر: الناني ولد الحسين: المرجع السابق، ص 24، 25. شعيرة محمد الهادي: المرابطون: تاريخهم السياسي، ص 49. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 132.

[2] ابن خلدون: المقدمة، تحقيق درويش الجويدي، ط2، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، 1996، ص 135-136.

[3] شعيرة محمد الهادي: نفس المرجع، ص 64. انظر حسن أحمد محمود: نفس المرجع، ص 164-165.

[4] سجلماسة: مدينة جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين درعة أربعة أيام. أهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالا، وشغلت أدورا هامة سياسية وتجارية اندثرت الآن ويحدد موقعها في إقليم تافيلالت. أنظر البكري: نفس المصدر، ص78-79. ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد 3، ط 2، دار صادر، بيروت، 1995، ص192.

[5] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص78، 79. حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ج2، ط1، العصر الحديث، بيروت، 1412هـ/ 1992م ص 17.

[6] كانت بتارودنت فرقة من الشيعة الرافضة تعرف بالبجلية نسبة لمؤسسها علي بن عبد الله البجلي منذ أيام عبد الله الشيعي (أواخر 3هـ/9 م) يتضمن هذا المذهب الكثير من التعاليم المثيرة فجاهدهم المرابطون حتى رجعوا إلى تطبيق السنة. أنظر: عنان: دول الطوائف، ص 294.

[7] ابن خلدون: المصدر السابق، ج12 ص381. ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 14.

وقد تكون هذه المصاهرة عاملا ساعد على وضع حد للفتن في الصحراء.(1)بينما أسندت قيادة الجيش لابن عمه يوسف بن تاشفين، فتعاون الأمير والقائد معا على توطيد أركان الدولة وتطبيق أركان الشريعة الإسلامية.(2)

ودخل المرابطون أغمات وما يليها في (449هـ/1057م)، ففر أميرها لقوط بن يوسف المغراوي إلى تادلا(3) ثم اجتاحت جيوشهم بلاد المصامدة بجبال درن وغزوا تادلا واشتبكوا مع بني يفرن. وقتل في هذه المعركة لقوط بن يوسف صاحب أغمات(4) ثم اتخذت أغمات عاصمة أولى للمرابطين بالمغرب. وما لبث عبد الله بن ياسين أن دعا المربطين إلى جهاد برغواطة(5)الذين كانوا بتامسنا وإنفا وجهات الريف الغربي. واستشهد عبد الله بن ياسين في إحدى معاركها عام (451هـ/1059م) بعد أن ترك وصية للمرابطين في مواصلة الجهاد وحثهم على الألفة على الحق والأخوة في الله وعدم التحاسد على الدنيا..(6)وخلف عبد الله بن ياسين في الزعامة الروحية الفقيه سليمان بن عدّو إلا أنه توفي بعد سنة(7) فخلفه أخوه أبو القاسم أبو بكر بن الحسن المرادي

[1] الناني ولد الحسين: المرجع السابق، ص33. وانظر: إبراهيم حركات: النظام السياسي والحربي عند المرابطين، ص47. نجيب زبيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج2، ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1415هـ/1995م ص 235.

[2] مفاخر البربر: ص 192. وانظر :إبراهيم حركات: نفسه.

[3] إبراهيم حركات: نفسه.

[4] البكري: المصدر السابق، ص 168. وانظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ج12، ص 381.

[5] هي قبائل تدين بمذهب مخالف لتعاليم الإسلام وأحكامه، يرجع هذا المذهب إلى القرن 2هـ/8م عندما وفد رجل يهودي الأصل يدعى: صالح بن طريف البرناطي، نسبة إلى برناط وهو حصن بأعمال شذوذه بالأندلس، استوطن بمنطقة تامسنا، وادعى النبوة، قاومته كل حكام المغرب من قبل إلى غاية ظهور المرابطين في بداية ق 5هـ/11م. وكان أميرهم يومئذ أبو حفص بن عبد الله بن أبي غفير بن محمد بن معاذ، جاهدهم عبد الله بن ياسين حتى استشهد ثم خلفه أبو بكر بن عمر، حتى أذعنت له هذه القبائل بالطاعة وأسلموا من جديد أنظر: ابن أبي زرع : المصدر السابق، ص81.

[6] حركات إبراهيم: نفسه، ص 51 و52.

[7] ابن خلدون: نفس المصدر، ص382. وانظر: عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج2، ص698.

الحضرمي.(1) وإنما توارثت سلطته فقهاء المالكية الذين واصلوا تعاليم ابن ياسين، فكانوا يوجهون الأمراء ويحركونهم، خاصة في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف.(2)

وبعد أن استقرت الأوضاع لأبي بكر بن عمر (463هـ/1070م) بإغمات تزوج بزينب النفزاوية التي عرفت بالجمال والذكاء وامتلاكها المال. "لكن لم تمض إلا شهورا قلائل حتى بلغته أخبار الخلاف الذي قام بين جدالة ولمتونة في بلاد الصحراء، حيث أصل أعياصهم ووشايج أغراقهم ومنبع عددهم".(3) فخشي الأمير أبو بكر افتراق الكلمة وانقطاع الصلة، فقرر السفر ولم يكن قد أتم فتح المغرب بعد(4) في حين يظهر خطر زحف بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة على فاس.(5) لكن قبل سفره طلق زوجته زينب النفزاوية، واستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين على قيادة الجيش المرابطي في المغرب ونصحه بالزواج من طليقته، كما سنرى ذلك في الفصل الأول من هذا البحث.

عمل يوسف بن تاشفين على استكمال فتح المغرب، فبدأ نجمه يعلو وشخصيته تبرز بما حققه من انتصارات، منذ سنة (463هـ/1070م)، حيث تبدأ نقطة التحول في تاريخ النظام السياسي للمرابطين.(6) وبعد حسم الخلاف في الصحراء يعود أبو بكر بن عمر إلى المغرب في عام (465هـ/1072م)، إلا أن الدراسات (7) تختلف في تحديد سبب هذه العودة، هل هي راجعة لإزاحة يوسف بن تاشفين عن الإمارة واسترجاع الحكم، أم ترجع لتثبيت يوسف كما وقع.

---

[1] المرادي: تجاوز هذا الفقيه دور الفقيه التقليدي إلى دور المستشار السياسي، حيث ألف كتابا لأحد الأمراء المرابطين بأزوكي دوبرتاب "كتاب الإشارة إلى الأدب والإمارة" إذ يبين من خلاله مؤسسات الدولة الضرورية التي ينبغي إنشاؤها والطريقة المثلى لتسييرها. توفي بأزوكي عام 489 هـ/1094م واتخذ قبره مزارا لكافة سكان المناطق الموريتانية والسودانية، أنظر: الناني: نفس المرجع، ص 32 وبلغيث محمد الأمين: النظرية السياسية عند المرادي وآثارها في المغرب والأندلس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص ص 41-45.

[2] سلامة محمد سلمان الهرفي: دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، دار الندوة الجديدة، بيروت، 1405هـ/1985م، ص ص 265- 268.

Lucien Golvin : Essai sur l'architecture religieuse musulmane T4 : L'Art Hispano Musulman, Klinksieck, Paris, 1979, P 242.

[3] ابن خلدون: المصدر السابق، ص 382.

[4] ابن عذاري: البيان المغرب ج4، ص 20. ابن خلدون: نفسه. ATTILIO- Gaudio : Op.cit, P31.

[5] ابن عذاري: نفسه. الحلل الموشية: ص 16. ابن خلدون: نفس المصدر، ص 383. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 190، 191.

ART « Almoravides »: in Encyclopédie de L'Islam T1 Maisonneuve -Paris-1993-P322.

[6] حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج1، ص53. وانظر: حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 191.

[7] لمزيد من الإيضاح راجع محمد الهادي شعيرة: المرابطون وتاريخهم السياسي ص 78-79. وانظر: حسن أحمد محمود: نفسه، ص 191.

أما أغلب ما اتفق عليه هو أن يوسف بن تاشفين حوّل الأمر إلى نفسه تحت ضغط زوجته زينب النفزاوية(1) فما كان من الأمير أبي بكر بن عمر إلا التنازل له عن الإمارة عن طواعية لما عاين من تصرفات لم يعتدها من ابن عمه يوسف، ولما تميز من ورع وبعد نظر وحفاظا على وحدة المرابطين. فأشهد على خلع نفسه وتسليم الحكم لابن عمه، أشياخ لمتونة وأعيان الدولة وأمراء المصامدة الخاصة والعامة.(2) وبعد هذه الإجراءات رجع إلى الصحراء في عام (465هـ/1074م) وواصل جهاده في الصحراء إلى أن استشهد في إحدى معاركه ببلاد السودان في شعبان (480هـ/1087م).(3)

أما يوسف بن تاشفين (4) فإنه واصل جهاده من أجل استكمال توحيد أرض المغرب. وأحرز على عدّة انتصارات أهمها ضم طنجة في عام (470هـ/1077م) بعد قتل سكوت البرغواطي. واستولى المرابطون على تلمسان (472هـ/ 1079م) ثم سبته في (477هـ/1084م)(5) وهكذا يكون يوسف بن تاشفين قد حوّل حلم عبد الله بن ياسين إلى حقيقة. فتحررت قبائل صنهاجة، وبلاد المغرب من البدع والخرافات، وأخذوا ينهلون من منهل الإسلام الصافي.(6) ومن أجل المحافظة على قوة بلاده ركز اهتمامه على تقوية جيشه وحرسه الخاص بشراء عدد من الجند من الاغزاز والروم والرماة من السودان.(7) وأقيمت معسكرات خاصة في عدّة مدن لحماية أمن الدولة. فعندما فتح المرابطون سجلماسة أسسوا مدينة تبلبلا،(8) كما أنشأت مراكش في قلب المصامدة وما لبثت أن أصبحت حاضرة الدولة المرابطية.(9) أما في تلمسان بنيت قلعة حصينة تحرس الزناتيين وتقف لهم بالمرصاد. وتوغلت جيوش المرابطين في المغرب الأوسط، فضمت تحت لوائها كل من مدن تنس ووهران وجبل الونشريس

[1] ابن عذاري: المصدر السابق ص 25. ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 86. ابن خلدون: المصدر السابق، ص 383. وانظر: المختار بن حامد: المرجع السابق، ج1، ص50. ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج1، ص 53.

[2] ابن عذاري: نفس المصدر، ج1، ص2. وانظر: ابن أبي زرع: نفسه، ص 86. الحلل الموشية: ص26.
وانظر: السلاوي الناصري: الاستقصا، ج2، ص22.

[3] ابن أبي زرع: نفس المصدر، ص 84. و Lagardère (V) Op Cit P 83. وانظر: المختار بن حامد: نفس المرجع ج1، ص ص 50، 53.

[4] هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن ترقوت بن ورانقطن بن منصور بن مصالة بن مانية بن ونمالي الصنهاجي اللمتوني، وأمه حرة لمتونية اسمها فاطمة بنت سيرين يحي، ولد في عام 400هـ/1009م. بدأ يبرز على مسرح الأحداث منذ أن عينه أبو بكر بن عمر على قيادة الجيش المرابطي لغزو المغرب في عام 448هـ/1056م: انظر: ابن أبي زرع: نفسه، ص 85. ابن عذاري: نفس المصدر ج4، ص 20. الحلل الموشية: ص 24. ويجعل المختار بن حامد مولده في 410هـ/1019م. انظر: نفس المرجع، ص 49.

[5] الهرفي سلامة محمد سلمان: دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، ص 52.

[6] حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 228 229. عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 715.

[7] ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص 21-29.

[8] ابن عذاري: نفسه.

[9] Marçais (georges) : L'art musulman, PUF, Paris 6e, 1962. P 91.

ووصلت حتى مدينة الجزائر. والملاحظ في السياسة التوسعية للمرابطين أنهم لم يدخلوا في صراع حاد مع إخوانهم الصنهاجيين. وهكذا انقسم المغرب الإسلامي سياسيا الى قسمين: شرقي، حكمه بنوزيري في افريقية وبنو حماد في بجاية، وقسم غربي يحكمه المرابطون وكلهم من قبيلة صنهاجة.(1)كما اعتنى يوسف بن تاشفين ببناء الأسطول الذي عرف ازدهارا خاصة في عهد ابنه علي حتى أصبح هو المسيطر في مياه البحر الأبيض المتوسط.(2)أما جانب التنظيم المدني فكانت سياسة يوسف بناءة إذ عيّن ولاة على المناطق التي أصبحت في حوزته ودعهم بحاميات لمنع العصيان والتمرد.(3)

أما السلطة الدينية فكان يمثلها علماء المذهب المالكي يتمتعون بمكانة دينية خاصة في مجلس الشورى. ويمارسون حق الرقابة على أحكام القضاة المحليين. وكان هؤلاء الفقهاء يعدون مصلحين في مجالات الحياة ومرشدين في كل ما يتعلق بالمسائل الدينية والأخلاقية.(4)

كما اهتم بالعمارة وأقيمت عدّة منشآت عمرانية لا سيما بناء المساجد أو توسيعها وزخرفتها مثل ما حدث لجامع القرويين بفاس(5)وفي الجزائر بني مزغنة أسس الجامع الكبير وأمر بإقامة منبر للمسجد الجامع الذي كان آية في الزخرفة والجمال، كما بنى مساجد أخرى في تلمسان وندرومة.(6) وهذا الاهتمام بالعمارة الدينية ليس غريبا على يوسف بن تاشفين الذي تخرج من مدرسة عبد الله بن ياسين الذي غرس في نفسه حب الإسلام والعمل له. كما أقيمت منشات عمرانية أخرى كالفنادق والأسواق وغيرها.. (7).

---

[1] الناصري: المصدر السابق، ج2، ص4. وانظر حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص197، 198.
Lucien Golvin : Op.cit, PP 167, 168.

[2] عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ج2، مؤسسة شباب الجامعة، بيروت 1993، ص 239 و240. وانظر: الهرفي سلامة محمد سلمان: نفسه، ص 52.

[3] زبيب نجيب: المرجع السابق، ص 52.

[4] حسن مونس: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وايامهم في الأندلس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1420هـ/2000م، ص 24-25. Lucien Golvin : Ibid, P242. عنان عبد الله: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ج1، ط1، لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، 1964، ص ص 431-432. زبيب نجيب: نفسه.
Laroui Abdallah : L'Histoire du Maghreb, Un essai de synthèse, centre culturel arabe, Casablanca-1995-p153.

[5] Marçais Georges: op cit, P 86

[6] Voir : Golvin (Lucien) Ibid, P 169, 230, 231,
Marçais (G): Ibid. P 16
انظر: ابن قربة:"العمارة المرابطية بالجزائر" مجلة سيرتا عدد 3-4، 1980-1981 ص ص 42-56.

[7] عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص 749، 752، 760.

أما سياسته الاقتصادية فقد التزم فيها أحكام الشرع، فلم يفرض أي ضريبة غير شرعية طوال حياته. وأنشأ دار السكة في مدينة مراكش، وضرب العملة باسمه[1] وحتى يضفي الصبغة الشرعية على حكمه دعا للخليفة العباسي المستظهر بالله أمير المؤمنين الذي أرسل بدوره تقليدا ليوسف بحكم البلاد التي تحت يده، ومدافعة الأعداء[2] وبذلك أقام يوسف بن تاشفين دولة قوية وواسعة بالمغرب؛ في حين كانت بلاد الأندلس تعاني من التفكك السياسي والاجتماعي والظلم الاقتصادي في ظل ملوك الطوائف.

وفي الوقت الذي كانت فيه الأساطيل المسيحية تجتاح الثغور الإسلامية المطلة على الحوض الغربي للبحر المتوسط، كانت قوات ممالك وإمارات إسبانيا المسيحية وعلى رأسها مملكة قشتالة[3] تجتاح ممالك الطوائف[4] المنهارة في بلاد الأندلس[5] وقد استطاع ألفونسو السادس احتلال طليطلة معقل الأندلس الحصين من القادر بالله يحيى بن ذي النون في عام (478هـ/1085م)، ثم يهدد سرقسطة وبطليوس ويطالب المعتمد بن عباد أمير إشبيلية بتسليم له بعض حصونه، لما تأخر هذا الأخير عن دفع الضرائب المفروضة عليه[6]

---

[1] نقش في الدينار على الوجه الأول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكتب في الدائرة "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلمن يقبل منه هو في الآخرة من الخاسرين" وكتب في الجهة الأخرى: الأمير عبد الله عباس، وفي الدائرة تاريخ الضرب وموضع السكة". أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان مج 4، ط1، القاهرة 1397هـ/1977م، ص350 انظر: صالح بن قربة: المسكوكات المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص541، 544، 545. وإبراهيم حركات: النظام السياسي ....، ص47 و48.

[2] ابن الأثير: الكامل مج9، ص99. وانظر: ابن خلكان: المصدر السابق، مج 7، ص 125. الحلل الموشية: ص18. إبراهيم حركات: نفس المرجع، ص ص47-49.

[3] قشتالة: Castille: مدينة إسبانية تقع شمال طليطلة وجنوب شقوبية أي ما خلف جبال الشرات، تزعمت حركة الاسترداد النصرانية من أشهر ملوكها ألفونسو السادس. أنظر: الحميري: الروض المعطار، ص161.

[4] ملوك الطوائف: بعد انقراض الخلافة الأموية بالأندلس، عام 1009 الأمراء والرؤساء من العرب والبربر والموالي باقتسام أراضي الأندلس، وتغلب بعضهم على بعض واستفحل أمرهم وعظم شأنهم وتوالت هجومات النصارى عليهم حتى أدانوا لهم بدفع الجزية. من أشهر هذه الممالك: بنو عباد بأشبيلية، بنو ذي النون بطليطلة، بنو هود بسرقسيطة، بنو الأفطس ببطليوس، وبلغ عددهم حوالي 23 أمير من ملوك الطوائف. انظر: ابن الأثير: نفس المصدر، ح8، ص445، 446. عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص70. المقري: نفح الطيب مج1 ص ص 438-447 وعبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ح2 ص ص 715-720-721 وانظر: بيضون إبراهيم: الدولة العربية في اسبانيا، ط3، دار النهضة العربية، بيروت، 1986، ص377-378 و240..82 G.Marçais : l'Art musulman. P

[5] الحلل الموشية: ص 38. وانظر: عبد العزيز سالم ومختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية ص.240 عنان: دول الطوائف، ص324. أنظر الخريطة ملحق 2.

[6] ابن الخطيب: نفس المصدر، ص 351 و352. بطرس البستاني: معارك العرب في الأندلس، دار مارون عبود، 1987 ص 25.

ونظرا للوضع المزري بالأندلس توالت الوفود على يوسف بن تاشفين وتتابعت الرسائل لبعض ملوك الطوائف تستنجد به، وعلى رأس هؤلاء المعتمد بن عباد أمير اشبيلية. لقد رأى أهل الأندلس في الدولة المرابطية حلمهم أو القوة الوحيدة التي تخلصهم([1])من وضعهم المتأزم رغم تخوفهم من عاقبة الأمر، بدليل ما قاله المعتمد بن عباد لما حذروه من الاستنجاد بيوسف بن تاشفين:" رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير"، حينما حذره ملوك الطوائف وقالوا له:" الملك عقم! والسيفان لا يجتمعان في غمده "، ومن هنا نستدل على حالة الأندلس تحت حكم الاسبان وحالها تحت سلطان المرابطين.

واستجاب أمير المسلمين لاستغاثة ملوك الطوائف([2])فعبرت القوات المرابطية بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، إلى عدوة الأندلس في ربيع الأول (479هـ/1086م) وتمكنت هذه القوات الإسلامية الفتية من تحقيق نصر ساحق على قوات النصارى في معركة الزلاقة الحاسمة في (20 رجب 479هـ/سبتمبر 1086م)([3]).

ولكن لم يستثمر يوسف بن تاشفين نصره الباهر في هذه المعركة باستعادة طليطلة وحصنها الحصين، وعاد إلى بلاد المغرب([4])ونتيجة لذلك تمكن ألفونسو السادس من إعادة تنظيم قواته والتحرش على ملوك الطوائف المنهارة، مما دفع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الجواز الثاني لبلاد الأندلس في (481هـ/1088م) لنصرة المسلمين في الثغور الأندلسية([5]).

وخلال هذا العبور الثاني أدرك يوسف بن تاشفين مدى تخاذل ملوك الطوائف وانهيارهم عندما عجزوا جميعا عن اقتحام " حصن لييط" أو " أليدو" ALEDO ([6]) الذي اعتصمت فيه القوات المسيحية([7])كما اكتشف المؤامرات التي كان يحيكها ملوك الطوائف بتعاونهم مع النصارى ضد بعضهم

---

[1] ابن الخطيب: المصدر السابق، ص 351-352. بطرس البستاني: المرجع السابق، ص25.

[2] الحلل الموشية:ص47.عنان:تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ص204.ولنفس المؤلف:دول الطوائف ص 324 و325.

[3] الزلاقة: نسبة لبطحاء من إقليم بطليوس غرب الأندلس عرف بالإسبانية Sagraja انظر: ابن بسام: الذخيرة في معرفة محاسن أهل الجزيرة: تحقيق إحسان عباس، القسم 2 مج1، دار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981، ص242، وانظر الحميري: للروض المعطار ص ص 287، 292. الحلل الموشية: ص47 و48.

[4] ابن الخطيب: نفسه، مج4، ط 2، ص349.

Terrasse Henri : Islam d'Espagne: librairie Plon Paris 6e 1958-PP 138-139. وانظر عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص 164-165.

[5] عاد يوسف إلى المغرب بسبب مرض ابنه المعتز الذي أودى بحياته. انظر: ابن عذاري: نفس المصدر، ص 25. وانظر: محمد الهادي شعيرة: المرجع السابق، ص 125.

[6] هو حصن منيع بناه ألفونسو السادس ملك قشتالة على إثر إستلائه لأنه على طليطلة عام (479هـ/1086م). وشحنه بالسلاح والجند واتخذه قاعدة للإغارة على الأراضي الإسلامية في تلك الأنحاء: انظر: ابن الخطيب: نفس المصدر، مج4، ص 352.

[7] ابن خلكان: وفيات الأعيان مج7، ص125-128. بيضون إبراهيم: المرجع السابق، ص 379-378.

البعض من جهة، وضد المرابطين من جهة أخرى، لذلك انسحب وترك حامية مرابطية بقيادة داود بن عائشة.(1)

وفي جوازه الثالث لبلاد الأندلس (483هـ/1090م) قرر التخلص من ملوك الطوائف المتخاذلين. ووكل هذا الأمر لعامله على الأندلس سير بن أبي بكر اللمتوني، الذي استطاع وضع حد لملوك الطوائف وإنقاذ الأندلس من الخطر النصراني. ونظرا للخلاف الذي قام بينه وبين المعتمد بن عباد، ألقى عليه القبض وأرسله أسيرا إلى أغمات (486هـ/1093م)(2)كما بسط المرابطون نفوذهم على جزر البليار منذ سنة (509هـ/1115م)، في عهد علي بن يوسف بن تاشفين. وقد تعاقب على حكم هذه الجزر عددا من المرابطين حتى آل حكمها إلى آل غانية حيث تولى الحكم القائد محمد بن علي بن غانية المسوفي مؤسس أسرة بني غانية بهذه الجزر عام (520هـ/1126م).(3)

وبالقضاء على ملوك الطوائف تمكن من تحقيق الوحدة، فامتد نفوذ الدولة المرابطية من السودان جنوبا إلى جبال البرانس شمالا، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى المغرب الأوسط شرقا(4)ولذا يعد يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي للدولة المرابطية موطدا أركانها وواضعا لها كيانا دوليا ثابتا، ورغم ما بلغه من نفوذ وسلطان عريض فإنه حافظ على عيشته البسيطة مأكلا وملبسا وكان إنسانا متواضعا، عادلا، شديد الحياء جامعا لكثير من الخصال الفاضلة.(5)وفي عام (497هـ/1103م) ولي عهده لابنه علي، وتوفي يوسف بن تاشفين في (27 محرم 500هـ/سبتمبر 1106م).(6)وهكذا قامت دولة المرابطين الكبرى بفضل عبقرية يوسف بن تاشفين ومساعدة زوجته زينب النفزاوية له. بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه متواضع وهو عبد الله بن ياسين، وتحولت بسرعة من زعامة دينية محلية إلى ملك سياسي ضخم.

---

1 ابن خلكان: المصدر السابق، مج7، ص 125. ابن عذاري: البيان، ج4، ص 143.

2 ابن عذاري: نفسه. وانظر: ابن خلكان: نفس المصدر، مج7، ص125-123. الغنيمي مقلد عبد الفتاح: موسوعة المغرب العربي مج2، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة 1414هـ/1994م ص173.

3 انظر: ابن خلدون: العبر، ج 12، ص 398-400. عن هذه الدول أنظر: عنان:عصر المرابطين والموحدين ج1 ص149.

Bel Alfred : Les Benou ghanya, derniers représentants de l'Empire Almoravide et leur lutte contre l'empire Almohade. Ernest Leroux, Paris, 1903, P 18.

4 الغنيمي: نفسه ص 173. أنظر: الخريطة ملحق رقم2.

5 ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص 47-46. ابن خلكان: نفس المصدر، ص 125-123. ابن الخطيب: الاحاطة، مج 2 ،ص 116-118 ومج4، ص 353. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 82. محمد الهادي شعيرة: المرجع السابق، ص 80.

6 ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص 48. ابن الخطيب: نفس المصدر، مج4، ص 58. عنان: تراجم إسلامية وشرقية وأندلسية، ص 203.

مرحلة التراجع

ورث علي بن يوسف دولة كبرى تمتعت بالهدوء والرخاء الاقتصادي الأمر الذي شجعه على السير على نهج أبيه كما ذكر عنه أنه:" اقتفى أثر أبيه وسلك سبيله في عضد الحق وإنصاف المظلوم، وأمن الخائف، وقمع المظالم وسد الثغور ونكاية العدو، فلم يعدم التوفيق في أعماله والتسديد في حسن أفعاله."(1) وسجل له التاريخ انتصارات باهرة في جهاده ضد النصارى في الأندلس لاسيما المواقع التالية: إقليش، (Ucles) (502هـ/1108م)، والقليعة (Alcocla) (522هـ/1128م) وإفرغة (Fraga) (527هـ/1132م)(2) هذه الأخيرة التي انتهت بهزيمة ساحقة للنصارى. إلا أنه يبدو أن المرابطين أخذوا ينغمسون في الترف والرفاهية والرقة مع مرور الأيام، حتى وصف أمير المسلمين في نهاية حكمه بضعف شخصيته واستسلامه لأهواء الفقهاء وتدخل النساء في شؤون السياسة وسوء الأحوال الاقتصادية(3) فكل ذلك جعل زمام الحكم يفلت من يده، فقامت عدّة ثورات في الأندلس والمغرب وهو ما جعل الدولة تدخل مرحلة التراجع.(4)

وفي الوقت كانت الدولة المرابطية ما تزال في زهرة شبابها، تضافرت عدّة عوامل أضعفت كيانها وأذكر منها ما يلي:

- ارتكاز هذه الدولة على سلطة الفقهاء في توجيه سياسة الحكام، فعلي بن يوسف اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين. وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون استشارة الفقهاء، فالبعض من هؤلاء(5) أملى

[1] البيان المغرب: ج4، ص 48. وانظر: الحلل الموشية: ص 84. وانظر: امبروسيو هويسي ميراندا: "علي بن يوسف وأعماله في الأندلس": مجلة تطوان، ع3 و4. تطوان (المغرب) 1958 1959 ص157.

[2] عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ج2، ص 739. أبو مصطفى كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص 47-54-55.

[3] عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد عريان ومحمد العلمي: ط1، القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1949، ص 177-142.

[4] قامت عدة ثورات في الأندلس منذ أن استلم علي بن يوسف الحكم ومنها: ثورة ابنه أبو بكر في غرناطة 500هـ/1106م. ثورة ابن الحاج في قرطبة 500هـ/1106م. ثورة أهالي قرطبة في 513هـ 1119م. ثورة عامة في قرطبة على اليهود 529هـ/1134م. ثورة ضد القاضي ابن رشد 534هـ/1139م. ثورة في اشبيلية ضد القاضي ابن العربي: 529هـ/1134م. أما في المغرب فقد ظهرت ثورة المهدي بن تومرت ثم تزعمها عبد المؤمن بن علي من (514هـ-537هـ/1160م-1142م). انظر: عبد الحميد النجار: المهدي بن تومرت، ص ص 109-129. سلامة محمد سلمان الهرفي: دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص ص 74-88.

[5] من هؤلاء الفقهاء أبو عبد الله محمد بن حمدين قاضي قرطبة انظر في ذلك: ابن عذاري: نفسه، ص59-60. وانظر: ابن الخطيب: الاحاطة، مج1، ص297. أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي: تاريخ قضاة الأندلس كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضا والفتيا، ط5، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1403هـ/1983م، ص 103-104.

قراره على أمير المسلمين الذي يقضي بإحراق كتب الغزالي إحياء علوم الدين – في كل أنحاء الدولة المرابطية في عام (503هـ/1109م)(1) مما أثار حفيظة البعض.

– إبقاء هذه الدولة على الموروثات القبلية داخل أجهزة الحكم، مما نشأ عنه احتكار المناصب السياسية من طرف قبيلة لمتونة دون غيرها(2) حتى كاد المسوفيون لإخوانهم اللمتونيين في حرب علي بن يوسف مع عبد المؤمن بن علي.(3)

لهذا يبدو أن الدولة المرابطية لم تنجح في تجاوز الإطار القبلي داخل منظومة الدولة المركزيّة الكبرى مما كان سببا في تذمر القبائل الأخرى التي كانت تتحين الفرص للإطاحة بالمرابطين. ويضاف إلى ذلك ترفع الجيل المرابطي الثاني من الأمراء عن طبيعتهم وميلهم إلى الدعة والترف، وبسط أيديهم لحاشيتهم، وجندهم وخدمهم المرتزق وإنفاقهم الأموال الباهضة على بلاطاتهم مما أثر على بيت المال سلبا. ومما كان له الأثر البالغ في الوضعية المالية، هو اشتداد شوكة نصارى الأندلس مما أجبر علي ابن يوسف على مضاعفة النفقات العسكرية، إضافة إلى ذلك إشتداد الخطر الموحدي، فاشتدت حاجة المرابطين لبناء الحصون والأسوار(4) فقد كلف حصن مراكش علي بن يوسف سبعين ألف دينار من الذهب(5) واضطر إلى استدعاء ابنه تاشفين الذي كان أميرا على الأندلس إلى المغرب ووجهه لمحاربة الموحدين في الوقت الذي كانت الأندلس في أمس الحاجة لجهاده. ونظرا لهذا الإجراء الأخير ساءت أحوال الأندلس أيضا بشكل جلّي. فاستغل أهل الأندلس فرصة عزل تاشفين لإعلان ثوراتهم مما أدى إلى تمزق البلاد من جديد إلى دويلات وطوائف، واستعان هؤلاء الثوار على المرابطين بجيوش قشتالية وبرتغالية.(6)

ووصف هذا الوضع المزري(7) صاحب الحلل الموشية بقوله:" وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين، ووجه كثير من حماة الأندلس إلى العدوة، ونقل الكثير من أسلحتها وعددها، فاختل أمرها وألح النصارى بالضرب على بلاد الإسلام حيث علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع". وتوفي علي بن يوسف عام (537هـ/1138م) وخلّف هذا الملك العريض والحافل بالمشاكل والمصاعب في

---

[1] عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج2، ص739. وسعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج4، ط1، منشأة المعارف الإسكندرية 1995 ص415-418.

[2] ابن خلدون: العبر، مج12، ص379. عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ 1988م، ص34.

[3] حركات إبراهيم:النظام السياسي والحربي عند المرابطين. ص 146. انظر :ابن عذاري:المصدر السابق، ج4، ص85.

[4] بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، ص378.

[5] أبو بكر بن علي الصنهاجي (البيذق): أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986،ص94.ابن القطان:نظم الجمان، تحقيق: محمود مكي، مطبعة المهدية، تطوان، (د ت)ص107.

[6] عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 177. وعبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 112.

[7] الحلل الموشية: ص 119. وانظر: عصمت عبد اللطيف دندش: نفسه، ص 134.

ولم يدخل الموحدين قصر الإمارة إلا بعد دفاع مستميت من أهله، برزت من خلاله البطلة فانو بنت عمر بن يانتان ،وبعد مقتل هذه البطلة ألقي القبض على اخر أمير مرابطي أبي إسحاق بن إبراهيم بن تاشفين وفتكوا بمن معه من أعيان دولته في (شوال 541هـ/1146م). وبهذا الحدث تلفظت الدولة المرابطية آخر أنفاسها وتحل محلها الدولة الموحدية بزعامة عبد المؤمن بن علي الكومي.(1)

وأكتفي بهذا العرض الوجيز بمقولة أحد المورخين (2):" المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين [...] عنهم، والمجاهدون دونهم، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة، ولا تقدم ولا وسيلة إلا وقعة الزلاقة ... لكان ذلك من أعظم فخرهم وأربح تجارتهم".

تلك هي الخطوط العريضة للتاريخ السياسي للدولة المرابطية أوجزتها باختصار شديد. وإني لم أتوغل في التفاصيل التي رافقت هذه الدولة في دعوتها وجهادها وتوحيدها للمغرب والأندلس ولا لنتاجها الحضاري المعتبر، لأن الهدف من هذه الدراسة هو تتبع دور المرأة المرابطية.

فمن مميزات هذه الدولة بروز المرأة في مختلف ميادين الحياة، ولم يقتصر دورها على الجانب الإجتماعي فقط في إطار الأسرة ورعاية الأبناء فقط، انما قيل أن من عادة الملثمين الإنقياد لأمور نسائهم ولا يسمون الرجل إلا بأمه فيقال ابن فلانة وليس ابن فلان.(3)ويبدوأن مساهمتها بلغت نطاقا واسعا واحتلت مكانة مرموقة بتفاعلها مع كل الأحداث التي مرت بها هذه الدولة منذ قيامها.(4)حتى اعتبرت المرأة من الأسباب الرئيسية في تدهور الأوضاع السياسية من جهة.(5) ولم يدخل الموحدون قصبة مراكش إلا على جثة إحدى النساء المرابطيات من جهة أخرى.(6)

فما هي تجليات هذه المرأة داخل نسيج هذه الدولة ؟ ذلك ما أطمح دراسته من خلال الفصول التالية.

---

[1] أبو بكر بن علي الصنهاجي(البيذق):أخبار المهدي بن تومرت تحقيق عبد الحميد حاجيات،ص94.مفاخر البربر:ص 201.

[2] مجهول: الحلل الموشية، ص 140.

[3] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج9، ص99. وانظر: حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1980، ص62. النويري (أحمد بن عبد الوهاب): تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، جزء من كتاب: نهاية الأرب في الفنون الأدب، تحقيق: مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، دار البيضاء، ص 382.

[4] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 83-84. ابن عذاري:البيان، ج4، ص18. ابن خلدون: العبر، ج12، ص 382.

[5] عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 177.

[6] البيذق: نفسه، ص 94. ابن عذاري: البيان، ق: الموحدين، ص 28.

الفصل الأول

مساهمة المرأة السياسية والعسكرية

1- لمحة عن المرأة المسلمة في التاريخ

2- المرأة المرابطية والدعاية الموحدية

3- المرأة والسياسة:

أ- زينب النفزاوية.

ب- حواء بنت تاشفين.

جـ- مريم بنت إبراهيم.

د- الجارية قمر.

4-المرأة والحرب

5- السبي والأسر

1- لمحة عن المرأة المسلمة في التاريخ

بلغت المرأة المسلمة بفضل المبادئ التي أتى بها الإسلام مكانة عظمىفي المجتمع. وأصبحت لا تختلف عن الرجل فيما عدا الاختلافات الفيزيولوجية. كما أن الذي يحدد مرتبية الرجل بالمرأة هو حصيلة خلق تاريخي وتطور ثقافي، وأن كلما تقدمت الاكتشافات العلمية زال ما كان يفرق بين الرجل والمرأة.(1) وفي هذا الشأن قال الله عز وجل في محكم تنزيله: " من عمل عملا صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون." (2)

وبذلك رفع الإسلام مقام المرأة. وأقر لها حقوقا، وجعل لها شأنا ملحوظا في الحياة والشؤون العامة والإدارة. بل أجاز لها تولية منصب القاضي، ونتيجة لهذا التغيير الجذري اشتركت في الجهاد والحروب. وتولت بعض الأحيان مركز الصدارة والتوجيه.(3) وفي هذا الصدد يقول الله تعالى: "المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم." (4) والمعنى لهذه الآية هو أن ولاية العامة في شؤون الناس تقع على عاتق الرجل والمرأة على حدّ سواء. ولعلّه دليل قوي على مزاولة المرأة لحقوقها السياسية.

وقد أدت المرأة المسلمة أدوارا منذ صدر الإسلام.(5) إلا أنها لم تحتفظ بهذا الوضع السامي الذي خولها الإسلام إياه، مما جعل تطورها يتحجر أحيانا.(6)

---

[1] أنظر: بشرى قبيسي: المرأة في التاريخ والمجتمع، ط1، دار أمواج، بيروت، 1995، ص 58-59.

[2] سورة النحل الآية: 97..

[3] حسين عبد الحميد رشوان: علم اجتماع المرأة، المكتب الجامعي الحديث (دم)، 1998، ص 26-27.

[4] سورة التوبة الآية: 71.

[5] عائشة بنت الشاطئ: سيدات بيت النبوة، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 297. عمر رضا كحاله: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1379 هـ/1959م، ص ص 66-68.

[6] عبد الفتاح عاشور:"المرأة في الحضارة العربية": موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، مج3، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987، ص 72. وعبد العزيز بن عبد الله: تاريخ الحضارة المغربية، ج2، دار السلمى، دار البيضاء، 1962، ص ص 97-98. عائشة بلعربي:" ولوج المرأة إلى مراكز القرار": النساء والإسلام (سلسلة مقاربات)، نشر الفنك، الدار البيضاء، 1998، ص 79. وفاطمة الزهراء أزويل:"النساء والتغيير بعد مجيء الإسلام، (سلسلة مقاربات)، الدار البيضاء، 1998، ص 12، 13، 14.

وقد اعترف الفيلسوف ابن رشد (1) للمرأة بميزات سامية لم يعترف لهـا بهـا حتـى الفلاسـفة المحدثون. وذلك حين أكد في تعليقه حول جمهورية أفلاطون، أنه لا يوجد اختلاف بين الرجال والنساء في الطبع، وإنما هو اختلاف في الكم.(2)

وقد ترعرعت في أحضان الإسلام آلاف النساء اللائي برعن في أصناف العلوم حتـى نافسـن الرجال وفرضن وجودهن. وأصبحت أستاذات لكبار علماء عصرهن.(3) وقد ترجم ابن حجر (4) لألـف وخمسمائة وثلاث وأربعين امرأة (1543 امرأة). كان من بيـنهن العالمـات والفقيهـات واللغويـات والمحدثات. كما ترجم السيوطي (5) لسبع وثلاثين امرأة (37). ولعل النساء المسلمات قد حققن موسوعة علمية لم يتأت لأمة أخرى أن تحظى بها في مختلف العصور والأمصار. ولا يخلو كتاب مـن كتـب التراجم والأدب من أمثلة حية لنشاط المرأة العربية المسلمة في مختلف الميادين بيد أن حظها من ذلـك كان أوفر وأعظم شأنا للمرأة في المشرق منها للمرأة في المغرب الإسلامي.(6)

وعلى كل حال فإن المرأة المغربية لعبت دورا بارزا في مختلـف مراحـل تـاريخ المغـرب الإسلامي، وإن لم يكن دورها ناصعا كمثيلتها في المشرق العربي نظرا لقلة الدراسات في شـأنها إلا أنه لم يكن كذلك باهتا. فنبغت العالمات والفقيهات والشواعر، كما أظهرت المرأة المغربية براعة إدارية

---

[1] أبو الوليد محمد بن رشد (520-595هـ/1126-1198م) قاضي وفيلسوف وطبيب، ولد بقرطبة ونشأ فيها. تنقل بين إشبيلية ومراكش، أسند إليه الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، قضاء إشبيلية ثم قرطبة، وعيّن قاضي الجماعة بهذه الأخيرة. امتاز ابن رشد عمن سبقه من العلماء بتنوع معارفه ونقد مالا يوافق المنطق والحقيقة من أقوال السلف. له عدة مؤلفات لاسيما في الفلسفة والطب. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص 530. ابن خلكان: المصدر السابق، مج7، ص 530. يوسف فرحات: معجم الحضارة الأندلسية دار الفكر العربي، بيروت، 2000، ص 233.

[2] ابن عبد الله عبد العزيز: المرجع السابق، ص 98. حسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة، دار البيضاء، 1406هـ/1986م، ص 234.

[3] عبد الفتاح عاشور: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ذات السلاسل، الكويت، 1995، ص 283. عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ الإسلام وحضارته، دار الكتاب الحديث (دم)، 1416هـ/1995م، ص 377. خصص محمد بن سعيد فصلا لراويات الحديث من النساء عد فيه أكثر من سبعمائة امرأة روين الحديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وعن الصحابة. أنظر: الطبقات الكبرى، ج8 خاص بالنساء، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1997م.

[4] هو شهاب الدين العسقلاني (المعروف بابن حجر): الإصابة في تمييز الصحابة، مج7، تحقيق محمد البجاوي، ط1، دار الجيل، بيروت، 1412هـ/1991م.

[5] السيوطي جلال الدين: نزهة الجلساء في أشعار النساء، تح: صلاح الدين المنجد، ط1، دار المكشوف، بيروت، 1958.

[6] ابن عبد الله عبد العزيز: نفسه.

. ولباقة وحكمة، حتى أصبحت بعض النساء مستشارات لأزواجهن الأمراء والرؤساء(1)وقد استطاعت في بعض الظروف الدقيقة أن تدبر ما لا يستطيع تدبيره الرجل منفردا أو مجتمعا، ولذلك ارتأيت من خلال هذه العجالة ذكر بعض النساء اللاتي كان لهن دور بارز في المجتمع عبر تاريخ الدول التي تعاقبت على المغرب الإسلامي؛ لأن نشاط المرأة المغربية ومساهمتها السياسية والفكرية والحضارية عامة، ارتبط ارتباطا وثيقا بالدعوات الدينية والسياسية. فهذه الأخيرة وجدت أرضية خصبة لنشاطاتها في المغرب الإسلامي؛ وبما أن المرأة لا يمكنها الخروج عن عادات وتقاليد وأعراف قبيلتها أصبحت بالتالي صورة للذهنيات السائدة به.(2)فكانت معظم النساء سنيات والبعض منهن من الشيعة ومن الخوارج. وبناء على هذه العوامل إنفسح أمامها النشاط في المجتمع لاسيما في المجالين العلمي والسياسي.

وهذه الظاهرة ليست غريبة على المرأة المغربية. فلقد عرفتها النساء في المشرق الإسلامي منذ الفتنة الكبرى(35هـ/655م)،(3)وهذا مما يؤكد لنا مدى تأثير التيارات الفكرية والسياسية الوافدة من المشرق على بلاد المغرب والأندلس، إذ لم تكن المرأة بمنأى عنها آنذاك. فالمرأة المغربية تحملت عدّة مسؤوليات، فإلى جانب أنها ربّة بيت وراعيته، كانت في نفس الوقت تشرف على الحقل في البادية ومهرت في عدّة صناعات سواء في الحضر أو المدر، خاصة في صناعة النسيج،واستمر هذا النوع من نشاط المرأة إلى يومنا هذا إضافة إلى مساهمتها البناءة(4)في الحياة الفكرية والسياسية.

وهكذا فقد نشطت الحركة الفكرية في عهد الدولة الرستمية(5)،وأخذت منها المرأة قسطا معتبرًا لاسيما في العلوم الدينية. واشتهرت من النساء أخت الإمام أفلح(6)في علم الحساب والتنجيم حتى فاقت الإمام نفسه في ذلك.(1)

---

[1] ابن عبد الله عبد العزيز: معجم أعلام نساء المغرب الأقصى، 1970، ص 30. إبراهيم حركات: المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، ص 165.ابن عبد الله عبد العزيز: تاريخ الحضارة المغربية، ج2، ص103.

[2] بوبه مجاني:"دور المرأة في الحركة العلمية بجبل نفوسة"، من القرن 3- 6هـ/9-12م، مجلة الحياة، العدد2، جمعية التراث، القرارة، غرداية، 1419 هـ/1998م، ص 156.

[3] عائشة بنت الشاطئ: المرجع السابق، ص 297.

[4] عبد المجيد بن حمدة: ثقافة المجتمع القيرواني في القرن 3هـ/9م، ط1، القصبة، تونس، 1412هـ/1991م، ص 86.

[5] تأسست الدولة الرستمية على يد بن عبد الرحمان بن رستم، وهي ذات مذهب إباضي خارجي، دام حكمها ما بين (144-296 هـ/776-90م) اتخذت تيهارت عاصمة لها. انقرضت على يد أبي عبد الله الشيعي الفاطمي.وإثرها انتقل أهل هذا المذهب إلى الصحراء حيث أسسوا قرى وادي ميزاب. أنظر: ابن عذاري: البيان، ج1، ص 197. وانظر: ابن خلدون: العبر، ج12، ص 247. وعبد العزيز سلم: المغرب الكبير، ج1، ص ص 545-565. وسعد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص 287.

[6] الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن رستم ثالث الأئمة الرستميين (211 هـ-212هـ/854-855م). كان داهية حازما فقيها، عمر في إمارته ما لم يعمره أحد ممن كان قبله. وطد علاقته مع ممالك إفريقية السودان ومع الأمويين بالأندلس.

كما اشتهرت نساء المذهب الإباضي عامة بالعلم والتفقه في الدين إلى حد كبير بلغ بهن حدّ المشاركة السياسية،(1) ومن هؤلاء النسوة الفقيهة "أم يحي" التي وليّت أمر جبل نفوسة(2) عندما إشتغل رجالهم في قتال بني الأغلب في موقعة مانو سنة (269 هـ/881م)، توفي زوجها في هذه المعركة، ومن ثَم اتخذت "أم يحي" في بيتها مجالس للعلم في القرن (3هـ/9م) والتي كانت مقصدا للعلماء، ومن الأمثلة على ذلك ما قامت به كل من "أم الخطاب" و "بهلولة" التي كان أحد علماء المذهب – هو "أبو ذر أبان بن وسيم الويغوى"- يعقد مجلسا للذكر ببيتها(3).

كما اشتهرت "**أم الربيع الوريورية**" بسعة علمها، ومن كثرة تفقه النساء في الدين، حتى قيل أن ثلث علم جبل نفوسة مع امرأة اسمها "**زورع الأرجانية**" ولا شك أن قدرات هذه المرأة تجاوزت قدرات العلماء من الرجال وليس فقط أخواتها الفقيهات(4) وقيل أن الناس -أي رجال ونساء- كانوا يجتمعون عند العجائز -أي الفقيهات في المذهب الإباضي- ويسألونهن في أمور الدين، كما كانوا يعملون بالفتاوى والأحكام التي يصدرنها، ونظرا لانفساح المجال العلمي أمام العنصر النسوي، فلقد ذكر أن في منطقة الساحل وحدها بلغ عددهن ثلاثمائة عجوز فقيهة.(5)

فهذه الإسهامات في الحياة العلمية والثقة التي كسبتها المرأة الاباضية في جبل نفوسة خوّل لها حق المشاركة السياسية. فكانت تستشار أحيانا فيمن يرشح من الرجال للوظائف الدينية والإدارية. كما خوّل للمرأة الفقيهة في هذه المنطقة الحق في امتحان من يرشح من الرجال لوظيفة القضاء(6) فإذا

عرفت دولته رخاء اقتصادي؛ أنظر:أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر:كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية الجزائر 1979، ص 85، وص 89، حاشية1. وأنظر:الزركلي: المرجع السابق، مج2، ص 5.

[1] عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 575. وأنظر: سعد زغلول: المرجع السابق، ص 337-338.

[2] يقع جبل نفوسة بالمغرب بعد إفريقية بينه وبين طرابلس ثلاثة أيام و بينه وبين القيروان ستة أيام، جميع أهل هذا الجبل شراة وهبية وإباضية متمردين عن طاعة السلاطين. أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج5، ص 296، 297. كان النفوسيون، يمثلون الثقل الشرقي من الإمامة الرستمية، وكانوا يمثلون دعامة عصب الدولة في تاهرت نفسها. فكانت نفوسة تلي عقد القضاة وبيوت الأموال.... أنظر: سعد زغلول: نفس المرجع، ج2، ص 342. يوجد هذا الجبل حاليا بالجماهيرية العربية الإسلامية الليبية.

[3] بوبة مجاني: المرجع السابق، ص 160. أنظر: أبو زكرياء يحي: المصدر السابق، ص 103. وحاشية 1، ص 107.

[4] بوبة مجاني: نفس المرجع، ص 161، 160.

[5] بوبة مجاني: نفس المرجع، ص 162-163.

[6] بوبة مجاني: نفسه.

كانت وظيفة القضاء[1] والقاضي ينظر إليها الناس بالاحترام والتقدير في كل المجتمعات والأزمان فإن هذه الفقيهة فاقت هذه المرتبة. وما هذا إلا دليل على أن قدرات هؤلاء الفقيهات ومكانتهن في جبل نفوسة والثقة التي وضعت فيهن نظرًا لما امتازت به من علم وتقدير[2]. فإذا كان هذا شأن المرأة بجبل نوفسة ما بين القرنين (3هـ و6 هـ/9م و12م)، ففي الطرف الغربي للمغرب الإسلامي لم يقل شأنها إذ ساهمت نساؤه أيضا في البناء الحضاري المتعدد المجالات. وفي عهد دولة الأدارسة بفاس (172هـ- 234هـ/787-848م) تولت "كنزة" الأوربية زوجة إدريس الأول تقسيم المناطق المغربية بين أحفادها[3] ونبغت الأميرة "**الحسنى**" بنت سليمان النجاعي وهي زوجة إدريس الأزهر، وكان هذا الأخير لا يفعل شيئا إلا بموافقتها فكانت إليها المشورة في دولته[4] واشتهرت في هذه الدولة أيضا "**عاتكة**" بنت الأمير علي بن عمر ابن إدريس صاحب الريف، وهي زوجة الأمير يحيى بن علي بن محمد بن إدريس، التي كان لها تأثير بالغ في مصير السياسة المغربية[5] فبفضل الدور الذي قامت به انقطع الملك من عقب ابن محمد بن إدريس الثاني وأصبح في عقب عمر بن إدريس صاحب الريف- والدها- تارة، وفي عقب القاسم بن إدريس الزاهر تارة أخرى[6] وفي دولة الحموديين الأدارسة[7] لم

---

[1] يقول عنها العلامة ابن خلدون: "وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة، لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات، حسما للتداعي وقطعا للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة". انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص ص 204-207. ولمزيد من المعلومات على أهمية القضاء أنظر: سمير عالية: نظام الدولة والقضاء والعرف في الإسلام، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1416هـ/1997م، ص 260، 263.

[2] مجاني بوبة: المرجع السابق، ص 162-163.

[3] مؤسسها هو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. أنظر: ابن الأثير: مج9، ص 407-449. إبراهيم حركات: المجتمع الإسلامي، ص 65.

[4] ابن عبد الله عبد العزيز: معجم نساء المغرب، ص 9. وأنظر عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب ج2، ص 371.

[5] ابن عذاري: البيان، ج1، تحقيق كولان و ليفي بروفنسال، ط5، دار الثقافة، بيروت، 1418 هـ/1998 م، ص 119. والسلاوي: الاستقصا، ج1، ص 78. انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص470. وحسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ج3، ص 170.

[6] ابن عذاري: نفسه. وعبد العزيز بن عبد الله: نفس المرجع، ص 18.

[7] تنتسب إلى علي بن حمود الذي يرجع نسبه إلى إدريس بن عبد الله العلوي مؤسس دولة الأدارس بالمغرب الأقصى. يعد أول ملوك بني الهاشم بالأندلس، ولي قرطبة عام 407 هـ/1016م، ودام حكم دولة الحموديين بالأندلس إلى غاية 449 هـ/1053م. أنظر: ابن عذاري: نفس المصدر، ج3، ص 119. وابن خلدون: العبر، ج12، ص 333. والمقري: المصدر السابق، ج1، ص 431. وحسن إبراهيم حسن: نفس المرجع، ج3، ص ص 193، 198.

يثبت محمد بن إدريس إلا بفضل رابطة جأش والدته التي كانت تقوي منته وتشرف على الحرب بنفسها[1].

ومن أروع الأمثلة على إسهام المرأة في دولة الأدارسة، هو بناء جامع القرويين بفاس في أيام يحيى بن محمد الإدريسي، وقامت بتحقيق هذا المشروع امرأة تعرف **"بأم البنين" فاطمة بنت محمد الفهري**" في سنة (245هـ/859م) التي ورثت مالا كثيرا عن أبيها[2] وضعته في الصالح العام. أما أختها مريم فقد بنت المسجد الجامع بعدوة الأندلسيين[3] لكن ما زاد من شأن جامع القرويين هو إنشاء فاطمة به مكتبة، وهذا الدليل على حب فاطمة للعلم وتمجيده وآثارت فعل الخير على بذل أموالها على متاع الدنيا، فكانت هذه المكتبة هي نقطة البداية التي جعلت الجامع جامعة مع مرور الزمن **والتي** تعد أقدم جامعه في تاريخ المغرب الإسلامي -لأن جامع القرويين بني قبل الجامع الأزهر بحوالي 115 سنة-. [4] ويمتاز مسجد القرويين دون سائر مساجد العالم الإسلامي بأنه أول بيت لله تشيّده فتاة مسلمة. وما يزال هذا الإنجاز شامخا نافعا لحد الساعة[5].

أما في عهد دولة الأغالبة(6) فقد نالت النساء قسطا وافرا من الثقافة. كما اعتنى الحكام بتربية الجواري وتعليمهم، فانتشر العلم في قصور الأمراء وخارجها. ومن أشهر الجواري**"جلاجل"** زوجة إبراهيم بن الأغلب وأم ولده زيادة الله الثالث التي كانت ورعة وواعظة لابنها راشدة إياه خوفا منها أن ينحرف عن جادة الطريق،(7) أما في الميدان العلمي فقد نبغت من بين النساء المتعلمات **"أسماء"** بنت

---

[1] عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ الحضارة المغربية: ص 104. وزغلول: المرجع السابق، ج2، ص 471.

[2] ابن عبد الله: نفسه. زغلول: نفسه.

[3] علي الجزنائي: جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1411هـ/1998م، ص 45. وانظر ابن عبد الله عبد العزيز: معجم نساء المغرب، ص 21. وعبد الهادي التازي: جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس، المجلد1، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972، ص 42.

[4] عبد الهادي التازي: نفسه. وحسين مؤنس: تاريخ المغرب، مج1، ص 399.

[5] عبد الهادي التازي: نفس المرجع، ص 47.

[6] تأسست بإفريقية (المغرب الأدنى) على يد إبراهيم بن الأغلب، حكمت ما بين (184هـ-296هـ/800م-909م) كانت تابعة إسميا للخلافة العباسية ببغداد. وانقرضت على يد الشيعة الفاطميين. انظر: ابن الأثير: الكامل، مج5، ص 311. ابن خلدون: العبر، ج12، ص 228. محمد الطالبي: الدولة الأغلبية (18-296 هـ/800-909م) التاريخ السياسي، نقله للعربية: المنجي الصيادي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985ص ص 116، 134.

[7] حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 18 و19.

أسد بن الفرات(1) إمام المذهبين الحنفي والمالكي برواية الحديث والفقه على مذهب أبي حنيفة النعمان وتوفيت في حوالي(230هـ/864م)(2)

كما اعتبرت **خديجة بنت سحنون** من اللّواتي حظين بنصيب وافر من العلم والمعرفة وعرفت بالعقل والرصانة. وقال عنها القاضي عياض أنها كانت من أحسن النساء وأعقالهن. والدها سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي عالم القيروان وقاضيها الشهير الذي يعد دعامة المذهب المالكي.(3) ولما قبل والدها خطة القضاء في (234هـ/868 م)، دخل عليها مضطربا من عظم المسؤولية فهدأت من روعه. وتمثل دورها في تعليم نساء عصرها اللائي كن يستفتينها في القضايا الدينية، توفيت خديجة في حوالي (270هـ/883 م)(4)

ولا يختلف الأمر بالنسبة للدولة الفاطمية التي اشتهرت بها عدّة نساء منهن "ست الملك" بنت الخليفة العزيز (365-386هـ/975-996م) التي عرفت بالحزم ورجاحة العقل والثراء وبالتسامح الديني(5) إلا أنها كانت مع أخيها مسلوبة السلطة مما أثار حفيظتها. فتآمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة. أما زوجة الظاهر فكانت سودانية وعملت على جلب بني

---

[1] أسد بن الفرات: بن سنان مولى أبو عبد الله (142-213هـ/758-828م)، قاضي القيروان وأحد القادة الفاتحين وفد إلى القيروان مع أبيه وهو طفلا ونشأ بتونس، ثم رحل إلى المشرق في طلب الحديث في 172هـ/788م ولي قضاء القيروان سنة 204هـ/819م. فتح جزيرة صقلية سنة 212هـ/827م في عهد زيادة الله الأغلبي. له "مدونة" ومصنف "الأسدية" في فقه المالكية. أنظر ترجمته عند القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك تحقيق: محمد سالم هاشم المجلد: 1، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1418هـ/1998م، ص ص 370-372. وأنظر: ابن الأبار(أبو عبد الله): الحلّة السيراء. تق: حسين مؤنس، ج2، ط1، مطبعة لجنة التأليف وترجمة والنشر، القاهرة، 1963، ص 380.

[2] عبد المجيد بن حمدة: المجتمع القيرواني، ص 90. ابن عبد الله عبد العزيز: معجم أعلام نساء المغرب، ص 25. حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 18 و 19. رضا كحالة: أعلام النساء، ج1، ص 45.

[3] القاضي عياض: ترتيب المدارك، ص 339.

[4] سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 94. وانظر: حسني عبد الوهاب: نفس المرجع، ص 23، 24. ورضا كحالة: نفس المرجع، ج1، ص 332 و 333.

[5] والدة ست الملك كانت روهبية نصرانية على مذهب كنيسة القسطنطينية، لذلك كانت كثيرا ما تعطف على النصارى. واستحسنوا منها هذا العمل. وما زاد من نفوذها السياسي ثراءها الفاحش: ابن خلدون: العبر، ج8، ص 125-126. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، ط13، دار الجيل، بيروت، ومكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1411هـ/1991م، ص456، 457. الزركلي: الإعلام: مج3، ص 88. إبراهيم حركات: المجتمع الإسلامي، ص 66.

جلدتها في عهد ابنها المستنصر (427-487هـ/1035-1094م) فكثر عدد الجنود السودانيين وقـوي بطشهم بفضل مؤازرتها لهم(1).

وفي عهد الإمارة الزيرية اشتهرت "**أم ملال**" بنت المنصور بن يوسف الصنهاجي. وكانت من ذوي العلم والأدب حتى فاقت أخاها نصير الدولة باديس (386هـ-406هـ/ 996م 1016م) فأشركها في تدبير شؤون الملك(2) وبعد وفاة أخيها باديس كانت هي الوصية على ولده "المعز" فسيرت المملكـة بعزم وحسن تدبير ورأي ثاقب. وحكمت "أم ملال" إفريقية إلى أن بلغ ابن أخيها المعـز سـن الرشـد واستلم الحكم. وما يدل به على مكانتها ونفوذها السياسي أنه لما ماتت سنة (414هـ/1023م)، رثاهـا أكثر من مائة شاعر عرفانا بصنيعها. أما "**زليخا**" زوجة المعز بن باديس(3) فكانت مـن ذوات البـر والجمال والعقل لكن لم تصل درجة " أم ملال"(4) وكذا شأن الأميرة "بلارة" بنت تمـيم بـن المعـز وزوجة الناصر بن العلناس، صاحب قلعة بني حماد وبجاية (454 هـ-481 هـ/1062م- 1089 م). وعرفت الأميرة " **بلارة**" بالكرم والتدين والعلم. وعموما فإن أغلبية النساء أخذن قسطا من العلم لاسيما العلوم الدينية لما اشتهرت به بجاية من ازدهار في الميدان العلمي(5)

أما في الأندلس فقد تمتعت المرأة بقسط وفير من الحرية والنفوذ وكـان نصـيبها مـن العلـم والمعرفة أكثر من نصيب أختيها في المشرق والمغرب وبالتالي اتسع مجال إسهاماتها وشمل كل ألوان وأنواع الفنون منذ بداية الخلافة الأموية بقرطبة(6)

ففي عهد عبد الرحمن الداخل (138-172 هـ/756-788م) برز النفوذ السياسي لامرأة تمسى "**عجب**" وازداد نفوذها في عهد ابنها هشام بن عبد الرحمن الداخل (172هـ-180هـ/ 788م- 796م).

[1] ابن الأثير: المصدر السابق، مج 5، ص 272. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج3، ص 456، 457. رضا كحالة: المرجع السابق، ج1، ص ص 18-30.

[2] ابن عذاري: البيان، ج1، ص 283. وحسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 42-43. والهادي روجر: الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من ق 210-212. ترجمة عبد الهادي الساحلي: ج1، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1992 ص 122.

[3] حسن حسني عبد الوهاب: نفس المرجع، ص 44.

[4] حسني عبد الوهاب: نفسه، ص 44. وانظر: ابن عبد الله : معجم أعلام نساء المغرب، ص 26. رشيد بوروبة: الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجزائر، 1977، ص 70. وأنظر: رضا كحالة: أعلام النساء، ج2، ص ص 276-278.

[5] حسني عبد الوهاب: نفسه، ص 44. ابن عبد الله:معجم أعلام نساء المغرب، ص 25.حسن حسني عبد الوهاب: نفس المرجع، ص 51-52. وأنظر: رضا كحالة: نفس المرجع، ج1، ص 139.

[6] **مصطفى الشكعة**: الأدب الأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص 44. وانظر: إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة- ط1، دار الثقافة، بيروت، 1971، ص25.

كما كانت "رسيس" ذات حظوة لدى عبد الرحمن الناصر فكان يصاحبها في موكبه وهي ترتدي قلنسوة وتتقلد سيفا.(1) كما تمتعت "صبح" أم المويد بنفوذ كبير في عهد زوجها الحكم الثاني وابنها المؤيد (366-399هـ/976-1008م) وتغلبت على أمور ابنها فكان لها النفوذ المطلق والسلطان الواسع.(2) ويذكر الخشني (3) أن "كفات" زوجة القاضي محمد بن زياد كان لها تأثير على زوجها الذي كان يأخذ برأيها إذا استعصى عليه الحكم، فاتهم هذا القاضي بخضوعه لزوجته. كما اتخذ بعض الخلفاء الكاتبات مثل " لبنى" كاتبة الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الداخل (178-238 هـ/792-852م) كما أنها كانت نحوية وشاعرة وبصيرة بالحساب وعروضية وخطاطة،توفيت في (374هـ/984م).(4) وكانت "مزنة" كاتبة الأمير الناصر لدين الله أديبة وحسنة الخط، توفيت في (358هـ/968 م).(5) وذكر المراكشي أنه كان بقرطبة وحدها مائة وسبعون امرأة يكتبن القرآن بالخط الكوفي، وكانت أعمالهم في غاية الإتقان والنظافة فكثر عليها الطلب أكثر على ما كان يخطه الرجال.(6)

وهذا النبوغ النسوي الأندلسي جاء نتيجة انتشار التعليم في وسط البنات منذ سن سبع سنوات مثلهم مثل الذكور.فمن أشهر الأسر التي ساهمت في عملية التعليم أسرة ابن حزم إذ كانت ابنته تعلم البنات الصغار.(7) ولخير مثال عن دور المرأة الأندلسية ما عبر عنه ابن حزم الأندلسي(8):"[...] ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن [...] وهن علمنني القرآن وروينني كثيرا من

---

[1] إحسان عباس: المرجع السابق، ص 25.

[2] المقري: نفح الطيب، ج1، ص 399. وانظر: حسن ابراهيم حسن: المرجع السابق، ج3، ص456.

[3] الخشني: أبو عبد الله محمد: قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، ص 37. وانظر: إحسان عباس: نفسه، ص 25.

[4] ابن بشكوال (أبو القاسم بن عبد الملك): كتاب الصلة، القسم الثاني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1976، رقم الترجمة 1529، ص 692. وانظر : الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، ط1، دار الكتب العلمية بيروت 1417هـ/1997م، رقم ترجمة 1592 ص 472. الريسوني محمد المنتصر: الشعر النسوي في الأندلس، دار الحياة، بيروت، 1978، ص 40.

Pérès Henri : La culture intellectuelle des femmes musulmanes en Espagne au Moyen -Age » Art : in Revue de la Méditerranée, n° 6, T 17 Paris-Alger, 1957, P 578.

[5] ابن بشكوال: الصلة: رقم 1530، ص 692. وانظر :الضبي:نفس المصدر، رقم الترجمة 1593، ص 476. وانظر: إحسان عباس: نفس المرجع، ص 26.

[6] المعجب: ص 372. Pérès Henri : Op.cit, P 579

[7] Pérès : Ibid. P 580.

[8] طوق الحمامة في الألفة والألاف: تحقيق: سعيد محمود عقيل، ط1، دار الجيل، بيروت، 1417هـ/1997، ص74.

الأشعار ودربنني في الخط.." ولا شكة أن إتاحة الفرصة للمرأة الأندلسية في ميدان التعليم والثقافة قد صقل من شخصيتها ووسع افاق تفكيرها وجعلها تحتل مكانة مرموقة في مجتمعها.(1)

ومن النساء من روين الحديث ذكر ابن بشكوال(2)منهن "**غالبة**" بنت محمد المعلمة، و"**فاطمة**" بنت يحيى بن يوسف المغامي أخت الفقيه بن يحي المغامي التي كانت خيرة فاضلة عالمة رفيعة حتى كان بعض النساء يواصلن التعليم العالي ويحصلن على نفس الإجازات التي يحصل عليها الرجال عادة، فالبعض درسن الفقه وعلوم الدين وأخريات درسن الأدب، بل من رحلن إلى المشرق للدراسة مثل خديجة بنت أبي محمد عبد الله السنتجيالي التي سافرت مع أبيها وحضرت معه نفس الدروس التي حضرها في مكة. وكذا " **فاطمة بنت سعد الخير بن محمد** " التي رافقت والدها إلى المشرق وحضرت دروس كبار علمائه(3)ومثلها "**راضية**" التي سافرت مع زوجها للمشرق في (363هـ/694م)، ونسخت عددا من الكتب هناك وحملتهم للأندلس حيث احتفظ بهم حفدتها(4)ونظرا لهذا النصيب الوافر للأندلسيات من العلم والمعرفة والحرية خوّل لهن التردد على منتديات الرجال الأدبية بل كان لبعض منهن منتديات أدبية يؤمها الرجال والنساء من أشهرها ندوة "**ولادة بنت المستكفي**"(5)التي اعتبرت نموذجا لهذا النشاط النسوي(6)وقتئذ، وصورة عن حرية المرأة في الأندلس وثقافتها وفكرها وأدبها رغم ما وصفت به من جانب أخر بالمجون وميوعة الأخلاق والسفور.(7)

أما في ميدان العلوم فاشتهرت كثيرات منهن، حتى أن نساء الخلفاء كن في غير حاجة إلى الأطباء، وما دامت هناك الطبيبات أمثال أخت الحفيد أبي زهر وابنتها اللتين كانتا لهما خبرة في مداواة النساء. كما أنهن استغنين عن المعلمين ما دامت هناك نساء أستاذات ومن أشهرهن **مريم بنت أبي يعقوب** الأنصاري التي تخرجت عن يدها طائفة من النساء(8).

---

[1] مصطفى الشكعة: المرجع السابق ص 45.

[2] الصلة: الترجمة 1527، ص 691. وانظر: إحسان عباس: المرجع السابق، ص 26.

[3] ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص 34. والمقري: النفح، ج2، ص 632. Pérès Henri: Op.cit, P 581

[4] انظر المقري: النفح ج4، ص 291. Pérès Henri: Ibid. P 581.

[5] المقري: نفس المصدر، ج4، رقم 1602، ص 733. وانظر: الريسوني محمد المنتصر: المرجع السابق، ص73، 87. الشكعة: نفسه، ص175.

[6] **اشتهرت الكثير من** النساء الشواعر في عصر ملوك الطوائف منهن نزهون القلاعية، مهجة، الغسانية البجانية وغيرهن، وترجم لخمسة عشيرة امرأة وقال أكتفي بهذا الحد. أنظر: النفح، ج 4، ص 300. ومصطفى الشكعة: نفس المرجع، ص 44-45.

[7] الريسوني: نفس المرجع، ص 41.

[8] المقري: نفس المصدر، ج4، ص 291. وانظر: الريسوني: نفسه.

فهذه الحركة النسوية قامت في معظمها على أكتاف الحرائر، أما الإيماء فقد برعن في الموسيقى والغناء ومن أشهرهن **العجفاء وقمر**[1] والكثير منهن تمتعت بمكانة خاصة لدى الأمراء والحكام، واتخذت المحظيات منهن أمهات أولاد، وهي نفس الظاهرة المعاشة في المشرق[2]. وحاولت هذه الطائفة من النساء السيطرة على قلوب أسيادهن من أمراء وحكام حتى فرضن عليهن احترامهن وتقديرهن ولعلا أحسن مثال على ذلك ما قامت به الجارية " **طاروب**" في عهد عبد الرحمن الثاني (206-123هـ/821-837م) الذي صار عبدا لجمالها[3].

وهكذا أصبحت المرأة الأندلسية تساهم في بناء صرح الأدب والعلوم والثقافة والفنون في مختلف ألوانه، وربما يعود سبب هذه النهضة النسوية إلى البيئة الأندلسية التي زخرت رحابها بمباهج الحضارة والرقي، وإلى تشجيع الحكام للحياة الثقافية[4].

هذا عرض وجيز للمرأة المسلمة عبر التاريخ، ولقد اكتفيت بذكر أشهرهن، وإني اعترف بأنني قصرت في حق الكثيرات منهن. والقصد من هذه اللمحة التاريخية في مسار المرأة المسلمة هو الرجوع إلى المنبع الأصلي للمرأة المسلمة والتعرف على مختلف أدوارها الحياتية باختلاف زمانها ومكانها في ظل النظم السياسية والفرق الدينية، المختلفة منذ صدر الإسلام إلى غاية القرن (5هـ/11م).

وهكذا لم تتوقف الحركة النسوية عبر هذه المسيرة لحظة، إلا أنها كانت تتأرجح تارة بين البروز والفتور، متأثرة بعوامل عدّة حددت من حرّيتها وكبتت بعض مواهبها وطموحاتها. ورغم ذلك فقد اعتلت في ظروف خاصة كرسيّ الحكم وكانت جديرة به وكان لبروزها في المجتمع ثمار جنية فكانت أستاذة وعالمة وفقيهة ومحدثة ونحوية وعروضية وشاعرة وخطاطة وموسيقية.

ومن خلال ما استعرضت تبيّن لي أن حظ المرأة الأندلسية كان أوفر في هذا الشأن من المرأة المشرقية والمغربية، ورغم أن دور المرأة المغربية لم يكن بارزا كمثيلتها في الأندلس والمشرق، إلا أن ذلك لم يبخسها دورها في الحضارة الإسلامية، نظرا لظروف المغرب الإسلامي السياسية الذي كان

---

[1] المقري: النفح، ج3، ص 140 و 141.

[2] ابن حزم: المصدر السابق، ص 17. حركات إبراهيم: المجتمع الإسلامي، ص100، 101.

[3] ابن حزم: نفسه. المقري: نفس المصدر، ج3، ص 613. وأنظر: حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج2، ص351. وأنظر: رضا كحالة: أعلام النساء، ج2، ص 366 - 367.

[4] الريسوني: المرجع السابق، ص 55.

من خلال تتبع رحلة عودة ابن تومرت يتضح على أفعاله أنها توزعت بين طلب العلم وتلقينه وتصحيح الأحكام الشرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب ما كان يراه. لكنه كان دوما حذرا متفاديا الإستطدام مع أصحاب السلطة(1) وأما في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد احتلت المرأة جزءا هاما في دعوته إلى الإصلاح.

وإذا تتبعنا وقائع رحلة العودة، فإن ابن تومرت كان يترصد العنصر النسوي وينهى عن المنكر وذلك من حين دخوله الحيز الجغرافي للدولة المرابطية إلى غاية وصوله إلى مراكش حاضرة المرابطين. حينئذ دخلت دعوته في طور جديد متخذا من مفاسد الطبقة العليا مادة لوعظه وهدفا لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.(2)

لقد استغل ابن تومرت فرصة عرس زفاف في تلمسان الذي رأى فيه ألوانا من اللهو، فنهى عنه وكسر الدفوف... وفي اليوم الثاني من إقامته بوجدان - وجدة حاليا - يروي لنا "البيذق"، أن صاحبه المهدي "رأى النساء يستقين مع الرجال يتوضئون، فقال: أليس هذا بمنكر، النساء مع الرجال مختلطين ؟إصنعوا لنا ساقية وصهريجا عند الجامع"(3) وفي هذه المرة لم يطرح سفور النساء إنما ركز على الاختلاط. وربما النساء لا يستقين إلا بعد فراغ الرجال من الوضوء، فعملية الوضوء لا تستغرق وقتا طويلا، كما أن الحاجة إلى الماء ضرورية جدا. والملاحظ أن هذه السقاية هي الوحيدة في هذا الموضع فتضطر النساء التزود منها، لأن المهدي طلب منهم إقامة سقاية أخرى وصهريجا عند الجامع. وعندما دخل مدينة صاء (تعرف اليوم بتاوريت الواقعة على أحد روافد نهر ملوية) أعرض عن النظر لنساء مزينات ومحليات يبعن اللّبن. وطلب من الفقيه يحيى بن يصيلتن - الذي كان حاضرا - بتغيير المنكر لأنه من فعل الجاهلية الأولى(4) مستشهدا بالآية القرآنية: "ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها".(5)

ويبدو أنه كان لا يطيق النظر لهؤلاء النساء. لكن لم يوضح ما نوع الزينة المتخذة والحلي المستعمل الذي استوجب إنكاره، وألقى مسؤولية تغييره على الفقيه يحيى بن يصيلتن ولم يباشرها هو

المركزية عام 514هـ/1120م. أنظر: ابن القطان: نفس المصدر، ص 21 و 22. ابن خلكان: نفس المصدر، مج5ص48-49. وعبد الحميد النجار: المهدي ابن تومرت، ص 84.

[1] مصطفى بنسباع: السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف مابين عصري المرابطين والموحدين، ص 33. وأنظر: عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1971، ص 70

[2] عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1411هـ/1991م. ص. 38.

[3] أبو بكر الصنهاجي "البيذق": المصدر السابق، ص. 40.

[4] البيذق: نفسه، ص 40.

[5] سورة النور الآية: 41.

بنفسه أو صحبه. لأن من الزينة ظاهر وباطن . فما ظهر مباح أبدا لكل الناس من المحارم والأجانب. أما فيما يخص الحليّ، فقد سئلت عائشة عن السوار، فقالت هي من الزينة الظاهرة لأنها في اليدين(1) إلا أن ابن تومرت أعرض كليا عن النظر لهؤلاء النساء. -يبدو أنه من الطائفة التي ترى بأن المرأة كلها عورة-. ويروي لنا رفيق رحلته البيذق أنه في المسجد بدشر قلال سمع صراخ الرجال والنساء يلهون فأمر أصحابه بتغيير المنكر والأمر بالمعروف. إلا أنه وجد إنكارا من طرفهم فلما خاف رد فعل منهم غير محمود، أمر أصحابه بمغادرة المنطقة قائلا لهم: "سيروا عنهم لئلا يصيبهم بلاء فيصيبنا معهم". ويبدو أن في هذا الوقت لم يكن مستعدا للمواجهة. فصرف أصحابه بطريقة ذكية للحفاظ على سمعته بين الناس(2).ويبدو أن الاختلاط كان شائعا من خلال تصرفات ابن تومرت بحيث بدد شمل مجلس من النساء والرجال في يوم عيد الفطر ولم يتورع في استعمال العصا فيقول البيذق: "ودخل عليهم بالعصا ضربا يمينا وشمالا". لكن هل هذا الاختلاط بلغ الحد المنهي عنه فبدده أم بمجرد رؤية النساء والرجال أنكر عليهم ذلك ؟ فكما جاء في النص أن هذا المجلس كان يوم عيد الفطر، وهو يوم ملاقاة فانقلب من يوم عيد إلى يوم وعيد.

والملاحظ **هنا** هو أن ابن تومرت كان يتحين الفرص والمناسبات في إثارة الناس وجلب أنظارهم نحو دعوته للإصلاح ونبذ المفاسد آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر إلى أن أصبح يستعمل العنف. مع العلم أن هذا السلوك الأخير كان جائزا لرجال الحسبة الحكوميين وغير جائز للمتطوعين من أمثال المهدي بن تومرت(3)

أما المحطة الحاسمة من رحلة عودته فكانت بمراكش العاصمة التي تؤوي السلطة المركزية المتمثلة في أمير المسلمين علي بن يوسف (500هـ-537هـ/1106م-1142م)إلى جانب وجود سلطة الفقهاء. فبينما محمد بن تومرت يمشي في إحدى طرق مراكش إذ رأى أخت أمير المسلمين " الصورة " في موكبها ومعها من الجواري الحسان عدة كبيرة وهن مسفرات، وكانت هذه عادة الملثمين، التي يسفر فيها النساء عن وجهها ويتلثم الرجل. كما أن هذه العادة ليست غريبة على ابن تومرت، فهو ابن المنطقة – السوس – وقد إعتادى إلى رؤيتهن بهذه الصفة. فقد نشأ في (485هـ/1092م) وترعرع في الدولة المرابطية وهي في أوج ازدهارها. بيد أن هذه المرة حين رآهن

[1] القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري): الجامع لأحكام القرآن، المجلد 11 و 12، ط.5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/1996م.ص.152. كما قال ابن عباس وقتادة والمسور بن مخرمة: ونحو هذا فمباح أن تبديه المرأة لكل من دخل عليها من الناس. أنظر القرطبي: نفسه. وإن كان فيه اختلاف لبعض العلماء.

[2] البيذق: المصدر السابق، تق:حاجيات، ص42. وأنظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، حاشية1، ص 49. وبنسباع: المرجع السابق، ص 52.

[3] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 109. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج4، ص 282. وعبد الله علام: المرجع السابق، ص 57.

أنكر عليهن ذلك وأمرهن بستر وجوههن. وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت أخت أمير المسلمين "الصورة" عن دابتها.(1) وما لبثت أن دخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه، فاوض أمير المسلمين الفقهاء في شأنه وبما وصل إليه من شهرته.(2) ومن هذه الحادثة مع أخت أمير المسلمين، تدخل الدعوة المهدوية طورا جديدا. لكن كل المفاسد التي دعا إلى تغييرها كانت مادة لوعظه في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر: كالاختلاط بين النساء والرجال وإبداء النساء لزينتهن وسفورهن في المجتمع.(3)

والملاحظ في طريقة وعظ ابن تومرت، تدرجه في إعلان الدعوة، مبتدأ بقاعدة هرم الدولة أي بنساء العامة، بسطاء المناطق التي مر بها كتلمسان ووجدة وفاس، إلى أن وصل إلى مراكش أين يتربع البلاط المرابطي، أي قمة هرم الدولة. وهكذا يتبين من حملته الدعائية اتخاذ بعض تصرفات النساء مطية له لنقد سياسة البلاط الدينية والنيل منها سياسيا.(4) كان المهدي بن تومرت يستند في أقواله وأحكامه على الأحاديث والآيات القرآنية ويطبقها على المرابطين رجالا ونساء، ومثلا على ما تقدم مسألة اللثام، وتشبه الرجال بالنساء في تغطية وجوههم بالتنقيب والتلثيم، أي خلافا لنسائهم السافرات ويحرم ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام: "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء، شملتهم اللّعنة جميعا ومن كثر سواد قوم فهو منهم وذلك كلّه حرام".(5) لكن في الحقيقة أن مسألة اللّثام ما هي سوى تقليد قومي وقبلي لا شأن له بالدين أعتبره ابن تومرت جرما استوجب اللّعن(6) ولقد سئل عنه قاضي الجماعة أبو الوليد بن رشد فحث على عدم إزالته.(7)

---

[1] ابن خلكان: المصدر السابق، مج5، ص 49. وأحمد بن عبد الوهاب المعروف بالنويري: تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، من كتاب نهاية الأدب في فنون الأدب. تحقيق: مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص 397. ابن خلدون: العبر، ج12، ص 382. السلاوي الناصري: المصدر السابق، ج2، ص 8. وأنظر: حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ص 48. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 364.

[2] عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 184. وأنظر: ابن خلكان: نفس المصدر، ص 49. وابن خلدون العبر، ج 12، ص382. وله في ذلك قصة يطول شرحها. أنظر: ابن خلكان: نفسه.

[3] عز الدين عمر موسى: الموحدون تاريخهم السياسي، ص38.

[4] بن عبد الله عبد العزيز: "وحدة الفكر من الخليج إلى المحيط": مجلة التاريخ العربي العدد11، 1420هـ/1999م، ص 35. وأنظر: عبد الله علام: المرجع السابق، ص 70.

[5] محمد بن تومرت: أعز ما يطلب: تحقيق عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص247. وأنظر: ابن القطان: المصدر السابق، ص 46-47. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 109.

[6] عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج1، ص212.

[7] ابن رشد: فتاوى ابن رشد: تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، السفر2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1407هـ/1987م، رقم 277، ص ص 963، 964، 965. الونشريسي: المعيار، ج1، ص 225. أنظر الملحق رقم 13

ومن آرائه نبذ طاعة المرابطين وجهادهم لأنهم هم الطائفة (1) التي وردت في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وعلاماتهم ما يلي:"[...] والثالثة يبعث نساءهم رؤوسهن كأسنمة البخت، يعني أنهن يجمعن شعورهن فوق رؤوسهن حتى تكون شعورهن على تلك الصفة. والرابعة أنهن كاسيات عاريات والخامسة أنهن مائلات يعني عن الحق والرشاد، والسادسة أنهن مميلات يعني لغيرهن، والسابعة أنهن يغدون في سخط، والثامنة أنهن يروحون في لعنة، هذه علاماتهم [...] أخبر الرسول بجميعها قبل وجودهم."(2) كما ورد في الحديث الشريف عن أبي هريرة عن الرسول(صلى الله عليه وسلم): " [...]ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها..."(3) واستطاع أن يجذب إليه الناس الذين انقادوا إليه نظرا لغزارة علمه(4) وحزمه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لكن من جانب أخر أثار انتباه السلطات الرسمية إليه، لأنه كان يمارس سلوكه دون استشارة أمير المسلمين ولا حتى القضاة والوزراء(5) فلما خشي سطوة السلطة عليه لاسيما الفقيه مالك بن وهيب(6) الذي أشار على أمير المسلمين توقيفه من الوهلة الأولى وقبل أن يشتد أمره في البلاد. لجأ إلى جبل تينملل – تين ملل-(7) للتحصن بها، فوجد استقبالا وترحابا من طرف سكانه. لكن لما خاف تألبهم عليه لجأ إلى الحيلة مستهدفا عرض نساء تينملل. وعن ذلك يقول: ابن خلكان: "فرأى أولادهم شقرا زرقا وألوان آبائهم السمرة والكحل، سألهم عن سبب ذلك إلا أنهم لم يجيبوه. ولما ألزمهم بالإجابة، قالوا نحن رعية الملك وله علينا خراج وفي كل سنة تصعد مماليكه إلينا ينزلون في بيوتنا ويخرجونا عنها ويخلون بمن فيها من النساء، فتأتي الأولاد على هذه الصفة، ومالنا قدرة على

---

1 خصص ابن تومرت في كتابه "أعز ما يطلب" عشرة بابا في تحريم طاعة المرابطين للمزيد من المعلومات عنها أنظر :نفس الكتاب: تحقيق عمار طالبي ص ص 242-243. و ابن القطان: نفس المصدر : ص ص 46-49.

2 ابن تومرت: نفسه، ص 242-243.

3 ابن تومرت: المصدر السابق، ص244. عبد الحميد النجار : المرجع السابق، ص 118-119.

4 ابن الاثير : المصدر السابق، مج9، ص 196. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 114.

5 بنسباع: المرجع السابق، ص44.

6 ملك بن وهيب: من فقهاء البلاط المرابطي شارك في المناظرة مع ابن تومرت، هو الذي قال لأمير المسلمين:تقفه [...] اجعل له كبلا، كي لا تسمع له طبلا، وقيل أنه همّ بقتله أنظر : ابن خلكان: مج5، ص1. ابن الأثير : نفس المصدر مج9، ص197. أنظر : عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 185.

7 تينملل: أو تين ملل: كلمة بربرية مؤلفة من تين بمعنى ذات، وإيمل بمعنى الحواجز "الصرايم-التي توضع في سفوح الجبال بجعلها صالحة للزراعة والسقي، وهذا الجبل كان مهدا لدولة الموحدين. وقلعة حصينة ببلاد المصامدة اعتصم بها المهدي بن تومرت وأقام بها داره ومسجده، الذي يسميه سكان المنطقة بتمزكيدة تومليت -أي المسجد الأبيض- كما يزعم أنه يوجد بها قبل ابن تومرت. أنظر : إسماعيل العربي: القارة الإفريقية والأندلس "مقتبس من كتاب نزهة المشتاق لأبي عبد الله الشريف الإدريسي" ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 133. وأنظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص69. و السلاوي، الاستقصا، ج2، ص 78.
Dr Ferriol : « Les Ruines de Tinmel », in Hespéris, T II, 4ème Trim 1922, PP161, 167.

ذلك(1)ويبدو أن إلزامهم بالجواب ما هو إلا تواطؤ وخطة مع بعض المتآمرين معه وحيلة حكيت في الخفاء للطعن في عرض نساء تينملل، وجر رجالهم للعصيان والتمرد ضد السلطة. فلما حان موعد جباية الضرائب أشار عليهم بسقي الجند بالخمر حتى السكر، ثم أمر بقتلهم في ليلة واحدة. وهكذا شق أهل الجبل، عصا الطاعة عن الحكم المرابطي(2)وأصبحت تينملل قاعدة للدعوة الموحدية تنطلق منها مرحلة جديدة للدعوة المهدوية(3)

وهكذا تنتهي رحلة العودة ببلد تينملل بعدما بدأها ابن تومرت بدعوته كفقيه مصلح آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر استرعت المرأة جزءا مهما منها منذ بدايتها إلى غاية دخوله إلى مراكش، وتقريعه لأخت أمير المسلمين "الصورة" أمام الملأ وبفعله هذا يدق جرس الخطر على البلاط المرابطي. وللإشارة فإن الانحرافات التي بدت على المرابطين من اختلاط وتبرج وفساد في الأخلاق لم تكن وليدة المجتمع المرابطي، بل كانت شائعة أيضا في المشرق وصادفها إثر عودته في بجاية(4) لكن استطاع ابن تومرت بذكاء ودهاء أن يشيع هذه الاتهامات في أوساط بعض الناس السذج من ناحية العقيدة، واعتبر التلثم كالحشم أي كالنساء، نقيصة. وعموما فالحملات الدعائية تحتوي الغث والسمين والصدق والكذب -الوسيلة تبرر الغاية-، ولكثرة ترديد هذه الاتهامات اختلطت الحقائق بالأكاذيب(5) وأنجر الكثير في التيار المهدوي الموحدي. فإن كانت هذه الظواهر الاجتماعية من الاختلاط والسفور قد أذكت الدعوة الموحدية في نقد سياسة الجهاز الحكومي ونقد سلطة الفقهاء في عدم تطبيق نصوص الشرع الإسلامي(6)فإن عبد الواحد المراكشي مؤرخ البلاط الموحدي، ساهم من جانبه في التشهير بهذه الادعاءات والاتهامات في حق المرأة المرابطية التي اتخذها المهدي الموحدي إحدى ذرائعه لمهاجمة السلطة المرابطية. حيث يقول "واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور. وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب

---

[1] ابن خلكان: المصدر السابق، مج5، ص 51-52. وأنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، مج9، ص 197و 198.

[2] ابن خلكان: نفس المصدر، مج5، ص253. و أنظر: النويري: المصدر السابق، ص 400.

[3] ضاعف من جهوده وأصبح يرى نفسه أحق بالسلطة. ولما اجتمع له حوالي عشرة آلاف مقاتل اتخذ المبادرة العسكرية ضد المرابطين. وبدأ ينقل العمليات العسكرية إلى مناطق نفوذ المرابطين، وما بين (518هـ-1124م/523هـ-1128م). حقق عدة انتصارات مما شجعه إلى حصار مراكش للاستيلاء عليها. إلا أنه انهزم جيشه في معركة البحيرة. 524هـ/1129م فانحصر الموحدون بتينملل. وبعد ثلاثة أشهر توفي المهدي بن تومرت في رمضان 524هـ/1129م وآلت زعامة الحركة الموحدية لعبد المؤمن بن علي. أنظر: ابن خلكان: نفسه. أنظر: الحلل الموشية، ص 113 و 114. وأنظر: ابن قربة صالح: عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، رغاية، 1985ص ص 23، 27.

[4] ابن القطان: المصدر السابق، ص 41. عبد الحميد النجار: المرجع السابق، ص 89-90.

[5] عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين...، ص28.

[6] ابن تومرت: المصدر السابق، ص 242-243.

خمر وماخور"[1] كما يرجع سبب ضعف أمير المسلمين علي بن يوسف إلى استحواذ النساء عليه حيث يقول:"كان رجلا صالحا مجاب الدعوة [...] إلا أنه كان ضعيفا مستضعفا. ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة [...] من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور، وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ ووزرا على ما تقدم "[2] فما مدى صحة هذا النص التاريخي؟

الإجابة عن هذا السؤال تأتي بعد استعراض نماذج لنساء الدولة المرابطية وإسهاماتهن في البناء الحضاري.

3 المرأة والسياسة:

حظيت المرأة في العهد المرابطي بإسهامات في الحياة السياسية، إذ تمتعت بالحرية والمساواة التامة مع مشاركتها في مجالس القبيلة. ومن هؤلاء النساء زينب النفزاوية، حواء بنت تاشفين، مريم بنت إبراهيم و الجارية قمر.

أ- زينب بنت إسحاق النفزاوية:

في قراءة للمصادر التاريخية المتعلقة[3] بقيام الدولة المرابطية، أجدها تتفق في معظمها على الدور الذي قامت به زينب النفزاوية في تدعيم وتثبيت السلطة لزوجها يوسف بن تاشفين، حيث ساندته ماديا ومعنويا. ليستمر نفوذها السياسي في هذه الدولة طيلة حكم يوسف بن تاشفين إلى أن توفيت. فمن تكون هذه المرأة المرابطية ؟ وكيف تمكنت من فرض شخصيتها في دولة دينية، عرفت بسلطة فقهائها المالكيين؟

بدأ بزوغ نجم زينب النفزاوية[4] بعد أن تزوجت من الأمير أبي بكر بن عمر. أما قبل ذلك فلم تذكرها المصادر التاريخية إلا في سياق الكلام عن حروب المرابطين في منطقة السوس بالمغرب الأقصى.

---

[1] المعجب: ص177.

[2] عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص186.

[3] أنظر قائمة البيبليوغرافية.

[4] نفزاوة: منطقة بالمغرب الأدنى بينها وبين القيروان مسيرة ستة أيام. وهي حافلة بالأسواق. أنظر: البكري: المصدر السابق، ص153. الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، المجلد1، بيروت 1409هـ/1989م، ص283. اليعقوبي: كتاب البلدان، ط1، ج6، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1408هـ/1988م، ص107. ابن خلدون: العبر، ج12 ص ص 232-235. وأطلق عليها هذا الاسم.أنظر: ابن عذاري: البيان، ج4 خاص بالمرابطين، ص18.

فزينب تنسب إلى أبيها إسحاق الهواري، رجل من التجار وأهله من القيروان(1) كما قيل على أنها ابنة صيدلي من القيروان،(2) وهذه الأخيرة كانت أكثر مدن إفريقية آنذاك حضارة. إلا أن الطرح الأول أقرب إلى الصحة، لأن زينب سكنت أغمات.(3) هذه المدينة التي كانت مقصدًا للكثير من التجار ومنهم والدها، كما أن أهلها من قبيلة هوارة البربرية، الذين عرفوا بالثراء بسبب ممارستهم للتجارة، ونظرًا لموقع المدينة حيث تقع في مفترق الطرق التجارية بالمنطقة، لكن فيما يخص إنتقالها إلى مدينة أغمات لم تتطرق المصادر التاريخية إلى هذا الموضوع. وهل كانت تمارس التجارة مع والدها أم ألزمتها ظروف أخرى على ذلك ؟ يبدو أن ظاهرة تنقل النساء بين أجزاء المغرب كانت معتادة لأسباب اجتماعية أو سياسية أو إقتصادية، فهذه فاطمة أم البنين مؤسسة جامع القرويين بفاس هي أيضا أصلها من القيروان. الملاحظ هو أن هذا النسب يؤكد ترعرع زينب النفزاوية في جوّ متحضر وفي وسط ثري ساهم في تكوين شخصيتها القوية.

فمن خلال ما سبق دراسته بإمكاني تقسيم حياة هذه المرأة إلى المراحل التالية:

المرحلة الأولى: قبل استيلاء المرابطين على مدينة أغمات.

المرحلة الثانية: زواج زينب النفزاوية بأبي بكر بن عمر ثم بيوسف بن تاشفين.

تتفق كل المصادر التي أرخت لهذه الحقبة وما بعدها أن "زينب النفزاوية" كانت امرأة جميلة حازمة لبيبة ذات رأي وعقل و جزالة ومعرفة بالأمور حتى كان يقال لها الساحرة، وكان لها أخبار مستطرفة غريبة، كمثل أخبار الكهنة.(4)

ويقول ابن خلدون(1) في هذا الصدد: "أن زينب النفزاوية كانت مشهورة بالجمال والرياسة، وكانت قبل لقوط، عند يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن وطاس وكان شيخا على وريكة، وهزرجة

[1] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص. 53. وسميت بزينب بنت إبراهيم: النويري: المصدر السابق، ص 385.

[2] جان وجيروم طارو: أزهار البساتين...، ص53، أما حاشية الكتاب تنص على أنها بنت تاجر وهذا ما ذهب إليه جل المؤرخين.

[3] أغمات: مدينة بالمغرب الأقصى بقرب وادي درعة كانت في منتصف القرن 5هـ/11م من أكبر مدن جبل درن الأطلسية، أهلها تجار مياسير، لم يكن في دولة الملثمين أكثر منهم أموالا. وهي مدينتان بينهما ستة أميال، هما: أغمات إيلان شرقية يسكن بها اليهود، وأغمات وريكة غربية أهلها هوارة – مكان سكنى زينب النفزاوية – تعد مدينة أغمات عاصمة المرابطين الأولى قبل بناء مراكش. أنظر إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص 135-137. وأنظر: الحميري، الروض المعطار، ص.46 وياقوت الحموي: معجم البلدان: مج1، ص225.

[4] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص18. وابن أبي زرع: نفس المصدر، ص 83.
Jacques Meunié : Le Maroc saharien des origines au XVIème siècle, Librairie Klincksiek, 1982, P 240.

بزمن هيلانة في دولة أمغارن في بلاد المصامدة وهم الشيوخ، ولما تغلب بنويفرن على وريكة ملكوا أغمات فتزوج لقوط بن يوسف المغراوي زينب بنت إسحاق الهواري".(2)ولقوط هو اخر أمراء أغمات غلبه المرابطون سنة (449هـ/1017م). ففر عنها ليلا هو وجميع حشمه إلى تادلا تاركا وراءه زوجته.

والظاهر أن الذي جعل الذكر للقوط هذا دون سابقيه من أمراء أغمات، وذكر يوسف بن علي بن وطاس(3)شيخ وريكة، يعود إلى أن أبا بكر بن عمر أمير المرابطين خلفهما فيما بعد في الزواج بزينب بنت إسحاق الهواري، التي تزوجها فيما بعد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين(4)فابن خلدون الذي حاول استقصاء أخبار القبائل بدقة وبطريقة تثير الدهشة لم يعرف بهاتين الشخصيتين بل أشار فقط، أن زينب النفزاوية كانت زوجة كلاهما على التوالي(5)

لقد شاع ذكر زينب وأمرها في قبائل المصامدة وغيرها من القبائل، فكان يخطبها أشياخهم وأمراؤهم فتمتنع لهم بقولها: "لا يتزوجني إلا من يحكم المغرب كلّه"، فكانوا يرمونها بالحمق(6)ونظرا لمكانة هذه المرأة الاجتماعية وشهرتها التي تعدت منطقتها، فقد قيل أن مسعود بن وانودين تزوجها هو أيضا، وبعد مقتله من طرف المرابطين تزوجها أبو بكر بن عمر،(7)لكن من خلال تتبعي لحياة هذه المرأة، يبدو أنها لم تخرج من منطقة أغمات، كما أنه لم يرد عند استيلاء المرابطين على سجلماسة ذكر زينب على الإطلاق عكس ما حدث عندما ما استولوا على أغمات(8)

ومما يدعو للتساؤل عن حلمها في التزوج ممن يحكم المغرب كلّه؟ ولذلك يفترض أن زينب امرأة تتنبأ بالمستقبل حيث كان يقال أنها ساحرة وتكلمها الجن. ورموها من أجل ذلك بالحمق،(9)أم كانت المرأة الراجحة العقل اللبيبة، المدركة للوضع الحرج لمنطقتها وحتى للمغرب كلّه، نظرًا للأهمية الإقتصادية

---

[1] العبر:ج12، ص 382. لكن هنري طيراس يذكر أن زينب كانت إحدى محظيات ابن وطاس دون أن يوضح نوع العلاقة بينهما انظر: Terrasse (Henri), Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français, Atlantide, Casablanca, 1949, P 221.

[2] ابن خلدون: نفس المصدر، ص 382.والسلاوي:الاستقصاء، ج2، ص15. و أنظر بن عبد الله عبد العزيز: معجم أعلام النساء بالمغرب الأقصى، ص 15.

[3] ابن أبي زرع: نفسه، ص 83. ابن عذاري: نفسه، ج4، ص18.

[4] سعد زغلول (عبد المجيد): تاريخ المغرب العربي، ج3، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990م، ص511.

[5] ابن خلدون:نفسه، ج12، ص 382. وأنظر: سعد زغلول: نفسه، ص 511، ولم يرد في البيان المغرب أن زينب النفزاوية كانت زوجة لهاتين الشخصيين. أنظر: ابن عذاري:نفسه.

[6] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 18. و ابن خلدون: نفسه.

[7] انظر في ذلك: حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، مج2 ص21.

[8] ابن أبي زرع: نفس المصدر، ص 78 و79. محمد الهادي شعيرة: المرابطون: تاريخهم السياسي، ص57.

[9] ابن عذاري: نفسه.

التي كانت تتمتع بها مدينة أغمات -إحدى مسالك التجارة الهامة- فهذه المنطقة كانت من بين أهداف الحركة المرابطية الزاحفة نحو الشمال(1) أما بالنسبة لمن رموها بالحمق، فربما كانوا يرون من المستحيل تحقيق حلمها نظرا للتجزئة السياسية التي عرفتها المنطقة.(2) وبالتالي كيف يتسنى تحقيق الوحدة السياسية للمغرب في ظل حاكم واحد تتزوجه زينب النفزاوية ؟ أم أنها قالت ذلك ليبلغ خبرها أمير المرابطين أبي بكر بن عمر؟

وإلى جانب الأمير أبي بكر بن عمر وجدت شخصية أخرى لها مكانتها ودورها في الدولة المرابطية، وهي شخصية الفقيه عبد الله بن ياسين(3) كلاهما في مدينة أغمات وريكة من جمادى الأولى (450هـ/1058م) إلى غاية ذي القعدة من نفس السنة، فهذه المدة التي تقدر بحوالي ستة أشهر في أغمات ألفتت إنتباهي، كيف أن زينب النفزاوية لم يتزوجها عبد الله بن ياسين بعدما قتل زوجها لقوط المغراوي ؟ فقد قيل عن عبد الله بن ياسين، أنه كثير النكاح، يتزوج في كل شهر عدد من النساء ويطلقهن. وإذا سمع بامرأة جميلة تزوجها.(4) وهذا نوع من الشذوذ حسب ابن أبي زرع(5) فكيف لم يتزوج زينب النفزاوية الموسومة بالجمال والمال التي شاع ذكرها في البلاد؟ وذكر أن عبد الله بن ياسين، أنه كان لا يجمع بين أكثر من أربع نساء في الشهر. و لذا فإنه لم يتعد في هذا الجمع الحد الشرعي. ولكن إن صح القول، فيكون قد تزوج بـ (48) ثمانية و أربعين امرأة في سنة، بمعدل أربع نساء في الشهر. هذا ما يبدو من جانب أمر مبالغ فيه، أو ربما فعل ذلك نظرا لكثرة النساء. لكن بالمقابل كان يطلقهن فيما بعد. فالطرح الأقرب إلى الصحة، هو أن سلوكه هذا يدخل في إطار دعوته الإصلاحية. ربما ليكون قدوة لأهل الصحراء ويعلمهم ما أحل الله تعالى لهم. لأن صاحبه الأمير يحي -المتحمس للإسلام الصحيح-، قد وافق بسهولة على تصحيح موقفه بفراق خمسة من نسائه -كان له تسع نسوة- إلا أن هذا الأمر لم يكن هينا بالنسبة لرؤساء القبائل الآخرين خاصة.(6)

---

[1] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص ص 11-15. حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 172.

[2] كانت تسود في المنطقة تسع إمارات زناتية فقدت وحدتها السياسية، وتمسكت بالشخصيات الإقليمية فأصبحت قوة منقادة في غير هدف لها، لمزيد من المعلومات عن هذا الوضع أنظر: محمد الهادي شعيرة: المرجع السابق، ص 57. وانظر: حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين: ص 165 و166.

[3] عبد الله بن ياسين: كان شديد الورع في المطعم والمشرب وكان مع ذلك كثير النكاح.ترجمته عند القاضي عياض: المصدر السابق، مج 2، ص333. وانظر حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص103-140.

[4] البكري: المصدر السابق، ص 169. وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 76. وابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص 16.

[5] لما وصل عبد الله بن ياسين بلاد كدالة مع يحيى بن إبراهيم كدالي وجد عنده تسع نسوة فنهاه [....] حتى أن الشخص من أهل المنطقة كان يجمع بين العشر نسوة، فاستنكر ذلك منهم...أنظر: روض القرطاس، ص 76. والناصري : الاستقصا، ج2، ص7 و 19.

[6] سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج4، ص 176.

كما كان شائعا في المجتمع الملثم بصفة عامة عادات تتنافى مع الإسلام، منها تعدد الزوجات أكثر من أربع، وكان من له عشر زوجات(1) وشاع مصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها والعكس بالنسبة للمرأة. وهي عادات عانى منها كثيرا عبد الله بن ياسين حتى تمكن في الأخير من أن يضع لها حدا(2) فمن حسن سياسته أنه أقام صنهاجة على السنة والجماعة بعد جهود مضنية.(3) فلما انتقل إلى الشمال أي -أغمات -وجد أهلها أكثر استقامة فلم يغريه جمال زينب النفزاوية ولا شهرتها في المنطقة عن الجهاد، هذا أستدل به على أن فعله السابق إنما قصد به الإصلاح وإلا كانت زينب النفزاوية في عدد النساء اللائي تزوجهن، ويصدق عليه هذا الشذوذ من الفعل. فمن الملاحظ عليه في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، أنه كان يطبق علمه على أعماله وأعمال الناس حتى استقامت له الأمور.(4)

المرحلة الثانية:

لما استقر الوضع للأمير أبي بكر بن عمر بمدينة أغمات منذ سنة 460هـ/1067م، سمع بزينب النفزاوية، وبما تقوله:"لا يتزوجني إلا من يحكم المغرب كلّه" إضافة إلى ما تحظى به هذه المرأة من جمال وذكاء، فاستدعاها وخطبها، ووعدته بأموال كثيرة تخرجها له.(5) وما يدعو للتساؤل أكان وعدها له بالأموال قبل زواجها منه أم بعده ؟

فإن كان ذلك الوعد قبل زواجها منه، فهي إذن كانت تتحصن خوفا من ضياع أموالها ولم تشهر بنفسها إلا بعد أن استقرت الأوضاع في مدينة أغمات لتحظى بأبي بكر بن عمر. و تحقق به أحلامها في رياسة المغرب. فحسب ما ذكره ابن عذاري أن دخول أبو بكر معرسا بزينب النفزاوية كان في ذي القعدة من عام (460هـ/1067م).(6)

---

1 البكري: المصدر السابق، ص 169، 170.

2 ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد):رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرح، طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت(د ت) ص687.Lagardère -V-:Op.cit .P 48-49. سعدون عباس نصر الدين:دولة المرابطين في الأندلس عهد يوسف بن تاشفين، دار النهضة العربية ط1 بيروت 1405هـ/1985م ص 18. و جان جيروم طارو: المرجع السابق، ص 28-29.

3 الناصري: المصدر السابق، ج2، ص 7. ATTILIO -Gaudio : le dossier de la Mauritanie. P31

4 سعد زغلول:المرجع السابق، ج4، ص 176.

5 ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص18.

6 **أما ابن أبي زرع فيذكر أن هذا الزواج لم يدم سوى 3 أشهر حيث رجع أبو بكر إلى الصحراء في ذي القعدة عام 453هـ، أي كان زواجهما في شعبان 453هـ/1061م. بفارق 8 سنوات على ما ذكره ابن عذاري، ص 18،** روض القرطاس ص 83، Lagardère Vincent : Op.cit, P 76.

لما عاين من الذخائر والذهب والفضة، فقالت له:" هذا كلّه مالك ومتاعك، أعطاك الله اياه على يدي، فصرفته الآن عليك". وكان رؤيته له بضوء الشمع، ثم أخرجته معصب العينين من ذلك الموضع كما أدخلته فيه، فلم يعلم لا من أين دخل ولا من أين خرج(1)!!

يبدو من خلال هذا النص ذكاء هذه المرأة وحزمها وحرسها على أموالها فرغم أنها وعدت زوجها بالأموال، وعاين ذلك بنفسه إلا أنّها لم تفش له سر سراديب المال- لم يدر لا من أين دخل ولا من أين خرج . فكانت حذرة لبقة في تصرفها معه. لا غرو في ذلك وهي صاحبة تجارب سابقة في الزواج، ومن مدينة أغمات وريكة الإقتصادية ومن بيت ثري. هذا مما يدل على أنها لم تكن تثق فيه تمام الثقة. لكن الزوجة الجميلة الطموحة لم تهنأ بزواجها لمدة طويلة حيث فارقها أمير المرابطين حينما وردت عليه أخبار من الصحراء مفادها أن قبيلة جدالة قد أغارت على قبيلة لمتونة، فعزم على الذهاب لنجدة قبيلته. في سنة (463هـ/1070م)(2) .

وما تجدر الإشارة إليه أن من بين أسباب رجوع الأمير أبي بكر إلى الصحراء ما سمعه من تلوم عجوز في الصحراء ذهبت لها ناقة في غارة، فبكت وقالت:" ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب، فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب من أصحابه يوسف بن تاشفين ورجع إلى بلاده الجنوبية"(3)هذا ما يدل على حرص أبي بكر في الحفاظ على أمن واستقرار قبيلته. لكن في الحقيقة أن صرخة هذه العجوز ليست هي السبب الرئيسي لهذا السفر، إنما هي تعبيرًا على هلع القبيلة نظرًا لفقدان الحماية الكافية للمحافظة على أعراضها و أموالها. واستغلت صرخة هذه العجوز لاستعطاف الأمير أبي بكر بن عمر الورع، فطرح الزوج الورع على زوجه-زينب- الأمر الطارئ لما كانت تتمتع لديه من مكانة وحرية رأي قائلا: " أني مسافر برسم الفتن والحروب ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي، فإن مت، كنت مسؤولا عنك، والرأي أن أطلقك" فردت عليه:"الرأي السديد ما تراه". وقيل هي التي طلبت منه طلاقها فأسعفها بذلك(4)ولا غرابة في اتخاذها لهذا القرار نظرًا لما امتازت به من ذكاء وفطنة وسداد رأي وطوح كبير في أن تكون زوجة لحاكم المغرب كلّه، فها هو زوجها مسافر للصحراء ربما دون رجعة ولذا وافقته في رأيه.

ويورد لنا صاحب " الأنيس المطرب" طلاق نوعا ما غريب، إذ يخيرها بهذا الأمر، وفي نفس الوقت يختار لها من يخلفه عليها، فينصحها بالزواج من يوسف بن تاشفين كما ينصح هذا الأخير

---

[1] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 21. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 83.

[2] ابن عذاري: المصدر السابق، ص 20.
HUICI Miranda (Ambrosio) : « El Rawd Al Quirtas ylos Almoravide ».in : Hespèris Tamuda, Vol I. Fas 1. ED : Techniques Nord-Africaines. Rabat. 1960. P 522-523.

[3] ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج 7، ص 113- الناصري: المصدر السابق، ج2، ص21.

[4] ابن عذاري: نفس المصدر، ص21. Lagardère Vincent: Op.cit, P76.

بالزواج من زينب لأنها امرأة ميمونة. ورغم طغيان الأسلوب القصصي والمسرحي على هذا الحديث ارتأيت إلى نقله لأن هذا الأسلوب لا ينفي الحقيقة التاريخية، بشكل أو بأخر التي تتجلى من خلاله شخصية زينب الذكية.

وليكن الأمر كذلك، "فعندما عزم -أبو بكر بن عمر- على الخروج من الصحراء طلق زوجته وقال لها عند فراقه لها: يا زينب أنت ذات حسن وجمال فائق وإني سائر إلى الصحراء برسم الجهاد و لعلي أرزق الشهادة والفوز بالأجر، وأنت امرأة لطيفة، لا طاقة لك على بلاد الصحراء فإني مطلقك، فإن تمّت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب".(1)

يتضح من النص أن أبا بكر اضطر إلى مفارقة زوجته لكنه أثار الجهاد عليها، وفي نفس الوقت أشفق عليها ولم يرد تركها فريسة الوحدة والانتظار اللذان لا يعرف نهايتهما. كما يظهر أنه رأى فيها مصلحة للدولة لأن المرأة في المجتمع الملثم لها مكانة خاصة، بل هي الركيزة الأساسية المعتمد عليها في بناء مجتمعهم. ولذا طمعا منه في استثمار قدرات زينب، زكاها عند ابن عمه ناصحا له:" تزوجها فهي امرأة مسعودة".(2)وبررت هذه الرواية لابن أبي زرع هذا الطلاق بسذاجة وحمق أبي بكر الذي تخلى عن زوجته زينب التي لم يظفر بها إلا ذو حظ عظيم.

لكن في الحقيقة يبدو أن هذا ليس بحمق إنما هو بعد نظر لأبي بكر، لأن الواقع السياسي آنذاك كان منذر بالخطر وهو أدرى بالنزاع القبلي على الرياسة في بلده، لذلك أسرع لنجدة قبيلته لحماية القاعدة الخلفية للمرابطين، أما البعد الاقتصادي فهو محاولة منه حماية طرق المواصلات وحماية تجارة الملح خاصة في منطقة أوليل.(3)وفي حالة ضياع هذه المنطقة سوف يأثر سلبا على نشاطهم الاقتصادي الذي لم يبلغ رواجا وازدهارا على محاور التجارة الصحراوية إلا بعد أن تمت سيطرتهم التامة على أوليل.(4)

وفي واقع الأمر أن دور زينب الحقيقي وطموحاتها بدأت بزواجها من الأمير يوسف بن تاشفين فوجدت فيه الشخص الذي تطلعت للاقتران به، لتحقيق من خلاله كل أحلامها. فتزوجت به بمجرد

---

[1] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 83-84. HUICI Miranda : Ibid. P523.

[2] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 83-84. ابن عذاري:المصدر السابق، ج4، ص21-22.السلاوي: المصدر السابق، ج 1، ص 21-22. Jacques Meunié: Op.cit .P240

[3] أوليل: تقع على سمت اودغشت وهي على نحر البحر وآخر العمارة، بها معدن الملح ببلاد المغرب، كانت تابعة لقبيلة جدالة. أنظر: البكري: المصدر السابق، ص 165. وياقوت الحموي: معجم البلدان: ج1، ص283.

[4] Lagardère (V) : op.cit, P 87

انتهاء عدتها[1] في شهر (شعبان 463هـ/أفريل 1071م)، فكانت القائمة بملكه، المدبرة لأمره والفاتحة بسياستها أكبر بلاد المغرب إلى أن توفيت[2].

ومحاولة مني في هذا الفصل، إبراز الدور الحقيقي لهذه المرأة في المجـال السياسـي، فـإني قسمت هذا الدور إلى مرحلتين هما:

المرحلة الأولى: من سنة (463هـ/1070م) سـنة زواجهـا بيوسـف بـن تاشـفين إلـى غايـة (464هـ/1071م) عودة أبو بكر بن عمر من الصحراء.

المرحلة الثانية: من تدعيم الحكم ليوسف بن تاشفين ونفوذها السياسي(465 هـ/1072م إلـى غايـة وفاتها 474هـ/1081م).

يذكر ابن عذاري في وصف زينب النفزاوية مع زوجها الجديد "أنهـا سـرت بـه وسـربها، وأخبرته أنه يملك المغرب كلّه، فبسطت آماله، وأصلحت أحواله، وأعطته الأموال الغزيـرة، فأركـب الرجال الكثيرة، وجمع له القبائل أموالا عظيمة، فجند الأجناد، وأخذ في جمع الجيـوش مـن البربـر والأحشاد بنفسه، وبتدبير زوجه زينب في كل يوم مع أمسه حتى سلك أهل المغرب في قانون الضـغط فتأتى من ملكه ما لم يتأت".[3]

إن المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ الدولة المرابطية -تتفق على أن زينب كانـت طـالع سعد علي يوسف بن تاشفين-فهذه الزوجة جمعت من الأوصاف والخصال قلما تتوفر في امرأة واحدة، فهي ذات جمال وفطنة وذكاء ومال وبنت أحد من الأعيان. فعن أبي هريرة (ض) عن النبي صـلى الله عليه وسلّم قال:"تنكح المرأة لأربع:لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك".[4]

فكانت بمثابة الزوجة والمستشار له، سخرت له مالها وساندته برأيها ونصيحتها حتى مكنته من الحكـم. وهذا ما يدل على أن زينب النفزاوية كانت على دراية جيّدة بمنطقة السوس بالمغرب الأقصـى. فهـي

---

[1] ابن عذاري: المصدر السابق، ص22. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 83.
Lagardère (v): Ibid, P80. HUICI Miranda : Op.cit, P523

[2] عصمت عبد اللطيف دندش: أضواء جديدة على المرابطين ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991، ص167.رغم أن المصادر تجمع على أن زينب تزوجت بعد انقضاء عدتها فإن بعض الكتابات الأجنبية تتساءل هل تزوجت بيوسف مباشرة بعد طلاقها مباشرة أم لا؟ فلا يكون لشخصية كيوسف بن تاشفين تعدي حد من حدود الله عز وجل. فنص ابن عذاري يؤكد أنها اعتدت. والمعروف أن مدّة المطلقة ثلاثة قروء.
Abdallah Laroui : op.cit, P 151.

[3] ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص 22.

[4] صحيح البخاري: مراجعة محمد علي القطب وهشام البخاري، ج3، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت-1417هـ/1997م-ص1639.

تعرف سياسة المصامدة بجبل درن مع سياسة زناتة(1) الأمر الذي زاد في رغبتها إلى توجيه زوجها يوسف بن تاشفين لإخضاع هذه القبائل نظرا للصراع القبلي الذي كان على أشده، في المنطقة من أجل الزعامة وكانت هي إحدى ضحاياه.

"فتجنيد الرجال وجمع الجيوش من البربر كان من تدبيرها في كل يوم مع أمسه".(2) فكانت بمثابة المستشار السياسي له، إذ لو لم يفتح الملثمون المغرب لتفرق شملهم ولما قامت لهم قائمة، بل لماتت دولتهم في المهد.(3) وكان بذلك لزينب النفزاوية دورًا معتبرًا في فتح المغرب، لكن هذا الدور يبدو خفيا للعيان وجليا من خلال أعمال يوسف بن تاشفين.

فما هي يا ترى السياسة التي اتبعها يوسف بن تاشفين ومن ورائه زوجته زينب النفزاوية في تثبيت دعائم حكمه وتوسع دائرة نفوذه؟

استنادا لما ذكره ابن خلدون:" فإن يوسف بن تاشفين دوّخ أقطار المغرب في هذه الفترة(4). وكان يقول لأبناء عمه إذا خلى بهم، لقد فتحت المغرب برأيها-زينب-وأخبرته أنه يملك المغرب كله(5) ولقد عظمت مآزرتها لزوجها من أجل تحقيق طموحها، لقد أعطته الأموال الغزيرة فأركب الرجال الكثيرة".(6)

ومن إنجازات يوسف بن تاشفين أنه أنشأ حرسه الخاص وشكله من جند زناتة ومصمودة وغمارة - عرف بالحشم- وهؤلاء من غير قومه وزودهم بالخيل والسلاح. كما اشترى ما بين (464هـ/1071م/465هـ/1071م) ألفي نفر من السودان وحوالي مائتين وخمسين فارسا من الروم(7)

ولا يستبعد دور زينب في تشكيل هذه القوة إستنادا لهذا النص التاريخي:" فكانت هي القائمة بملكه والمدبرة لأمره والفاتحة بسياستها أكبر بلاد المغرب إلى أن توفيت".(8) ذلك ما يؤكد لي أن لزينب دورا فعالا في توجيه سياسة يوسف بن تاشفين. وكيف لا وهي التي عاشت في أجواء سياسية مختلفة،

---

1 Lagardère : Op.cit, P80. ATTILIO – Gaudio : Op.cit, P31.

2 ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 22.

3 حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 165 و 166.

4 العبر: ج12، ص 383.

5 وبصفته نائبا لابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر، قام بحملات تجريبية ناجحة أخضع خلالها الكثير من أقاليم المغرب الأقصى مما زاد في سلطانه السياسي و مكانته كقائد ناجح. أنظر: ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 87. حسن علي حسن: المرجع السابق، ص 61.

6 ابن عذاري: نفسه، ج4، ص22. ابن أبي زرع: نفس المصدر، ص 84.
HUICI Miranda : Op.cit, P525

7 ابن أبي زرع: نفسه، ص 84. و إبراهيم حركات: النظام السياسي والحربي.... ص 149.

8 ابن عذاري: نفسه. ابن أبي زرع:نفسه. السلاوي: الاستقصا، ج2، ص 27.

واحتكت في كل تجاربها السالفة بشؤون السياسية والحرب بحكم مراكز أزواجها السابقين[1] وعلى حد قول المثل:" إذا كان الرجال يصنعوا الأعمال فإن النساء يصنعون الرجال".[2]

يبدو أن سنة (464هـ/1071م) كانت سنة فتح وانتصارات ليوسف بن تاشفين في المغرب، وزادتها تتويجا زينب النفزاوية بوضع مولدها الأول "المعز بالله"[3] وفي الأجواء السعيدة تهب الرياح بما لا تشته السفن. فبعد أن بلغت انتصارات يوسف بن تاشفين الآفاق، هاهو الأمير أبو بكر بن عمر يتأهب للعودة إلى المغرب الأقصى في (464هـ/1071م) لاسترجاع ما استودع عليه ابن عمه يوسف بن تاشفين.[4]

فما هو دور الزوجة الطموحة التواقة لحكم المغرب في هذه المعضلة ؟

عندما وصل الخبر للأمير يوسف بن تاشفين، "اغتم غما شديدا وحزن حزنا عظيما وصعب عليه مفارقة الملك بعد أن ذاق حلاوته".[5] لكن الزوجة الفطنة عرفت كل ذلك في وجهه فحاورته في ذلك قائلة له:"أراك مهموما مكروبا من وصول ابن عمك إلى ملكه الذي ولاك عليه، والله لا ذاق أبو بكر طعمها أبدا، فَطب نفسا وقر عينا". فقال لها:"إنه استخلفه إليّ من بين كل بنية ويثق في على هذه المملكة، ولو كان غير ابن عمي لقاتلته".[6] وتشتد حيرة زوجها ويعظم حزنه لأنه وقع بين أمرين:" أوله رغبته في التمسك بالإمارة مهما كلفه الأمر، وثانيه: لم يشأ أن يغضب ابن عمه أبا بكر ولي نعمته".

وبعد تفكير وتدبير قالت له:"أنا أدلك" فقال لها: "ماذا يا زينب فإني –والله- أعرفك ميمونة".[7] وهكذا يفوض أمره لها، ويبدو ذكائها من خلال الخطة التي وضعتها له في محاولة منها قطع أي أمل لزوجها السابق- الأمير أبي بكر بن عمر- في استرجاع ما استودع عليه ابن عمه،[8] وإلا كيف يكون

---

[1] عجنق رابح: السياسة الداخلية لدولة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين، رسالة ماجستير تحت إشراف محمد الصالح مرمول، الجزائر، 1980-1981، ص 91.

[2] مثل شعبي متداول بين الناس.

[3] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص30. Lagardère : Op.cit, P82.

[4] Huici Miranda : Op.cit, P523-524.

[5] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 84.

[6] نفسه.

[7] ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص 23. حمدي عبد المنعم محمد حسين: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دولة علي بن يوسف المرابطي –مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية 1986، ص 331. وأنظر: حسين مؤنس: **تاريخ المغرب، مج2، ص** 210.

[8] ابن عذاري: نفسه. ابن أبي زرع: نفسه. وابن الخطيب:تاريخ المغرب العربي في العصور الوسطى، ق3 من كتاب أعمال الإعلام- تق أحمد الكتاني ومختار العبادي، دار الكتاب:الدار البيضاء، 1964، ص 232

مصيرها إذن ؟ أتتلاشى أحلامها وطموحها في السلطة والنفوذ ؟ ولن تصبح زوجة لحاكم المغرب كلّه؟ فقالت له:"إذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله إليك فلا تخرج إليه ولكن بادر بهدية جليلة(1) فلا يقاتلك على الدنيا، فإن الرجل خير ولا يستحل سفك دماء على أمرك وتفوز بملكك -إن شاء الله- فقال لها: "والله لا خالفتك في أمر تشيرين به أبدا".(2)

هذا ما يؤكد أن يوسف بن تاشفين تعود استشارة زوجته زينب والعمل بنصيحتها كلما تطلب الأمر ذلك.(3)

وقبل أن يتم اللقاء بين الأميرين المرابطين نصحته زينب الذكية الحازمة بما يلي:

1- استدعاء أصحاب أبي بكر بن عمر القادمين معه، والذين أسرعوا لرؤية العاصمة الجديدة مراكش، واستمالتهم بالمال والكسي الفاخرة والخيول المسومة وسائر النعم. فكسبت بذلك أصحاب أبي بكر.

2- هونت عليه لقاء ابن عمه -زوجها السابق- قائلة له:"يا يوسف إن ابن عمك رجل متورع في سفك الدماء فإذا لقيته فقصر عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع وأظهر له غلظة ولاطفه بالأموال والهدية والخلع والثياب والطعام والطرف واستكثر من ذلك، فإنه ببلاد الصحراء كل شيء عندهم من هنا مستطرف، واظهر المساواة والمقاومة حتى يعرف غرضك(4) وهكذا قوّت الثقة بنفسه وجعلت منه ندا لأبي بكر بن عمر.

وصاحبت هذه النصائح تسخير أموالها في إعداد الهدايا والتحف والطرف والثياب... وكل ما كانت تراه يبهر الأمير أبي بكر، -فقد رأت رد فعله يوم كانت زوجة له حين أطلعته على الكنوز المخبأة-، إلا أنه فضل الجهاد في الصحراء عن العيش معها في هذا الترف.

Mouloud Gaid : les berbères dans l'histoire : les Morabitines d'hier et les Marabouts d'aujourd'hui. T.VII ED, Mimouni- Alger, P16.

[1] شملت هذه الهدية "على خمسة وعشرون ألف دينار من الذهب، وسبعون فرسا منها خمسة وعشرون مجهزة بفاخر الجهازات، وسبعون سيفا محلاة، وعشرون من الأشبار المذهبة، ومائة وخمسون من البغال والذكور والإناث وخدورا كثيرة بنفيس الأمتعة والكسى الفاخرة، وبعث له عشرين جارية أبكارا وجملة من خدم الخدمة ووجه له بمائتين من البقر وخمسمائة رأس من الغنم وألف ربع من دقيق الدرمق وأثني عشر ألف خبرة وسبع مائة مد من الشعير، وبعث إليه وزنا صالحا من العود والعنبر والمسك". سلمت له هذه بعد أن خلع نفسه وتمت البيعة ليوسف بن تاشفين. ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص 24-25.

[2] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 84. ATTILIO – Gaudio : Op.cit, P32.

[3] ابن عذاري: نفس المصدر، ص 24-25. السلاوي: الاستقصا، ج2، ص 21-22. حمدي: المصدر السابق، ص 331.

[4] ابن أبي الزرع: نفس المصدر، ص 84. Lagardère : Op.cit, P84. وأنظر: جان وجيروم طارون: أزهار البساتين، ص 53. وكذا عصمت دندش: أوضاع جديدة على دولة المرابطين، 168. وأنظر ATTILIO Gaudio : Op.cit, P 32. Mouloud Gaid : Op.cit, P 16-17

فلما قرب أبو بكر بن عمر من مراكش خرج إليه يوسف بن تاشفين فلقيه على بعد، وسلّم عليه وهو راكب سلاما مختصرا، ولم ينزل له ولا تأدب معه الأدب المعتاد. فنظر أبو بكر إلى كثرة جيوشه فقال له:"يا يوسف ما تنصع بهذه الجيوش ؟" قال له:"استعين بها على من خالفني". و يعتبر هذا تهديد غير مباشر من طرف يوسف بن تاشفين، مثلما نصحته زوجته، فكان هذا اللقاء بمثابة الإعلان الرسمي بخلع أبي بكر لنفسه من رياسة المرابطين بالمغرب الأقصى، وتنازله لابن عمه يوسف بن تاشفين(1)

لقد كانت هذه الخطة نقطة الحسم في القضاء على أي رغبة في نفس أبي بكر بن عمر في العودة مرّة أخرى إلى مقعد الرياسة، فهذا التدبير كان "برأي زوجته زينب النفزاوية التي جسرته على ذلك كلّه حتى ملك المغرب أسعد ملك."(2)

ويبدو أن زينب النفزاوية اكتسبت خبرة وحذاقة من احتكاكها بذوي السلطة من قبل، مما فتق من ذكائها وقوي شخصيتها، فأصبحت تدرك نقاط الضعف والقوة لكل من أبي بكر بن عمر ويوسف ابن تاشفين، وعلى هذا الأساس قدمت نصيحتها لزوجها يوسف التي كلّلت بالنجاح(3).

وهي التي قال فيها الشاعر العلزوزي (4) في أرجوزته:

فكلّما جرت عليه شدّة وجدها لكشفها معدة.

وهذه الحلول والنصائح الصائبة هي التي مكنتها من النفوذ في الحكم وكسب ثقة زوجها.

رغم أنّ جل المصادر التاريخية(5) التي تناولت بالدراسة تاريخ الدولة المرابطية، تتفق على الدور الذي قامت به زينب بنت إسحاق النفزاوية، فإن الكاتب محمد الهادي شعيرة(6) الذي اختص بدراسة الجانب السياسي لدولة المرابطين يستبعد دور زينب كل البعد، حيث يقول:"نسج الخيال قصة حول التخلي عن ملك والتنازل عن حورية من الحور، وحول حمق الواهب الصحراوي وسذاجته،

---

[1] لمزيد من المعلومات عن هذا اللقاء راجع: ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 84. وأنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 25. وابن خلدون: العبر، ج12، ص 383. والسلاوي: المصدر السابق، ص 21-22. جان وجيروم: أزهار البساتين، ص 52-53. ATTILIO –Gaudio : Op.cit, P31

[2] ابن عذاري: نفسه. حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 61. كما استخدم سلاح المال في ترضية إبراهيم بن أبي بكر بن عمر حين طالب بملك أبيه في 469هـ/1076م. وهذا ما يدل على سداد وذكاء زينب النفزاوية الذي اقتدى بها القائد مزدلي في إبعاد إبراهيم بن أبى بكر. أنظر: ابن عذاري: نفس المصدر، ص29-30. Huici Miranda : Op.cit, P524. عصمت عبد اللطيف دندش: أضواء جديدة، ص 168.

[3] عجنق رابح: الدولة المرابطية في عهد يوسف بن تاشفين، ص 36. ATTILIO- Gaudio : Ibid, P31

[4] نظم السلوك: ص49، نقلا عن إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1993، ص17.

[5] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج8. ابن عذاري: نفس المصدر، ص 29. أنظر: ابن أبي زرع: نفس المصدر، ص 84. ابن الخطيب: الإحاطة، ج1. وابن خلدون: نفسه، وغيرهم.

[6] محمد الهادي شعيرة: المرابطون وتاريخهم السياسي، ص78-79.

وحول الحورية الموهوبة وإيثارها زوجها الجديد، وكل هذا نسج لقصة أروع من قصة هكتور وزوجته أندروماك".(1)

لكن بعد المقارنة بين النصين فإني أراهما بعيدين كل البعد عن مضمونهما وإطارهما التاريخي والحضاري، فالكاتب "شعيرة" جعل من زينب النفزاوية شخصية أسطورية وهذا لا يسلم به عاقل. كما جعل من مدينة أغمات مدينة أسطورية(2) لارتباطها بسكنى زينب النفزاوية بها. ورغم أن القرن (5هـ/11م)، قد تجاوز زمن الأسطورة الإغريقية وأشعار هوميروس فإن هذا الكتاب يجعل زينب في هذا الإطار ويلقبها بـزينب الساحرة(3) نظرا لعلاقة السحر بالخيال على ما يبدو. لكن في الواقع أن معظم المصادر تؤكد على شخصية زينب التاريخية ودورها في تحويل إمارة المغرب من أيدي أبي بكر بن عمر إلى زوجها يوسف بن تاشفين بطريقة ذكية تدل على الخبرة السياسية التي اكتسبتها هذه المرأة المغربية من خلال ما عاشته من تجارب سابقة في الزواج. ولا يعقل أن ينفي هذا الكاتب حدثا تاريخيا لم تنكره المصادر العربية ولا حتى الدراسات الأجنبية(4) لهذه الفترة. لأن ما قامت به زينب النفزاوية ليس خارق للعادة البشرية إنما يبدو لي أنه خارق لبعض الأفكار والقيود الاجتماعية التي فرضت على المرأة فحددت من نشاطها في المساهمة في الحياة العامة للدولة.

كما تؤدي به قناعته على "أن قصة زينب تقوم في الحقيقة على فكرة التسري وحق الملك في هبة سريته وحقه في الاحتفاظ بها".(5) وهذا ما يستدعي التساؤل هل تعد زينب فعلا سرية أبي بكر قدمها هبة إلى يوسف بن تاشفين ؟ وبناء على المعنى الاصطلاحي للتسري(6) فإن المرأة الحرّة تفقد حريتها بمجرد أسرها ومن ثم تكون سرية أسيرها –سيدها– لكن بما أن زينب لم تقع في الأسر، وبقيت

---

[1] فقد كانت أندروماك أرملة فارس شجاع قتل في حرب طروادة وقعت هي من نصيب بيروس بن أشيل، فأولدها ثلاثة أطفال، ثم زوجها من أخ زوجها الأول هكتور، وهي تعتبر مثلا في الفضائل الوثنية والمسيحية.... القصة طويلة. إرجع إلى: إلياذة هوميروس، نقلها إلى العربية عنبرة سلام الخالدي، دار المعارف، مصر، 1947/1319، ص 75.

[2] شعيرة: المرجع السابق، ص 78-79.

[3] شعيرة: نفسه. يبدو أن الكاتب بهر من مستوى ذكائها فلم يرى فيها إلا سحرا أو خيالا. فيما يخص أوصاف زينب أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص21. فمن حدّة ذكائها حتى قيل عنها أن الجن تكلمها. لكن هذا لا يعني نفي دورها السياسي، إنما يدل على حدة ذكائها.

[4] جان وجيروم طارو: المرجع السابق، ص53. كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية: ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي، ط13، دار العلم للملايين، بيروت، 1998، ص 318-319. وأنظر:
ATTILIO- Gaudio : Op.cit, PP 31-32. Vincent Lagardère : Op.cit, P 74, 80, 82, 83, 84. Jacques Meunié : Op.cit, P240. Henri Terrasse : Op.cit, P 221. Huici Miranda : Op.cit, P 522-524.

[5] نفس المرجع، ص 78-79.

[6] أنظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، ج1، دار الجيل والجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، بيروت، 1416هـ/1995م، ص30.

سيدة حرّة بأغمات،فإن حكم الكاتب خاطئ في حقها. إذ لما استقر الأمير أبي بكر بأغمات سمع بوجودها وبما تقوله، فاستدعاها وخطبها،(1) وهذا يدل على أنها كانت تتمتع بحريتها وكرامتها. ورغم أن النصوص التاريخية لم تفصح عن فحوى لقائهما، إلا أنه يبدو لي أنها هي التي رغبته بالزواج بها لما أطلعته على الأموال والكنوز التي كانت ملكا لها ووعدته بها. وهذا التصرف لا يصدر من امرأة سرية. كما تستخدم نفس الخطة في إبعاده عن إمارة المغرب فتنصح يوسف بن تاشفين بتقدم له هدية ضخمة حتى اقتنع بها وانصرف إلى الصحراء وخلى ملك المغرب ليوسف بن تاشفين. فلو لم يكن شأنا لهذه المرأة في تاريخ المرابطين لما أثنت عليها المصادر العربية وأشادت ببعض ما اتصفت به دون غيرها من نساء البلاط المرابطين.(2) فالبعض منهن لم يعرفن إلا من خلال ذكر أسمائهن مجردة أو بنسب الأولاد إليهن، ومن الأمثلة على ذلك أن أبا بكر بن عمر كان قد تزوج بامرأة تعرف بعائشة بنت ياران بن تاعيشت،(3) ويبدو أن هذه الأخيرة انتقلت إلى حماية يوسف بن تاشفين قبل ذهاب أبي بكر إلى الصحراء، لأن من بين الأولاد الذين خلفهم يوسف بن تاشفين "أبو عبد الله محمد" ابن امرأة إسمها عائشة، كما أن أبا إسحاق إبراهيم أخو الأمير علي بن يوسف، يعرف باسم تاعيشت نسبة لأمه، وهي أمة سوداء،(4) وهكذا فإن الغموض يخيم على هاتين المرأتين عكس ما عرف عن زينب النفزاوية. وفي اعتقادي أن سبب ذلك الغموض يعود إلى عدم قيامهما بدور بارز يستحق ذكرهما سلبا أو إيجابا، أو لأن شخصية زينب النفزاوية كانت أقوى وأكثر نفوذا في الدولة. فملأت كل الفضاء النسوي في البلاط المرابطي في عهد يوسف بن تاشفين لأنها كانت شديدة الغيرة من أي امرأة أخرى كما سنرى لاحقا، وهذا هو الأرجح. كما أخذ هذا الكاتب الدارسين الذين اعتبروا أن زينب كانت مستشارا ثمينا ليوسف بن تاشفين عمل على تأليف ملك الملثمين بحياة الحضر.(5) وما أرى في ذلك غضاضة لأن أهل أغمات أكثر تحضرا من قبائل صنهاجة الصحراء. ولا ينكر أحد من الدارسين مدى تأثير المرأة الأسري والاجتماعي لدى قبائل الملثمين. فهذا يوسف بن تاشفين الذي يثني عليه هذا الباحث الثناء الحسن(6)،

---

[1] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص21. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 21.

[2] استعمل الأمير المزدلي سلاح المال مع الأمير إبراهيم بن أبي بكر بن عمر عند ما طلب بحقه في ملك والده سنة 469هـ. واستطاع إرضائه وصده عن منافسة يوسف بن تاشفين. أنظر: ابن عذاري: نفس المصدر، ص ص 29-30.

[3] كان لأبي بكر بن عمر، إينان، إبراهيم ويحي، وهذا الأخير يعرف "بيحي بن عائشة". ابن الخطيب: الإحاطة، مج1، ص17. Lagardère : Op.cit, PP 171-175.

[4] ابن القطان: نظم الجمان، تق: محمود علي مكي ص 82.

[5] نفسه.

[6] **مضيفا: أنه كان محروما من كل مظهر جسمي خلاب. كان رقيق الجسم متوسط القامة مع سمرة شديدة وجعودة في الشعر. أنظر: شعيرة: المرجع السابق، ص 80. عكس ما وصفت به زينب النفزاوية من جمال. أنظر: ابن عذاري: نفس المصدر، ص18. ابن أبي زرع: نفسه.**

تقديراً لأعماله الجليلة،وهو الذي يعترف لأبناء عمه وفي غياب زوجته زينب أنه فتح البلاد بنصيحتها.(1) كما يورد صاحب الاستبصار(2) أنه بنى لها مدينة مراكش، وما هذا إلا اعترافا بفضلها عليه. وعموما فإن التاريخ عامة والتاريخ الإسلامي خاصة حافل بنساء عظيمات كان لهن شأن في تسيير دفة الحكم، سواء بمفردهن أو بمشورتهن ونصيحتهن للخلفاء والحكام(3) فلماذا لا تكون زينب النفزاوية في مستوى هذا المجد والتقدير ؟

ولا غرابة على الإطلاق في أن زينب النفزاوية كان يستشيرها يوسف بن تاشفين ويعمل بنصائحها التي تكلل دوما بالنجاح. فهذه أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) كان لها دور جليل، مذكور في تاريخ الإسلام. حيث قدمت النصيحة لسيّد الأنام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حادثة صلح الحديبية، (6هـ/626م) ونظرا لهذا الدور النسوي إرتأيت ذكره باختصار.

لقد استنكر الصحابة عهد الحديبية واستفحل الأمر إلى حد منذر بخطر، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلّم أمر أصحابه أن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا، فما قام منهم رجل، فعل ذلك ثلاث مرات. وما منهم من يستجيب، فدخل على زوجته "أم سلمة" وذكر لها ما لقي من الناس... فقالت:" يا نبي الله أتحب ذلك ؟... أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك"(4) وأصغى عليه الصلاة والسلام إلى مشورتها... فتبعه الصحابة في ذلك حتى كاد يقتل بعضهم بعضا غما وندما، وأدركوا أي صلح خطير عقد النبي صلى الله عليه وسلَم، وأنه ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه(5)

وكذلك تكلل نصيحة هذه المرأة المرابطية لزوجها بالنجاح الباهر. فقد انعكست نتائج خطتها بالإيجاب(6) لا على أسرتها فقط، بل على أوسع نطاق، على المصلحة العامة للمرابطين ومنها:

1- تم التراضي بين أميرين متنازعين على ملك واحد لأول مرّة.

2- إتساع سلطان المرابطين شمالا وشرقا بقيادة يوسف بن تاشفين ومواصلة الجهاد جنوبا بقيادة أبو بكر بن عمر.(7)

---

[1] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص22. روض القرطاس: ص82.

[2] مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، 1986، ص209.

[3] أنظر نماذج لهن في بداية هذا الفصل.

[4] ابن هشام: السيرة النبوية، تق: طه عبد الرؤوف سعد، مج 2، دار الجيل، بيروت (دت)، ص 288.

[5] ابن هشام:نفس المصدر، ص 288. وأنظر: عائشة بنت الشاطئ: تراجم للسيدات بيت النبوة، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1402-1982، ص 329-331.

[6] Lagardère : Op.cit. P84.

[7] حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، مج2، ص 22.

3- بفضل سياسة وحنكة زينب النفزاوية، تكون هذه المرأة المرابطية قدمت للإسلام خدمة كبرى. فنجاح هذه الخطة يعد اللبنة الأولى لتأسيس الدولة المرابطية التي وصلت إلى الأندلس شمالا والصحراء جنوبا والمغرب الأوسط غربا[1] وأحيت السنّة في بلاد المغرب.

4- بفضل فطنتها وذكائها تحقق طموحها فأصبحت زوجة أمير المسلمين وناصر الدين: يوسف بن تاشفين[2].

وفي دولة زوجها تمتعت زينب النفزاوية بالقوة والسلطان فأصبحت تأمر وتنه وتعزل وتثبت، واتخذت الكتاب، والحجاب، ففي (472هـ/1079م) إتصل بحاشيتها عبد الرحمان بن أسباط[3] الذي نال ثقتها فاستكتبته. وبعد وفاتها أقره أمير المسلمين كاتبا له. فظهر هذا المنصب في عهد يوسف بن تاشفين[4] واستشاره هذا الأخير عندما استنجد ملوك الطوائف به خاصة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية. فنصحه بأن يطلب من ابن عباد تسليم له منطقة الجزيرة الخضراء[5] ليتسنى له العبور للأندلس[6].

ومما يستدل على سلطانها، ما ذكره القاضي عياض في ترجمة القاضي أبي محمد عبد العزيز السوسي الصوفي بأنه امتحن على يد زينب، زوجة الأمير يوسف بن تاشفين وطولب عندها، فسيق إليها مكبلا[7] وهكذا فإنها لم تستنكف في استعمال الشدة إذا لازمها الأمر حتى مع القضاة وهذا يدل على قوة شخصيتها ونفوذها في الحكم، فلقد أعطاها زوجها صلاحيات التنفيذ على ما يبدو، وإلا ما كان لها هذا السلطان في البلاد.

كما عرفت زينب بنت إسحاق النفزاوية بالجمال والرياسة[8] وهي لا ترضى أي منافسة لها في ذلك من بنات جنسها مهما كانت منزلتهن في الدولة المرابطية. فهي تسعى دوما على المحافظة على

---

[1] أنظر الخريطة الملحق رقم: 2.

[2] برحيل الأمير أبي بكر بن عمر وانشغاله بالجهاد في بلاد السودان، خلص ملك المغرب ليوسف بن تاشفين، فاستكمل فتح بلاد المغرب وأخضعها لسلطانه وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين، أنظر في ذلك، ابن عذاري: المصدر السابق، ص 27. والحلل الموشية، ص 29.

[3] عبد الرحمن بن أسباط: أديبا أندلسيا من أهل المرية، وفد على المغرب يبحث عن طالعه في عام (472هـ/1079م) فاستكتبته زينب النفزاوية ونال حظوة وجاها عريضا إلى أن توفى بسبتة 487هـ/1094م. أنظر: ابن الخطيب: الإحاطة، مج3، ص523.

[4] عنان: دولة المرابطين، ص 53.

[5] Algerias: أقرب المناطق للعبور من المغرب إلى الأندلس وهي ذات مرسى جيد. الحميري: المصدر السابق، ص 7.

[6] الحلل الموشية: ص 49.

[7] سعدون عباس نصر الدين: المرجع السابق، ص 154. وأنظر: عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين، ص 169.

[8] ابن عذاري: نفس المصدر، ص 18. ابن خلدون: العبر، ج12، ص 382.

ذلك. ومما يروى عنها أن أحد الأدباء الشعراء إسمه -زرهون ويعرف بابن خلفون-[1] مدح الحرّة حواء زوج الأمير سير بن أبي بكر اللّمتوني، وفضلها على سائر النساء بالجمال والكمال، فبلغت بها الغيرة إلى حد عزل هذا القاضي من منصبه. فجاءها مستعطفا ومستأذنا لمقابلتها فقالت للبواب:"قل له أمضي إلى التي مدحتها تردك إلى القضاء". فبقي القاضي على بابها أياما حتى نفذت نفقته، فأتى خادمها فقال له: "إن مولاتك قد صرفتني ونقمت علي على مدحي لامرأة "سير" ولو علمت أن ذلك يغضبها ما قلته/وقد نفذت نفقي وأردت بيع هذا المُهر وعزّ عليّ أن يصير في يد من لا يستحقه، وأنا أحب أن تعطيني مثقالين أتزود بهما إلى أهلي وخذ المهر، فأنت أحق به"[2]

هكذا نلاحظ كيف أن هذا القاضي باع كل ما يملكه وطال انتظاره وهي ناقمة عليه ولم تستقبله. وربما غفلت عنه لكثرة أشغالها وضنت أنه انصرف، لأن لما دخل خادمها عليها فرحان بما كسب سألته عن ما يفرحه، فأخبرها بحال القاضي فرقت له وندمت على ما فعلت به، وأمرته بإدخاله في الساعة، وفي هذا اللقاء تتجلى شخصية زينب في تأنيب القاضي "زرهون" من جهة، ومدى نفوذها في إدارة الدّولة من جهة أخرى. فقالت له:" تمدح زوجة سير وتفضلها على سائر النساء وخرجت في وصفك لها عن الحد وزعمت أن ليس في الأرض أجمل منها، وما هذه منزلة القضاء، ولا يليق بك أن تنزل نفسك في هذه المنزلة".[3]فقال زرهون إرتجالا:

أنت بالشمس لاحقة　　　وهي بالأرض لاصقة
فمتى ما مدحتها　　　فهي من سير طالقة

فقالت له يا قاضي طلقتها منه، قال نعم ثلاثة وثلاثة وثلاثة، فضحكت حتى افتضحت. وقالت والله لا شم لها قفا أبدا. وكتبت فورا إلى زوجها يوسف بن تاشفين برد "زرهون" إلى القضاء فرده[4] وإضافة لما تمتعت به زينب النفزاوية من جمال وفطنة وحسن سياسة، فإنها كانت لها أخبار مستطرفة، من ذلك ما أورده ابن الأثير ضمن أحداث سنة (500هـ/1106م).[5]

"بأن ثلاثة نفر اجتمعوا، فتمنى أحدهم ألف دينار يتاجر بها، وتمنى الآخر عملا يعمل فيه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، أما ثالثهم فتمنى زوجته زينب النفزاوية. كانت من أحسن النساء ولها

[1] أنظر ترجمته عند القاضي عياض: الغنية، تحقيق ماهر زهير جرار، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1402هـ/1982م، ص 154-155.

[2] النويري: المصدر السابق، ص 385.

[3] النويري: نفس المصدر، ص 385-386. حمدي عبد المنعم محمد حسين: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 332. وأنظر: عصمت عبد اللطيف دندش: أضواء جديدة، ص 163.

[4] **النويري: نفسه، ص 385-386. حمدي عبد المنعم: نفس المرجع، ص333. عصمت عبد اللطيف دندش: نفس المرجع، ص 172.**

[5] الكامل في التاريخ: مج9، ص 99. وابن خلكان: المصدر السابق، ص 125.

الحكم في بلاده، فلما بلغه خبر هؤلاء النفر، أحضرهم وأعطى متمني المال ألف دينار، واستعمل الآخر، وقال للثلاث، للذي تمنى زوجته يا جاهل ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه ؟ فحار في أمره، ثم أرسله إليها. فتركته في خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه كل يوم طعاما واحدا، ثم أحضرته وقالت له:"ما أكلت هذه الأيام؟ قال:"طعاما واحدا، فقالت كل النساء شيء واحد، وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته"(1).

من خلال هذه القصة فإن المؤرخ ابن الأثير يثني على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بخصال حميدة كالعفو والسخاء والحلم مع هؤلاء النفر(2) لكن في الحقيقة استعصى عليه أمر ثالثهما، ففوضه -كعادته إذا استعصى عليه أمرا- إلى زوجته زينب، أنها ذات ذكاء وحيلة وتجارب السابقة في الحياة الزوجية، والأمر يتعلق بها وهو مخالف عن الأول المطالب بالمال والثاني المطالب بمنصب عمل. فلقنت هذا الشاب درسا لحياته المستقبلية، وعفت عنه وأمدته بمال، و كعادتها تعتني بالجانب النفسي والمادي معا فتصيب هدفها. وربما استحسنت أمر هذا الشاب، لأنها تريد دائما أن تكون أحسن النساء، وما جرأة هذا الشاب مع أمير المسلمين، إلا أن زينب بلغت من الشهرة مبلغا لا حد له، ويبدو أنها لا تزال تحافظ على مكانتها وسمعتها. فقد تمناها من قبل الكثير من أمراء وشيوخ القبائل(3) وتزال أمنية غالية تعيش في قلوب الخياليين والحالمين بها رغم أنها زوجة حاكم البلاد(4).

ويبدو أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لم يتزوج امرأة أخرى في حياة زينب، فقد ذكرت المصادر أنها كانت أحب ما لديه غالبة عليه، ولم يكن يصدر أمرا إلى عن رأيها، وكان يعتز بها، ويصرح في مجالسه بمكانتها وفضلها، وعندما يخلو بأقاربه وأبناء عمومته يذكر أنه فتح البلاد بنصيحتها(5) علاوة أنها كانت شديدة الغيرة من أي امرأة تنافسها، حتى ولو كانت حرّة مثلها وزوجة لأمير من قواد زوجها(6) وبعد وفاتها بقليل تزوج من جارية رومية عرفت بقمر أو "فاض الحسن" والتي أنجبت له ولي عهده علي في عام (476هـ أو 477هـ/ 1083م- 1084م)(7).

وللإشارة فقد أنجبت زينب لزوجها يوسف ولدين الأول عام 464هـ/1071م سماه المعز بالله،8 والآخر في (469هـ/1076م) وسماه الفضل(9) وتمتع المعز(1) بمكانة خاصة عند والده، فعملت

---

[1] ابن الأثير عز الدين: المصدر السابق، مج9، ص99. الناصري: الاستقصا، ج2، ص 23-24.

[2] ابن الأثير: نفسه.

[3] أنظر ما سبق في هذا الفصل.

[4] عجنق رابح: المرجع السابق، ص90.

[5] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص30. عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين، ص 171.

[6] ابن عذاري: نفس المصدر، ص 101.

[7] أمه أم ولد رومية إسمها قمر وتكنى أم الحسن. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 99.

[8] ابن عذاري: نفس المصدر، ص 23. Lagardère : Op.cit. P81.

[9] ابن عذاري: نفس المصدر، ص 30. Lagardère : Ibid, P96

على إقناع زوجها بتعيينه وليا لعهده متجاوزة أكبر أبنائها أبي الطاهر تميم، وولاه قيادة الجيش الذي فتح طنجة وسبتة.

لكن يبدو أن المصادر اختلفت في تحديد وفاة هذه المرأة المرابطية، فقد جعل ابن أبي زرع في روض القرطاس سنة وفاتها في (464هـ/1071م)، وكل من أخذ عنه اتخذ من هذه السنة سنة وفاة زينب النفزاوية[2] إلا أن هذا يتعارض مع ما ذكره ابن عذاري: "إن هذه السنة أي (469هـ/1076م) ولد للأمير يوسف بن تاشفين ولده الفضل من زوجته زينب النفزاوية". ولم يذكر سنة وفاتها. وربما هذا راجع إلى خرم كبير في كتاب البيان المغرب ضاعت بسببه أخبار الأحداث ما بين عامي 469هـ-495هـ،[3] وهي الفترة التي توفيت خلالها زينب[4] أما ابن الأثير فإنه يورد حكاية مستطرفة لزينب النفزاوية في عهد حكم زوجها يوسف بن تاشفين الذي استقر له الحكم منذ سنة (465هـ/1072م)[5] وهذه الحكاية ساقها ضمن حوادث (500هـ/1006م). لكن هذا لا يعني أنها عاشت إلى غاية هذه السنة 500هـ التي شهدت وفاة يوسف بن تاشفين. كما أنه سبق أن ذكرت أن زينب النفزاوية اتخذت الكتاب، وممن استكتبت عبد الرحمن بن أسباط الذي التحق بحاشيتها في سنة (472هـ/1079م) ولذا فالراجح أنها توفيت بعد هذا التاريخ بمدة، وربما في (474هـ/1081م). لأن "عبد الرحمن بن أسباط التحق بخدمة الأمير يوسف بن تاشفين في (474هـ/1081م)، وذلك بعد وفاة الحرة العليا زينب والله أعلم."[6] ولذلك فمن الراجح أنها توفيت ما بين (472هـ/1079م و 474هـ/1081م). أي قضت حوالي إحدى عشر سنة في خدمة الدولة المرابطية.

هذه هي أهم شهادات المصادر التاريخية على الدور الذي قامت به زينت بنت إسحاق النفزاوية التي تمتعت بنفوذ سياسي إيجابي لم يشهد بمثله لنساء الحكام اللائي جئن بعدها. ويتضح من خلال نفوذها في جهاز الحكم وصواب رأيها وسداده ونجاح خططها، لذلك لم يكن يوسف بن تاشفين يستغني عن مشورتها ونصائحها. ومن حسن طلعها هي أيضا أنها تزوجت من يوسف بن تاشفين الذي يحترم مجتمعه المرأة ويولي لها مكانة خاصة، وبالتالي انفسح مجال المساهمة والنشاط أمام زينب النفزاوية

---

[1] ولي أميرا على سبتة بعد القضاء على أسرة سكوت البرغواطي 476هـ/1083م. توفي بعد مرض أثناء معركة الزلاقة مما استدعى عودة والده مباشرة إلى المغرب عقب هذه المعركة 479هـ/1086م. أنظر: الحلل الموشية، ص 66. وأنظر: عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين، ص 170-171.

[2] السلاوي: الاستقصا، ج1، ص22. وأنظر: الأغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود، تحقيق يحيى بوعزيز، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 135. سهيلة عبريق: فن المديح في عهد المرابطين بالمغرب والأندلس: رسالة ماجستير تحت إشراف: يوسف عروج، معهد اللغة وآدابها، جامعة الجزائر، 1421هـ/2000م ص8.

[3] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص30.

[4] نفسه: حاشية المحقق.

[5] ابن الأثير: المصدر السابق، مج9، ص 99.

[6] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مج3، ص 523.

أكثر مما كان من قبل اقترانها بيوسف بن تاشفين. لكن شهرتها ترجع بالدرجة الأولى لشخصيتها الفذة التي لم تشهد لها المصادر التاريخية على تورطها في مكائد ومؤامرات سياسية أو تسببت في عزل الولاة أو شاركت في اغتيال رجال الدولة، أو حتى الاستئثار بالمناصب الحكومية لأهلها كما تفعل الكثير من نساء الخلفاء والأمراء، بل بالعكس لقد انتهجت سياسة سليمة، نزيهة تدل على ذكاء وفطنة وعلم هذه المرأة. لقد اكتسبت قدرات وخبرات سياسية نظراً لتجاربها السابقة واحتكاكها بشؤون السياسة والحرب بحكم مراكز أزواجها السابقين. فأصبحت تميز الخطأ من الصواب، فمن حدة ذكائها قيل أن الجن تكلمها وتوحي لها بالأخبار. لكن العامل المساعد الأخر لها في استغلال مواهبها هو تشجيعها من طرف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي كان يثني عليها وفي غيابها أنه فتح المغرب بأمرها.

من خلال تصرفاتها تبدو زينب النفزاوية شخصية تاريخية واقعية وليست أسطورية ولا خيالية كما ادعت بعض الدراسات الحالية ــ والقليلة ــ فلم يثبت عنها أنها قامت بأعمال خارقة للعادة لتوصف أو تصل إلى درجة الأسطورة اليونانية! فلم تذكر إلا بالخصال الحسنة على أنها حرة، شريفة ذات جمال ومال وفطنة، وقد حققت طموحها في الزواج ممن حكم المغرب كله.

ولا تفوتني الإشارة إلى أحد مؤرخي موريتانيا في الوقت الحالي المختار بن حامد" الذي لم ينكر صنيع زينب النفزاوية ولم يجحفها دورها الأساسي في تدعيم السلطة ليوسف بن تاشفين فتم التراضي بين الأميرين الراغبين في ملك واحد لأول مرة في التاريخ فتقاسما السلطان والجهاد بينهما شمالاً وجنوباً.

وإذا رجعنا إلى دور المرأة في الإسلام، نجد أول من آزر الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى الإسلام، زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها مساندة إياه مادياً ومعنوياً. فلبث عليه الصلاة والسلام يذكرها بخير طيلة حياته في المدينة المنورة، حتى أثار كثرة ذكره لها غيرة أم المؤمنين عائشة.

وليس من باب المبالغة إذا ما شبهت دور زينب النفزاوية بهاتين السيدتين الفاضلتين لما قامت به من تدعيم سلطان المرابطين مادياً ومعنوياً في بداية تأسيس دولتهم بالمغرب، فكانت من وراء الكثير من الأعمال التي قام بها يوسف بن تاشفين، رغم أن دورها مبني على المجهول. ويبدو أن هذا الأخير المتخرج من رباط عبد الله بن ياسين كان على فطرة الإسلام التي تحث على إكرام المرأة.فمن خصاله أنه كان رجلا فاضلا، خيرا، فطنا، حاذقا، زاهدا، عزيز النفس ينيب إلى الخير والصلاح، ورغم ذلك كان لا يستغني عن استشارة زوجه زينب فكان يشيد بفضلها عليه. أما هي فتعتبر نموذجا للمرأة المغربية بسياستها وحكمتها الرشيدة. فقد بذلت قواها المعنوية والمادية لخدمة الصالح العام للدولة، ولم تبدد أموالها وكنوزها التي بدون شك تضاعفت عما كانت تملك من قبل، في اللهو وملذات الحياة المترفة رغم أنها كانت جميلة وأنيقة ومتحضرة.

وإني أقدر مشاركتها في الحياة السياسية والإدارية بحوالي إحدى عشرة سنة من (463هـ-474هـ/1070م-1081م) التي لم تمنعها من رعاية أسرتها، فقد اعتنت بتربية ابنيها. وهيأت المعزّ ليصبح ولي عهد أبيه. إلا أن المنية عجلت به. كما حافظت على استقرار قصر الإمارة ولم يشهد الخلاف المعتاد بين الأمراء أو بين أمها تهم من أجل أخذ ولاية العهد لأبنائهنّ، مع العلم أنه كان يوجد زوجات أخريات ليوسف بن تاشفين نظرا لسن زواجه من زينب فكان عمره حوالي ثلاث وستون سنة- أما غيرتها من حواء بنت تاشفين التي وصفت بالعلم والأدب والجمال فيظهر لي أنه شعور عادي من زوجة حاكم -مثل يوسف بن تاشفين- التي تعدى جمالها الأفاق. ويتطلب منها الأمر المحافظة على مكانتها وجمالها أكثر من أي امرأة أخرى، ونظراً للبيئة اللمتونية التي تولي للمرأة مكانة تليق بها سواء في الأسرة أو في المجتمع وتعتني بتربيتها وتعليمها، فإن حواء بنت تاشفين هي نموذج للبيت اللمتوني الحاكم في هذا المجال، لذلك كانت منافستها لها حادة.

كما تميزت زينب برقة الإحساس إذ أشفقت على القاضيابن خلوف المعاقب ورقت لحاله وندمت على ما بدر منها في لحظة طغت فيها العاطفة على عقلها. كما تميزت بالحلم عند المقدرة حينما عفت على الشاب الذي تمنى الزواج منها وهي في عصمة أمير المسلمين الذي منحها حرية الفصل في مبتغى هذا الشاب) هذه بعض الجوانب من النفوذ السياسي لزينب النفزاوية وإسهاماتها في دولة المرابطية.

وبناء على ما امتازت به زينب النفزاوية من قوة شخصية وسلطة، فقد استقر الوضع الأسري في عهد يوسف بن تاشفين، واستطاعت بقوة شخصيتها إبعاد منافسة أي امرأة لها، مهما كانت مرتبتها في الأسرة المرابطية، فخلى لها الجوّ واستقر الوضع الأسري في هذه الفترة(1) أما في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف (500هـ-537هـ/1106م-1112م) فيلاحظ حدوث تغييرات كثيرة على البلاط المرابطي التي انعكست مباشرة على الوضع العائلي، بل تعدته إلى الوضع العام للدولة. وعلى العكس ما عرفته الأسرة الحاكمة في عهد يوسف بن تاشفين من استقرار، فإنه في عهد ابنه علي أصبح الجوّ الأسري مشحوناً بأنانية بعض النساء، لاسيما الجواري أو أمهات الأولاد، فمنهن من برعت في الدسائس والمكائد. وإن كانت هذه الظاهرة لم تخل منها أسرة حاكمة قديماً وحديثا سواء في المغرب أو في المشرق(2) إلا أن هذا السلوك أفقد بعض الشخصيات التي كان لها دوراً معتبراً في الدولة(3). وسلكت هؤلاء النساء عدّة طرق لبلوغ درجة في النفوذ السياسي في الدولة منها: أولاهما الاستحواذ على قلب أمير المسلمين، خاصة إذا كانت جميلة، وثانيهما أن تكون أمّا لولي العهد. وهذا السلوك كثيراً ما تنتهجه الجواري وأمهات الأولاد فتشتد منافستهن للزوجات الحرائر.(4) واشتهرت من النساء في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف الأميرة حواء بنت تاشفين، والأميرة مريم بنت إبراهيم بن تفلويت والجارية قمر اللائي أتعرض إليهن على التوالي.

ب ــ **<u>الأميرة حواء بنت تاشفين</u>:**

من النساء اللمتونيات اللائي ذكرتهم المصادر التاريخية الحرّة حواء زوجة الأمير سير بن أبي بكر.(5) وهي التي أثارت غيرة زينب النفزاوية لجمالها وثقافتها الواسعة رغم صغر سنها. وكانت لها مكانة خاصة في العائلة. فالحرّة حواء هي ابنة تاشفين أخو يوسف بن تاشفين لأمه، وابن عمه. لأنه لما مات تاشفين والد يوسف دخل مكانه أخوه علي(6) كما أنها ابنة عم زوجها الأمير سير الذي حظي على ثقة أمير المسلمين. ونظراً لمكانة هذه القرابة والثقة، قرر أمير المسلمين علي بن تاشفين مصاهرة أبناء عمه حواء والأمير سير، فخطب ابنتهما فاطمة في عام (507هـ/142ام) وكان زفاف فاطمة

---

1 سعدون عباس نصر الدين : المرجع السابق، ص111.و أنظر: Mouloud Gaid: Op.cit. IV P18

2 ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص56.
Guichard (Pierre): Structures sociales «orientales» et «occidentales» dans l'Espagne musulmane. Mouton. Paris. Lahaye. P 78 –79.

3 ابن عذاري: نفسه.

4 Guichard: OP. Cit. P80.

5 كان وزيرا ليوسف بن تاشفين وأحد أبرز قادته. عين حاكما على إشبيلية ما بين (484هـ-507هـ/1091م-1113م) قام بوظيفته خير قيام محققا عدة انتصارات في غزواته بالأندلس وأسندت إليه مهمة خلع ملوك الطوائف من طرف يوسف بن تاشفين، للمزيد من المعلومات انظر: ابن عذاري: نفس المصدر، ج4 ، ص 48-105-121-123-128، والحلل الموشية: ص 24-72. و ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص106.

6 ابن عذاري: نفسه.

بنت حواء مميزاً لم ير مثله وذلك حسب ما جاء في البيان المغرب:"فلم يعهد في ذلك اليوم لهواً وكثرة ونعماً، خرج فيه الجم الغفير إلى مضارب المحلة بعين العلو".(1)لكن هذا الزفاف توغلت فيه أيدي خفية ومكيدة لم ترتاح له ... إذ ما كاد الأمير "سير" الوصول إلى إشبيلية ــ بعد توديع زوجته وابنته العروس ــ حتى لفظ أنفاسه متأثراً بمغص شديد ومفاجئ، فتقطع الحرّة حواء رحلتها إلى مراكش بصحبة العروس وهي غير مصدقة الخبر. فما كانت إلا ساعات قلائل من صحة وعافية وفرح تتحول إلى مرض مفاجئ وقرح ! إلا أن موت الأمير سير المفاجئ يدعو للريبة والشك. فهل كانت وفاته طبيعية نتيجة حالة مرضية مفاجئة؛ أم دس له السم فتسبب في المغص الذي قتله ؟ ومن هو صاحب المصلحة في وفاة أمير إشبيلية ومحاولة عرقلة هذا الزواج الذي يبدو أنه سيشكل خطراً على وضعية شخص ما مقرب من أمير المسلمين؟ أو أن هناك شخصاً خوفّ أمير المسلمين علي بن تاشفين، من الأمير "سير"طول حكمه لإشبيلية الذي استمر 23 سنة (484هـ-507هـ/1091م-1113م). فتخلص منه بهذه الطريقة.(2)لكن على ما يذكر ابن عذاري أنه ليس من خُلُق أمير المسلمين علي بن يوسف التخلص من أعدائه بهذه الطريقة(3).

لقد وقعت وفاة الأمير "سير" كالصاعقة على قلب زوجته حواء وأقسمت بعد دفنه أن لا تعود ولا تسكن دار الإمارة التي شهدت سعادتها، وأن تحرر عبيدها وتصوم سنة إن هي عادت لها، وترحل إلى مراكش. ويبدو من هذا القسم الغليظ(4) أن حواء اشتمت رائحة مكر وخيانة في دار الإمارة. فقد عرفت الحرة حواء أنها ذات نباهة وخطر،(5)وربما ينعكس زواج ابنتها فاطمة من أمير المسلمين على ولاية العهد إذا ما رزقت فاطمة ولدا. وهذا ما سيشكل خطرا على زوجات أمير المسلمين لا سيما وإن اخوتها من أبرز قواد علي بن يوسف في الأندلس،(6)ففي هذا الصدد مدحها الشاعر الأعمى التطيلي(7):

---

[1] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 56.

[2] عصمت عبد اللطيف دندش: أضواء جديدة على المرابطين، ص 173، بتصرف.

[3] ابن عذاري:نفسه: كيف تصرف علي بن يوسف مع القائد مزدلي في عام 506هـ / 1141م.

[4] أبو الوليد بن رشد: فتاوي ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، السفر2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1407-1987. مسألة رقم 395ص، 1223-1224. وذكر في باب نوازل الإيمان والنذر لكن دون ذكر اسم حواء واسم زوجها انظر: الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي، ج2. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص 65 ــ 66. وانظر: محمد الخطيب التجكاني: مسائل بن رشد (الجد)، مج2، ط2، دار الجيل بيروت ودار الآفاق الجديدة، المغرب 1414هـ-1993م، مسألة رقم 294: "يمين حواء بنت تاشفين" ص 1077-1078.

[5] ابن عذاري: نفس المصدر ، ج4، ص22.

[6] عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين، ص 174.

[7] هو أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، ويعرف باسم التطيلي الإشبيلي، وتطيلة موطن أهله وإشبيلية دار هجرتهم، كني أبا جعفر وأبي العباس، ولد ضريرا فلقب بالأعمى وعاش في عصر ملوك الطوائف فأدرك دولة بني عباد، ثم لمع إسمه

يا أخت خير ملوك الأرض قاطبة وإن أعدّوا وإن أسمــوا وإن نسبوا

محمــد وأبــــو بكـــــر وخيرهم يحـــي، وحسبك عز كــلما حسبوا.(1)

و هكذا أشاد هذا الشاعر بآباء و إخوة الأميرة حواء و أعلى من شأن البيت اللمتوني.

وبناء على هذه المكانة التي بلغتها حواء أرملة سير في الأندلس، يبدو أن وجودها بمراكش قد أضاق بعض الأشخاص، لاسيما بعد أن تألق نجمها من جديد في الساحة الأدبية. فها هي بعد مدة تزوج للأمير أبي طاهر تميم(2) شقيق أمير المسلمين، بعد وفاة زوجته الحرة مريم بنت تفلويت.

ويعيّن هذا الأمير على إشبيلية مما يتحتم على حواء مغادرة مراكش ومرافقة زوجها للأندلس، ولا يستبعد أن يكون هذا التعيين مؤامرة ضد حواء نسجت خيوطها الجارية قمر. فمما سبق ذكره أن حواء كانت ذات نباهة وخطر.(3) كما أنها تركت مراكش على مضض وأجبرت على مرافقة زوجها(4) والجارية قمر كانت حظية علي بن يوسف. فالحرة حواء تمتعت بمكانة خاصة وكانت مجلباً للشعراء فمدحها الشاعر ابن خلوف وهي ما تزال صغيرة وأثار شعره غيرة زينب النفزاوية، وتراجع عن مدحه لها وذمها وأحبط من شأنها إرضاء لزينب النفزاوية(5).ويبدو من خلال الشطر الثاني من البيت الشعري/(6) إن حواء كانت محسودة من زواجها بسير لما بلغه هذا الأخير من شهرة. حتى يقرر هذا القاضي طلاقها منه إرضاء لزينب التي عزلته بسبب مدحه حواء بالجمال. وقد حاول هذا القاضي الحط من شأن حواء عندما ارتجل قائلاً:

أنت بالشمــــس لاحـــقـــــة وهي بــــــالأرض لاصــــقـــــــــة

فرضيت زينب عليه وقالت في شأن حواء والله لا شم لها قفا أبداً.(7) إلا أن مقولتها هذه لم تصدقها الأيام، لأن من يشب على خلق شاب عليه، فهذا الشاعر الأعمى التطيلي(8) يرفع من شأن حواء من جديد قائلاً:

أيام يوسف بن تاشفين ومات شابا سنة 530هـ/1135م. أنظر: ابن بسام: المصدر السابق، ق2، م2، ص 728. وأنظر: الضبي: بغية الملتمس، ص 234. وأنظر: يوسف فرحات: معجم الحضارة الأندلسية، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 2000، ص 91.

1 ديوان الأعمى التطيلي: تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963، ص 18.

2 تولي الأمير أبو طاهر تميم إشبيلية في جمادى الثانية عام 516هـ/1122م، وعزل عنها في ذي الحجة 517هـ/1123م،لكن يعين والياً على غرناطة وقرطبة.انظر:ابن عذاري:نفس المصدر،ص 73- 106 والحلل الموشية،ص 98.

3 ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص57

4 عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين، ص 175.

5 أنظر ما سبق في هذا الفصل.

6 "فمتى ما مدحتها فهي من سير طالقة". انظر النويري: المصدر السابق، ص 386. عصمت دندش: أضواء جديدة ص107. وانظر الحميري عبد المنعم : المرجع السابق، ص334

7 عصمت دندش: نفس المصدر، ص 170.

8 أنظر: ديوانه: ص18.

حواء يا خير من يسعى على قـدم | ولست عبـــدك إن لم اقض ما يجب
إليك أهديت مما حاكه خلـــــدي | فخرا يجد ويـلـي هـــــذه الحقب
قد عم برك أهل الأرض قاطبـة | فكيف أخرج عنـه جــراك الجنب
مليكة لا يوازي قـدرها مـــلك | كالشمس تصغر عن مقدارها الشهب
أنثى سما باسمها النادي وكم ذكر | يدعى كأن اسمــه من لـؤمه لـقب

وبناء على ما سبق فإن مكانة حواء في المجتمع لم تتزحزح وبقيت مقصداً للشعار وكانت مصدراً للهبات والعطاء(1) بالإضافة إلى الجود والكرم اللذان تميزت بهما الأميرة حواء فإنها كانت ذات تدين وتقشف، وذلك ما يبدو واضحا من خلال هذين البيتين:

دنيا ولا ترف، دين ولا قشف | ملك ولا سرف، درك ولا طلب
برّ ولا سقم، عيش ولا هــرم | جدّ ولا نصب، ورد ولا قــرب

مما يؤكد أن الزهد والتقشف لم يكونا خاصين بالرجال وفي مقدمتهم يوسف بن تاشفين إنما شمل أيضا بعض النساء(2).

إلا أن وفاة زوجها سير كانت منعرجاً خطيراً في حياتها. وما كادت أن تتأقلم مع وضعها الجديد في مراكش وتعزي نفسها بمجالسها الأدبية حتى تُزوج من جديد. ويرغمها زوجها إلى السكنى بدار الإمارة بإشبيلية ضاربا عرض الحائط القسم الذي صدر منها، بأن لا تسكن دار الإمارة ثانية وتتصدق بثلث مالها وتحرر عبيدها وتصوم سنة(3) فلجأ زوجهاطلب الفتوى لدى القاضي أبو الوليد بن رشد(4).

---

[1] أما رأيت ندى حواء كيف دنى | بالغيث، إذ كاد تأتي دونه العطب
قد عم برك أهل الأرض قاطنة | فكيف أخرج منه جَارك الجنـب

أنظر القصيدة كاملة: الملحق3 ويلمس في شعره الوقار لهذه الأميرة مما يؤكد مكانتها وعظمة دولتها: سهيلة عبريق: المرجع السابق، ص 129.

[2] الأعمى التطيلي: نفس المصدر، ص 18. محمد الهادي شعيرة: المرجع السابق، ص 83. سهيلة عبريق: نفس المرجع، ص 126. أنظر القصيدة كاملة في الملحق رقم 4.

[3] وكتب إليه ــ رضي الله عنه ــ الأمير أبو طاهر تميم بن يوسف تاشفين من مدينة إشبيلية يسأله في يمين حلفت بها زوجة الحرة حواء بنت تاشفين إثر موت زوجها الأول قبل. أنظر: عبد العزيز الأهواني: "مسائل ابن رشد" مجلة المخطوطات العربية، مج4، ج1 ماي 1958م، ص 75 ــ 76. والملحق رقم 5.

[4] هو الفقيه أبو الوليد بن محمد بن رشد. ولد بقرطبة في 450هــ / 1058م، وولي قضاء الجماعة في قرطبة في 511هـ/1117م، بقي في هذا المنصب إلى غاية 513هــ-1119م أو 515هــ / 1121م، ثم استغنى عن القضاء لكي يتفرغ لتأليف كتابه الكبير " البيان والتحصيل"، توفي في 520هــ/1126م. من كتبه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" هو من أحسن المجموعات الفقهية. انظر: ابن بشكوال: الصلة، رقم 1151، ص73. الضبي: بغية الملتمس: رقم 24، ص43. النباهي: (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن): تاريخ قضاة الأندلس وسماه كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1403هــ -- 1983م. ص 98 ــ 99.

وأجبرت حواء إلى مغادرة مراكش ومفارقة مجالسها الأدبية والسكنى بدار الإمارة بإشبيلية التي قالت فيها عند دفن زوجها وطلب منها الرجوع إليها:" [...] أين الوجوه التي كنت أعرفها فيها وأسكنها معهم..." ولكن حينما لم تستطع إقناع زوجها لا سيما بعد صدور الفتوى(1) في شأنها لجأت إلى الحيلة كوسيلة تجبرها على مغادرة دار الإمارة بإشبيلية. وتتكشف محاولتها هذه من شهادة الطبيب ابن زهر(2) في كتاب التيسير(3) حيث يقول:" إن ولي إشبيلية عانى من حالة مرضية حادة في المعدة وثقل في الحركة[...] فأمر الطبيب ابن زهر ابنه مروان ملازمة الأمير أبو طاهر تميم والإقامة معه. ويلاحظ هذا الأخير أن خدام الأمير يضعون في الماء الخاص به مسحوق لحم فاسد جفف، كان يسبب ألام الأمير. ولما استنكر ذلك منهم طلبوا منه السكوت [...] إلا أنه لم يبال بذلك. ولما رفض أبو مروان السكوت سعت ضده حواء وهددته ونصحه بعض أصحابه فلم يستجب. ويقول في هذا الصدد: "فظهر لي الغضب من زوجته حواء ومن خوادمها، وأعقب ذلك سعيا وخزيا لي ..."(4) وتستمر هذه الحالة المرضية بوالي إشبيلية إلى أن يعزل(5) عنها بعد حوالي عام وأربعة أشهر من المرض. بيد أنه يعين والياً على غرناطة وقرطبة. وكأن المقصود من ذلك إبعاده مع زوجته حواء عن مراكش. ويبدو أن أمر تعيينه حساس جداً، لأنه لم يعد إلى مراكش إلا في (520هـ/1126م). وتكون حواء قد توفيت قبل عزله عن غرناطة وبالتالي لم ترجع إلى مراكش(6).

ويبدو لي أن تصرف حواء بهذا الشكل لم يكن الغرض منه إضرار زوجها، لكن كانت ترمي إلى العودة إلى مراكش بعد أن يأخذ أمير المسلمين قرارا في ذلك، نظراً لحالة زوجها المرضية التي

---

1 فتاوى ابن رشد: السفر، المسالة، 395. ص.ص. 1235 ـــ 1224.

2 أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر الأيادي أتقن الطب على أبيه وعلى أبي العيناء المصري، كما درس الفلسفة والمنطق وأخذ الأدب عن شيوخ عصره، أقام بشرق الأندلس، وقد حاول المعتمد بن عباد استمالته، ولكنه لم ينتقل إلى إشبيلية إلا بعد انتهاء ملك بني عباد، وقد لقي عند يوسف بن تاشفين كل الإكرام والتعظيم. أنظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة بيروت، 1965، ص 517، 518، 519. وأنظر: المقري: المصدر السابق، ج3، ص 433. وأنظر: يوسف فرحات: المرجع السابق، ص 122.

3 أبو مروان بن زهر: التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق: ميشال خوري، دار الفكر دمشق، 1983، ص 98. وأنظر: عصمت دندش : أضواء جديدة على المرابطين. ص.ص132-134.

4 ومن بين أسباب نكبة الطبيب أبو العلاء بن زهر وابنه مروان عدم محافظتهم على سر مهنتهم عندما يتطلعون على بعض المرضى خاصة ما يتعلق بأمراء المرابطين. انظر : عصمت دندش : أضواء جديدة على المرابطين. ص137. وانظر الملحق رقم 6.

5 عصمت ندندش: "أدوار سياسية لنساء في دولة المرابطين"، ص 58 ـــ 59.

6 يعزل بطلب من قاضي الجماعة أبو الوليد بن رشد حيث سافر هذا الأخير إلى مراكش خصيصاً لهذا الأمر. انظر: الحلل الموشية: ص98 وانظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص73.

أعاقت نشاطه العادي في الأندلس، وعجز الطب أمامها. وربما لأجل ذلك قال عنها ابن عذاري:"هي ذات نباهة وخطر"(1).

وإذا كانت حواء تصرفت بهذه الحيلة فهناك من هو أدهى منها في مراكش وسعى إلى عدم عودتها إليها إلى أن توفيت بعيدة عنها. لأن هذه الفترة تميزت بالسعي الحثيث للجارية قمر في إقناع أمير المسلمين بتوليه العهد لابنها الأمير سير لاسيما أن هذه الأخيرة تعد ضرّة لابنتها فاطمة.

ج – **<u>الأميرة مريم بنت إبراهيم بن تفلويت</u>**:

من النساء اللمتونيات الأميرة مريم بنت إبراهيم بن تفلويت زوجة الأمير أبي طاهر تميم السابق الذكر. قصدها شاعر الأندلس الكبير ابن خفاجة(2) يستشفع بها عند زوجها وكتب لها قصيدة طويلة اقتطفت منها بعض الأبيات، التي تدل على مكانة هذه المرأة وخصالها الحميدة وتدينها وتقواها.

وكفى احتماء ومكانة، وصـــيانة أني علقت بـــذمة من مـــريم
ذات الأمانة والديانـــة والتقـــي والخلق الأشرف والطريق الأقوم
ذات الجلالة والجزالة والنهـــي والبيت الأرفع والـــنصاب الأكرم
ملكت به، الأحرار، أكرم حـــرة بسط الـــمقل لـــها يمين المقدم(3)

كما أثنى الشاعر ابن خفاجة على أصل ونسب الأميرة مريم بنت إبراهيم قائلا:

من أسرة يتلثمون إلـــى الوغـــى يوم الحفيظة بالـــعجاج الأقتـــم
من بيت عز، من نبال، حيث لا تلقى بغير مسود ومعظـــــــم

ويشيد ابن خفاجة بالقيمة القتالية أو الجهادية للملثمين و بشجاعتهم و عزهم.
أما فيما يخص الجود والكرم فيمدحها بسخاء أهلها حيث يقول:

---

1 البيان، ج4، ص57.

2 هو ابن إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله خفاجة ولد في جزيرة "شقر" من أعمال بلنسية شرقي الأندلس سنة 450 هـ/1058 م. وقيل لبلدته جزيرة، لأن نهر شقر محيط بها. شاهد ابن خفاجة بعض أحداث الأندلس، منها أن الفارس روذريق المعروف بالسيد دخل بلنسية وأحرق صاحبها ابن جحاف، وقد استعادها المرابطون وجعلوها ولاية تابعة لهم. وقد بكى ابن خفاجة على ما حل بالمدينة من خراب وفي سنة 510هـ كان ابن خفاجة بمدينة "شاطبة" فعيد الفطر في حضرة أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وأنشد أمامه قصيدة عينية:

سجعت وقد غنى الحمام فرجعها وما كانت، لولا أن يغني لأسجعا

وله مدائح في الأمير إبراهيم وأخيه تميم أمير الأندلس، وقد أقام مدة في المغرب ونزل "بتلمسان" فكان ينظم الشعر في الحنين إلى الأندلس. ويبدو أنه كان صاحب لهو في شبابه، فلّما تقدمت به السن أقلع عن الغواية وسلك سبيل الرشاد، توفي في شقر، في شوال من 533 هـ/1137 م. أنظر: ابن خلكان: المصدر السابق، مج1، ص56. المقري: المصدر السابق، ج1، ص 169. فرحات يوسف: المرجع السابق، ص 111 و 112.

3 ديوان ابن خفاجة، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، 1961م، ص 245 – 246 راجع القصيدة كاملة في الملحق رقم7.

إن جاد جاد هناك حاتم الطائي أو صال صال ربيعة بن مكـــدم[1]

وما هذا اللون من الأدب في الكتابات الأندلسية إلا انعكاساً أمينا للدور السياسي الذي لعبته المرأة المرابطية. فإنها لم تقل شأنا عن الأمراء في رعاية الشعراء وإجزال العطايا لهم. فأصبحت مقصد لذوي الحاجات لشفاعتها، فتعفو على المسجونين وترد المنكوبين إلى مناصبهم، وهاتين الأميرتين خير دليل على ذلك[2].

فإذا كان هذا شأن بعض الأميرات اللمتونيات، فمن المفيد تتبع دور بعض الحريم والجواري في تسير دفة الحكم في عهد أمير المسلمين علي بن تاشفين. تزوج علي بن تاشفين في سن مبكرة من إحدى قريباته وصار أباً في السادسة عشرة من عمره عندما أنجب ولده البكر أبي بكر. كما رزق فيما بعد من جاريته الرومية "ضوء الصباح" بابنه تاشفين، ومن جارية رومية أخرى اسمها "قمر" ينجب ابنه "سير"[3]-ولي عهده-.

د ــ **الجارية قمر:**

وهذه الجارية كانت فائقة الجمال وربما اسمها دلالة على حسنها، وحظيت عنده وملكت عليه أمره[4] دون زوجاته الأخريات[5]فالزوجة الأولى كانت صغيرة السن ولم يكن لها تأثير عليه لأنه تزوجها في سن مبكرة. والزوجة الثانية "ضوء الصباح" فقدت مكانها على ما يبدو بوصول قمر. فهذه الجارية الأخيرة كانت بارعة الذكاء والجمال، استطاعت كسب قلب أمير المسلمين علي بن يوسف، وتسيطر عليه بإبعاد أي منافسة لها، ولو أدى ذلك الأمر إلى القتل ليخلو لها الجوّ. وكانت قمر شديدة الذكاء والحذر، إذ لما أحست بأن صاحبتها "ثريا" تستدرج أمير المسلمين الذي أبدى ميلا نحوها، دست لها السم البطيء الذي سبب لها إسهالاً حادا والما مبرحة حتى انسلخت الطبقة الداخلية لأمعائها. وقضت مدة أربعين يوما في فراش الموت البطيء إلى أن توفيت[6]وهكذا استعصى علاجها، وشخص مرضها الطبيب أبو مروان بن زهر[7] حيث يشهد لها بما يلي:"تيقنت أن قمر حظيته الأعز عنده من

---

[1] ابن خفاجة: المصدر السابق، ص 245. عبريق عقيلة: نفس المرجع، ص 129- 127.

[2] حمدي عبد المنعم محمد حسين: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 334. إبراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص49. سلامة محمد سلمان الهرفي: دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، ص 296 حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص263.

[3] ابن أبي زرع : المصدر السابق، ص 99. الناصري:المصدر السابق، ج2، ص8. وانظر: سلمان الهرفي: نفس المرجع، ص61.

[4] عصمت دندش: أدوار سياسية لنساء في دولة المرابطين... ص57.

[5] ابن القطان: نظم الجمان، ص 245. ابن الخطيب الإحاطة: مج1، ص 446.

[6] ابن زهر: التيسير، السفر2، ص 250. و أنظر: عصمت دندش: أضواء جديدة... ص175.

[7] هو أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن أبي مروان عبد المالك بن محمد بن مروان بن زهر، لحق أبيه في صناعة الطب، وكان جيد الاستقصاء في الأدوية المنفردة والمركبة، حسن المعالجة، قد ذاع صيته في الأندلس وخارجها

صواحبها سمتها. فلم يكن لها حيلة وماتت من علتها تلك[...]"(1) وهكذا تخلصت من الجارية الثريا. ولذا يبدو أن المنافسة كانت حادة بين الجواري إلى درجة دس السم المؤدي إلى الموت. وربما ما يفسر سوء الحالة الصحية لعلي بن يوسف الذي كان محور المنافسة الحادة بين جواريه أن ناولته حظيته قمر(2) مادة ما ليبقى دوما ضعيفا متألما(3) ويتسنى لها مراقبة تصرفاته والضغط عليه، فلقد لعبت دوراً خطيرًا في سياسة الدولة. وذلك لما أورده ابن زهر:"إن عوام الناس وعجائز النساء، قاتلهم الله، يجيدون من معرفة الأدوية مالا يعرفه الطبيب"(4) ومن مظاهر نفوذها السياسي كان أمير المسلمين يدير الشؤون العمومية بإشارتها(5).

أما الدور السياسي الخطير لهذه الجارية تمثل في إقناع أمير المسلمين علي بن يوسف في جعل ولاية العهد لابنها "سير". وتم لها ما أرادت حينما جمع أمير المسلمين أهل الحل والعقد من الفقهاء والقضاء(6) وبني عمه وأخويه تميم كبيرة وأخاه إبراهيم صغيره المشهور بابن تاغيشت. وتم عقد

واشتغل الأطباء بمصنفاته، ولم يكن في زمانه من يماثله في مزاولة أعمال صناعة الطب• خدم الملثمين ونال من جهتهم من النعم والأموال كثيرًا، ثم خدم عبد المؤمن بن علي واعتمد عليه هذا الأخير في الطب• من أشهر كتبه "كتاب التيسير في المداواة والتدبير" ألفه للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد وكتاب " الأغذية". توفي عام 557 هـ/1150م، ودفن بإشبيلية. أنظر: ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ص 519، 520، 521. وأنظر: يوسف فرحات: المرجع السابق، ص 235، 236.

1 وليس هذا موضعا أذكر فيه غلاج من سقي السم وإنما ساقني إليه اتصال القول واختلاط الأعراض. كانت عند الشقي علي بن يوسف جارية تسمى الثريا، أصابها عقرٌ في أمعائها الدقاق وتبع ذلك إسهال مفرط وعصار، وكلما رمت علاجها أعياني حتى أتت عليها نيف على أربعين يوما، وقد حرت في علتها فإني كنت أحسن الظن، فإذا معاها قد انسلخت طبقتها الداخلة كلها، أعني موضع العقر (القبض). وخرجت مع الإسهال الطبقة الواحدة أزيد من شبرين طولا، فأوقفني الصقلبي (لعله عني به أحد الغلمان الصقالبة الذين كانوا يخدمون في بلاط بن يوسف) عليها. فعجبت من حدة خلط يبلغ إلى هذا ويؤثر هذا التأثير العظيم دفعة. فبعد لأي تيقنت أن قمر حظيته الأعز عنده من صواحبها سمنتها، فلم يكن فيها حلية وماتت من علتها تلك. أنظر: ابن زهر المصدر السابق، ص 250. وأنظر: عصمت دندش : أدوار السياسية لنساء...، ص57.

2 فأم أمير المسلمين علي هي أيضاً أم ولد رومية واسمها "قمر" وتكنى أم الحسن انظر ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 99، إلا أنها لم يكن لها نفوذ سياسي بارز في عهد يوسف بن تاشفين إلا من خلال ما يستنتج أن يوسف بن تاشفين كتب ولاية العهد لابنها "علي" متجاوزاً حق أخيه تميم. انظر : ابن عذاري : المصدر السابق، ج4، ص 48.

3 كان علي بن يوسف يعاني من حالة مرضية في كبده وكان يصيبه عقب أوجاع هذا المرض يرقان أصفر. أنظر: ابن زهر: نفس المصدر، ص 190 و 399. ابن زهر: نفسه . عصمت دندش: أضواء جديدة على دولة المرابطين، ص 175.

4 ابن زهر: نفس المصدر، ص 251.

5 عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ الحضارة المغربية، ج2، ص104.

6 حسن علي حسن : المرجع السابق، ص360.

البيعة لابنه سير ابن الجارية "قمر" يوم الجمعة 14 جمادى الثانية عام (522هـ/1128م)(1) وبهذا التصرف تزرع قمر بذور الشقاق والعداوة في العائلة الحاكمة. فهذا الأمير أبو بكر يتضمر ولم يرض بهذه البيعة اعتباراً منه أنه أحق بها، فهو ابنه البكر من أول زواج له، وأمه حرة لمتونية. لكن على ما يبدو أن هذه الأخيرة كانت مستضعفة وتغلبت عليها الجواري الحسان حتى افتك منها حق ولدها في ولاية العهد. فلما احتج الأمير أبو بكر عزله أمير المسلمين عن ولاية إشبيلية ثم نفاه إلى الصحراء(2). ولا يستبعد دور قمر في التأثير على ولده في اتخاذ هذا القرار وإبعاد المعارضة عن ابنها "سير". أما تاشفين ابن الجارية "ضوء الصباح" فقد ولاه على الأندلس. ويبدو أنه كان راضياً بهذه الولاية، لكن كانت له قصة عجيبة من جراء الدور الخطير الذي قامت به "قمر" لإزاحته عن ولاية الأندلس في وقت كانت هذه الأخيرة بحاجة ماسة إليه.

لقد أبلى تاشفين البلاء الحسن في جهاده للنصارى وحماية الإسلام في الأندلس. فأحبه الناس وتملك نفوس الرعية بالعدل وجنده بالإنصاف، فذاع صيته في العدوتين. في حين كان الأمير "سير" يميل إلى الدعة واللهو وتوالت عليه الهزائم من جيش الموحدين(3). وكبر كل ذلك على ولي العهد سير وعلى أمه قمر وتملكها الحسد والغيرة، وخشيت تحول شيوخ المرابطين عن بيعة سير. فأوغرت قمر صدر زوجها خشية تغلب تاشفين على ابنها سير، واستقلاله بالأندلس. فأرضاها بأن عزله وأمره بالوصول إلى حضرته(4) فرحل في أواسط سنة (531هـ/1136م) ووصل مراكش، وصار في جملة من يتصرف بأمر أخيه "سير" ويقف ببابه كأحد حجابه(5). وقال لسان الدين بن الخطيب في هذا الشأن: "وكان علي بن يوسف عظيم الإيثار والإرضاء لأمه قمر. وهي التي تسببت في عزل تاشفين وإخماله نظراً إلى ابنها. فقطع المقدار بها عن أملها بهلاكه"(6) فلما توفي ابنه سير في صفر

---

[1] لم يكن حق الابن الأكبر لولاية العهد محترما. فقد خلف يوسف بن تاشفين عمه أبا بكر بن عمر، ولم يحترم حق ابنه إبراهيم عندما طالب ملك والده، كما أن يوسف بن تاشفين عين ابنه عليا خلفا له متجاوزاً حق ابنه الأكبر تميم في 496هـ أنظر في ذلك: ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص48 والحلل الموشية: ص78. وانظر: هويسي ميراندا: "علي بن يوسف وأعماله في الأندلس": مجلة تطوان العددان 3و4، 1958 – 1959، ص 153. وانظر: سلمان الهرفي: المرجع السابق، ص 250 – 251. Lagardère – V: Op.cit. P94.

[2] ابن عذاري: المصدر السابق، ص 78. وانظر: ابن الخطيب: الاحاطة، مج1، ص446. وانظر عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج1، ص 147.

[3] الحلل الموشية: ص 121. وأنظر: ابن الخطيب: نفسه.

[4] ابن عذاري: نفس المصدر، ص97. وانظر ابن الخطيب: نفس المصدر، مج1، ص ص 447- 445. عنان: المرجع السابق، ص 147.

[5] ابن الخطيب: نفس المصدر، ج4، ص 79. ابن الخطيب: نفس المصدر، ص 447. عنان: نفس المرجع، ص146.

[6] تلتزم الرواية في الإيجاز والتحفظ في شأن هلاك ولي العهد الأمير سير، منها "أنه دخل مستورا على أخيه عمر يريد زوجته فجرح بجراح عجلت ميتته. ابن القطان: "نظم الجمان، ص 245. "فقضى الله وفاة سير على الصور القبيحة". ابن عذاري: نفس المصدر، ص78. أنظر ابن الخطيب: نفس المصدر، مج1، ص447.

(533هـ/1138م) تدخلت قمر مرة أخرى في اختيار ولي العهد، وعرضت على علي بن يوسف أن يولي ابنه إسحاق ولاية عهده. وكان إسحاق هذا في منزلة ابنها فقد أشرفت على تربيته بعد وفاة أمه وتبنيه. فإسحاق كان لم يتعد الخامسة من عمره، مما جعل علي بن يوسف يتعذر لها لصغر سنه وأنه لم يبلغ الحلم بعد، قائلا لها:"ولكني أجمع الناس في المسجد الجامع من أهل مراكش خاصة وعامة، وأخبرهم في ذلك، فإن صرفوا الخيار التي فعلت ما أشارت إليه. فلما جمع الناس في المسجد الجامع وعرض عليهم الأمر قالوا في صوت واحد تاشفين"، فلم توسعه السياسة مخالفتهم فعقد له الولاية بعهده، ووصلت البيعات من كل جهات الدولة مؤرخة في رجب (534هـ/ 1139م)(1).

وهكذا يتبين من خلال هذه النصوص التاريخية أن سلطة الجارية قمر أم سير، لم يوقفها إلا مجلس الفقهاء وعامة الناس الذين اختاروا تاشفين بالإجماع نظراً للوضع العام التي كانت تمر به الدولة، ولما اشتهر به هذا الأخير في جهاده للنصارى في الأندلس(2) لكن قمر لم تهدأ، وأعلنتها حربا على تاشفين. واستغلت عدم توفيقه في حروبه مع الموحدين؛ التي ربما كانت لها يد فيها، وجعلت والده يتشاءم منه) وحرضته على خلعه من ولاية العهد وصرف عهده إلى ربيبها إسحاق(3) لأن"سير" لم يخلف ولداً نظرا لعقمه(4) وكادت تنجح في مسعاها، لولا أن أمره والده بالتوجه إلى مواجهة جموع الموحدين في شتاء (536هـ/1141م) في غير عدة واستعداد(5) ويبدو هذا الاستعجال للقتال بدون استعداد كاف، كان بايعاز من زوجته قمر حتى تتخلص منه ويخلو لها الجو.ولم تشير المصادر على أن هناك سوء تفاهم أو خلاف بين الجارية قمر وتاشفين ما عدا الإشارة لعامل الغيرة الذي تملك الجارية قمر تجاه شعبية تاشفين. فلقد أعمتها الغيرة على رؤية الحق والتصرف السليم للصالح العام. وهكذا كانت قمر تدير سياسة الدولة وفق عواطفها، ولا يعقد علي بن يوسف أمراً إلا استشارها في الشؤون الإدارية والسياسية(6).

ومما يؤكد تورط قمر هو إخفاء نبأ موت علي بن يوسف مدة حوالي ثلاثة أشهر (من 27 رجب إلى 05 شوال 537هـ/1142م). وأقنعت بعض الشيوخ المرابطين بتقديم إسحاق -وعمره ستة عشرة سنة- على مراكش نائبا على تاشفين الذي كان في ساحة القتال(7) والأمر العجيب هو أنه في

---

[1] انظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ص 78. وأنظر:ابن الخطيب: المصدر السابق، مج1، ص 447.

[2] ابن الخطيب: نفسه.

[3] ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص99.

[4] ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص78.

[5] ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص 98-101. وانظر ابن الخطيب: نفسه. ولمزيد من المعلومات على هذه الفترة الحرجة للدولة المرابطية انظر الحلل الموشية:ص.ص 121- 13. وعصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين، ص181.

[6] الحسن السائح: المرجع السابق، ص234.

[7] ابن الخطيب:نفس المصدر، مج4، ص59. وانظر عصمت دندش: أضواء جديدة.. ص182.

هذه الفترة الأخيرة التي تحتضر فيها دولة المرابطين تستمر قمر في محاولتها لإبعاد تاشفين عن ولاية العهد. وبهذا التصرف تفتح بؤرة أخرى للتوتر، وكأن خطر الموحدين لا يهمها وإنما همها تاشفين فقط، أو ربما كانت متورطة مع الموحدين. فكان ردّ فعل تاشفين أمير المسلمين أن ولي عهده لابنه إبراهيم في آخر سنة (538هـ/1143م)، وأرسله إلى مراكش صحبة جماعة من اللمتونين[1] وبعد مصرع تاشفين في (27 رمضان 539هـ/1144م) قرب وهران بويع لابنه إبراهيم غير أن إسحاق متبنى الجارية قمر رفض هذه البيعة ودعا لنفسه مدعما بالقادة الروم[2].

وبناء على ما سبق فإن الصراع لم يبق فقط لمتوني مصمودي إنما استأصل في هذه الفترة صراع خفي وخطير بين أبناء البلاط المرابطي وتمثل في نفوذ بعض القادة الروم المساندين للجارية قمر ولابنها الرؤوم إسحاق، وبين اللمتونين الذين ساندوا تاشفين ثم ابنه إبراهيم. وترجع بذور هذا الصراع لعام (534هـ/1139م). حينما وضعت جماعة المسلمين حداً لرغبة "قمر" وبايعت بالإجماع تاشفين لولاية العهد. ويبدو ذلك جلياً من جواب علي بن تاشفين لقمر:"إن اصرفوا إلي الأمر فعلت ما أشرت إليه"[3] فلما مات علي بن يوسف (537هـ/1142م)، وكان تاشفين يقاوم الموحدين بعيداً عن مراكش وجدت قمر الفرصة السانحة لتحقيق رغبتها. رغم أن الظروف السياسية والحربية للدولة انذاك كانت بحاجة لقيادة رشيدة وليس لحاكم عمره 16 سنة ومن ورائه أنانية جارية، فاشتد الخلاف بين الأميرين "إسحاق" و "إبراهيم" على الملك في غمرة الانتصارات الموحدية على دولتهم إلى أن افتكت مراكش منهم في شوال (541هـ/1146م)[4].

وربما هذا التصرف للجارية قمر هو الذي دفع المؤرخ عبد الواحد المراكشي[5]-الموحدي- للقول:" [...] ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة [...] من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور... ".

لكن يتضح من خلال الوضع السياسي للدولة الموحدية ؟ أ دنها لم تسلم من تدخل النساء في شؤون الحكم. وبالمقارنة بين الدولتين تبيّن لي أن كليهما تميزت بقوة حكامها الأوائل ثم ما لبثت أن دبت الفوضى في نهاية الدولتين. فإن تجلى النفوذ السياسي الإيجابي لزينب النفزاوية في بداية الدولة المرابطية، فالأمر لم يكن كذلك للمرأة على عهد الموحدين. هذا يرجع وربما للتعصب الديني وتمسك

---

[1] ابن الآبار: الحلة السيراء، ج2، ص194. وانظر : الحلل الموشية، ص 135.

[2] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 99 ــ 100 وانظر ابن الخطيب: المصدر السابق، مج3، ص 453 ــ 454.

[3] ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص97. وانظر: ابن الخطيب: نفس المصدر، مج1، ص447. الحلل الموشية: ص135عصمت دندش: أدوار لسياسة النساء في الدولة المرابطية، ص63.

[4] ابن عذاري: نفسه. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 96.عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير، ج2، ص ص 783-786.

[5] المعجب: ص 186.

الموحدين بتعاليم المهدي بن تومرت.[1] لكن الفكرة التي دشن بها المهدي دولته أخذت صورتها تقل مع الزمان، إذ أن مع أواخر الدولة الموحدية ظهر الإنحلال والفوضى السياسية اللذان تسببا فيهما بعض النساء. فمثلما اشتد نفوذ الجارية قمر في أواخر العهد المرابطي كان الأمر شبيه بذلك عند الموحدين. فالجارية "حباب" -أم الولد- زوجة الخليفة المأمون (624هـ-629هـ/ 1226م-1231م) وأم الرشيد (630هـ-640هـ/1232م-1242م)[2] كانت لها يد طويلة في الاضطراب والفوضى اللذان عرفتهما الدولة الموحدية وقتئذ، وتجلى نفوذ حباب السياسي الخطير في كتم وفاة زوجها المأمون، وسعت إلى بيعة إبنها الرشيد الذي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره، وبذلت من أجل تحقيق هدفها أموالا طائلة لمساعديها من أجل كسب ولاء القادة الكبار خاصة بني جنسها من الروم[3] وربما أن نفوذها استمر حتى في عهد إبنها. فهي التي استدعته من إحدى المعارك لما توالت جيوش خصمه يحيى بن الناصر[4] على مراكش[5] ومما يؤكد على نفوذها في الحكم واشتداد الاضطراب والفوضى في البلاد، أن "أبا سعيد" الذي خلف أخاه الرشيد حبسها وأغرمها مالا. ومن الغريب أن هذا الأخير كان واقعا تحت تأثير أخته غزونة. إذ لما تولى المرتضى الخلافة (646هـ-665هـ/1248م-1266م) سجنها وأغرمها مالا كثيرًا وحليًا خطيرًا[6] وألاحظ في الأخير أن دور الجارية "حباب" يشبه كثيرًا دور الجارية "قمر" أو يفوقه في الخطورة. نظرا لانعكاسه على الوضع في الأندلس التي كانت تحت تهديد حروب الاسترداد النصرانية. ويتضح مما سبق أن الذي عابه ابن تومرت على المرابطين لم تسلم منه الدولة الموحدية. فبلاط هذه الأخيرة لم يسلم من الدسائس، إذ لما أرادوا التخلص من الخليفة الناصر، دسوا إليه من يسمه من جواريه. وهكذا تبين لي أن ضعف الحكم المرابطي لم يكن بسبب تدخل نساء لمتونة أو مسوفة مثلما ذكر المراكشي إنما كان تحت تأثير تنافس الجواري أمهات الأولاد. مثلما حدث ذلك أيضا في الدولة الموحدية.

---

[1] عز الدين موسى: الموحدون في المغرب الإسلامي، ص141.

[2] ابن عذاري: البيان المغرب الخاص بالموحدين، ص 276.

[3] ابن عذاري: نفس المصدر، ص301. ابن الخطيب: المصدر السابق، ج1، ص417. السلاوي: المصدر السابق، ج2، ص209. ابن خلدون: العبر، ج12، ص 47-48. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج2، ص 283-284.

[4] هو ابن أخ المأمون بويع بمراكش خلفا لوالده نظرا لعدم رضا المراكشين بخلافة المأمون في عام 624هـ/1226م. وفي هذه الأثناء التي تميزت بالمعارك الطاحنة بين الطرفين كان النصارى يستولون على حصون ومدن الأندلس المسلمة. أنظر: المراكشي: المصدر السابق، ص 334، 335.

[5] ابن عذاري: نفس المصدر، ص341-345. مصطفى أبو ضيف: أثر القبائل العربية خلال عصري الموحدين، وبني مرين (524هـ-876هـ/1130م-1472م) ط1، دار النشر العربية، دار البيضاء، 1982، ص 103-104.

[6] ابن عذاري: نفس المصدر، ص305-306-362-389. ابن خلدون: العبر، ج13،ص 54-57-59. عز الدين موسى: نفس المرجع ، ص142.

وفي الأخير لم يعرف مصير قمر التي تسببت في إضعاف الدولة والتأثير على أمير المسلمين علي بن تاشفين في اتخاذ القرار السليم، فإن كانت زينب النفزاوية استطاعت بفضل رأيها السديد تقديم النصيحة والأموال لخدمة الدولة المرابطية وتم التراضي لأول مرة بين الأميرين : أبي بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين، وحقنت دماء الاخوة فإن الجارية قمر بأنانيتها مزقت أواصر القربى وشتت ملك المرابطين في وقت عصيب يدعو لجمع الشمل وتقوية الصفوف أمام الهجومات الموحدية التي امتازت بحسن التدريب والتنظيم(1).

4-المرأة والحرب:

اتسمت الدولة المرابطية بالطابع العسكري متأثرة بعدة عوامل منها أن مقامهم بالصحراء قبل قيام دولتهم كان يدعو إلى الحفاظ على مواردهم الاقتصادية. وكان لجوارهم للسودان الوثنيين حافزا لهم على تقوية صفوفهم نظراً لاستمرار الحرب بينهما زمناً طويلاً. كما عملت الفوارق القبلية الضيقة على تقوية صفوفهم نظراً لاستمرار الروح الحربية في نفوس الملثمين، فقد كان التنافس على الرئاسة والظهور عظيماً بين قبائلهم، وخاصة لمتونة، مسوفة وجدالة(2) حتى بعد قيام دولتهم. وتبقى هذه المنافسة حتى نهاية الدولة المرابطية، حين كاد المسوفيون لإخوانهم اللمتونين وانظموا إلى الموحدين(3).

كما أن طابعهم الحربي وخاصة الجهادي هو الذي دفعهم إلى مواصلة الجهاد ضد النصارى في الأندلس وحماية الإسلام والمسلمين. وفي خضم هذه العوامل السياسية والاقتصادية الاجتماعية هل كان لزاما على النساء خوض غمار الحياة الحربية، وإذا كان الأمر كذلك فإلى أي مدى ساهمت في ذلك ؟

إن مساهمتهن في هذا المجال تضرب بجذورها في ماضي الملثمين أين إرتدت النساء السافرات اللثام تشبها بالرجال من أجل تخويف العدو المهاجم في غياب الرجال عن الحيّ. ولما عاد رجالهم حاصروا العدو بينهم وبين النساء فقاتلوه وكان عدد القتلى من النساء أكثره(4) من هذه الحادثة تبرز مشاركة المرأة في الدفاع عن عرضها وعن أمن قبيلتها. ومن النساء اللائي كان لهن الفضل والدور البارز نجد السيدة زينب النفزاوية التي بسطت آمال يوسف بن تاشفين وأمدته بالأموال التي

---

[1] عصمت دندش: أدوار سياسة لنساء...، ص63.

[2] ابن خلدون: العبر. ج12. ص 379. وانظر عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين...، ص34.

[3] ابن عذاري: البيان/ق:الموحدون، ص 30. وأنظر: إبراهيم حركات: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين. ص 145، 146.

[4] البكري: المصدر السابق، ص 170. وانظر: ابن الأثير: الكامل، ج1، ص 330. ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 128، 129. أبوضيف: المرجع السابق.

مكنته من جلب الخيل الكثيرة حتى صار رجاله فرساناً، وكوّن الجيوش القوية وفتح البلاد برأيها.(1) ولم يستغن عن نصيحتها إلى أن توفيت وذلك للدور الذي قامت به في قيام هذه الدولة وتوسعها.

وإن كانت الظروف ساعدت زينب في التجلي والنفوذ في الدولة، نظراً لأنها زوجة الحاكم من جهة، بالإضافة إلى ما امتلكته من أموال وقدرات عقلية من جهة أخرى، فإن النساء الأخريات ساهمن بما تيسر لهن من إمكانيات مادية ومعنوية. وكثيرا ما كانت المرأة طرفاً في النزاعات السياسية بين الأمراء واعتبرت سبباً من أسباب قيام الفتن، حرص أهلها للدفاع عن عرضها.

ومن وقائع هذه الفتن ما عرف في الأندلس بثورة قرطبة، ضد الوالي المرابطي أبي بكر يحي بن رواد في عام (513هـ/1119م). وكان سبب هذه الثورة أن عبداً من عبيد "ابن رواد" مدّ يده على امرأة خرجت ضمن جمع من النساء والرجال يوم عيد الأضحى، فلما أمسكها هذا العبد استغاثت بأهل قرطبة، فأغاثوها بثورة ضد الوالي المذكور.(2) ويبدو أن هذه المرأة كانت من عامة الناس، فخاف أهل قرطبة على أعراضهم، ولم يترددوا في طلب القصاص بقتل هذا العبد ليكون عبرة للآخرين حتى بعد إطلاق سراح هذه المرأة، ودامت هذه الفتنة بين العبيد والسودان من رجال الحرس وأهل البلد طوال النهار.(3) والملاحظ هنا هو أن سبب هذه الثورة يختلف عن الثورات الأخرى، وأن نتائجها زادت من ثقة الرعية الأندلسية بزعمائها من فقهاء وأعيان.(4) وإن كان هذا الحدث مثالاً عن امرأة وقعت ضحية في يد عبد سوداني أدى إلى اضطراب الأوضاع رأساً على عقب بقرطبة، فإن المرأة الأندلسية في ظل المرابطين ضحت بالنفس والنفيس من أجل الدفاع عن وجودها وكيانها إزاء الهجومات المسيحية على الثغور الإسلامية بالأندلس.(5) وكانت النساء حاضرة في ساحة القتال ولم تتهاون في تقديم مساهماتها

---

[1] اشترى يوسف بن تاشفين ما بين سنتين 464هـ-465هـ/1071م-1072م ألفي نفر من السودان وحوالي مائتين وخمسين فارساً من الروم.انظر ابن عذاري.المصدر السابق، ج4، ص 220. والظاهر أنه لم يكن قد وضع ثقته في العناصر الوطنية الأخرى غير المرابطين. كما أنشأ حرسه الخاص من الحشم. انظر: إبراهيم حركات: نفس المرجع، ص 149.

[2] ابن القطان: نظم الجمان. ص23. و أنظر: الحلل الموشية، ص 86، 87. أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 187. النويرى: المصدر السابق، ص 931، 932.

[3] نهب القرطبيون دور المرابطين بالمدينة وأحرقوها. وتأزمت العلاقات بين فقهاء قرطبة وعاملها ابن رواد مطالبين بقتل هذا العبد، مما دعا أمير المسلمين على بن تاشفين إلى إرسالهم خطاب تقريع وتهديد، فلم يؤثر فيهم ذلك الترهيب، عندئذ قرر الحضور بنفسه إلى قرطبة لحسم هذه الفتنة في عام 515هـ-1120م. انظر ابن الأثير: الكامل، ج8، ص 187- 188. والحلل الموشية: ص 86، 87. وسعد زغلول: المرجع السابق. ج4، ص 404-405. وكمال السيدالهرفي:فى: تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصري دولتي المرابطين والموحدين، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية (دت)، ص 52.

[4] انظر سلمان الهرفي : المرجع السبق، ص 81.

[5] تعرف هذه المناطق بالجبهة الأندلسية وهي الحد الفاصل بين الممالك المسيحية في الشمال وهي أرجون وقشتالة والبرتغال، والإمارات الأندلسية الإسلامية في الجنوب التي يفصل بينهما مجرى نهر التاجة من منبعه إلى مصبه. ثم

للجيش المرابطي. ومن الدلائل على مساهمة مسلمات الأندلس في الجهاد ما وقع عند حصار ابن ردمير[1] لمدينة أفرغة[2] في عام (528هـ/134ام). فلما اشتد القتال بين المسلمين والفرنج، خرج أهل هذه المدينة جميعهم ذكرانهم وإناثهم، فاشتغل الرجال بقتل من وجدوا في المعسكر. أما النساء دخلوا محلّة العدو حصن الفونسو، فاشتغلن بالنهب وحملوا جميع ما وجدوه هناك إلى المدينة من قوت وعتاد وآلات وسلاح وغير ذلك. وجعلت كل هذه الغنائم في خدمة الجيش المرابطي الذي ظفر في هذه المعركة بالنصر.[3] وأمام هذا الوضع الخطير في ثغور الأندلس، راودني سؤال حول مشاركة النساء في القتال لصد غارات المسيحيين؟ ومن خلال المصادر العربية لم يشار إلى أن الجيش المرابطي كان يضم نساء مقاتلات، لكن استنادا إلى وثيقة مسيحية وجدت في الكوباز في عام 1596م. ذكر أن الجيش المرابطي ضم عدد من النساء اللائي شاركن في إحدى المعارك التي وقعت عام (526هـ/131ام) — في عهد علي بن يوسف — وهؤلاء النسوة كنّ يرتدين ثياب الرجال ويقاتلن على طريقة الفرسان. واكتشف النصارى ذلك بعد الموقعة حينما وجدوا كثيراً منهن بين القتلى.[4]

تمتد الحدود بعد المنبع نحو الشمال مع تقويس يسير حتى تصل إلى البحر الأبيض المتوسط عند مدينة طركونة. وأطلق المسلمون على خط الحدود الطويل من الشرق "الثغر الأعلى" وأهم ثغوره : قونقة وكتندة وسرقسطة وأفراغة ولاردة. وفي الوسط أطلق عسالم:لثغر الأوسط" وأهم ثغوره: شنترين. انظر عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ج2، ص 787. وانظر مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص84.

[1] ابن ردمير: هو الاسم الذي تطلقه الرواية الإسلامية على ألفونسو الأول ملك أراجون ونافارا المعروف بإسم Alfanso Sanchez (499هـ-529هـ/1104م-134ام) نسبة إلى اسم أبية راميرو Sancho Ramirez وقد كان ملكا مقداماً.أخذ سرقسطة من يد المسلمين في سنة 512هـ/118ام، وانتزع إلى جانبها باقي قواعد الثغر الأعلى.وقد تزوج أوراكا دونيا ملكة قشتالة في 109ام، وكان الغرض من هذا الزواج هو توحيد الممالك المسيحية الإسبانية الشمالية في مملكة واحدة. وتلقب كل منهما بلقب الإمبراطور و الامبراطورة على جميع إسبانيا. انظر ابن الكردبوس: المصدر السابق،حاشية: 4، ص 115-116.

[2] تقع مدينة أفرغة Fraga شرق الأندلس في أقصى حدود دولة المرابطين من معاقل الثغر الأعلى غرب مدينة لاردة. بينهما ثمانية عشر ميلا، احتلت موقعا طبيعيا مهينا فوق الربى العالية في نهاية وعر ضيق تصعب مهاجمته ويسهل الدفاع عنه. انظر : الحميري: المصدر السابق، ص 48. ضرب عليها القوسو الأول ملك أرجون حصاراً وكان بداخلها سعد بن مردنيش الذي استغاث بالمراطين في 528هـ-134ام. وتظاهرت القوات المرابطية بقيادة يحي بن غانية والي مرسية واستدرج المسلمون ألفونسو الأول إلى كمين نصبوه له في الطريق ثم انقضوا علي الجيش الأرغوني. وتوفي ألفونسو الأول بعد ذلك بأيام غمّاً وألماً. انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق3، ص 254 — 255. وكذلك الإحاطة مج1، ص 108-109. وانظر المقري: المصدر السابق، ج6، ص 198. ابن القطان: المصدر السابق، ص207، ص 208-222. وانظر حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، مج2. ص 54-55.

[3] ابن القطان: نفس المصدر، ص 218. لكن ابن الأثير يضع هذه الواقعة في عام 529هـ. أنظر: المصدر السابق، مج9. ص 287. ولمزيد من المعلومات راجع: عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج1، ص 121-122. وكذلك: سلمان الهرفي: دولة المرابطين في عهد علي بن تاشفين، ص ص 236-238.

[4] أشباخ يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين: ترجمة عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة، 1985. ص246.

وما أستخلصه من هذه الوثيقة الذي ذكرت أن النساء المقاتلات في الأندلس كن يلبسن ثياب الرجال. إن هذا الذي اعتدت عليه بعض النساء في المغرب في كنف هذه الدولة، إنهن يتنكرن في زي المقاتل لكي لا يعرفن من بين الرجال. وحتى طريقة قتالهن لا تختلف عن طريق الفرسان، وذلك لما تميزن به من شجاعة وإقدام وفن في القتال.[1]

وإن كانت المصادر العربية لم تذكر وقوع معركة في هذه السنة (526هـ/1131م)[2] إلا أن هذا لا ينفي مشاركة المرأة في القتال، لأن وصف هذه الوثيقة المسيحية للنساء المقاتلات لا يختلف عن وصف أبي بكر الصنهاجي "البيذق" لإحدى المقاتلات المرابطيات أثناء استيلاء الموحدين على مراكش عام(541هـ/1146م)[3] والملاحظ أن النساء كن يشاركن في الحروب ويلتزمن بالقتال؛ إلا أنهن كن يخفين هويتهن حتى على الفرسان المرابطين، ربما لكي لا يعاملن معاملة خاصة أو يشفق عليهن من هول القتال، فيوضعن في أماكن مخصصة لهن، وربما هذا التصرف لا يرضي الجريئات من النساء المقاتلات لأن من عادة النساء في الدولة الإسلامية عامة أن يصاحبن الجيش، لكن يخصص لهن أماكن في المدن الحصينة. ومن بين مساهمتهن اقراع الطبول لإثارة الحماسة في نفوس الجند وتضميد جروح المقاتلين وسقي الجرحى...الخ[4].

وإن كانت هذه النساء المقاتلات رغم قلتهن نلن شرف المشاركة في الجهاد ضد النصارى بشهادة وثيقة مسيحية-"وشهد شاهد من أهلها"، فهذا يعد مكسباً وشرفاً للمرأة الأندلسية في جهادها في سبيل إعلاء كلمة الله والإسلام في الأندلس. وربما اغفال المصادر العربية لمشاركة النساء في القتال بسبب عدم أهمية المعارك، أو أن هؤلاء المقاتلات لم يكشف أمرهن إلا بعد ما قتلن وكانت جثثهن في حوزة العدو.

لقد عرفت الدولة المرابطية اضطراباً في الحكم وخللا في القوة العسكرية في أواخر عهد علي ابن يوسف بن تاشفين الذي تظافرت عليه المصائب المتمثلة في الخطر المسيحي بالأندلس. أما في المغرب فقد ظهر خطر عبد المؤمن بن علي[5] ولذا لجأ علي بن يوسف إلى توجيه ابنه تاشفين لمواجهة جموع الموحدين[4].

---

[1] وانظر: أخبار المهدي: تق حاجيات، ص 94. وانظر : عنان : عصر المرابطين والموحدين، ج1، ص263.

[2] يوسف أشباخ: نفس المرجع: حاشية المترجم، ص 322.

[3] أبو بكر الصنهاجي البيذق: كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق ليفي بروفنسال، بولس كتنر باريس 1928م، ص 103.

[4] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1، ص 391.

[5] ولد عبد المؤمن بن علي بن يعلى بقرية تاجرا قرية ندرومة. واختلف في تحديد سنة مولده. إلا أنه ولد في عهد يوسف بن تاشفين ربما في 487 هـ/1094م. واتفق على وفاته في 588هـ/1192م. كما اختلف في نسبه. فذهب البعض إلى نسبه إلى جده مضر بن نزار جد الرسول (صلى الله عليه وسلم). ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 116، والحلل الموشية، ص 112. والبعض نسبه إلى الأدارسة. فهو ابن حسن بن كنونة بنت إدريس بن إدريس:

ومن خلال هذه الأحداث لفت انتباهي تصرف امرأة فاسية ذات كرم وإحسان، أدخلت سرورا على قلب أمير المسلمين تاشفين بن علي أثناء محاصرته من طرف عبد المؤمن بن علي بموضع كراندة بفاس عام (536هـ/1141م) حيث مكث أمير المسلمين مع جنده في هذه المنطقة شهوراً دون حطب ولا فحم حتى ألجأتهم الضرورة لحرق أوتاد أخبيتهم وخشب أبنيتهم نظراً لقساوة فصل الشتاء وغزارة الأمطار.(2) وإذا به تفاجئه هدية امرأة تسكن المنطقة، فبعثت له بطبق كبير عليه سبنية ظنه أنه فاكهة، وإذا فيه فحم. فسر به كثيرا.(3) لقد قدرت هذه المرأة الظروف الصعبة التي كان يمر بها أمير المسلمين واختارت الفحم هدية له، لعلمها أن الخشب مبلل ويصعب إشعاله فهو بحاجة ماسة للوقود أكثر منه للفاكهة. وربما كانت فقيرة لا تملك طعاماً كافياً تقدمه له، فساهمت بهديتها البسيطة لكنها ضرورية جدا نظرا للظروف التي كان يمر بها تاشفين.(4) وهذا يظهر أيضاً مكانة تاشفين لدى رعيته وشهرته، وربما كانت تأمل فيه استرجاع الاستقرار للبلاد. فهذه امرأة أجنبية عليه أشفقت وعطفت عليه وهذا الأمر الذي لم يجده في "قمر"، فأرسله والده لقتال الموحدين دون عدة وعدد.

كنت قد أسلفت الذكر عن التنافس الحاد بين القبائل الصنهاجية على الرياسة سواء عند تكوين الدولة المرابطية أو في نهايتها. ففي عهد تاشفين بن علي اشتدت البغضاء والشحناء بين اللمتونيين والمسوفيين الذين دخلوا في خدمة الموحدين حتى قتل بعضهم البعض وكانت هذه الفتنة من أسباب

المقتبس، من كتاب الأنساب...ص 21. تعلم بقريته "تاجرا" وحفظ القرآن. وكان شغوفا في طلب العلم، فرحل في طلب العلم إلى بجاية، إلتقى بالمهدي بن تومرت زعيم الموحدين في ملالة (تلمسان) وله معه قصة طويلة، اختاره ابن تومرت من بين العشرة المقربين له وخاض إلى جانبه الثورة ضد المرابطين، ولما توفي ابن تومرت في 524هـ/1129م بعد معركة البحيرة، خلفه عبد المؤمن بن علي على قيادة الموحدين حيث كان له سجلا دمويا مع المرابطين من 524-541 هـ/1129-1146م، حتى استولى على مراكش، وتلقب بخليفة المؤمنين، تميزت شخصيته بحنكة سياسية وقيادة عسكرية ناجحة برزت من خلال توحيده لكل المغرب الإسلامي والأندلس تحت قيادة واحدة لأول مرة في تاريخ المنطقة بعد سقوط الخلافة الأموية. أنظر ابن أبي زرع: نفسه، ص 116-117. الحلل الموشية: ص ص 142، 155. عبد الله علام: ص 93، 104، 106، 117، 125. صالح بن قربة: عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، ص ص 23-61.

[1] الحلل الموشية: ص130. وابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 99- 100.

[2] بلغ سعر الحطب دينار للرطل عند تاشفين من شدة تلك السنة: انظر: البيذق: تحقيق حاجيات: المصدر السابق، ص 78.

[3] ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، ص16.

[4] تشبه هذه الحادثة ما حدث لعبد الملك بن مروان في شبابه عندما وفد إلى إفريقية إثر الفتح الإسلامي فأظل الطريق وفقد أصحابه في إحدى الليالي. فقامت عجوز باستضافته وقدمت له الطعام حتى رجع إلى أصحابه ويظهر جليا مدى كرم المرأة المغربية وحسن خلقها في إغاثة الولهان: أنظر، حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص9.

إضعاف كيان الدولة المرابطية. ولم تكن المرأة المرابطية على هامش هذه الفتنة، بل أن أخت يحي بن تاكغت المسوفي كان لها رد فعل عنيف عندما قتل أخوها مع ابنه(1)،

فحسب ما ذكر ابن عذاري(2) أن تاشفين بن علي أمر بحمل رأس يحي بن تاكغت وابنه لسجلماسة حيث تسكن أخته. ومن جملة ما قالت هذه الأخيرة:"إن كان لنا رجالا فيسأخذون بثأرنا إن شاء الله تعالى"، ولما بلغ قولها عبد المؤمن بن علي انتصر لها ووافقها على رأس تاشفين فكان الأمر كذلك".

ومما يثير التساؤل هو لماذا يأمر تاشفين بإرسال رأس يحي بن كغت وابنه إلى أخته؟ فربما كانت هذه الأخيرة هي التي دفعت أخيها إلى الانضمام إلى الموحدين ونبذ اللمتونيين(3) -لأن ميزان القوى في هذه الفترة كان لصالح عبد المؤمن بن علي – ولا يستبعد أن لهذه المرأة المسوفية مكانة خاصة في قبيلتها والمنافسة بين لمتونة ومسوفة قديمة، وإلا لما تصرف تاشفين معها بهذه الطريقة. كما أن عبد المؤمن بن علي راعى مكانتها وثأر لها بإرسال رأس تاشفين لها بعد مصرعه في مواجهته مع الموحدين قرب وهران.(4) وهذه من سياسة عبد المؤمن بن علي في علاقاته مع القبائل التي وحدت لكسب ثقتها وتعميق العداوة بين اللمتونيين والمسوفيين خدمة لصالح الدولة الموحدية.

وفي آخر لحظات الدولة تتجلى في قصبة مراكش بطولة المرأة المقاتلة التي سجلت صفحة رائعة في الدفاع عن كيانها متمثلة في البطلة فانو بنت يانتان. وفانو فتاة بارعة الحسن وافرة الجرأة

---

1 ابن عذاري: المصدر السابق، تق: بالموحدين، ص17. وانظر :إبراهيم حركات: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، ص146.

2 البيان المغرب: المصدر السابق، ص17.

3 بعد وفات علي بن يوسف حدثت القطيعة بين لمونتة ومسوفة، فمد زعيم مسوفة يحي بن تاكغت يده إلى عبد المؤمن الموحدي، وكذلك فعل انكمار أو انجمار. المسوفي عامل تلمسان فزاد الخلل في أمر تاشفين، وفسدت نيات اللمتونين لقبيلة مسوفة وترقبوا لهم الوقائع المهوفة وتباغضوا بغضا، وقتل بعضهم بعضا، انظر: ابن خلدون:المصدر السابق، ج12، ص281، وضرب يحي بن تاكغت المسوفي على موضع من نظر تلمسان، فخرج إليه منها محمد بن زجو اللمتوني فقتل يحي وابنيه واجتز رأسيهما ووجه بهما إلى تاشفين. انظر: إبراهيم حركات: النظام السياسي والحربي عند المرابطين. ص146.

4 حاول الفرار نظرا للحصار الذي ضربه الموحدون على المدينة "وهران"، فسقط من جرف هناك من جهة البحر فهلك، ويقال أنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه. انظر : المراكشي: المعجب، ص202. وهذه الرواية تنافي ما ذكره ابن عذاري. ربما أن الموحدين اجتزوا رأسه وأرسلوه لأخت يحي بن كغت واحرقوا باقي الجسد وفاء بالعهد. وكان من عادتهم قطع الرؤوس، فعبد المؤمن بعث برأس تاشفين إلى تينملل ربما لنفس الغرض. أنظر ابن خلدون: العبر، ج12، ص 484

يشهد على شجاعتها البيذق (1) مؤرخ الموحدين حيث يقول :"وبقيت المدينة ما يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج. فاستعمل الخليفة -عبد المؤمن علي-، السلاليم للأسوار، وقسمها على القبائل، فسار الناس لقتالهم..." لكن ما أبهر البيذق هو ذلك القتال الباسل على قصر الحجر (2) الذي دام من بكر إلى وقت الزوال وأثار دهشة وتعجب جند الموحدين منه، فرغم عدائه للمرابطين إلا أنه شهد عليها بما يلي: "وكان القتال على القصر حتى الظهر، ولم يدخل حتى ماتت فانو بنت عمر بن يانتان، وكانت ذلك اليوم تقال الموحدين وهي في هيئة رجل. وكان الموحدون يتعجبون من قتالها ومن شدة ما أعطاها الله من الشجاعة وهي بكر. فلما ماتت دخل القصر، ولم يعرف الموحدون هل هي امرأة أم لا حتى ماتت" (3).

فبعد مقتل هذه البطلة في زي الرجل المقاتل الملثم (4) تمكن الموحدون من دخول قصر الحجر وأبيحت مراكش لقتل من وجد بها من اللمتونين مدة ثلاثة أيام وتم دخولهم مراكش في شوال عام (541هـ/1146م). وتشاء الأقدار أن قصر الحجر هو أول ما بني في مراكش في عام (465هـ/1072م) وساهمت فيه زينب النفزاوية بأموالها، يصمد هذا القصر ولم يسقط في يد أعدائه إلا بعد أن ماتت امرأة مرابطية أخرى وهي فانو دفاعا عنه ولم يدخله أعداؤه إلا على جثة هذه الحسناء الجريئة (5).

وبناء على ما سبق ذكره عن الجارية قمر فإن هذه الأخيرة كان لها ضلع كبير في تعميق الاضطراب والفوضى السياسية في البلاد لا سيما بعد موت أمير المسلمين علي بن يوسف. فتكون قد قدمت بذلك خدمة للموحدين سواء عن قصد منها أم لا. لكن نهايتها تبقى غامضة بحيث لم يعرف مصيرها، فها

---

[1] أبو بكر الصنهاجي: أخبار المهدي، تحقيق حاجيات: ص 94.انظر : ابن عذاري: المصدر السابق: ق: بالموحدين، ص28. وانظر: عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج1، ص 263.

[2] هو قصبة مراكش وتعرف أحيانا باسم دار الحجر، بناها علي بن يوسف قصرا، وقطع حجرها من جبل ايجليز. ودعيت بهذا الاسم لأن الغالب على مراكش البناء بالطين والطوب، ويعتقد أن المكان الذي فيه الآن قبر يوسف بن تاشفين بمراكش على مقربة من ساحة الفناء، هو قصر دار الحجر :انظر :الحلل الموشية، حاشية ص 53 ص139 وانظر Charles Allain et Gaston Deverdun : « Les portes anciennes de Marrakech » ,in Hesperis, T XLIV, Larose, Paris, 1957, P87. والملحق رقم 8

[3] البيذق: نفسع وابن عذاري : نفسه. وابن عبد الله عبد العزيز: معجم أعلام نساء المغرب، ص 22.

[4] هذا ما يؤيد قصة ارتداء النساء اللثام في القبائل الصحراوية من أجل تخويف العدو والتمويه بأنهن رجال مقاتلين. انظر: البكري: المصدر السابق، ص 167. ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 99.

[5] ابن عذاري: البيان المغرب ق: الموحدين، ص28. وانظر إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج1، ص235، وسلامة الهرفي: المرجع السابق، ص298.

هي قصبة المرابطين تسقط بيد الموحدين ولم يعثر لها على أثر لا بين القتلى ولا بين الأسرى[1]، وهذا ما يدعو إلى التساؤل على أنها قد تكون فرت متخفية مع بني جلدتها من النصارى إلى الأندلس. لأنه من غير المعقول أن تغفل الكتابات عن ذكرها وهي زوجة (أم ولد) لأمير المسلمين علي بن يوسف إضافة إلى الدور الذي لعبته في عزل تاشفين عن ولاية الأندلس ومحاولتها حرمانه من ولاية العهد. وعلى كل حال فإن الحرة فانو بنت الدولة المرابطية لم تتهاون ولم تتردد عن الدفاع عن كيانها[2]، فضحت بشبابها إذ كانت بكراً، وبحسنها الملثم لتواجه جنود الموحدين، المصامدة ذوي البأس والشدة. فهذا القتال الباسل والمستميت "لفانو" لا دليل على أن بعض النساء المرابطيات كن يخضعن لتدريبات عسكرية كالضرب والطعان، وأعمال الفروسية. وأن مثيلاتها الملثمات كثيرات دون شك غير أن "البيذق" لم يشهد ويتعجب إلا من فانو، لأن هذه الأخيرة وقعت بين أيديهم قتيلة فانفضح أمرها. وما هذه المساهمة الحربية للمرأة إلا دليلاً على أن المرأة المرابطية كانت تمثل قطاعاً في الجيش المرابطي يحس بواجبه ويقدر ويفهم رسالته ويدرك أعبائه. والتاريخ الإسلامي حافل بنساء أدين أدوارا مختلفة في هذا المجال. وما بطولة وشجاعة فانو بنت عمر بن يانتان، إلا كبطولة خولة بنت الأزور أخت ضرار، التي جاذبت الرجال حبل البطولة من أجل إغاثة أخيها الأسير وهي في زي فارس لا يبين منه إلا الحدق[3]، وهكذا فإن روح التضحية والقتال تبقى مستمرة لدى المرأة متأثرة بالظروف السياسية والعسكرية للبلد وتتفانى في التضحية في سبيل بلدها إلى آخر لحظة حيث قضي على دولة المرابطين نهائيا في (541 هـ/1146م)[4].

5- السبي والأسر[5].

---

[1] وامتنع أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين داخل القصبة مع المرابطين وجملة الأعيان وتمادى القتل من البكرة إلى وقت الزوال. ودخلوا عليهم فأخرجوا الأمير أبا إسحاق واخرجوا معه جملة من الأمراء وأبنائهم ومن كان معهم من لمتونة، انظر: الحلل الموشية، ص 138 ــ 137. ابن عذاري: المصدر السابق، ق: بالموحدين، ص 126. وانظر: ابن خلكان: المصدر السابق، مج7، ص 127. ولما قتل عبد المؤمن أهل مراكش اختفى الكثير من أهلها، وبعد سبعة أيام نودي بالأمان وأمر بإخراج القتلى من البلد فأخرجوهم. ابن الأثير: المصدر السابق، مج9، ص 205.

[2] ابن عبد الله بن عبد العزيز: معجم أعلام نساء بالمغرب الأقصى، ص22.

[3] محمد فرج: الإستراتيجية العسكرية الاسلامية، النظرية والتطبيق، ج1، القاهرة 1395هـ/1957، ص 303.

[4] إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ،ج1، ص 217 وانظر: ابن عبد الله : تاريخ الحضارة المغربية ج2، ص109، وانظر: الحسن السائح: المرجع السابق، ص 234.

[5] المراد بالسبي والسباء: الأسر والسبية هي المرأة المسبية أنظر: ابن منظور: لسان العرب تقديم عبد الله العلايلي، مج3، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت 1408هـ/1988م، ص93، 94. وهذه الظاهرة عريقة في التاريخ، فالسبي يؤدي وظيفة في الضغط على العدو وإرهابه. أنظر هيكل محمد خير: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، مج، ط2، دار البيارق ودار ابن حزم، بيروت، 1418هـ/1996م، ص 1421.

إن ظاهرة السبي تندرج ضمن غنائم أهل الحرب(1) وأقصد بها هنا النساء فقط ممن وقعن في الأسر من أهل الحرب(2) وبما أن الدولة المرابطية كانت دولة جهاد في الأندلس فقد تتخذ السبايا شكلين مختلفين أولهما:

1- سبي الكثير من النساء النصرانيات إثر المعارك الجهادية ضد النصارى. وامتدت هذه الظاهرة منذ عهد يوسف بن تاشفين إلى عهد ابنه علي. وكنتيجة حتمية لهذا الجهاد تم القضاء على ملوك الطوائف، الذين تخاذلوا في الدفاع على الإسلام وبالتالي تعرضت نساء هؤلاء إلى أسر المرابطين.

2- كما تعرضت بالمقابل نساء الأندلس إلى الأسر من طرف النصارى إثر غاراتهم على ديار المسلمين.

أما في المغرب وفي خضم الصراع الصنهاجي-الزناتي والصنهاجي- المصمودي وقعت الكثير من النساء المرابطيات في قبضة الموحدين. وبالعكس سبي المرابطون أيضا بعض النساء للموحدين. ومن الملاحظ فإن الموحدين يواصلون هذه العملية طيلة غزواتهم في توحيد المغرب والأندلس. فإذا كان ابن تومرت مارس دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متجه من الشرق إلى غرب المغرب الإسلامي وهو يتقنص العنصر النسوي متخذه إحدى الوسائل لانتقاد سياسة البلاط المرابطي، واتهم المرابطين بالكفر والتجسيم لتحل لهم سبياهم؛ فإن عبد المؤمن بن علي يعكس هذا المسار لينطلق من الغرب نحو الشرق بجيوش جرارة وسبي بواسطتها الكثير من النساء. وأدان له العباد وملك بلاد المغرب من المغرب الأقصى إلى طرابلس ضاما إليه بلاد الأندلس(3) لكنني أتقيد بالإطار الزماني للبحث واختص بالذكر النساء أو السبايا في العهد المرابطي منذ قيام الدولة المرابطية في المغرب وتوسعها في الأندلس إلى غاية سقوط مراكش في (541هـ/1146م).

شهد المغرب الإسلامي في القرن (5هـ/11م) تزامن دول صنهاجية الأصل وهم: الزيرية بالمغرب الأدنى والحمادية بالمغرب الأوسط (4) والدولة المرابطية بالمغرب الأقصى والصحراء

---

[1] يقول الماوردي بصدد الحديث عن الغنيمة:" وتشمل على أقسام: أسرى وسبي أرضين[...] وأما السبي: فهم النساء والأطفال..." أنظر الماوردي: الأحكام السلطانية؛ تحقيق عبد الرحمن عميرة، ج2، دار النصر للطباعة الإسلامية، القاهرة، ص 1994.306، ولمزيد من الإيضاح أنظر: محمد خير هيكل: نفسه.

[2] ابن القطان: المصدر السابق، ص 197.

[3] ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، تحقيق: أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد. 1971-ص125.

[4] تأسست الدولة الحمادية على يد: حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي مؤسس القلعة في عام 393هـ/1007م ثم انفصلت عن الدولة الزيرية في 408 هـ/1018 م واستمرت إلى غاية 547هـ/1152م تاريخ سقوط بجاية على يد الموحدين. أنظر: ابن خلدون: العبر ج12، ص353. وانظر: بوروبة رشيد: الدولة الحمادية، ص37. وانظر أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج4، ص 209. الزركلي: الإعلام، مج2،ص271.

الموريتانية، واتسمت العلاقات السياسية بين هذه الدول بين مدّ وجزر(1)وكانت تلمسان هي مركز الصراع. ففي عهد المنصور(2) وقع صراع عنيف بين الحماديين وعساكر يوسف بن تاشفين حتى آلت تلمسان إلى المنصور في (شوال 467هـ/أوت 1083م). وكانت بها حواء زوجة تاشفين بن يغمر والي تلمسان. فخرجت إليه متذممة راغبة في الإبقاء متوسلة بوشائج الصنهاجية، فأكبر المنصور قصدها، وأكرم موصلها وأفرج عنها مع من كان معها صبيحة يومه، ثم رجع إلى حضرته القلعة(3) وكانت نتيجة هذا الدور الذي قامت به حواء أن تحسنت العلاقات الحمادية-المرابطية(4) التي تميزت من قبل بالعداء وذهبت ضحيتها أخت ماخوخ(5) التي كانت زوجة المنصور. فحسب ما ذكر ابن خلدون:"أنه لما تجددت الفتنة بين ماخوخ والمنصور الذي انهزم قتل هذا الأخير أخت ماخوخ التي كانت زوجة له وذلك بسبب انضمام ماخوخ للمرابطين وهذا ما أجج نار الفتنة بينهما"(6) وهكذا تدفع هذه المرأة ثمن فساد العلاقات بين قبيلة بني ومانو والحماديين، في حين كانت حواء زوجة والي تلمسان عامل تقارب بين صنهاجي الشمال والجنوب لما تشفعت لدى المنصور بأواصر القرابة الصنهاجية فأطلق سراحها، وهذا ما انعكس بالإيجاب على الوضع السياسي العام بالمغرب الإسلامي وقتئذ، وهكذا تعتبر المرأة انعكاسا صادقا للظروف السياسية بالغرب الإسلامي. فكانت تتأرجح بين النزاعات القبلية والسياسية للدولة، ومن ذلك ما حدث عند نهاية دولة المرابطين وبداية قيام دولة الموحدين فعاشت المرأة ضرفا صعبا، فكيف كانت حالها عندما تقع في أسر الأعداء، تئن تحت وطأة السبي المذل لكرامتها ؟ وهل ترضى الحرائر ونساء الأعيان والوجهاء أن تنزل إلى مرتبة الجواري وتباع في سوق

---

[1] كان بلكين بن محمد أول أمير حمادي حارب المرابطين وصادف هجومه على فاس سفر الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني إلى الصحراء بسبب الخلاف الذي وقع بين قبيلتين جدالة ومسوفة في 463هـ/1167م. لذا أخذ يوسف بن تاشفين على عاتقه مواصلة الحركة المرابطية في الشمال وقد استولى على تلمسان في عام (474هـ/1081م) أنظر: ابن عذاري: البيان: ج4، ص18.

[2] المنصور بن الناصر بن علناس. سادس أمراء دولة بني حماد حكم ما بين (481هـ-1088/498هـ-1104م) عرف المغرب أثناء حكمه أحداث عديدة منها ثورة بلبار وأبي يكني بقسنطينة، ومحاربة بني ومانو ومحاربة المرابطين. كان مولعا بالعمران فشيد عدة قصور منها: قصر المنار، وقصر السلام بالقلعة وقصر اللؤلؤ ببجاية. أنظر ابن خلدون: نفس المصدر: ج12.ص361 وانظر رشيد بوروبة: نفس المرجع: ص 77-78.

[3] ابن خلدون: نفسه.

[4] عزل يوسف بن تاشفين والي تلمسان بن تينغمر، وولي مكانه مزدلي بن سلنكان في 497هـ/1104م استرضاء للمنصور، أنظر ابن خلدون: العبر.ج12، ص363. وأنظر رشيد بوروبة: نفس المرجع ص 78، وعزل مزدلي عن بلنسية وعينة على تلمسان التي عزل عنها تاشفين بن يتنعمر(يسمى هكذا) لمعاونته الدولة الحمادية، ومعاملته إياها معاملة دنية، انظر: ابن الكردبوس ص 112.

[5] **تنتمي إلى بني ومانو من قبيلة زناتة وكانت إليهم رئاسة تحت إمرة ماخوخ: أنظر ابن خلدون: العبرج12 ص360-362**

[6] ابن خلدون: نفسه. وانظر: رشيد بورويبة: المرجع السابق، ص 77.

الرقيق؟ أم استطاعت بفضل قوة شخصيتها الدفاع عن نفسها وكسر قيود أسرها في هذا الظرف العصيب؟ومن هؤلاء الأسيرات ما أشارت إليه بعض المصادر التاريخية وخصتهن بالذكر دون سائر الأسيرات المرابطيات. أذكر منهن: "تاما كونت بنت سير بن وريبل التي سيقت سبية مع ألف وخمسمائة امرأة أخرى إلى تينملل في عام (435هـ/1043م)(1).

لم تتحمل هذه المرأة وقوعها بين أيدي جند الموحدين فسألت عن عبد المؤمن بن علي وخاطبته بكل جرأة قائلة: "يا أمير المؤمنين هل شفع والدي يانتان بن عمر في المهدي؟ قال لها: صدقت، أنت مطلوقة. فقالت له: وهل يصح أن أطلق وحدي من أربعمائة رأس؟ فقال لها صدقت وأمر بإطلاقهن وإرجعهن في كرامة حتى وصلت مراكش"(2)هذا دليل على قوة جيش الموحدين، الذي استولى في غزوة واحدة على 400 امرأة. وهكذا تمكنت "تامكونت" أو "تاڭونت" من إقناع عبد المؤمن بن علي من إطلاق سراحها مع أربعمائة امرأة ممن كن معها من نساء منطقتها من جملة ألف وخمسمائة امرأة فبقيت ألف ومائة امرأة أسيرة للموحدين. وهذا العدد يعبر على شراسة الغزو الموحدي إذلالا للمرابطين وإرغاما للقبائل على التوحيد، كرها خوفا على أعراضهم.

أما المؤرخ ابن القطان(3) فإنه يروي هذه الحادثة منسوبة إلى امرأة إسمها "ميمونة" بنت يانتان بن عمران حين هاجم المهدي بن تومرت حصن تازاجورت وكان وليها يحيى بن مريم الزرجاني(4) الذي ضربت عنقه وقتل من المرابطين نيف على عشرين ألف. وبقيت ميمونة بنت يانتان في الجبل حتى افتك بها من كان في تلمسان من رجال الموحدين(5)وإلى والدها يانتان بن عمران أو عمر(6) يرجع الفضل في إطلاق سراح المهدي ابن تومرت من سجنه(7).

وأستخلص من الروايتين أن المرأة المرابطية سواء " تاما كونت" أو "ميمونة" والتي ربما هي نفس الشخصية، أو أختين، إستطاعت بلباقتها وجرأتها أن تتشفع بوالدها ولم ترهبها قوة جند الموحدين، إذ تمكنت من فك أسرها بل ولم تكتف بنفسها فقط، فدافعت عن أربعمائة سبية ممن كن معها من منطقتها، وحينما وصلن إلى مراكش مكرمات، قابل علي بن يوسف هذا الصنيع بالمثل. فأطلق سراح

---

[1] أخبار المهدي: تح ليفي بروفنسال، ص88.

[2] البيذق: أخبار المهدي، تح حاجيات، ص74 وص136.

[3] نظم الجمان: ص 195.

[4] الزرجاني: نسبه لطائر الزرجان أسود الريش أبيض البطن أطلقه الموحدون على أمراء المرابطين الملثمين بالسواد تشبه بهذا الطائر. المهدي بن تومرت: أعز ما يطلب، ص 242. انظر ابن القطان: نفسه.

[5] نفسه ص 195.

[6] عبد الله عنان: عصر المرابطين، ج1، ص 225. ابن عمر هو الأصح. أنظر حاشية: البيذق: المصدر السابق، تح حاجيات، ص 74 وص 136.

[7] ابن القطان: نفسه ، ص 195، انظر عبد الله عنان: نفسه.

حواء زوجة يعزي بن مخلوف التي كانت قد أسرت مع جملة من نساء تيغيغايين(1) إثر غزوة القائد " الابرتير" "Reverter"(2) لغيغاية. فزينهن وأرسلهن مكرمات إلى عبد المؤمن بن علي. لكن يظهر أن تصرف الأميرين بهذه الطريقة في تبادل الأسرى ما هو إلا نتيجة للمبادرة التي قامت بها ميمونة بنت عمر بن يانتان فهي التي واجهت عبد المؤمن بن علي، وتتشفع بدور والدها إذ لولا شفاعته للمهدي بن تومرت لما قامت دولتهم وقتئذ. كما أن عدد كبير من النساء وقعن في قبضة الموحدين إثر الصراع المرابطي -الموحدي لم يستطعن استرجاع حريتهن، فالبعض منهن قسمهم عبد المؤمن بن علي على جنوده أو بيعن في سوق النخاسة. ومن ذلك ما حدث إثر مواجهة تاشفين لعبد المؤمن بن علي قرب جبل اجليز (3) عام (533هـ/1138م)، إذ سيق نساء المنطقة أسيرات إلى تينملل(4) مثلما وقع أيضا في عام (536هـ/1141م)، عندما هاجم عبد المؤمن بن علي حصن تللين بأرض السوس(5) وعندما هاجم الموحدون ثغر مليلة(6) بقيادة عبد الرحمن بن زجو في سنة (536هـ/1141م)، فاستولوا على غنائم كثيرة من بينها مائة بكر، قسمها عبد المؤمن بن علي على أعيان الموحدين فتزوجوهن. ويقول البيذق في شأنهن " كن عندنا مؤمنات" وبقيت منهن أميرتان هما: فاطمة بنت يوسف الزناتية وابنة ماكسن بن المعز صاحب مليلة. فرمى عبد المؤمن بن علي القرعة مع إسماعيل أبي إبراهيم -أحد العشرة(7) على فاطمة بنت يوسف الزناتية، فكانت من حظ أبي إبراهيم. وهذه القرعة تدل على مكانة هذه المرأة الزناتية نظرا لنفوذ قبيلتها العريقة في المنطقة، لذا رغب فيها الإثنين معا. وبالتالي تؤول بنت ماكسن

---

[1] تيغيغيين: تعني نساء غيغاية، وغيغاية من بطون هنتاتة، أما يعزى بن مخلوف فكان من أهل الخمسين وأصله من قبيلة هرغة، أنظر :البيذق: المصدر السابق، ص 74.

[2] ألابرتير: يسميه ابن خلدون الربريتر أنظر: العبر.ج12 ص 482. وإسمه عند النصارى Reverter وهو إسباني الأصل وقع في أسر المرابطين ثم خدمهم، وكان قائد فرقة الروم إلى أن قتل من طرف الموحدين: حاشية أخبار المهدي، ص71.

[3] جبل مشرف على مدينة مراكش انظر : الحموي: معجم البلدان، ج1ص288.

[4] ابن عذاري: البيان، ق: بالموحدين، ص15.

[5] البيذق: نفس المصدر، ص81.وانظر: عبد الله عنان: نفس المرجع، ج1،ص240.

[6] مليلة: مدينة بالمغرب الأقصى قريبة من سبتة على ساحل البحر، أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر مج5، ص197.

[7] أصحابه: العشرة فمنهم السابقون إلى دعوته المصدقون بإمامته المنقادون للإمارة، المسارعون إلى بيعته منهم: عبد المؤمن بن علي، عبد الله البشير، عمر بن يحيى أينتي، عمر بن علي أصناك، سليمان بن مخلوف، عبد الواحد الحضري، موسى بن تماي، أبو عثمان بن يخلف وأبو يحيى بن يجيت. انظر: ابن صاحب الصلاة المن بالإمامة، ص69و70 وانظر: ابن القطان: المصدر السابق، ص28 والحلل الموشية ص108 و109 وابن أبي زرع: المصدر السابق ص 109. قسم المهدي بن تومرت أصحابه إلى 13 صنفا منها: الصنف الأول، "أصحابه العشرة، الصنف الثاني: أهل الخسين والصنف الثالث: أهل السبعين. انظر :الحلل الموشية" ص 109، 110.

ابن المعز لعبد المؤمن بن علي- وهي أم الأميريين إبراهيم وإسماعيل-(1) ويتضح من ذلك أن معاملة الموحدين للنساء الأسيرات اختلفت حسب مكانتهن الاجتماعية، وتميزت أحيانا بالشدة والقسوة مثلما وقع عند حصارهم لمدينة وهران بحيث توفي في اليوم الواحد ما بين 30 و40 بين نساء ورجال عطشا ثم استأصلوا عن آخرهم يوم عيد الفطر لعام (539هـ/1145م). أي بعد مقتل تاشفين بثلاثة أيام في (27 رمضان 539هـ/23 مارس 1145م).أما تلمسان فقد قتل أكثر أهلها وسبيت حريمها وذريتها(2).

ولما استولوا على مراكش في (18 شوال 541هـ/1146م). استحوذوا على دورها وباعوا نساءها وأطفالها بيع العبيد. واستثنيت زينب بنت علي بن تاشفين لأنها زوجة يحيى بن إسحاق المسوفي المعروف بانجمار(3) واحترمت عن البيع مع جميع عيال أصحاب زوجها وإخوانه كما احترمت دار يحيى عن الفيئ. لكن على ما يبدو أن -زينب- كانت تعيش في قلق وخطر، ولم تطمئن لشفاعة زوجها. من ذلك ما ورد في البيان المغرب:"أنها جمعت جميع مالها وذخائرها ورفعت ذلك للخليفة فعلها، الذي نفذ أمره ألا يباع من بنات [...](4) لكن أخوي المهدي بن تومرت عيسى وعبد العزيز(5) أخذ منهن ابنتين كرها على الخليفة(6). وهذا المصدر لم يوضح سبب فعلها في طلب شفاعة الخليفة لبناتها،لكنه يتضح ذلك في آخر النص:"[...] أخذ منهن ابنتين كرها على الخليفة"(7) هذا ما يفسر خوف زينب بنت علي التي ذهبت جهودها سدى وفقدت ابنتين، رغم أوامر الخليفة و شفاعة زوجها. هذه نماذج قلة من كثير مما سبى الموحدون لأن عملية السبي سوف تتواصل مع حروب الموحدين في توحيد المغرب و الأندلس حيث تميزت معاملتهم للسكان بالشدة والقسوة حتى أذعت لهم رقابهم(8).

---

[1] البيذق: المصدر السابق ص81. وأنظر عبد الله عنان: عصر المرابطين، ص240. وانظر حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس ج2، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 1316هـ/1996م، ص161.

[2] ابن عذاري: المصدر السابق، ق الموحدين، ص22.

[3] يحيى بن إسحاق المسوفي وآخرين من قبيلة مسوفة كانوا قد لحقوا بعبد المؤمن بن علي في أول إمارة تاشفين بن علي لنزاع وقع بين مسوفة ولمتونة: أنظر: ابن عذاري: البيان: ق الموحدين ص.30 وانظر الحلل الموشية، ص75، ابن خلدون: المصدر السابق ج12)ص46. وكذا عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص267.

[4] فراغ في الأصل.

[5] إن أخوي ابن تومرت استطالت أيديهما مع ابن عمهما ويصلاتن على أهل إشبيلية وعلى الأندلسيين المجاورين لها، وظهر منهما مذهب في قتل الناس وإباحة الدماء، وأخذ أموال الناس فقتلا في سنة 548هـ/1056م. انظر ابن عذاري: نفس المصدر، ص 38-48.

[6] **ابن عذاري: نفسه .**

[7] **نفسه**

[8] إبراهيم حركات: المغرب عبد التاريخ، ج1، ص 334.

كنت قد أسلفت القول عن استنجاد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين لما اشتد الخطر النصراني على المسلمين بالأندلس. وكان من أكبر المتحمسين لهذا الأمر أمير إشبيلية المعتمد بن عباد[1] لكن أمام تخاذل ملوك الطوائف عن الجهاد، قرر يوسف بن تاشفين خلعهم[2]فأطال بذلك عمر الإسلام بالأندلس. ومن أمراء الأندلس المخلوعين أذكر عبد الله بن باديس بن حبوس أمير غرناطة[3] الذي أمرته أمه تسليم أمره إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وبفضل نصيحة أمه نقل أسيرا مع أهله إلى المغرب. وكانت معاملته من طرف المرابطين أحسن من تلك المعاملة تجاه أمير إشبيلية المعتمد بن عباد. فقد استولى المرابطون على كل ما احتواه قصر المعتمد وعثروا على 3000 جارية. فأسر المعتمد من طرف الأمير سير بن أبي بكر، ثم نفي إلى أغمات بالمغرب رفقة أهله عام (484هـ/1091م)[4]وتشتت أفراد أسرة المعتمد وقتل البعض من أبنائه الأمراء. أما نساء هذه الأسرة فالبعض تعرضت للنفي أو السبي وقيل أن إحداهن تنصرت.[5]

لقد اشتدت وطأة الأسر على حظية المعتمد، التي عرفت باسم " إعتماد الرميكية"[6]ولم تقو على مغالبة المحنة، إذ تغير مجرى حياتها تغييرا جذريا. لقد تمتعت" إعتماد" بصفات ممتازة لكن إلى جانبها

---

[1] المعتمد بن عباد: ولد بمدينة باجة في 431هـ/1039م وولي الإمارة سنة 461هـ/1068م. كان فارسا شجاعا، وبطلا مقداما وشاعرا ماضيا، مشكور السيرة في الرعية. لقبه الأول الظافر، ثم تلقب بالمعتمد كلفا بجاريته "اعتماد" لما ملكها لتتفق حروف لقبه بحروف اسمها لشدة ولعه بها. خلع من طرف يوسف بن تاشفين 484هـ/1091م. وتوفي بمنفاها بأغمات سنة 488هـ/1095م. انظر: ابن بسام: الذخيرة، ص41.، 119 ابن الخطيب: الإحاطة مج2، ص109، 119. عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص ص190-194.

[2] عن الخلاف الذي وقع بين المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين أنظر: الحميري: روض المعطار ص291-293. ابن الكردوس: المصدر السابق، ص94.

[3] استولى المرابطون على غرناطة في 483هـ/1090م وأخذ عبد الله بن بلكين حفيد باديس وهو آخر حكام الزيريين أسيرا إلى أغمات في 483هـ/1090م، ألف كتابه التبيان عن الحادثة الكائنة، المعروف بمذكرات الأمير عبد الله.أنظر:ابن الكردبوس: نفسه.وعبد الحكيم الذنون: آفاق غرناطة، ط1، مطبعة الصباح، دمشق 1408هـ/1988م ص36، 37

Dozy-R : Histoire des Musulmans d'Espagne, T2, E-J- Brill, Leyde, 1932, P144.

[4] ابن بسام: نفس المصدر ، مج2: ص52، 53، 57 انظر:ابن الأثير:الكامل في التاريخ مج8، ص468-469 وانظر: المراكشي:المعجب، ص141-146 وانظر والحميري: نفس المصدر، ص46، وانظر وابن الخطيب: الاحاطة: مج2، ص109، أما ابن خلدون فيجعل سنة أسره في عام 470هـ/1077م، وهذا فارق زماني كبير. العبر، ج12، ص390. عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني: دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس 1960، ص352.

Terrasse (Henri) : l'Islam d'Espagne, une rencontre de l'orient et de l'occident. Librairie, Plon, Paris 6e, 1958, P138-139.

[5] عبد الله عنان: نفس المرجع: ص 345.

[6] الرميكة: نسبة لمولاها: الرميك الذي باعها للمعتمد: وأنظر: المقري: نفح الطيب: ج4، ص212.

عاشت حياة سافرة كانت مدعاة للطعن في تصرفها وأخلاقها (1) ويقال:"هي التي ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة، حتى كتب أهل إشبيلية عليه ذلك، وبتعطيل صلوات الجمع، عقودا رفعوها إلى أمير المسلمين فكان من أمره معه ما كان"...(2) وهكذا بعدما كانت تعيش في نعيم قصور إشبيلية أصبحت أسيرة في إحدى قلاع أغمات تتلوم على أيام زمان، وتتعزى في محنتها بالأحلام. ويبدو حزنها شديدا واضحا من خلال شعر زوجها.(3) فكان لزما عليه مواساتها والرجوع بذكرياتها للأيام الجميلة والخالية التي بدد فيها أموالا طائلة لإرضائها. ومن هذه الأيام ما عرف بـــ"ولا بيوم الطين".(4) وهكذا لم تستطيع هذه السيدة(5) الأرستقراطية من التأقلم مع الوضع الجديد. وقضت أواخر حياتها أسيرة بأغمات منذ عام (484هـــ/1091م).واشتد مرضها وأشرف على علاجها الطبيب أبو العلاء بن زهر لكن دون جدوى إلى أن توفيت.(6) ولا يعرف تماما سنة وفاتها لكن من المحتمل أنها توفيت قبل زوجها المعتمد الذي وفته المنية في (488هـــ/1095م).(7) لقد زار لسان الدين بن الخطيب: مقبرة أغمات في (761هـــ/1359م) حيث يصف ذلك:"هو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض، فقد حفت به سيدرة وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك وعليهما وحشة التغرب ومعاناة الخمول بعد الملك" (8).

---

1 أنظر: عبد الواحد المراكشي: نفس المصدر ص142. عنان: دولة الإسلام.....ص358. وعبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 67-68-69.

2 انظر: ابن بسام: المصدر السابق، ص70.

3 قالت هنا هنا مولانا جـــاهنا

قلت لها إلهنا صيرنا إلى هنا

انظر المقري: نفسه

4 "ولا بيوم الطين": مفادة أن الرميكية رأت ذات يوم نساء البادية يبعن اللبن في القرب، وهن رافعات عن سوقهن في الطين، فاشتهت ذلك، فأمر المعتد فسحقت أشياء من الطيب، وعجنت بالأيدي حتى عادت كالطين....وخاضتها مع جواريها [....] وأباد المعتمد في هذا اليوم من الأموال ما لا يعلمه إلا الله: أنظر: المقري: نفسه،من هذا النص يتبين الفرق الشاسع بين المستوى المعيشي المترف لنساء الأمراء والفقر والبؤس لنساء العوام في عهد المعتمد بن عباد، وشقاء البدويات من أجل الكسب.

5 أطلق عليها لقب: السيدة الكبرى أنظر: المراكشي: ص142.

6 كان الوزير والطبيب أبو العلاء بن زهير بمراكش، قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه، فانتهز المعتمد فرصة وجوده بمراكش وكتب إليه راجيا إياه معالجة السيدة اعتماد الرميكية التي انهارت قواها: أنظر:ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 227. وانظر: المراكشي: نفس المصدر، ص155.

7 المراكشي: نفس المصدر، ص.146 وانظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج2، ص119.

8 ابن الخطيب: أعمال الأعلام: ص 164. كما زار المقري نفس المقبرة. أنظر: نفح الطيب، ج4، ص98.

كما تعرضت بعض بناته إلى النفي معه، وعرفت مشاق العيش والأسى. فوصفهن المقري[1] بما يلي:" حينما دخلن على والديهن بمناسبة العيد وعليهن أطمار كأنهما كسوف وهن أقمار، يبكين عند التساؤل ويبدين الخشوع بعد التخايل، والضياع قد غير صورهن وحير نظرهن، وأقدامهن حافية وآثار نعيمهن عافية". فإن كانت هذه حالة بعض بناته اللاني خلدهن في شعره. فإن ابنته "بثينة" كانت من جملة من سبي في قصره، وبيعت في إشبيلية في سوق الجواري فاشتراها أحد التجار دون أن يعرف هويتها. وكانت بثينة بنت المعتمد أدبية وفصيحة. فمن خلال شعرها نتعرف على ما جرى لها من جراء سبيها حينما ألقى القبض على والدها[2].

لا تنكرو أني سبيت وأنني بنت لملك من بني عباد

ملك عظيم قد تولى عصره وكذا الزمان يؤول للإفساد

لما أراد الله فرقة شملنا وأذاقها طعم الأسى عن زاد

قام النفاق على أبي في ملكه فدنا الفراق ولم يكن بمراد

فخرجت هاربة فحازني امرؤ لم يأت في إعجاله بسداد

إذ باعني بيع العبيد فضمني من صانني إلا من الإنكاد[3]

فإن تمتعت بثينة بقدرة أدبية مكنتها من تخليد ملحمة سبيها في قالب شعري ينم على مستوى علمي رفيع، فإن هذه الميزة لا تنطبق على باقي نساء الأندلس إذ الكثيرات منهن وقعت في حوزة جند المرابطين وبعن في سوق العبيد.

ومن خلال جهاد المرابطين للنصارى سبيت الكثير من النصرانيات وجيء بعدد منهن إلى المغرب،فما هو مصير هؤلاء السبايا النصرانيات الوافدين على بيئة جديدة ؟ لقد إشتغل البعض منهن في بيوت الأغنياء أو اتخذن كجواري في قصورهم، مارسن الغناء والرقص.أما المحظيات منهن اللائي عشن في بلاط الحكام اتخذن أمهات أولاد[4] وخير الأمثلة على ذلك زواج يوسف بن تاشفين بجارية تسمى"قمر" بعد وفاة زينب النفزاوية، وولدت له ولي العهد" علي" الذي هو بدوره تزوج بجواري عدة هن أمهات أولاده أذكر منهن: "قمر" السالفة الذكر أم الأمير سير و"ضوء الصباح" أم الأمير تاشفين

---

[1] المقري: المصدر السابق، ج4، ص273.

[2] المقري: نفس المصدر ، ج4، ص217.

[3] أرسلت القصيدة لأبيها بأغمات: سيأتي الحديث عنها.

[4] المقري: المصدر السابق، ج4، ص217. إبراهيم حركات: المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، إفريقيا، المغرب، 1998، ص100.

وغيرهن..."[1] كما كان بعض الجواري يصاحبن الأميرات ويتولون خدمتهن، " فالصورة" أخت علي بن يوسف بن تاشفين كان يصحبها العديد من الجواري الحسان حينما وبخها المهدي بن تومرت.[2] لكن يبدو أن وطأة هذا النوع من السبي أخف من سبي النصارى للنساء المسلمات في الأندلس إثر إغارتهم على ديار المسلمين، لأن على الأقل بعض السبايا النصرانيات إعتنقن الإسلام وعملن معاملة حسنة في قصور الأمراء والأغنياء، لاسيما إذا كانت هؤلاء الجواري ذات حسن وجمال؛ حتى أن البعض منهن احتفظن بديانتهن المسيحية. إلا أن هذا الأمر لم يمارس بنفس المرونة والتسامح مع الأسيرات المسلمات اللائي تعرضن لشراسة الانتقام النصراني على الإسلام في الأندلس.[3]

أما المرأة الأندلسية التي تداولتها الروايات المسيحية بالأخص فهي: زايدة المسلمة Ceida أو Zaida la Mora التي تعد حالة شاذة بالنسبة للأندلسيات المسلمات، وما يلفت الإنتباه هو إختلاف الرواية المسيحية عن الرواية الإسلامية في شأن "زائدة" التي يقال عنها فرت وتنصرت خوفا من الوقوع في حوزة المرابطين. فلما استولى المرابطون على قرطبة في (صفر 484هـ/مارس 1031م). وقتل الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون فرت زوجته زايدة إلى مملكه قشتالة واعتنقت المسيحية وبنى بها الملك ألفونسو السادس وسميت بزايدة المسلمة أو ماريا وهي التي أنجبت له ولده الوحيد "دون

---

[1] بعض الغزوات ضد النصارى بالأندلس: على مدينة تقورة عام 516هـ/1122م: ابن عذاري: البيان، ج4، ص67. غزوة حصن انطاطة وحصن أشكولة قادها تاشفين بن علي ما بين (527-531هـ/1132م) أنظر: ابن القطان:نظم الجمان، ص201-228. غزوة أشقولية عام (532هـ/1133م) حمل من سبيتها ستة آلاف إلى مراكش: أنظر ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص103-104.

[2] ابن عذاري: المصدر السابق، ص48. ابن أبي زرع: نفس المصدر، ص99.

[3] ابن عذاري:البيان/ق الموحدين، ص30. وأنظر ابن خلكان: المصدر السابق، مج 5، ص49. أسر النصارى النساء المسلمات في غزوتهم عام 526هـ/1132م، أنظر ابن القطان: نفس المصدر، ص197.

سانشو " (1) لكن توفيت عند وضعها له. وهذا الولد (2) هو الذي يقدم على الجيش القشتالي في موقعة إقليش (3) ضد المرابطين رغم صغر سنه الذي قدر بـــ 15 سنة (4).

لكن يبدو أن فرار زائدة كان مهينا قبل ما تقع المواجهة مع المرابطين من طرف زوجها المأمون بن المعتمد الذي أرسلها مع أولاده وأمواله إلى حصن المدور (5) لكي تستطيع أن تلوذ عند الضرورة بحماية ملك قشتالة (6) وربما هذا الحدث الذي أعرض ابن الخطيب عن ذكره (7) "عند استيلاء القائد المرابطي محمد بن الحاج على قرطبة:"[....] واتصلت المحاصرة، ووقعت أمور يضيق الكتاب عن استقصائها، فدخلت قرطبة في جمادى الأخرة عام أربع وثمانين وأربعمائة." (8) ومر عليه مرور الكرام. لكن الروايات الإسبانية النصرانية (9) المعاصرة واللاحقة تنص على أن "زائدة" هي ابنة المعتمد

---

[1] يلخص ريمون بيدال منداز: Ramon Mendes pidal في كتابه Espana del cid سائر الروايات المسيحية التي وردت في شأن زائدة، نقلا عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1960، ص 345-346 و 347. ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص50. وانظر: عنان: دولة الإسلام: العصر الثاني، ص345.

[2] الأمير دون سانشو: Don Sanchon أو شانجة كما تذكره المصادر العربية، كان سنة في موقعه أقليش حوالي15 سنة، ويروي ابن أبي زرع أن ألفونسو السادس حينما علم أن تميم بن يوسف بن تاشفين هو قائد الجيش الإسلامي، أشارت إليه زوجته أن يوجه ولده سانشو عوضا عنه لأن تميم ابن ملك المسلمين، وشانجة ابن ملك الروم فجمع منها وذلك لإثارة حماس لجند، انظر ابن الكردبوس؛ المصدر السابق/ص 114 حاشية 3.

[3] إقليش: Uclés: تقع شرق طيلطلة، ذات موقع حصين، أنشأها الفتح بن موسى بن ذي النون في أواخر ق.3هـــ/9م.سميت بموقع الأمراء السبعة أو الأقماط السبعة Los Siete Condes الذين أرسلهم الملك ألفونسو السادس رفقه ابنه شانجة. أذكر منهم: الكونت البرهانس Al Var Hanez والكونت غريسية أوردونيثGarcia Ordane ، والكونت رامون دي بورجيا Ramon de Brogona زوجته دونيا أوراكا Dona Urraca بنت ألفونس السادس. إنهزم النصارى فيها أمام القوات المرابطية بقيادة تميم بن يوسف بن تاشفين عام 501هـــ/1108م. ابن الكردبوس:نفس المصدر ص115 حاشية2.

[4] ابن الخطيب: أعمال الأعلام: ص 253. عنان: دولة الإسلام، ص346. وعنان: عصر المرابطين والموحدين ج1، ص62.

[5] يقع جنوب غربي قرطبة على ضفة نهر الوادي الكبير يعرف بالإسبانية بـــ:Almodar del Rio أنظر:عنان: دولة الإسلام.ص.345.

[6] عنان: نفسه. وأنظر:

Lévi Provençal : «La Mora Zaida » : femme d'Alphonse VI de castille, et leur fils : « L'Infant D.Sancho », In Hesperis, T.XVI, fascicule I, 1er Trim, IMP: A. Tayone, 1934, P6

[7] الإحاطة: مج2، ص116.

[8] الإحاطة: نفسه.

[9] الروايات التي تذكر قصة زائدة لخصها المؤرخRamon Mendez Pidal في كتابه Espana del cid أنظر في ذلك ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص1-2. عنان: دولة الإسلام العصر الثاني ص 345-346.

ابن عباد أمير إشبيلية، وقد زوجها والدها بالملك بألفونسو السادس الذي اتخذها خليلة. وأنجب منها ولده الوحيد سانشو، وذلك حين شعر المعتمد بخطر المرابطين الداهم على مملكته(1) فاستغاث بألفونسو لمعاونته على دفعه وهو الذي قدم ابنته المذكورة للملك النصراني تنازل له عن أراضي مملكة طليطلة التي كان قد افتتحها، لتكون مهرا لابنته. وإن هذا التصرف قد أثار فضيحة كبيرة في الأندلس، واتهم ابن عباد بالتفريط في عرضه ودينه.(2) وقد استمرت التواريخ النصرانية تتناقل هذه الأسطورة عصورا كأنها حقيقية لا ريب فيها! وتتحدث دائما عن "زائدة الأندلسية" Ceida أو Zaida la Mora وعن ذريتها. مما يدعو هنا للتساؤل هل كانت زائدة المسلمة خليلة لألفونسو السادس وأنجب منها ولده سانشو، أم هي فعلا ابنة المعتمد بن عباد قدمها ثمنا لحلفه مع النصارى ؟ وبالتالي فما هو لب هذه القصة بين الحقيقة التاريخية والإغراق والتحريف؟ ونقول الرواية القشتالية في هذا الصدد، إن زائدة كانت تحب الملك ألفونسو السادس " بالسماع" وتتوق إلى الزواج منه. وان المعتمد -بزعم أن زائدة ابنته- قد تنازل لملك قشتالة في هذه المناسبة عن الأراضي الذي افتتحها من مملكة طليطلة، وذلك كمهر يقدمه لزائدة سنة (1090 أو 1091م/483هـ أو 484هـ) (3) وأصبحت خليلة أو زوجة ملك قشتالة في (485هـ/1092م). وأنها بهذه المناسبة اعتنقت النصرانية وتسمت باسم "ايزابيل"« Isabelle »(4) وفي رواية أخرى باسم " ماريا" « Maria » استنادا على رواية "رودريك الطليطلي" «Rodrigue de Tolède » في 1243م، وأنها -"زائدة"- تعد الزوجة الخامسة لألفونسو السادس بعد موت زوجته النصرانية الرابعة إيزبيلا(5) ورزق منها بولده "الأنفت سانشو" L'Infant -Sancho لكن توفيت " زائدة" عند ولادتها لسانشو. ودفنت بدير "ساهوجو" وذلك في سنة (1097م أو 1098م).(6) هذه خلاصة بعض الروايات النصرية فيما يخص "زائدة المسلمة".

أما الرواية الإسلامية فلم تذكر اسم "زائدة" ولا شيء من قصتها بطريق مباشر، لكن في نفس الوقت تقدم إلينا دليلا قاطعا على حقيقة شخصيتها وصفتها وذلك إستنادا لنص لابن عذاري عند ذكره أخبار عام (501هـ/1108م).عن الحملة التي أرسلها ألفونسو السادس ضد المرابطين لقلعة إقليش. حيث يقول:"وفي خلال ذلك وصل إليه ولده أدفونش شانجة من زوج المأمون بن [عباد] كانت تنصرت بنحو سبعة الاف فارس".(7) هذا النص(1) الذي عثر عليه ليفي بروفنسال جاء ليلقي الضوء على حقيقة

---

1 لمزيد من المعلومات على الحلف المبرم بين المعتمد بين ابن عباد وألفونسو السادس أنظر:عنان:دول الطوائف، ص73.

2 يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص 134.

3 Levi Provençal -Op.cit P2 وانظر عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ق.2، ص345.

4 Levi-Provençal: Ibid. P2 عنان: نفس المرجع، ص347.

5 Ibid.P.2 وانظر : عنان: نفسه.

6 Ibid P3. أشباخ يوسف: نفسه.

7 Ibid. P34 وأنظر عنان: دولة الإسلام، ج1، ص.347.

" زائدة" أنها زوجة المأمون بن عباد وليست ابنة المعتمد بن عباد، ويستبعد ليفي بروفنسال ما ادعته الرواية المسيحية.(2) وخلاصة القول فإن قصة زائدة المسلمة كتبت في معظمها من طرف رجال الكنيسة الذين كانوا يضمرون الحقد للإسلام وللمسلمين، وأرادوا من خلالها الطعن في عرض المعتمد ربما لأنه رفض طلب الملك اذفونش بن فرذلند بالسماح لزوجته "القمطيجة" الدخول لجامع قرطبة "الزهراء" لتلد فيه حسب إشارة القساوسة والأطباء لها بذلك(3) وهذا موقف جريئ لابن عباد تجاه استهتار النصارى بالمقدسات الإسلامية(4) والذي يثير التساؤل والدهشة كيف أن ابن عباد يزوج ابنته من عدوه ألفونسو السادس وهو القائل حين حذروه من مغبة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين لدفع خطر ألفونسو: "[...] لأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إلينا من أن يرعوا خنازير الفرنج".(5) كما قال لابنه الرشيد: "أحب إلينا أن[أكون راعي] إبل العدوة من أن ألقى الله وقد حولت الأندلس دار كفر"(6).

وتظهر نتائج ثمار تربية ابن عباد لبناته من تصرفات ابنته بثينة التي فرت أثناء الهجوم المرابطي على قصر والدها-وبيعت في سوق العبيد. ولم ترض بزواج ابن التاجر الذي اشتراها-وهو مسلم- حتى استأذنت والدها في ذلك(7) وهذا ما يدل على تربيتها الدينية وتمسكها بشرائع الدين الإسلامي، حتى وهي مملوكة! فإذا كانت بثينة تلقت هذه التربية ولم تخرج عن طاعة والدها فكيف بزائدة-إذا كانت ابنته- أن تزوج لأكبر أعداء الإسلام وتنسلخ عن دينها؟ ومهما ما كان من استهتار المعتمد وتسامحه الديني فلم يبلغ به ذلك إلى تقديم ابنته جارية أو حظية لعدوه دون أن يضع في حسابه

---

[1] عثر على هذا النص الأستاذ ليفي بروفنسال في أوراق مخطوطة من البيان المغرب في مكتبة القرويين بفاس ونشره في عام 1930، ثم نشر عنه مقالا في مجلة هسبيريس Hesperis التي أعتمدت عليها في هذه الدراسة، والنص كالتالي: "وفي خلال ذلك وصل إليه -إلى حصن إقليش- ولد أنفونش من زوج المأمون بن [ ] التي كانت تتصرت بنحو سبعة آلاف فارس" إذ بعد اسم المأمون لا نقرأ جليا كلمة "بن" وبعدها الورقة ممزقة تماما عند كلمة متكونة من ثلاث أحرف. ومكتوب مباشرة بعدها حرف -د- منفرد. لذلك ضن أن الكلمة تكون هكذا [عبا].د. كما يضيف أن كلمة "عباد" يمكن أن تكون "ذي النون". وعلى هذا الأساس فأمّ سانشو الأنفت يمكن أن تكون إما زوجة المأمون بن عباد، وإما زوجة، ملك طليطلة الشهير "المأمون يحي بن ذي النون" المتوفى عام 467هـ/1075م. أنظر Provençal : Ibid,P5
وانظر: ابن عذاري: البيان، ج3، ص51..

[2] Levi Provençal:Ibid.P4.

[3] ابن عذاري: البيان ج4، ص130.

[4] لم يكتفي ابن عباد برفض طلب النصارى إنما قتل رسولهم إليه. أنظر: الحميري: المصدر السابق ص 287 وابن عذاري: البيان ج4، ص131.

[5] ابن عذاري: البيان ج4، خاص بالمرابطين، ص 114. وأنظر: ابن خلكان: المصدر السابق مج7، ص115.
Philippe Conrad : « Histoire de la Reconsquista », Que sais-je ? PUF Paris, 1998, P 57

[6] ابن لخطيب: الإحاطة مج2، ص.109.

[7] المقري: المصدر السابق ج4، ص217.

النتائج السياسية لفعله هذا. فلن يتسامح شعبه المسلم معه والثورة أجدر به(1) ومن ذلك انه عند نقله إلى منفاه مع أهله خرج أهل إشبيلية لتوديعه وهم يبكون لحاله ونضمت بعض الأشعار في ذلك إكراما له(2).

تلك هي الحقيقة حول أسطورة زائدة المسلمة "ابنة" المعتمد بن عباد وتقديم أبيها المعتمد إياها زوجة لألفونسو السادس، اكتسابا لمحالفته وعونه ضد المرابطين) سكتت عنها الكثير من الروايات الإسلامية المعاصرة واللاحقة. والظاهر أن المؤرخين المسلمين قد شعروا بما يكتنف هذه القصة من دقة وإيلام للنفوس الكريمة، فآثروا الإغضاء عنها واعتبروها حادثا لا أهمية له من الناحية التاريخية(3). لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للمسيحيين لاسيما رجال الكنيسة(4) الذين أيدوا فكرة توجيه دون سانشو في موقعه إقليش 501هـ/1108م لأن هذا الأخير يسري فيه الدم العربي-حفيد المعتمد حسب زعمهم- فهو الذي يقاوم الإسلام والمسلمين في الأندلس ثأرا لموقعه الزلاقة 479هـ/1086م. التي أبلى فيها المعتمد ابن عباد البلاء الحسن ضد النصارى.

وعموما فإن الأندلسيات المسلمات اللائي وقعن في أسر النصارى أصبحن طعمة سائغة في فم العدو بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. ولم يول لهن النصارى أهمية مثل ما كان الشأن مع زائدة. وهكذا اشتهرت في الأندلس هذه المرأة دون سائر النساء بالارتداد عن دينها والتنصر، وبزواجها بالملك ألفونسو السادس ملك قشتالة فسمتها الروايات المسيحية بزائدة " المسلمة" « Zaida La Mora ».أي اسمها بقي مقرونا بالإسلام رغم أنها اعتنقت المسيحية. لكن في الحقيقة أن هوية أصل هذه المرأة التي كانت زوجة للفتح بن عباد-المأمون مجهولة- وربما كان لها أصول رومية فأسلمت ككثير من الأندلسيات الروميات اللائي تزوجن بالمسلمين. لأن وقتئذ شاع هذا النوع من الزواج، ومن المحتمل أن تكون زائدة واحدة منهن. ويبدو لي أنه من غير المعقول أن امرأة مسلمة-زائدة- ترتد عن دينها بهذه السهولة وتتزوج ملك النصارى وينجب منها ولي عهده. فهل ترضى الكنيسة الكاثولوكية بذلك وهي المتشددة و الملتزمة بتعاليم المسيحية؟ ومما يثير الشك في إسلام هذه المرأة أو على الأقل في ضعف إيمانها بأن الروايات المسيحية نعتتها بأسماء مختلفة : زايدة، ماريا، إيزابيلا. كما تدعي على أنها ابنة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية. وكأن هذه الروايات تثأر من المعتمد وتوجه له صفعة موجعة تلاحقه عبر التاريخ. ربما لأنه استنجد بيوسف بن تاشفين ونقض حلفه مع ألفونسو السادس، معبرًا عن ولائه وانتمائه للإسلام وللمسلمين، مهما ما توقع من عواقب وخيمة على إمارته! ويكون بفعله هذا أطال من عمر الإسلام في الأندلس وهذا الذي لم يرضاه النصارى. وربما يكفي المعتمد

---

[1] عنان: دولة الإسلام: العصر 2، ص346.

[2] عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص114.المقري: نفح الطيب ج4 ص.216، 217.

[3] عنان: نفسه، ص346.

[4] من رجال الكنيسة الأب فلوريس في تاريخه: Flores : Reynas Catalicas والأسقف رودريك الطيطلي (1243م)، Lévi Provençal: Op-cit , P23,((L'Achevéque Rodrique de Toléde : De Robis Hispanica)
وأنظر: عنان: نفسه.

فخرا حسن بلائه في معركة الزلاقة (479هـ/1086م). وحتى الأستاذ ليفي بروفنسال يستبعد أن تكون "زائدة" ابنة المعتمد نظرا لمواقف هذا الأخير من أعدائه النصارى،واستنتاجه جاء نتيجة لدراسته لمختلف الروايات المسيحية في الموضوع مضافا إليها الرواية الإسلامية التي عثر عليه في أوراق مخطوط بجامعة القرويين بفاس من "البيان المغرب" لابن عذاري المراكشي والتي حسم بها الموقف، وأن هذه المرأة كانت زوجة للفتح بن عباد التي تنصرت وليست بنت المعتمد.

ومجمل القول فإن السبي أو الأسر كان جزءا من معاناة المرأة واضطهادها في هذه الفترة، وتعتبر هذه الظاهرة هاجزا مثيرا لها ومهددا لحياتها. فكلّما قامت دولة أو اندثرت إلا ودفعت المرأة فاتورة ذلك، سواء كانت أمّا أو زوجة أو أختا، أو بنتا، ولا فرق بين الحرّة والأمة في ذلك. ولذلك فإن وضع المرأة تجاذبته الظروف السياسية والعسكرية للدولة متأرجحة بين القوة والضعف. واشتدت عليها وطأة السبي خاصة في نهاية دولة المرابطين وبداية قيام دولة الموحدين.

والظاهر أن المرأة المرابطية لم تستسلم لقيود الأسر كلية. إنما واجهت بعض السبايا ذلك الموقف بكل لباقة ورباطة جأش. واستطاعت استرجاع حريتها وحرية باقي الأسيرات، أمثال ميمونة بنت يانتان بن عمر وحواء زوجة تاشفين بن يعمر. وساهمت هذه الأخيرة في تحسين العلاقات بين المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي وبين يوسف بن تاشفين، أي بين صنهاجة الشمال وصنهاجة الجنوب. وحافظت بذلك على أواصر القرابة الصنهاجية.

ونتيجة لعملية السبي ظهر بالمغرب عناصر سكانية جديدة، تمثلت في الإسبانيات -الروميات- وما تحمله من اختلاف في الأخلاق والعادات والتقاليد. وهذا العنصر من الجواري كان أحد العوامل التي أثارت المشاكل في الأسر وفي المجتمع، الأمر الذي أثر سلبا على شخصية علي بن يوسف الورعة حتى اتهم بالضعف والركون لهؤلاء النساء (أمهات الأولاد).

وهكذا يتبين من خلال هذا الفصل الخاص بمساهمة المرأة السياسية والعسكرية في عهد المرابطين، أن هذه الأخيرة أتاحت للمرأة الفرصة للمشاركة في الحياة العامة، فتمتعت بمكانة رفيعة، وذلك من خلال ما بلغته من نفوذ سياسي سواء إيجابي أم سلبي، وتمثّل الدور الإيجابي بما قامت به زينب بنت إسحاق النفزاوية، ولا يقل دورها أهمية على ما قامت به زوجات الخلفاء والأمراء في الدول الإسلامية المتعاقبة على الحكم، فهي تأتي في طليعة النساء إسهاما في مختلف الجوانب الحياتية، غير أن ما كتب عنها قليل من كثير في سجل تاريخ دولة المرابطين، وربما يرجع هذا لضياع مصادرهم الأصلية بسبب سياسة الموحدين تجاه المرابطين في محو آثارهم.

وعلى كل حال فرغم هذه النتوف القليلة من المعلومات المتناثرة التي احتفظت بها بعض الكتابات المعاصرة أو اللاحقة للدولة المرابطية، فإن دور المرأة في هذين المجالين يعد ذو أهمية كبرى في المسار النسوي في المغرب الإسلامي. وفعلا تميزت المرأة المرابطية بالنفوذ السياسي والمشاركة في الحياة العامة، عبر كل مراحل الدول

لكن إذا كان دور زينب النفزاوية في تدعيم الحكم ليوسف بن تاشفين، له أبعاد سياسية واقتصادية ايجابية منذ بداية قيام الدولة في المغرب، فهذا الدور النسوي لم يكن كذلك في عقب يوسف بن تاشفين، الذي تميز بالنفوذ السياسي للجارية قمر – أم ولد – لأمير المسلمين علي بن يوسف، ويلاحظ أنه بقدر ما استخدمت زينب النفزاوية قدراتها من ذكاء وفطنة وأموال في إقامة نواة الدولة المرابطية في عام (465هـ/1072م)، فإن الجارية قمر استخدمت ذكائها وفطنتها في إضعاف كيان الدولة، وذلك لما طغت أنانيتها عليها ورغبتها الشديدة في التمسك بمقاليد الحكم من وراء اختيار ولي العهد غير الكفء. فهذه معادلة غير متساوية شهدتها الدولة المرابطية أثناء قيامها ثم عند انهيارها.

أما في الأندلس فقد خلد الأدب السياسي الأندلسي امرأتين لمتونيتين هما "مريم بنت إبراهيم بن تفلويت" و"حواء بنت تاشفين" لما بلغته هاتين الأميريتين من مكانة في المجتمع الأندلسي. فكانتا مقصدا لأصحاب الحاجات للتشفع بهما لدى الأمراء في قضاء حوائجهم. مما يبين استمرارية نفوذ الأميرات المرابطيات في الحكم حتى في الأندلس.

وفيما يخص الحياة العسكرية، فقد ساهمت النساء بقسط وافر في الدفاع عن أعراضهن وتميزت خاصة نساء الأمراء والأعيان بالجرأة والإقدام والشجاعة في مواجهة مواقف صعبة فرضها عليهن الأعداء.وأروع مثال على ذلك المقاتلة فانو بنت يانتان بن عمر التي قاومت جند الموحدين بحد السيف في مواجهة غير متكافئة إلى أن قتلت وهي في زي الفارس المقاتل. وهذه الظاهرة نفسها شهدتها الأندلس في معركة ذكرتها مصادر المسيحية عن نساء متلثمات في زي فرسان كشفت هوية جثثهن بعد انتهاء المعركة.

هذه المشاركة السياسية والعسكرية تدل على أن النساء في عهد المرابطين لم يكن منغمسات كليا في الترف والملذات ولاسيما في الأندلس الذي شاع فيها هذا النمط من العيش. إنما يبدو أنه كان البعض منهن يخضعن لتدريبات عسكرية، وأظهرت شجاعة وبسالة في القتال لدرجة أدهشت الأعداء.ويبدو لي أن الصمت والتعتيم عن ذكر باقي المقاتلات يرجع لاعتبارات عديدة منها، العادات والتقاليد الراسخة في المجتمع المغربي تجاه المرأة. فلا يجوز الكشف عنها في حالة السلم فيكيف يجوز ذلك في حالة الحرب؟ أو ربما أن تجنيد بعض البنات المرابطيات يستدعي السرية والكتمان حفاظا عليهن خاصة وعلى نساء الدولة عامة؛ لأن من عادات الملثمين تهيئة الفتاة للمستقبل في مختلف الميادين.

ورغم ما تميزت به سياسة عبد المؤمن بن علي من شدة ووحشية في القتال وعنف في معاملة السكان الذين لم يوحدوا، فقد واجهته امرأة جريئة وهي تاما جونت بنت يانتان بن عمر. استطاعت استرجاع حريتها وحرية من كان معها من النساء (400 امرأة) مستشفعة بوالدها الذي كان له الفضل

في عتق محمد بن تومرت من سجن علي بن يوسف بن تاشفين. الأمر الذي يدل على جرأة المرابطيات وتفاعلهن مع الأحداث السياسية التي مرّت بها الدولة المرابطية.

ومن النساء الأندلسيات اللائي استغلن في طعن كرامة مسلمات الأندلس " زايدة المسلمة ". فقد ادعت الكتابات المسيحية على أنها إحدى بنات المعتمد بن عباد. وبالمقابل لم تول لها المصادر العربية نفس الاهتمام. ويتضح من خلال دراسة ليفي بروفنسال أن هذه المرأة لم تكن بنتا للمعتمد بن عباد، إنما كانت زوجة للمأمون بن عباد. وهكذا جاءت براءة المعتمد بن عباد من هذه التهمة من طرف كاتب نصراني، " وشهد شاهد من أهلها ".

وما يثير الشك في إسلام هذه المرأة الأندلسية، أنها حملت عدّة أسماء: زايدة المسلمة، ماريا وإيزابيلا. الأمر الذي يثير الشك في شخصيتها وفي إسلامها. والأرجح أن هذه المرأة من أصل رومي، ثم اعتنقت الإسلام. الأمر الذي كان شائعا بين الجواري في الدولة الإسلامية في الأندلس. ولما خاف المأمون بن عباد من خطر المرابطين عليه هيأ لها ظروف فرارها. ولما عادت إلى أهلها سهل عليها الارتداد عن الإسلام واعتناق المسيحية من جديد. ومما يرجح هذا الطرح هو زواجها من الملك ألنفوسو السادس، وإنجاب منها ولي عهده. ولن ترضى الكنيسة الكاثوليكية آنذاك بهذا الزواج وبولي عهد يجري في عروقه دم عربي ؟ وربما لهذا السبب تغاضت الكتابات العربية عن ذكر هذه القصة، ولم يشير إليها سوى ابن عذاري المراكشي، فحسم بذلك الموقف.

وهكذا برهنت المرأة في هذه الحقبة من تاريخ الغرب الإسلامي على قدرتها وإرادتها في الإسهام في الحياة السياسية والعسكرية.

الفصل الثاني

دور المرأة في الحياة الاجتماعية

1. تكوين الأسرة:

أ- الزواج

ب- نظرة المجتمع للزواج

ج- مكانة الأم

د- مكانة المرأة الاجتماعية والاقتصادية

2. لباس المرأة وزينتها:

أ- اللباس

ب- الحليّ

ج- مواد التجميل

1- تكوين الأسرة:

إن الأسرة من وجهة نظر الإسلام نظرة فطرية حيوية تعبدية، وضرورة إجتماعية وإقتصادية وثقافية وأخلاقية. ذلك لأن فطرة الإنسان تقتضي عليه أن يعيش حياته الاجتماعية في أسرة متعاونة متقاربة في المشاعر والتجارب والأهداف، وقال الله تعالى في هذا الشأن:
" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا". (1) وقد كان تشريع الإسلام للزواج نقطة البدء في تكوين الأسرة وأدائها لرسالتها وفق قواعد وأحكام وتعاليم وآداب بلغت منزلة عالية من الرقي والسمو لا تدانيها منزلة في الشرائع السماوية السابقة (2).

فالعائلة هي النواة الأساسية للمجتمع، تقوم مثل المؤسسات الأخرى على نظام هرمي أسسه السلطة والنفوذ الذي يمثله رب الأسرة؛ بإستثناء ما لوحظ عند بعض القبائل الصنهاجية في المغرب الإسلامي كلمتونة ومسوفة وجدالة وترغة وغيرها... حيث تميزت هذه القبائل باحتكار الزوجة السلطة المطلقة بفضل مركزها الإقتصادي، مما كان لهذا الأخير أثر بالغ في نشاطها وعلاقاتها بالرجل (3).

وعلى العموم فإن الحياة العائلية في العصر المرابطي لم تكن سوى إفرازا للنظم السياسية والثقافية والإجتماعية المنبثقة من إقتصاد المغازي، فالقيَم التي سادتها من سلطة وتبعية وعدم تكافؤ بين المرأة والرجل في معظم الأحيان، وما ترتب عنها من علاقات استغلالية، لم تكن سوى انعكاسا لمجتمع قام على مبدأ التفاوت في الثروات والنفوذ والجاه (4) فمن الأسباب الرئيسية لهبوط مركز المرأة الإجتماعي بصفة عامة، هو تملك الرجل لكل وسائل الإنتاج ومسببات العيش كالأرض، والعقار...الخ (5) ولذا فإن في عهد المرابطين تبرز ظاهرة النفوذ الإقتصادي لبعض النساء مما يعكس هذا الأخير وضعيتها الأسرية والاجتماعية (6). هذا ما يستوجب التساءل عن كيفية تكوين الأسرة وطبيعة العلاقات الزوجية والعائلية في المجتمع المرابطي ؟

---

1 سورة النساء: الآية 1.

2 لجنة خطبة الجمعة: "نظام الأسرة في الإسلام" ضمن مجلة هدي الإسلام، ع2، مج40، المملكة الأردنية الهاشمية، 1417هـ/1996م، ص112.

3 Duveyrier Henri : Les touaregs du Nord, Challamel Ainé, Paris, 1864, P 339.

4 بوتشيش: المرجع السابق، ص21.

5 صلاح خلاص: إشبيليا في القرن 5هـ، دار الثقافة، بيروت، (د ت)ص 90.

6 بوتشيش: نفسه. Duveyrier : Ibid, P 339,340

أ- الزواج:

وفي هذا الصدد قال الله عزّوجل:" ومن أيته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم موّدة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"(1) إن الخطوة الأولى في الزواج هي الخطبة. ومن مراعاة ذلك أن يكون الزوج كفؤا، والكفاءة في الدين أولى(2) وقد كانت تتم بطريقة شبيهة بالتي نعاصرها إذ كانت تتولى إحدى الخاطبات الاتصال بين الرجل والمرأة مبينة صفات كل منهما، أو يقوم أحد الأصدقاء بهذه المهمة(3) أو يكون الفتى رأى الفتاة أو شاهدها في مكان عام أثناء شرائها الحاجيات من السوق أو زيارة أحد الأقارب أو الأصدقاء(4) كما كانت تتولى بعض النساء المسنات عملية الخطبة على سبيل حب الخير والوصل بين الفتى والفتاة(5) أما إذا لم يكن للبنت وليّ فيقصدها شاهدان يعرضان عليها أمر الخطبة، فإن سكتت عن ذلك رضى وقبولا من جانبها، فتتم الخطبة(6) واعتبر يوم الجمعة يوما مفضلا لهذه المناسبة والتفضيل ليوم الجمعة لا يزال إلى يومنا هذا عادة في المغرب العربي في بعض العائلات. لكن هل كان للفتاة حق رفض الخاطب كما حدث في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

من خلال النصوص(7) التاريخية يبدو أن هذا الحق كان جد نسبي بين النساء المحظوظات فالبعض منهن ولا يستبعد أن تكون القلّة منهن فقط امتلكت حق قبول أو رفض المتقدم لخطبتها إذا لم يستهويها لسبب من الأسباب، ومن أبرز الأمثلة على ذلك رفض زينب النفزاوية لكثير من شيوخ وأعيان القبائل المتقدمين لخطبتها محتجة في ذلك أنها لن تتزوج إلا بمن يحكم المغرب كلّه(8).

وإن كانت هذه المرأة الطموحة للحكم فريدة زمانها في مطلبها ومرماها حتى وصفت بالحمق(9) فإن الشاعرة الأندلسية نزهون بنت القليعي التي كانت تنشد الجمال رفضت رجلا قبيح الوجه جاء يطلب يدها مجيبة له:

---

1 سورة الروم: الآية 21.

2 ابن عبد الرؤوف: أحمد بن عبد الله: في آداب الحسبة والمحتسب، تق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص79.

3 ابن بسام: الذخيرة، ق2، مج1 ص 345، حسين عبد الحميد أحمد رشوان: علم اجتماع المرأة، المكتب الجامعي الحديث، لـ د م، 1998، ص 51.

4 دندش : نهاية المرابطين ، ص 330.

5 بوتشيش: المرجع السابق، ص 23. ابن حزم: طوق الحمامة، ص73.

6 ابن الحاج: أبو عبد الله خلف: نوازل ابن الحاج، الخزانة العامة للوثائق بالرباط، المغرب الأقصى، تحت رقم ج55، و62. وانظر : بوتشيش: [illegible]، ص 21.

7 أنظر ابن حجر : المصدر السابق ص 498

8 ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 18. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 80.

9 ابن عذاري: نفسه ، ص 18.

عذيري من أنوك أصلع سفيه الإشارة والمنـــزع

يروم الوصال بما لو أتى يروم به الصفع لم يصفع

برأس فقير إلى كيـــــة ووجه فقير إلى برقـــــع (1)

لكن هذين النموذجين من المخطوبات اللتين تمتعتا بنوع من الحرية ليست هي الصورة العامة للمجتمع المرابطي في المغرب أو في الأندلس، ففي أغلب الأحيان لم تمتلك الفتاة حق القبول أو الرفض وكانت ترضخ لرأي وليها. إلا أن إكراه البنت على الزواج قد يؤدي إلى امتناعها وربما إلى عقوق أبيها ومن ذلك ما يصوره كتاب النوازل أن "رجلا ذا مال وجاه خطب ابنة رجل فأعطاها له بعد إباية ودخل بها الزوج مما أدى إلى عقوق الإبنة لأبيها "(2).

أما المواصفات التي كانت تخضع لها المخطوبة فهي تختلف حسب المستوى الثقافي للناس، فمثلا في المغرب عامة وفي الصحراء كانت تتم عملية الاختيار على أساس طيب الأصل وحسن الخلق وكمال الدين لذلك فضل البعض مصاهرة البيوتات الطيّبة المنبت الأصيلة المحمد (3) لقول الرسول عليه الصلاة والسلام على لسان أبي هريرة (ض) "تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فأظفر بذات الدين تربت يداك".(4) بينما تنافس بعض الوجهاء والأعيان والعلماء في الزواج بالمرأة العالمة النبيهة الذكية مثل ما حدث لزينت النفزاوية (5) ونزهون القلاعية (6).

أما عوامّ الناس فكانوا يفضلون المرأة الجميلة الشقراء والبدينة وينفرون من القصيرة المشينة، وما يزال هذا النوع من الاختيار المبني على المظهر الفيزيولوجي للمرأة سائرا عند البعض إلى حد الآن، رغم أنه ليس هو المقياس الأساسي والصحيح لبناء الأسرة. ومن ذلك ما يقول بعض الحكماء من العامة عندما:

لا يغرك نوار الدفلة في الويدان داير ضلايل

ولا يغرك زين طفلة حتى تشوف الفعايل (7)

---

1 ابن الأبار: أبو عبد الله : المقتضب: تحقيق إبراهيم الأبياري، ط3، دار الكتاب المصري القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1410هـ/1989، ص 216، وانظر: الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ج2، تق: إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب، الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1410، 1989 رقم 1595، ص 732، وانظر المقري: المصدر السابق، ج4، ص297 .

2 ابن الحاج:المصدر السابق. و64، 65. بوتشيش : المرجع السابق، ص23.

3 الونشريسي : المصدر السابق، ج 3، ص160.و Duveyrier : Op.Cit. P 347

4 صحيح البخاري: المصدر السابق، ص 639.

5 ابن عذاري : المصدر السابق، ج4، ص 18. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 76-80-83.

6 ابن الأبار : نفسه.

7 مثل شعبي متداول على ألسنة الناس عندما يتعلق الأمر بالخطبة أو الزواج.

كما اشتهرت في العهد المرابطي عدّة أمثال شعبية أوردها الزجالي في شأن اختيار المرأة، مثلا عن المرأة البدينة يقول:" الشحم زين ومن فقدت حزين، وعن الشقراء يقول:" أي هو النمش ثم افتش "(1)

وعلى ما يبدو فإن المرأة الجميلة كانت مفضلة كثيرا، فعبد الله بن ياسين لما كان في الصحراء كان لا يسمع بإمرأة جميلة إلا خطبها.(2) واشتهرت النساء بالجمال في بعض المناطق بالمغرب.(3) كما يبدو أن معظم الناس كانوا يفضلون المرأة البكر فكان من أهم مهمات الأمهات هو الحفاظ على بكارة بناتهن. وقد شاعت عادة قيام إمرأتين تدعيان القابلتين باختبار أحوال الفتاة. فإذا وجدتها بكرا تسلمان لها شهادة تثبت ذلك.(4) لأن فقدان الفتاة لبكارتها يعد سببا في جلب الذل والعار لأسرتها. ولذلك سعت بعض العائلات إلى كتابة عقود لبناتهن اللائي فقدنها بسبب خارج عن إرادتهن كالوثبة أو الحيض أو السقوط من درج أو سلم. وكل ذلك دفعا للشبهة والعار حتى يشيع ذلك الخبر بين الجيران، ويدفع بذلك عار الناس الذي ينزل بهم. ففي ليلة العرس ينتظر المدعون دليل بكارة المرأة وإذا اتفق أن العروس غير بكر ردها الزوج إلى أهلها. وتجنبا لوقوع هذا العار على الأسرة. فإن دور الأمهات تمثل في توعية بناتهن بذلك. فكان حرصهن شديدا للحفاظ على عرض العائلة.(5) لكن هذا لايعني أن المرأة الثيب لم يكن مرغوبا فيها لا سيما إذا كانت ذات مال وجمال ومكانة إجتماعية عالية. فهذه العوامل تجلب إليها الخطاب أكثر من البكر.(6) ومن ذلك أن الأمير أبا بكر بن عمر لما سمع بجمال زينب وبما تمتلكه استدعاها وخطبها، ثم بعد طلاقها من هذا الأخير تزوجها يوسف بن تاشفين الذي يعد الزوج الرابع لها.(7) كما أن الحرّة حواء بنت تاشفين تزوجت بابن عمها أبي طاهر تميم بعد وفاة زوجها الأمير سير بن أبي بكر.(8) وهذا ما يدل على أن حظوظ المرأة في الطبقة الخاصة في المجتمع وهي ثيب أكثر من حظوظها عند العوام وهي بكر نظرا لمكانتها الاجتماعية ونفوذها الاقتصادي. ومما يرويه ابن الأثير في قصة الشبان الثلاثة أن أحد الحالمين منهم كان يتمنى الزواج من زينب النفزاوية رغم كبر سنها وهي زوجة أمير المسلمين آنذاك.(9)

---

1 الزجالي: رقم 107 ج2 ص24 .نقلا عن بوتشيش: نفس المرجع، ص 24.

2 البكري: المصدر السابق، ص 169. ابن عذاري:المصدر السابق، ص 16.وانظر:ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 76

3 سيأتي الحديث عنه.

4 ابن الحاج: المصدر السابق. و 72 .بوتشيش: نفسه.

5 بوتشيش: نفسه.

6 Duveyrier : Op.cit, P 340

7 ابن عذاري:نفس المصدر، ص 18. ابن أبي زرع: نفسه. ابن خلدون: العبر ج12 ص381.

8 ابن رشد: فتاوي، المصدر السابق، السفر 2، م395 ص1223-1224.

9 الكامل في التاريخ، ص99.

والأمر الملفت للإنتباه في الدولة المرابطية هو سيادة الزواج الداخلي الذي يتم في إطار القربى العائلية في البلاط المرابطي أو في الإطار القبلي. أما بالنسبة للطبقة الخاصة، فيلاحظ فيها حرصها على المحافظة على أواصر القربى والميراث والنفوذ السياسي من خلال المصاهرة بين أفراد العائلة. والشواهد على ذلك كثيرة، فعلى سبيل المثال أن والدة يوسف بن تاشفين تزوجت من ابن عمها علي.(1) وحواء بنت تاشفين تزوجت من إبن عمها أبي طاهر تميم(2)ويذكر أن الأمير عبد الله بن باديس كان عازما على تزويج ابنتيه من ابني عمهما قبل أن ينفى إلى المغرب في (484هـ/1091م). أما والي فاس "ابن الصحراوية" فقد تزوج بإمرأة من قومه.(3) وما تزال هذه العادة مستمرة عند قبائل الطوارق، إذ لا يسمح للمرأة بالزواج من أجنبي أي من غير قومها، إلا عند استحالة الزواج برجال من قبيلتها فيسمح لها بذلك حفاظا على النسل العائلي(4) وهذا النوع من الزواج بين الأقارب، ينتج عنه أحيانا ارتفاع نسبة الوفيات لدى الأطفال مما يؤدي إلى نقص في عدد قومها مستقبلا(5) لكن نظرة المجتمع المرابطي حينئذ كانت مخالفة لهذه العواقب السلبية، إنما كانت ترى في الزواج الداخلي حفاظا على إرث العائلة وصيانة لبناتها، بحيث بعض القبائل الصنهاجية لا يرث الرجل المتوفي إلا ابن أخته(6).

ويظهر أن الفتاة المرابطية كانت تعتز بنسبها ومكانتها وكانت تبدو عليها علامات الأنفة والاستعلاء على من دونها مستوى من الرجال. فهذه الأميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين التي كانت تسكن فاس، رآها يوما كاتبا لها، وقد أمرت بمحاسبته، فلما ظهرت إليه ظنت أنه بهت بها فأومأت إليه قائلة:

هي الشمس مسكنها في السما ... فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعـــــود ... ولن تستطيع إليك نزولا(7)

ومن خلال هذه الأبيات، ندرك مدى صلابة الحواجز الاجتماعية بين طبقات المجتمع المرابطي إذ النساء لا يتزوجن إلا من ذويهن من الأقارب. ويوجد في بعض القبائل الموريتانية عادة "عقد الخيط" وهي

---

1 ابن عذاري : المصدر السابق، ج4، ص 24.

2عبد العزيز الاهواني: مسائل ابن رشد، ص 75-76.

3ابن الأبار: الحلة السيراء، ق2، م2، ص 236.

4 Duveyrier : Opcit , P 269 وهناك عادات مخالفة لذلك عند الطوارق. أنظر: محمد السويدي: المرجع السابق، ص 97.

5 Ibid.

6 ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 287.
Marchesin (Philippe) : Tribus, ethnies et pouvoir du Mauritanie Ep :Karthala , Paris ;1992, P. 29.
يلاحظ في موريتانيا أن القبائـــل الصنهاجية تحتفظ بالزواج ببنات أخ الأم، أما القبائل المورية فيتم الزواج أكثر ببنت أخ الأب، وهذه الظاهرة أكثر انتشارا: انظر Marchesin : Ibid ; P 28-29.

7ابن عبد الله : معجم أعلام النساء، ص7.

ومن خلال هذه الأبيات، ندرك مدى صلابة الحواجز الاجتماعية بين طبقات المجتمع المرابطي إذ النساء لا يتزوجن إلا من ذويهن من الأقارب، ويوجد في بعض القبائل الموريتانية عادة "عقد الخيط": "فعندما تولد بنت لعائلة شريفة أو ذات رحم يعقد خيط في رجلها، وتعقده من لها ولدا كفؤا لتلك البنت، كخطبة موعود بها.(1) وترسل إلى أم البنت في أيام الأعياد تحفة، أومصحفا أو كتابا أو حليا نفيسا..(2) وهذا ما استدل به على أن الزواج الداخلي ما يزال محافظا عليه من طرف العائلات الشريفة إلى حد الآن.

ويستدرجني هذان البيتان من الشعر إلى التساؤل عن عواطف المرأة قبل الزواج، لأن من أهم مظاهر الشعر هو تصوير المرأة ضمن شعر الغزل، ويبدو أن هذا النوع من الشعر نقص كثيرا في عهد المرابطين، وبالتالي يتعذر التعرف إذا كان الزواج يتم عن طريق الحب أم لا. ما عدا بعض الشواعر الأندلسيات. ولم يتسن للمرأة الجهر بحبها والتصرف بمقتضاه نظرا للقيم الاجتماعية خاصة في البوادي والمدن المغربية. وبالعكس ما حدث في المغرب فإن الأندلس كانت أكثر تفتحا وتسامحا مع المرأة في هذا المجال، فعبرت المرأة عن مشاعرها وباحت بحبها دون خجل أو قيود، ومثلت هذه الفئة القليلة من النساء ولادة بنت المستكفي ومهجة القرطبة، لكنهما لا يعبران عن شعور المرأة عامة في الوسط الأرسقراطي(3).

أما النظرة الخاصة للمجتمع في هذه المسألة فإنه لا يمنحها الحق في أن تحب من تشاء وتختار من تشاء لأن هناك رجلا واحدًا في حياة كل إمرأة، عليها حبه وطاعته وهو زوجها أو سيّدها الذي لا يد لها في اختياره(4) ما عدا ما شاع من عادات في بعض القبائل الصحراوية ومنها الطوارق، لقد اندهش ابن بطوطة(5) من الحرية التي منحها الطوارق لنسائهم، وذلك عندما رأى زوجة صديقه متكئة إلى جانب رجل غريب، فرد عليه صديقه:"بأن علاقات النساء بالرجال في بلادنا علاقات طيبة وسليمة[...] إنها علاقات قديمة وشريفة، وهي فوق مثار الشبهات".(6) كما أن الفتاة تختار زوجها ويقضيان معا مدّة قبل الزواج، ومن عوائدهم ما يسمونه "أهال" وهي سهرات فيها مجامع لهو وأنس

---

1 المختار بن حامد: حياة موريتانيا، ج2: الحياة الثقافية، ط1، دار العربية للكتاب، تونس، 1990، ص 183.

2 نفسه. حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص 334. إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج1، ص 217.

3 المقري: المصدر السابق، ج4، ص 733. خلاص: إشبيلية في القرن 5هـ/11م ص 93.

4 نفس المصدر،ص 100. Duveyrier : Les Touaregs du Nord P 429

5 تعد مشاهدات ابن بطوطة اقدم إشارة إلى المكانة التي تتمتع بها المرأة الطارقية، ولذلك اعتمد عليه الكثير من الرحالة الأوروبيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. أنظر: المصدر السابق، ص 687. ومحمد السويدي: المرجع السابق، ص 94-95.

6 أن هذه الواقعة التي رآها ابن بطوطة لا ترقي إلى مستوى الملاحظة الموضوعية لان تتخذ لإطلاق الأحكام الجزافية على المرأة الطارقية، لأنها واقعة واحدة وليست نتيجة لتعدد ملاحظاته. أنظر: دراسة محمد السويدي: المرجع السابق، ص 95.

يجتمع فيها الرجال العزاب بالأوانس والأيامى من النساء يتسامرون. واتخاذ الصحابة عندهم بغير نية الزواج أمر معروف لا ريب فيه ولا عيب عندهم(1).

إن العادات والتقاليد في الزواج تختلف بين العائلات من جهة وبين أرجاء الدولة المرابطية شمالا وجنوبا من جهة أخرى. والمعروف أن الأب أو الولي كانت له اليد الطويلة في تزويج ابنته دون أدنى استشارة في معظم الأحيان. وذلك ما يتضح جليا من بعض النصوص التاريخية، منها أن يوسف بن تاشفين زوج علي المسوفي بإمرأة من أهل بيته تسمى "غانية" بعهد من أبيها. (2)كما أن عليًا بن يوسف عقد على أخته حواء لابن عمه أبي طاهر تميم(3).وهذه الأمثلة تؤكد لنا سلطة الأب أو الولي على المرأة.وخارج البلاط المرابطي تكررت هذه الحالة منها ما أشارت إليه إحدى نوازل ابن رشد: أن رجلا غاب عن زوجته فزوجها والدها برجل آخر دون علمها بالرغم من عودة الزوج الأول(4). ولما حدث أن تزوجت امرأة بغير إذن وليها زج بها في السجن.(5)ويبدو أن خوف الأب على بناته القصر خوفا شديدا فيوصي الوالد من ينوبه بعد موته بتزويج بناته(6).

من خلال ما تقدم يظهر أن الزواج بالنسبة للمرأة كان في بعض الأحيان شأنا عائليا أكثر منه فرديا وفق رغباتها، فأسرتها ووليها على الخصوص هو الذي كان يتكلف بترتيب أمور زواجها في ضوء مصلحته الخاصة، ولقد حدث أن بعض البنات زوّجن قبل بلوغهن، فإحداهن خطبت من والدها وهي في سن الثامنة من عمرها، فأبى أن يزوجها لأول الأمر ثم وافق على المتقدم لها على أن يدخل بها بعد أربعة أعوام(7).ونفس المسألة وردت على ابن رشد من مدينة بلنسية(8).ومن هاتين المسألتين يتبين أولا.الحد الأدنى لسن الزواج الذي كان حوالي أثني عشر سنة بالنسبة للفتاة ويعد زواجا مبكرا جدّا. ثانيا: أن هذا الزواج المبكر يعد قيدا أسريا للفتاة وإقصاء نهائيا لمشاعرها ورأيها في ذلك .

---

1 جان وجيروم طارو: أزهار البساتين..ص28. لكن يوجد دراسات أخرى لا تتفق بما سبق ذكره. إذ المرأة الطارقية متحكم فيها من طرف أهلها، ومن الصعب التأكيد أن الحرية التي تمتعت بها بلغت درجة الإباحية الجنسية، فالطوارق يولون أهمية كبيرة لسمعة نسائهم وطهارتهن... أنظر : محمد السويدي: نفس المرجع، ص 95-96.

2 ابن خلدون: العبر ج12، ص398، ابن الخطيب: الاحاطة مج 4، ص 49. دندش عصمت: أضواء جديدة: ص 175.

3 التليلي: المصدر السابق: السفر2، م 395، ص 1223.

4 نفس المصدر: السفر1، م21، ص 188.

5 ابن الحاج: المصدر السابق، ص 66-67.

6 ابن رشد: نفس المصدر: السفر1،م 49، ص 273.

7 ابن الحاج: نفس المصدر، ص 61.

8 بوتشيش: المرجع السابق، ص 26.

إلا أن في بيئة الطوارق المعاصرة نلاحظ أن معدل سن زواج البنت لا يقل عن عشرين سنة[1] وهذا على ما يبدو حدوث تطور في نظرة الملثمين لسن زواج البنت ما بين الماضي والحاضر. وفي الكثير من الأحيان تخطب البنت وهي لا تزال في مهدها سواء لإبن عمها أو لإبن خالها[2] وحتى إن كان هذا النوع من الزواج عاديًا عند بعض القبائل وفي بعض العائلات فإنه ترتب عنه في بعض الأحيان نتائج وخيمة أدت إلى هروب بعض الفتيات من واقع فرض عليهن فرضا ولم تجد بدًا من التخلّص منه إلا الفرار[3].

وهكذا يعد الولي ركنا من أركان الزواج ولن يصحّ للمرأة أن تتزوج بدون إذن وليها لقوله تعالى:" فإنكحوهن بإذن أهلهن"[4] والدولة المرابطية هي دولة دينية سادها فقهاء المالكية لكن في حالات عديدة تعدى الولي حدود هذه الآية الكريمة، وأرغم ممن في كفالته من البنات على طاعته ليحقق من خلالها مصالحه ضاربا بعرض الحائط مشاعر المعنية بالأمر. وأحيانا تبلغ درجة تعسف السلطة الأبوية إلى التهديد بالقتل، مثلما جاء في إحدى النوازل:"إن أحد الأباء أنكح ابنته من متقدم إليه ثم جرى بينهما خلاف، فحلف والدها بالأيمان اللازمة إن كانت له إمرأة إن جعلت فيها إلا الرمح"[5] ورغم أن سلطة الولي تعدت حدودها في معظم الأحيان وأكرهت بعض الفتيات على الزواج ورضخن لها رغم مخاوفها من مستقبل مجهول، فإن احترام رأي الولي كان من بين أدبيات المرأة ولن يتم زواجها بدونه[6] وفي هذا الصدد تضرب بثينة بنت المعتمد بن عباد مثلا رائعا في استشارة والدها وأخذ موافقته قبل زواجها وقد أسلفت الحديث عنها في الفصل الأول. وخلاصة قصتها أنها وقعت في الأسر عندما داهم جند المرابطين قصر أبيها في إشبيلية. فأصبحت جارية لأحد التجار الذي اشتراها ثم وهبها لإبنه. فلما أراد هذا الأخير الدخول بها رفضت وكان هذا السبب لتكشف له عن هويتها، قائلة له أنها لن تحل له إلا إذا رضي والدها بذلك. وأشارت إليه بتوجيه كتاب لأبيها وإنتظار جوابه مضمنة إياه ما جادت به قريحتها في وصف حالها[7] قائلة:

اسمع كلامي واسمــــع لمـــــــــقالتي   فهي السلوك بدت من الأجيادي

إلى أن تقول:

---

1 Duveyrier : Opcit .P 429 . محمد السويدي: المرجع السابق، ص 99.

2 المختار بن حامد: المصدر السابق، ج2، ص 183. Marchesin (P) : Op.cit, P28

3 الونشريسي: المصدر السابق، ج3، ص279.

4 سورة النساء: الآية 25.

5 التليلي: المصدر السابق: السفر 1، م 199-ص834.

6 ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق، ص 80.عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1970، ص274.

7 المقري: المصدر السابق، ج4، ص 84. بوفلاقة: المرجع السابق، ص139.

وخرجت هاربة فحازني إمــــــرء لم يأتـــي في إعجاله بســـــداد
إذ باعني بيع العبيد فضمنــــــــي من صانني إلا من الأمكــــــاد
وأرادني لنكاح فجل طــاهــــــــر حسن الخلائق من بني الأمجــاد
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضى ولا أنت تنظر في طريق رشــاد
فعساك يا أبتي تعرفني بـــــــــه إن كـــان ممـــن يرتجى لــــوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلهــــــا تدعو لنا باليمن والإسعـــــــاد (1)

فلما وصل شعرها لأبيها بأغمات سرّ هو وأمها بها كثيرا؛ لأنهما لم يسمعا بخبرها من قبل. وأشهد المعتمد بن عباد بعقد نكاحها من الشاب المذكور (2).

إن كانت هذه "الجارية" بثينة استأذنت وليّ أمرها قبل أن تتزوج لمعرفتها لمكان منفى والدها، فما هو شأن باقي الجواري في هذه المسألة؟

أمّا بالنّسبة لزواج الجواري أو الإماء فقد كان بيد السيّد، فهو صاحب الشّأن الأول والأخير في مصير زواجهنّ وفق مصلحته. ولذلك يجبرن في معظم الأحيان على قبول الزواج الذي يفرضه عليهن. أمّا إذا كان الزواج بين أمة وعبد فيتزوج كلّ واحد منهما بإذن أحد الشريكين (3). وتجدر الإشارة إلى المنافسة الحادة التي كانت بين الحرائر من النساء والجواري في المجتمع المغربي وخاصة في الأندلس. وهذه الظاهرة كانت شائعة في الأندلس منذ العهد الأموي بها (4). ومن الأمثلة على أمهات أولاد الحكام أذكر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، الجارية "قمر" زوجة يوسف بن تاشفين وأم علي بن يوسف بن تاشفين. والجارية "قمر" -الثانية- وهي زوجة علي بن يوسف التي كان لها نفوذ خطير في الحكم. فاشتدت منافستها لنساء القصر المرابطي سواء للحرائر -كإبعاد حواء بنت تاشفين عن مراكش- أو للجواري مثل "ثرايا" التي سمتها حتى ماتت (5). وقد كانت قصور الحكام والأمراء والأغنياء تعج بالجواري اللائي يزداد عددهن كلما سجّل المرابطون انتصارا عسكريا على النصارى. فكانت هؤلاء الجواري ملكًا للسّادة ولا يزوجّون إلا بإذنهم (6).

ويبدو الاختلاف واضحا في معاملة الجواري. فحياة هذه الشريحة من النساء في المجتمع قسمت إلى قسمين: جواري الخدمة في قصور الحكام والأغنياء، وجواري المتعة أو اللذة اللائي يستخدمن للتسلية، وهؤلاء كن يتلقين ثقافة خاصة تساعدهن على أداء واجباتهن. وهن اللائي نافسن

---

1 المقري: المصدر السابق، ج4، ص 84.
2 كتب إليها قائلا: " بنيتي كني به برّة فقد مضى الوقت بإسعافه. المقري: نفسه.
3 التليلي: المصدر السابق، السفر 1: ص 190 ص 806.
4 صالح خلاص : المرجع السابق، ص 96-97.
5 ابن زهر: المصدر السابق، ص 250. عصمت دندش:"أدوار سياسية لنساء في دولة المرابطين، ص 57.
6 التليلي: نفس المصدر، السفر 1، م 190، ص 806.

الزوجات الحرائر بالتأثير على أسيادهنّ حتى رفعن مكانتهن في القصر، (1) وكان عددهم يرتفع نسبيا مع ثروة السيد، ولا يزوجن إلا بإذن أسيادهن. وشكلن عائقا للبنات الحرائر، بحيث كلما زاد عددهم إثر عملية السبي انخفض سعرهن، (2) وبالتالي يقبل الناس على اقتناء البعض منهن. الأمر الذي انعكس على عدم زواج بنات العامة حتى أن بعض الآباء تغالوا في تجهيز بناتهم بالحلي والثياب والدور لرخص بنات الروم. فكان الناس يرغبون في بناتهم ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة (3).

وإن كانت الجارية يسمح لها بالزواج بالرجل الحر، فإن المرأة الحرة كانت تمنع بتاتا من الزواج بعبد لأن في ذلك معرّة لها. وإذا تجرأت إحداهن على ذلك فإنها تتعرض لإهانة وسخط المجتمع لها (4) أما المرأة التي لا وليّ لها أو غاب عنها وليها مدة طويلة فقد فوض أمر تزويجها لصاحب خطبة المناكح. الذي لا بد أن يكون رجل فقه وورع، (5) وكما جرت العادة لا تعد الأم وليا على ابنتها إنما ذلك يكون من قبل الأم وأحد المحارم (6).

من خلال إطلاعي على بعض كتب النوازل يبدو لي أن الكثير من المسائل كان موضوعها حول الشروط التي فرضتها بعض النساء مثل الصداق المتفق عليه بين الطرفين، ونظرا لأهمية هذه النوازل التي تعتبر المرآة الصادقة التي تعكس الكثير من الأوضاع في المجتمع، أخترت منها ما ارتبط بالحياة الزوجية من خلال ما جاء في عقود الزواج.

إن عقد الزواج تضمن إسم الزوجين والشهود ومبلغ الصداق والشروط، (7) ومن خلال العدد الكبير من النوازل في هذه الفترة اخترت عددا منها والذي له علاقة بحياة المرأة الزوجية. يبدو لي أن بعض هذه الشروط ماهي إلا تعبير عن مخاوف المرأة لتتحاشى الوقوع في المشاكل، وتفاديا لأي خلاف يعكر جوّ حياتها الزوجية مستقبلا. كما اعتبرت هذه الشروط نوعا من التفاخر والمباهاة بين الناس تعكس درجة مكانة المرأة لدى والديها وفي المجتمع. فمن الشروط الواردة أن لا يتزوج عنهن بعولتهن ولا يتسرّون. مما يدل على شيوع ظاهرة التسري -لكثرة الحروب مع النصارى- خاصة في الوسط الأرستقراطي. فقد بلغت درجة ذلك أن بعض النساء ضيقن الخناق على أزواجهن حتى "أن إحداهن فرضت على زوجها الحلف بالإيمان اللازمة في كتاب صداقها معه، أن الداخلة عليها بنكاح

---

1 ابن القطان : المصدر السابق، ص 245 . عصمت دندش: أدوار سياسية لنساء...، ص 57.

2 لم يتعد سعر إحدى بنات عظماء الروم عشرين دينارا عامرية رغم جمالها الرائع: المراكشي: المعجب.ص 38.

3 المراكشي : نفسه. صالح خلاص: المرجع السابق، ص 97.

4 بوتشيش: المرجع السابق، ص 26.

5 ابن عبدون: رسالة في الحسبة: تق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص 13. وانظر : ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق، ص 80.

6 ابن عبد الرؤوف:نفسه. وانظر: التليلي: المصدر السابق، السفر 2، م 359، ص 1150. عصمت دندش: نفسه.

7 كان الموثق هو الذي يقوم بعقد الزواج وكتابة الصداق والشروط، وقد حدد ابن عبدون الصفات الموفق الزواج بأنه يجب أن يكون رجلا فقيها ورعا وغنيا، ولا يكون شابا ممن يريد القاضي أن ينعشه بذلك، انظر نفس المصدر: ص13.

طالق ".[1] أو "متى راجع فلانة أي مطلقته فهي طالق"[2] أو "إن تزوج عليها فلانة فهي طالق".[3] واشترطت احدى النساء على زوجها أن لا يضربها ولا تمتد يده إلى مالها إلا باذنها ورضاها. وما هذه الشروط إلا صورة لبعض مظاهر الحياة الإجتماعية انذاك والتي كانت سببا في تفكيك أواصر بعض الأزواج والأسر. أما الشرط الذي شاع في تسجيله مع الصداق وتكرر ذكره فهو غياب الزوج لمدة طويلة. ومنها "أن إحدى النساء حددت مدة الغياب لستة أشهر، فلما جاوز هذه المدة رفعت دعواها إلى القاضي، فتلوم زوجها، وطلقت نفسها "[4]

وكانت النساء شديدة الحرص على تنفيذ شروطهن فالبعض منهن طلقن أنفسهن طبقا لشرط المغيب اللائي عقدناه وتزوجن ثانية دون الرجوع إلى القضاء[5] كما أن إمرأة غاب عنها زوجها في الحج أكثر من ثلاثة سنوات فرفعت هذا المغيب للقاضي والفقيه ابن رشد وطلقت نفسها وأعادت الزواج ثانية.[6] وربما لكثرة غياب الأزواج فقد اشترط أحد الأباء على زوج ابنته أن يسكن معه بيت معين[7] ومن هذا الشرط –أي المغيب- يتبين أن النساء كن حريصات على الزام الأزواج بما اشترطن عليهم.

وربما السؤال الذي يطرح هو ماهي أسباب غياب الأزواج؟ فبعض الأسباب معروفة وهي السفر للتجارة أو إلى الحج، وربما لأسباب أخرى كالجهاد أو العمل أو طلب العلم. وفي كل هذه الحالات كانت الزوجات لا ترتحن لغياب أزواجهن، فأقصى مدة حددت هي ستة أشهر. وربما ما تعدى هذه المدة يثير شكوكهن في أزواجهن أنهم تخلوا عنهن وكونوا أسرا أخرى في مناطق بعيدة لا يسمع بأخبارهم، ولا يخفى على أي إمراة ضغط زوجها عليها في ذلك. وربما ما كان يخيف المرأة مستقبلا، اشترطته في عقد زواجها وبالتالي فلا مفر ولا مناص للزوج منه. كما اقتصرت بعض الشروط على

---

1 التليلي: السفر2، م 186، ص 789.

2 نفس المصدر: السفر3، م 474، ص 1355.

3 نفس المصدر: السفر2، م 10 ص 173.

4 نفس المصدر: السفر2، م 185، ص 785. وانظر: البرزلي: مختصر في فقه مالك: مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة تحت رقم 1337، ورقة 33.

5 وهذه مسألة في أخذ المرأة بشرطها قبل البناء بها:" رجل تزوج امرأة بكرا زوجها أبوها، وانعقد على الزوج في كتاب صداقها معه شرط المغيب، حسبما ينعقد في صداقات الناس اليوم، فغاب الزوج قبل البناء بزوجته بحيث لا يعلم غيبة الزوج المذكور، وطلقت نفسها ولم يكن بالمكان الذي به الزوجان حكم يثبت عنده المغيب والصداق. غير أن الأمر مشهور معلوم (...) وانظر فتاوي ابن رشد السفر2، م 534 ص 1460.

6 نفس المصدر: السفر3 م 570 ص 1560.

7 نفس المصدر: السفر1 م 13 ص 176.

الجانب المهني ومن ذلك ما ذكره الونشريسي(1)أن رجلا تزوج ماشطة وشرطت عليه في عقد زواجها أن لا يمنعها من صنعتها(2)كما اشترطت احداهما أن يكون للزوج مهنة(3).

هذه جملة من بعض الشروط التي ألزمتها بعض النساء في صدقاتهن ولتطمئن أنفسهن لما سوف يشكل لهن مشاكل في حياتهن الزوجية مستقبلا. أما المهر أو الصداق فهو حق مفروض شرعا للزوجة على زوجها يلتزم بأدائه لها إلتزاما شخصيا مباشرا.

كما يلتزم به الكفيل إذا كفله أو أب الزوج إذا كان صغيرا أو لم يكن عنده مال. وضمن لها هذا الحق الشارع الحكيم بقول الله تعالى:"وأتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ".(4)وما يدفعني للتساؤل هنا، ما هي قيمة الصداق، وما هي انعكاساته على المجتمع؟

كانت قيمة الصداق هي الشغل الشاغل للعائلات مثلما يحدث عندنا تماما. ومن الملاحظ أن قيمة الصداق كانت تختلف حسب الوسط الإجتماعي واختلاف طبقاته. ويذكر عن عبد الله بن ياسين أنه لم يكن يدفع أكثر من أربعة مثاقيل(5)لمن يتزوجها(6)وهذا ما يعبر أن المهر في المناطق الصحراوية لم يكن مرتفعا ولا مكلفا كثيرا إذا ما قسنا ذلك على ما أمهره عبد الله بن ياسين، فهو مبلغ منخفض عموما، وربما أن هذه القيمة لم تكن عامة لأن عبد الله بن ياسين كان في مرحلة دعوة دينية، فكان يعطي القدوة للأباء لكي لا يغالوا في مهور بناتهن. إلا أنه يظهر جليا ارتفاع المهر في الأندلس عما هو عليه في المغرب. وهذا ما أشارت إليه إحدى نوازل ابن رشد، أن إحدى النساء بلغ مهرها ستون مثقالا. (7)وبناء على هذه النازلة يتبين أن مهر فاطمة وهي بنت أحد الفقهاء، كان باهظا ويفوق خمسة عشرة مرة ما كان يدفعه عبد الله بن ياسين لزوجاته في الصحراء. وربما يرجع ذلك لمكانتها الاجتماعية فتغالت الحرائر في مهورهن وربما تنافست في ذلك كما يحدث عندنا حاليا، عملا بالمثل

---

1 الونشريسي: المعيار، ج1، ص85.

2 الونشريسي : نفسه.

3 نفسه.

4 سورة النساء: الآية 4.

5 المثقال: عرفه المقريزي بأنه إسم لما له ثقل، سواء كبر أو صغر، وصار في عرف الناس إسما للدينار وتحدد وزنه في العصر الأموي على يدي الخليفة عبد الملك بن مروان بعد إصلاحه للسكة الإسلامية، إذ جعل الثقال أي الدينار يزن 4،25 غرام، وتم ضبط وزنه عن طريق الصنج الزجاجية. الموسوعة العربية الميسرة، مج2، ص 1645-1646.

6 البكري: المصدر السابق، ص 169. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص76.

7 بسم الله الرحمن الرحيم: أشهدت فاطمة بنت الفقيه فلان وهي عليلة الجسم ثابتة العقل والذهن حين كتبت وصيتها وأشهدت عليها في وقت كذا، أنها وهبت لزوجها فلان كل مهرها الذي مبلغه ستون مثقالا، وأن العبيدي والتستري الأبيض والمعجر من الحب وعقدي الجوهر جميع ذلك لا حق لي فيه..." انظر :التليلي: فتاوي ابن رشد، السفر2، م 397، ص1227.

الشعبي "حليني ولا خليني" (1) لأن الحد الأدنى للمهر يحدد بربع دينار ذهبي أو ثلاث دراهم فضة (2) وقد يتم أداؤه عينا. أما إذا دفع نقدا فلا يكتب في عقد الصداق بحساب الدينار المرابطي بل حسب صرف كل مدينة (3) ورغم تحديد قيمة المهر فقد يعجز البعض عن أدائه دفعة واحدة، فيقدم جزءا منه ويأخر الباقي، وقد ذكر عن أحد المتصوفة في الأندلس أنه لم يؤدي مهره المؤجل كاملا لزوجته إلا عندما شعر بدنو أجله (4).

وقد يتضمن عقد النكاح على النحلة التي يمنحها أهل الزوجة أو الزوج فمن خلال بعض الفتاوي يتبين ارتفاع قيمة المهر حسب مكانة العائلات الاجتماعية والاقتصادية. فذوي الجاه والمداخيل المرتفعة يسوقون في عقود الزواج هبات لأزواجهن، ومن الأمثلة على ذلك أن إحداهن وهبها زوجها قرية بأكملها، ورجل ساق إلى إمرأته نصف أملاكه بقرية عينها لها. كما ساق أحد الأزواج بالإضافة إلى دار، مساحة واسعة من الأراضي الزراعية. (5) وتزوجت امرأة على عدد مسمى من المواشي من أرض مسماة (6) وقد تكون النحلة قطعة أرض في بقعة معينة على أن يبنيها بنيانا تواصفاه وتكون بينهما. (7) وقد تسكن البنت مع زوجها في بيت وهبه لها والدها (8) وعموما فإن كتب النوازل الأندلسية تتضمن الكثير من عقود الزواج التي سجل فيها إضافة إلى بعض ما سبق ذكره- الذي هو القليل من الكثير- إلتزامات الزوجين بما تعهد بينهما بالاحسان وحسن الصحبة وجميل العشرة والتزام الزوج بعدم الزواج ثانية أو التسري أو الغيبة الطويلة، ما عدا إذا تعلق الغياب بالحج. وعدم حرمان الزوجة من زيارة أهلها وذوي محارمها من الرجال، وعدم الإنتقال بها من موضع إلى آخر بدون رضاها (9) وحسب ما ذكره مؤرخ موريتانيا المختار بن حامد في صدد الزواج أن بعض الزوايا والقبائل ما تزال تحافظ على بعض الشروط حيث يقول:"ويكون الزواج -غالبا- عن الشرط بأن لا سابقة ولا لاحقة وإلا فأمرها بيدها أو بيد وليها وقد لا يلفظ بالشرط ويطبق عمليا". (10) ورغم ما تضمنته عقود الزواج

---

1 بوتشيش: المرجع السابق، ص.21.

2 نوازل ابن سهل ص 108-109. نقلا عن بوتشيش ص 28.

3 استنادا على مسألة ابن الحاج هذا نصها: " إذا كتب في الصداق أو في عقود الأشربة كذا وكذا دينار مرابطية، فالعقد فاسد حتى يقول من صرف مدينة كذا..." المصدر السابق، ص 6. بوتشيش: نفسه.

4 بوتشيش: نفسه. عبد العزيز سالم: قرطبة ...ص280.

5 التليلي: المصدر السابق، السفر3 م: 449 ص 1303 و م: 334، ص 1097. ابن الحاج: المصدر السابق، ص 9.

6 نفسه: سفر 1، م 140، ص 608. البرزلي: مختصر فقه مالك: مخ، و32.

7 نفسه السفر1، م 40، ص 224. و م 136، ص 604.

8 نفسه: السفر1، م 13، ص176.

9 نفسه : السفر 2، م 286، ص991. البرزلي: نفسه، و33.

10 المرجع السابق، ص 182.

من إلتزامات، فإن ذلك لم يكن كافيا لتفادي بعض المشاكل. فقد ذكر أن إمرأة ادعى الزواج بها رجلان: كل واحد منهم يزعم أنها زوجته(1).

ومن العادات والتقاليد التي سادت في هذه الفترة وما تزال إلى حد الآن في مدننا بالمغرب الإسلامي، أن الأب يشور ابنته شوار يليق بمكانتها ويسعى إلى جعل شواره يفوق ما ساقه إليها بعلها، أو على الأقل يوازيه لكي لا يبدو مقصرا في جانب إبنته فيزفها معززة مكرمة. وعموما يخصص هذا الشوار لتأثيث البيت، ويختلف حسب عادات كل منطقة تماما كما يحدث عندنا، حتى أثار في بعض الأحيان نزاعات بين الزوج وصهره.(2)وكان شوار العروس من أهم مشاغل الوالدين، خاصة الأم. فكل أم ترغب أن تكون بنتها العروس في أحسن حال ومعها كثير من الأثاث لتبدو ذات عزة ومكانة لدى والديها، وتتباهى لدى عائلة زوجها. ولهذا الشأن إضطرت بعض الأمهات إلى بيع ما يملكن لتجهيز بناتهن.(3) بينما جهز بعض العرائس بالمهر الذي حصلن عليه من الزوج(4)بل بعض الأباء أصابتهم هموم وأحزان بسبب عدم قدرتهم على تجهيز بناتهم. ومن هؤلاء أحد أصدقاء الطبيب أبي بكر ابن زهر الذي وقع في هذه حالة نفسية لعدم امتلاكه المال لتجهيز ابنته، فساعده أبو بكر بن زهر بثلاثة مائة دينار حل بها أزمته المالية والنفسية(5)وإن كانت هذه حالة الوالد فكيف كانت الحالة النفسية للفتاة التي تأمل أن تكون يوم زفافها في أروع ما يكون ؟ هذا الذي لم يشار إليه لكن يستنتج من حالة أبيها أنها فعلا كانت في أزمة وحيرة من أمرها، ومن ذلك ما كانت تقوم به بعض النساء المؤمنات والمحسنات بتجهيز بعض البنات الفقيرات لأزواجهن وهذا ما يدخل في باب الأعمال الخيرية لبعض النساء الفاضلات.

- لكن هل يوجد فرق في جهاز العروس بين المدينة والريف؟ وبين المغرب الإسلامي والأندلس؟

من خلال بعض النوازل يمكننا معرفة محتوى جهاز العروس. فبنات الحضر عامة ولا سيما في المدن الأندلسية الكبرى تميز بعض لباسهن بالنوع الرفيع والباهض الثمن، كالغفارة: وهي خرقة تلبسها المرأة لتغطية الرأس والمخرزة نوع من الثياب الخاص بالعروس، والثياب الرازي أو الرويزي.

---

1 بوتشيش: المرجع السابق: ص27 وانظر عبد العزيز سالم: المصدر السابق، ص 276.

2 "كان من عادة أهل مدينة شلب أن يسوق الرجل منهم لإمرأته جزء من أملاكه، والعرف عندهم والعادة فإن من ساق منهم لإمرأته ذلك الجزء من أملاكه فإنه لا بد لوالد الزوجة أن يبرزها إلى زوجها من مال نفسه عطية لها بما يفي بالمقدار الذي ساقه لها زوجها وبما يربي عليه. وهذه عادة عندهم ثابتة قديمة متوارثة مستمرة لا تختلف[...]. فذهب والد الزوجة بعد تلك السياقة التي ساقها بابنته زوجها أن يبرزها إليه فقيرة دون أن يعطيها ما جرى العرف والعادة أن يخرج به مثلها" فتاوى ابن رشد: السفر3، م518، ص1418.

3 ابن الحاج : المصدر السابق، ص 68.

4 ابن الحاج: نفس المصدر، ص 47. وبوتشيش: نفس المرجع، ص 29.

5 ابن أبي الصبيعة: المصدر السابق ص: 522.

وهو ثوب أخضر من الثياب النفيسة(1) بالإضافة إلى أنواع أخرى من الأقمشة وعقود الحلي المتنوع من الجواهر والذهب(2) كما احتوى جهاز العروس على خلاخل، وأقراص ذهب والملحفة ـ(3)

ولذلك فإن بعض العائلات المغربية الغنية كانت تجهز العروس من الأندلس رغم ارتفاع ثمن الأقمشة(4) التي كانت تفوق في الجودة والشهرة منسوجات المدن المغربية: تلمسان، فاس، وبلاد السوس وسجلماسة وغيرها... وربما كانت تطغى أيضا فكرة كل ماهو (مستورد) فهو جيد رغم وجود ما يماثله محليا. كما شمل جهاز العروسة شورة بإسم الزوج كالغفارة والمحشو والقميص والسراويلات عطية للزوج إذا تم الوفاق والإنسجام بين العائلتين. أما إذا حدث خلاف مع الزوج فتعد الزوجة هذه الشورة من باب التزيين لجهازها.

وأما العروسة البدوية أو القروية فكانت تحمل جهاز بسيط(5) لا يتعدى في أغلب الأحيان فراشا ولحافا وبعض الملابس والحلي،(6) ومما سبق أستنتج الفرق الشاسع بين جهاز بنات الحضر لاسيما في الأندلس وبنات البدو. وهذا التفاوت لا يزال مستمرا إلى يومنا هذا. وهكذا بعد تمام الخطبة والاتفاق على المهر والشروط بين الطرفين يتم عقد القران من طرف إمام المسجد سواء في المغرب أو في الأندلس. أما في المناطق التي ينعدم فيها وجود إمام مسجد فإن أهل العروسين يستدعيان أحد العدول من المناطق المجاورة. و إذا كانت هذه المنطقة نائية يمكن لأهل القرية أو خمس أشخاص من أهل المرأة الشهادة على صحة الزواج(7).

وبعد هذه المراحل الأساسية وبعض المظاهر الإجتماعية التي تسبق الزفاف، يا ترى ماهي مراسيم الإحتفال في الأعراس؟

تختلف وليمة العرس في المجتمع المغربي حسب الفروق الإجتماعية شأنها شأن الخطبة فيلاحظ تفاوت كبير بين طبقات المجتمع أي بين الغني والفقير وبين مختلف مناطقه الحضرية والبدوية. ويظهر أن الاحتفال مكلف جدا في العائلات الوجيهة، وتقل نفقاته كلما نزلنا أسفل السلم الاجتماعي.

---

1 ابن الحاج: المصدر السابق، ص 68. وبوتشيش: المرجع السابق، ص 29.

2 التليلي: المصدر السابق، السفر2، ص397، ص 1227.

3 الونشريسي: المعيار، ج3، ص100.

4 لأنه اشتهرت بعض المدن الأندلسية بإنتاج أصناف من الحلل والديباج مثلا في مدينة مرسية التي اشتهرت بالبلد الذي يجهز به العروس: المقري: المصدر السابق، ج4، ص 207. والمرية، وغرناطة، وجيان... وتعددت أنواع القماش الحريري في مالقة وكان ثمنها يتعدى آلاف الدنانير. أنظر: عزالدين أحمد موسى النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن 6هـ/12م ، دار الشروق، القاهرة، 1983 ص: 217- 218.

5 التليلي: نفس المصدر السفر3، م 568، ص 1558.

6 دندش: نهاية المرابطين ص 302.بوتشيش: نفسه، ص29.

7 التادلي: التشوف ص 75.- الونشريسي: نفس المصدر، ج3، ص270. وج و، ص 180-181. وأنظر: بوتشيش: نفس المرجع ص 22.

(كعادة المؤرخين) أن أولوا اهتمامهم بكتابة سير الحكام في الجانب السياسي، كذلك كان شأنهم بالنسبة للجوانب الأخرى. فهذا ابن عذاري يصف لنا عرس فاطمة بنت حواء بنت تاشفين والأمير سير بن أبي بكر الذي تم عام (507هـ/1142م). إذ يقول: " فلم يعهد مثل ذلك اليوم لهوا وكثرة ونعما، خرج فيه الجم الغفير إلى مضارب المحلة بعين العلو..." (1) لكن يبدو أن ارتفاع نفقات هذه الوليمة كان منتشرا في كل طبقات المجتمع حتى اعتبر القاضي أبو بكر بن العربي (2) هذا الأمر من المنكرات، فقال:" وقد عظم الخطب في هذا الزمان حتى لا يدري العبد على أي شيء يبكي أعلى فوات دنياه (...) أم على عروسه التي تطلب بما ليس به طاقة" (3) وعموما فإن حفل الزفاف مميز بمظاهرها وضجتها فأول يوم منه يخصص لذبح الخرفان والشياه وثاني يوم خاص لاستدعاء الضيوف وإطعامهم. أما في الليل فتوقد الشموع والثريات والقناديل، وحسب ما جاء في إحدى نوازل ابن الحاج: " [...] كانت سيرة البلد إذا أتى الزوج بالبناء بالزوجة قصد الزوج بجماعة من الأحداث والنساء والغناء في الليل على وجه التحليقة المتعارف بينهم. ومظاهر البهجة والفرح تتواصل لمدة أسبوع " (4).

ويبدو من خلال ما سبق أن في بعض مدن الأندلس كانت العروس تزف ليلا كما يحدث ذلك نهارا (5) وهذا عكس ما كان يحدث في المغرب حيث كان يتم في النهار ويطاف بموكب العروس بالشوارع (6).

فلما دخل ابن تومرت تلمسان وجد بها عروسا تزف لبعلها وهي راكبة على سرج واللهو والمنكر أمامها، فكسر الدفوف ووسائل اللهو وغير المنكر وأنزلها عن السرج (7) وقد يتعرض موكب العروس إلى أخطار عديدة لا سيما في البوادي بحيث حثت كتب الحسبة:" ألا يخرج الموكب إلى

---

1 البيان: ج4، ص56.

2 ابن العربي: محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد المعروف بابن العربي(468هـ/543م/1076-1148م) من أهل إشبيلية أخذ عن عدد من العلماء في الأندلس والمشرق أمثال أبي عبد الله بن منظور وأبي مروان بن سراج، خرج إلى الحج عام 485هـ/1092م فأخذ عن علماء مصر أمثال مهدي الوراق وأبي الحسن بن داود الفاسي وفي الشام لقي أبا نصر المقدسي، وأبا حامد الغزالي، وفي بغداد أبي حسن المبارك، ثم عاد إلى إشبيلية عام 495هـ/1101م. وقد خلف عدد كبير من المصنفات منها أحكام القرآن، المسالك في شرح موطأ مالك...أنظر: ابن سعيد: المغرب، ج1، ص 249-250. النباهي: المراقبة العليا، ص 105، 106. الضبي: بغية الملتمس، ص 92-93. الهرفي: المرجع السابق، ص86.

3 دندش: نهاية المرابطين: هامش4، ص 50.

4 ابن الحاج: المصدر السابق، ص 302. وأنظر: بوتشيش: المرجع السابق، ص29.

5 Levi Provençal : histoire de l'Espagne musulmane, T3, Le siécle du Califat de Cordoue, Maisonneuve et Larose, Paris 1999, P 403, 404.

6 البيذق: أخبار المهدي، تق: حاجيات، ص 39.

7 البيذق: نفسه.

البادية إلا بعد أخذ إذن من القاضي حتى يخرج معهم من الأعوان من يحرص العرس من العربدة، ومن بعض الشباب الذين يتعاطون الخمر فيجردونهم من أسلحتهم قبل أن يشربوا(1)، وهناك نازلة كشفت عن خصام بين طائفة صحبة العريس وجيران العروسة في ليلة عرس أسفرت عن نشوب قتال بينهم(2) وتفاديا لما لا يحمد عقباه نصت كتب الحسبة على منع اللهو كله وعلى أنواعه في الأعراس وغيره إلا من كان من الدف العربي.(3) وعلى كل حال فإن ضروب من اللهو والمتعة تميز هذا اليوم فيسمع قرع الطبول وزغاريد التي تعبر عن الفرح. ويبدو أن هذه الزغاريد التي من علامات الفرح تبدأ منذ المراحل الأولى للعرس أي منذ الخطبة وعقد القران إلى يوم الزفاف بدون تحديد/وتستمر حتى بعد الزفاف. إلا أنه من غرابة الأمر أن المهدي بن تومرت، عندما غادر مراكش إلى أغمات انويلان رفقة أصحابه سمعوا زغرودة، ولما تبينوا أمرها أنها بمناسبة وضع امرأة لصبي قال لأصحابه:" لها تسع ثلاثة في مولده، وثلاثة في تطهيره، وثلاثة في زواجه، وغير ذلك بدعة(4) فهل يعني هذه الزغاريد لا تنبغي إلا لصبي دون الصبية، وفي الزفاف تطلق على العريس دون العروسة؟ وعددها لا يتجاوز التسعة! هذا الذي لم تتطرق إليه كتب الحسبة لهذه الفترة. والمهم أن الإستعدادات تجري على قدم وساق في هذا اليوم. فكيف تبدو العروس والمدعوات في جوّ يسوده التنافس النسوي وفي ألوان من ألبسة والزينة والتفاخر؟

كانت العروس تذهب إلى الحمام هي وصديقاتها وتقوم الماشطة بتمشيطها وتزويقها في الحمام ولما تعود إلى المنزل تلبس أفخر الثياب وتتحلى بالحلى من الذهب والأحجار الكريمة، إذا كانت من بنات الأغنياء. أما إذا كانت فقيرة أو يتيمة فكانت تستعير الثياب والحلي خصيصا لهذا اليوم(5) إنه لمن غريزة المرأة أن تبدو في أحسن حال، لذا كان النساء يرغبن إلى أزواجهن في شراء كسوة خاصة لوليمة الزفاف. وإذا لم تكن لديهن حلي يستعرنها من بعض صديقاتهن حتى لا يشعرن بنقص أمام المدعوات. أما العروس فهي المحور في هذه المناسبة، وجرت العادة أن تجلس على كرسي وتحف بها النساء الجميلات، حتى لا يمكن التمييز بينها وبين المدعوات. وهذا ما يبين لنا سعي المرأة في التجمل لهذه المناسبة، وقد قيل في هذا المنظر:"العروس على الكرسي وليس يدري لمن هي"(6) ولهذا السبب خصت العروس بوضع التاج على رأسها لكي تعرف من بين الحاضرات. وقد أورد ابن الخطيب(7)

---

1 ابن عبدون: المصدر السابق، ص 53-54.

2 ابن الحاج: المصدر السابق، ج 302. بوتشيش: المرجع السابق، ص 30.

3 ابن عبد الرؤوف: (أحمد بن عبد الله): رسالة في أداب الحسبة المحتسب، ص 83.

4 البيذق: المصدر السابق، ص 49.

5 **عبد العزيز سالم: قرطبة، ص 282-283.**

6 **مثل شعبي لزجالي: ج2، رقم 210، ص 52.نقلا عن بوتشيش: نفسه، ص 30.**

7 **الإحاطة: مج2، ص 502. اقتطف منه ما يلي: " وقد زينت العيون بالتكحيل والشعور بالترجيل وكرر السواك على** مواضع التقبيل وطوقت الأعناق بالعقود وضربت العكر في صفحات الخدود ومد بالغالبة على مواضع السجود. وأقبلت

وصفا لهذا المظهر. ويبدو في غمرة هذه الفرحة أن العروسة كانت تبدي زينتها لغير المحارم وهذا استنادا لما نهى عنه ابن عبد الرؤوف(1) قائلا:"ويأمر الناس بمنع ما أحدثته العامة من جلاء العروسة على غير ذي محرم منها". ومن عادة المدعوين من أهل وأقارب تقديم هدية للعروس، فإن أحد من الأقارب اشترى لابنة عمه سلكا من الذهب على عادة الناس في اتحاف العروس أنذاك(2).وقد شغل يحيى ابن الصحراوية لما أعرس بإمرأة من قومه بهدايا جليلة من طعام وشراب وانتهز الموحدون هذه الليلة ليستولوا على فاس في ذي القعدة (540هـ/أفريل 1146)(3).

وبعد انتهاء مراسم الإحتفال بالعرس يقصد العريسان معا أحد الصلحاء قصد الدعاء لهما ومباركة حياتهما الجديدة بينما يذهب العريسان في الوسط الأرستقراطي للترفيه والمتعة في احدى الضيعات(4).

هذه بعض الشواهد التاريخية عن الزواج في العهد المرابطي، مع بعض التفاوت في مظاهر العرس وتجهيز العروسة بين بيئتي المغرب والأندلس وبين المدن والأرياف وبين الأغنياء والفقراء.وللإشارة فإن المجتمع آنذاك لم يكن يخل من نوع أخر من الزواج أوما يعرف بزواج المتعة، إذ كان الزوجان يحددان مدته ويعقدانه دون ولي للمرأة التي لم يجاوزمهرها نصف درهم. ولذلك تشدد الفقهاء في منعه وإقامة الحد عليه(5).

ب- <u>نظرة المجتمع للزواج</u>:

وإذا تفحصنا نظرة المجتمع إلى الزواج فنجده أمرا لا مفر منه، ومن ذلك ما نستخلصه من الأمثلة الشعبية مثل:"الزواج والموت أمر لا يفوت"(6) فهو وسيلة لإنجاب الأطفال وتعزيز الروابط بين الأفراد والأسرة والحفاظ على إرثها. ولذلك فإن نظرة المجتمع على من يعزف على الزواج نظرة إرتياب وشك في سلوكه الاجتماعي.

صنعا بأوشيتها (...) ودخلت العروس في حليتها ورمقت الكفوف بالحناء وأثني على الحسن وهو أحق بالثناء، وغص الذراع بالسواري وتختم في اليمين واليسار وأمسكت الثياب بأيدي الأبكار، ومشت الإيماء أمام الأحرار وتقدمت الدايات بالأطفال الصغار..."

1 ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص 73.

2 ابن زيات التادلي: المصدر السابق، ص 77.

3 ابن الآبار: الحلّة سيراء، ق2، ص 236. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 257.

4 بوتشيش: المرجع السابق، ص 31.

5 التليلي:المصدر السابق، السفر ا، م50 ص 279 وابن عبد الرؤوف: المصدر السابق ص 81، رغم نهي الرسول صلى الله عليه وسلّم عن زواج المتعة إلا أنّ هذه الظاهرة أحلّها البعض في ظروف خاصة، انظر: أحمد شمس الدين: مختصر صحيح مسلم: ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1419هـ/1998م، رقم 1546-1547-ص283.

6 مثل شعبي: نقلا: عن بوتشيش : نفس المرجع ، ص 22.

ويبدو من خلال حركة المجتمع والتوسع التي خاضها المرابطون أن النساء كن أكثر عددا من الرجال بسبب الحروب التي وقعت سواء في المغرب أو في الأندلس وأفقدت الكثير من المقاتلين. من ذلك ما جاء في احدى نوازل ابن رشد في نساء من فقد "بقتندة"(1) وكم يضرب لهن من الأجل (2) كما عبر عنها الشاعر الأندلسي ابن قزمان(3) من خلال وصف لأحد المنازل بقوله:

والريض لا شيوخ ولا حجاج وأرامل ملاح بلا أزواج

ومنذ قيام دولة المرابطين لوحظت هذه الظاهرة ولا تزال مشهودة عند بعض قبائل الطوارق (4) فداعية المرابطين عبد الله بن ياسين كان يتزوج في الشهر عدد منهن ثم يطلقهن(5) كما انعكست هذه الظاهرة في كتب الفقه فخصص أحد فقهاء المرابطين وهو ابن زكون في كتابه: اعتماد الحكام في مسائل الأحكام بابا بأكمله لذكر أحكام تعدد الزوجات مما يوحي أن هذه المسائل كانت من بين القضايا الفقهية التي شغلت بال الفقهاء ربما للحد من استفحال أزمة الزواج داخل المجتمع المرابطي. ومما زاد الأمر استفحالا هو تجارة الجواري التي اكتظت بها أسواق العبيد خاصة في الأندلس وجلب عدد كبير من الجواري إلى المغرب(6) وكنتيجة لذلك برزت في المجتمع المرابطي ظواهر عدة، الأولى ظاهرة العوانس والثانية ارتفاع جهاز الحرائر التي كن يعتبرن أفضل مرتبة في المجتمع من الجواري. والثالثة انتشار ظاهرة التسري في الوسط الأرستقراطي (7) وهذا ما ذكره السيوطي "أنه عز الأزواج وكثرت العوانس". (8) وفي هذا الصدد ذكر أن بعض نساء الجنوب إذا بلغن الأربعين دون أن يجدن بعولا، كن يقدمن أنفسهن لمن شاءهن من الرجال عن طواعية ورغبة(9) ربما أن هذا النوع من التصرف صدر

---

1 قتندة، بلدة في الأندلس تقع في ثغر سرقسطة كانت بها واقعة بين المسلمين والافرنج سنة 514هـ/1120م، انظر: نوازل ابن رشد: السفر 3 ج، 507، ص139.

2 ابن رشد: نفسه. وفي دراسة حديثه للمجتمع الطوارقي يلاحظ دي فريبي نفس الظاهرة: أبي أن عدد النساء أكثر من الرجال. أنظر: Duveyrier :Op.cit, P346.

3 هو أبو بكر محمد بن قزمان: عاش ما بين (480هـ-2555/1059-1160م) يعد إمام الزجالين بالأندلس إذ عمد إلى طريقة لا يجاريه أحد فيها: فصار إمام الزجل المنظوم بكلام عامة الناس: يوسف فرحات:معجم الحضارة الأندلسية، ص113.

4 Duveyrier: Ibid.P 346

5 البكري: المصدر السابق، ص 169. ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص16 وأنظر : ابن أبي زرع: المصدر السابق ص 76.

6 بوتشيش: المرجع السابق، ص 22.

7 صالح خالص: المرجع السابق، ص97-98. إبراهيم حركات: المجتمع الإسلامي، ص 100-101.

8 السيوطي جلال الدين: نزهة الجلساء في أشعار النساء، ص 87 و 104.

9 الإدريسي: مصدر سابق، ص 225. ATTILIO – Gaudio : Op.cit, P59

وينفي محمد السويدي هذه الأخبار التي شاعت عن المرأة الطوارقية. أنظر كتابة: بدو الطوارق بين الثبات والتغيير (دراسة سوسيو-انتربولوجية في التغيير الاجتماعي)، ص 95-96

من بعض الشواذ من النساء فقط، وليست ظاهرة عامة، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه(1) لكني بالمقابل لاحظت أن في الأندلس وقع عكس ما حدث في بعض قبائل الجنوب، فهذه عائشة بنت أحمد القرطبية التي كانت ذات إباء وهمة وكبرياء أعنست، وكانت عازفة عن الزواج حتى ماتت وهي عذراء ومما قالت في شأن من خطبها مايلي:

أنا لبوة لكنني لا أرتضـــي	نفسي مناخا طول دهري من أحد
ولم أنني أختار ذلك لم أجب	كلبا ولـــكم علّقت سمعي عن أسد(2)

وكانت شاعرة وذات علم وخطاطة ماهرة(3) ومن خلال هذين المثالين أستنتج أن المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي له دور كبير في تحديد نظرة المرأة للزواج إضافة إلى تأثير العامل البيئي على ميولها وشخصيتها، فأخت عبد العزيز التونسي ماتت وهي بكر بعد أن انقطعت للعبادة(4).

وفي هذا السياق يذكر أنّ أم المهدي بن تومرت واسمها أم الحسين بنت وابوركن داعية الموحدين لم تتزوج إلا بعدما أعنست، وكان والده فقيرا ومتزوجاً من قبل(5) ونظرا لأهمية الزواج في المجتمع، برزت ظاهرة لجوء بعض النساء إلى الأولياء الصالحين يلتمسن أدعية لتزويج بناتهن من ذلك ما قالته إحدى النساء وهي أم لأربع بنات للشيخ الصالح أبي العباس السبتي(6) أن الناس لا يتزوجون إلا لمن له مال، ويظهر من كلامها أنها كانت فقيرة ولهذا السبب لم تزوج بناتها الأربعة. وشاعت بين الناس أمثال شعبية تحث الآباء على تزويج بناتهن لمن تقدم لهن من أول وهلة دون تردد لتفادي مشكل العنوسة ،وهذه المظاهر لا تختلف بكثير عما يحدث عندنا حاليا. ويلاحظ أن بنات الأغنياء كن أكثر حظا في فرص الزواج من بنات الأغنياء.

وكان من أهم إنشغالات المرأة عامة هو توفير مسكن تستقر فيه لتباشر مشوار حياتها. فكيف كان أمر ذلك بالنسبة للمرأة في العهد المرابطي؟ من خلال بعض النوازل يبدو أن توفير المسكن كان من الأولويات الضرورية لحياة الزوجين. وارتبط هذا الأمر أساسا بالوضع المالي أوالإقتصادي للأسر. فبنات أونساء الأغنياء والوجهاء كن أوفر حظا في إمتلاك المنازل عن طريق الإرث أوالهبات

---

1 بوتشيش: المرجع السابق، ص 23.

2 ابن بشكوال: الصلة، ق2 رقم : 233 ص 292-293. وانظر: المقري: نفح، ج4 ص290.وانظر : بوفلاقة سعد: الشعر النسوي الأندلسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص50.

3 ابن بشكوال: نفسه.

4 التادلي (أبو يعقوب) المعروف بابن الزيات: التشوف لرجال التصوف، نشره أدولف فور، الرباط، 1958، ص70.

5 كان لابن تومرت أخت شقيقة إسمها زينب وأخت أخرى وإخوى من أبيه فقط. المقتبس من كتاب الأنساب، ص 29. ابن القطان: المصدر السابق، ص 74. عبد الحميد النجار: المرجع السابق، ص 36.

6 أبو العباس السبتي: نشأ في أواخر دولة المرابطين (524-601هـ/1129-1204م) كان الشيوخ المتصوفة، ومقصدا للناس للتبرك به: ابن الزيات: التشوّق ص 71.
Adolphe.Faure M:«Abbu Abbas Sabti»La justice et la charité. in Hesperis.XLIV, Paris,1956- P 448.

أو الوصية. وبعض النساء ضمنت المسكن في عقد زواجها وجعلته شرطا أساسيا إلتزم الزوج به(1) وبعض الأباء وهبوا لبناتهن دورا أو أسكنوهن معهم لتفادي مشكلة السكن مستقبلا(2).

أما بسطاء الناس فكانوا يلجأون إلى الكراء،ومعظم العائلات كانت تكتري المنازل المتواضعة وتدفع ثمن كرائها شهريا أو سنويا(3) ولذا فإن المرأة في هذه الطبقة الاجتماعية وهي الأغلبية كان عليها أن تعمل وتكد وتقتصد في مصارفها نظرا لإرتفاع ثمن الكراء(4) لأن المسكن هو مكان الأمن والاستقرار ليتسنى لها رعاية أسرتها وتربية أطفالها. لكن في أغلب الأحيان، كان المسكن يضم عدد من أفراد العائلة مما انجر عنه حدوث مشاكل واختلافات بين أفرادها.لا خلاف في أن المسؤولية الأساسية للأم هي الانجاب وتربية أطفالها بالدرجة الأولى. لكن ما أثار دهشتي هو أن المرأة–أو الزوجين– كانت تطمح إلى معرفة جنس الجنين ذكر أم أنثى. فهل يرجع ذلك إلى سبب تفضيل الذكر على الأنثى أم العكس؟ وفي محاولة لمعرفة جنس الجنين تلجأ الحوامل حاليا إلى أطباء أخصائيين وإلى استعمال وسائل حديثة. إلا أنه في العهد المرابطي كانت المرأة الحامل تقوم بهذه العملية بطريقة بسيطة وطريفة وغير مكلفة، وذلك إستنادا على ما ذكره السقطي متعجبا منها قائلا:"وقيل أمر عجيب إن صح ولا أعلم كيف ذلك. وهو أن يقدر بخيط من وسط سرة المرأة إلى وسط الفقارة المحاذية لها من ظهرها ويعلم المكان بمداد، ويدار القياس إلى الجانب الثاني من الموضع إلى الموضع، فإن نقص الخيط من الجانب الأيمن عن العلامة، فهي حامل بذكر، وإن طال فهي حامل بأنثى، والله أعلم".(5) وعلى ما يبدو أن رغبة بعض الأزواج في أن يكون المولود البكر ذكرا لم تكن غريبة أو مستحدثة في المجتمع المغربي في هذه الحقبة من التاريخ، فقد كانوا يقصدون الصلحاء ويطلبون منهم الدعاء بأن يرزقهم الله أولادا ذكورا، اعتبارا منهم أن الابن الأكبر هو الذي يتحمل عبئ العائلة. أما البنت فقد كانت تعتبر عبئا على العائلة منها أن رجلا قال: لو ولدت له امرأته بنتا ليقتلن زوجته لأنها كانت تلد إلا البنات(6) إلا أن هذا التفضيل للذكر لم ينطبق على بعض قبائل الملثمين الذين كانوا يفضلون أن يكون المولود الأكبر أنثى لأنها تحمل دم السلالة العائلية الأمسية، ويحرصون على ذلك بالمحافظة على الزواج الداخلي أي بين الأقارب(7) من ذلك أن قبيلة الأمير عبد الله بن بلكين، لم تكن تستحسن أن يكون المولود ذكرا(8)

---

1 التليلي: المصدر السابق، السفر 3 م 654، ص 1638.

2 نفس المصدر، السفر 2، م 334ص 1097.

3 نفس المصدر، السفر 3، م 615. بوتشيش: المرجع السابق، ص 32.

4 بوتشيش : نفسه

5 السقطي أبو عبد الله محمد بن أحمد: كتاب آداب الحسبة، تق: ليفي بروفنسال وكولان، مكتبة إرنست لرو، باريس، (دت) ص 52، 53.

6 ابن الحاج: المصدر السابق، و 288.

7 Marchesin (P) : Op.cit, P, 30.

8 بوتشيش: المرجع السابق، ص 33.

الملاحظ أن هذه الظاهرة مستمرة في بعض قبائل الطوارق مثل "إمامن" حيث يرغب في الزواج من نساء هذه القبيلة لأنها هي التي تحافظ على النسل نظرا لمكانتهن الرفيعة والشريفة في القبيلة.(1) وكانت المرأة الحامل موضع العناية والرعاية فيوفر لها ما تشتهيه من المأكولات والمشروبات.(2) وفي حالة ما إذا استعصت الولادة على بعض النساء الحوامل فإنهن كن يلجأن إلى بعض العادات والمعتقدات، من ذلك ما حدث من "بعض نساء مراكش التي استعسرت عليهن الولادة أنهن يأخذن "سراويل يوسف بن تاشفين" ويجعلها في أرجلهن، فيلدن من حينه من بركته".(3) كما شاعت ظاهرة أخرى من أجل هؤلاء النساء الحوامل، "يقوم بها مؤدب الكتاب، بحيث يرسل الصبيان يطلقون رداء يمسكون بأطرافه ويتجولون في طرق المدينة مرددين بعض الدعوات. وأثناء قيامهم بهذا العمل يلقي أصحاب الدكاكين والمارة التين والتمر والدراهم والبيض في الرداء، ويزور الصبيان أشهر أضرحة الصالحين بالمدينة ويغطسون الرداء في السواقي والصهاريج، ولا يزالون يفعلون ذلك حتى تتكسر بيضة أو عدد من البيض الموجود في الرداء، فيعتقدون أن الحامل قد وضعت وتخلصت من أوجاعها، فيعودون إلى المكتب ويستحوذ المؤدب على ما فيه من دراهم ومواد".(4) وهكذا نلاحظ كيف اتخذت الوضعية العسرة للمرأة الحامل إحدى طرق كسب الرزق من طرف هذه الفئة الاجتماعية. فإن مصائب قوم عند قوم فوائد!

وفي هذه الحالة يبرز دور القابلات التي كان لهن دورا معتبرا،وكان الطلب عليهن مستمرا حتى ارتفع سعر خدماتهن لأنهن الوحيدات التي يمكنهن تقديم المساعدة. كما كان لهن دورًا آخر، حيث يلجأ إليهن القاضيْ لمعرفة حمل المرأة من عدمه أثناء بعض القضايا أو المشاكل الأسرية.(5) وإذا وضعت النفساء ولدًا ذكرا تغمر البيت بالفرحة والزغاريد(6) ومن ذلك يقام الاحتفال بهذه المناسبة وتتبادل الأسر التهاني وتمنح الهدايا، ويعد طعاما خاصا يعرف بالعقيقة. ولا غروة أن فرحة الأم بمولودها هي أكبر فرحة من الأخرين. ومن الأمثلة على ذلك فرحة جدة محمد بن تومرت بهذا الأخير تومرت الذي اقترن إسمه بهذه الفرحة(7) فقالت باللسان البربري "آتومرت أينو آيسك أييوي" معناه يا

Duveyrier Op.cit, P .347.1

2 بوتشيش: المرجع السابق، ص 33.

3 بوتشيش: نفسه.

4الجزنائي:المصدر السابق، ص 59. وبوتشيش: نفس المرجع، ص 34.

5 الونشريسي: المصدر السابق، ج4، ص 54. وكمال أبو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة –الإسكندرية، 1997، ص 36.

6 البيذق: المصدر السابق ص 49. المقتبس من كتاب الأنساب: تق: ليفي بروفنسال، ص29.

7 نفسه: المقتبس من كتاب الأنساب، ص 29.

فرحتي بك يا بني،فكانت تكثر من ذلك وتقول أيضا:" ياك تومرت " معناه صار فرحا وسرورا. فدعي بهذا الإسم " تومرت" ولازمه (1)

ولقد تحدث في المجتمع بعض الغرائب والنوادر لا يكاد يصدقها العقل، ففي هذا الصدد يقال أن إمرأة أنجبت في ولادتها الأولى ولدا، ثم في الثانية ولدين وأصبح العدد يتكاثر من ثلاثة حتى وصل إلى سبعة أولاد في وضعها السابع حتى سبب لها هاجسا نفسيا (2)أي بعملية حسابية بسيطة إنها أنجبت ثمانية وعشرون ولدا! فهذه الحالة الخاصة لهذه المرأة هي فعلا من أندر الطرائف. كما أنه ليس في كل الأحوال أن تكون النفساء فرحة بمولودها. لأنه يحدث وأن تبدو بعض التشوهات على المولود مما يأثر على الحالة النفسية للأم. فلقد حدث وأن وضعت إمرأة من الملثمين طفلا بجسمين كاملين ورأس واحد. فمات الأول ثم لحقه الثاني(3)وهذه الحالة الإستثنائية تتكرر حتى في وقتنا الحالي، وتتداولها وسائل الاعلام ويخضع المولود لفحوص طبية بغية معرفة سبب تلك التشوهات الجسمية. أما العوام من الناس فإنهم يفوضون هذا الأمر للقدرة الإلهية ويسألون الله العافية. هذه بعض حالات الولادة في العهد المرابطي نجد بعض مظاهرها تتكرر حتى الآن.

كما تلجأ بعض الأمهات إلى جلب مرضعات لأولادهن ومربيات للأطفال. وكان يستحسن اللائي يجلبن من السودان لأنهن أكثر رحمة وحنينا على الأطفال(4)وكانت تطرح عدة مسائل على الفقهاء متعلقة بهؤلاء المرضعات، اتضح منها أن استخدام المرضعات كان أكثر انتشارا في العائلات العريقة(5)وكانت تجلب من أماكن بعيدة عن أهلها. مما سبب بعض المشاكل للطفل وأهله عندما تسافر مرضعته لزيارة أهلها(6).

ومما ألاحظه في مجتمعنا الحالي أن الأسرة تعاني من ارتفاع عدد أفرادها نظرا لكثرة الإنجاب. فهل انطبق هذا على الأسرة المغربية في العهد المرابطي ؟ وما مدى مسايرتها للوضع الإقتصادي؟

إذا إستندنا إلى بعض الذهنيات السائدة في المجتمع، فإن رب العائلة يطمح دوما في الإكثار من الأبناء معتبرا إياهم إمتدادا للأسرة وحفاظا على مكانتها في المجتمع. كما يشكلون له مكسبا للرزق مستقبلا .إلا انه من الصعب التوصل الى معرفة عدد أفراد الأسرة عامة ما عدا لبعض العينات من

---

1 البيذق: المقتبس من كتاب النساب، ص 29.عنان: عصر المرابطين والموحدين ج2 ص 159- ابن القطان: نظم الجمان، ص 37. عبد الحميد النجار: المرجع السابق، ص 36.

2 بوتشيش: المرجع السابق ص 33.

3 نفسه.

4 السقطي: المصدر السابق ص 53.

5 التليلي: المصدر السابق السفر 2، م 286 ص 991، والونشريسي: المصدر السابق، ج4، ص 96-93.

6 السقطي: نفسه. ابن رشد: نفسه.

الأسر الوجيهة أو الحاكمة. وعلى كل حال فإن كتب النوازل تعد موردا أساسيا لمعرفة أوضاع المجتمع ومن خلالها حاولت وضع صورة تقريبية لحالة الأسرة في هذا المجال.

فإذا ابتدأت بنساء هرم السلطة، فإن زينب النفزاوية لم تنجب سوى ولدين المعز بالله والفضل(1) أما زوجات علي بن يوسف لم ينجبن إلا عددا قليلا. فالجارية "قمر" كان لها ولدا واحدا: "سير" وكان عقيما، لم ينجب أطفالا. الأمر الذي يفسر حقد قمر على تاشفين بن علي الذي أنجب ولدا اسمه إبراهيم، وحاولت قمر إزاحتهما عن ولاية العهد. ومما يفسر غريزتها للأمومة وحب التسلط والنفوذ في الحكم هو تبنيها لابن احدى جاريات القصر اسمه "اسحاق". وحاولت جعل ولاية العهد في عقبه(2) أما حواء بنت تاشفين فلم تنجب سوى ثلاثة أولاد منهن فاطمة التي زفت لأمير المسلمين علي بن تاشفين، وأنجبت هذه الأخيرة ولدا واحدا(3).

ويتبين لي من ذلك أن النساء اللمتونيات لم تكن كثيرة الإنجاب إنما كان الرجل يتزوج عدد من النساء فيرتفع بذلك عدد أفراد العائلة ومثالا على ذلك أسرة يوسف بن تاشفين التي كانت تضمن -سبعة- أبناء لكن إختلفت أمهاتهم(4) كما أن المهدي بن تومرت كانت له أختا شقيقة "زينب" أما باقي إخوته فهم من أبيه فقط(5).

أما بالنسبة للعامة فيبدو أن عدد أفراد الأسرة كان محدودا فمثلا أسرة أبو بكر بن العربي كان لها ولدان رغم أنه توفي وعمره يقارب 75 سنة. كما أن الشاعر ابن الزقاق (6) كان له ولدان، وبعض الأسر لم تنجب سوى ولدا وحدا، لكن هذا المثل لا ينطبق على عامة أسر المغرب وبالمقابل أن امرأة اشتكت من عدم زواج بناتها الأربعة ولجأت إلى طلب الدعاء لهن(7) مما يدل على التفاوت في الإنجاب بين الأسر. ومن هذا استدل بأن عملية الإنجاب عند المرأة كانت ضئيلة عموما وحتى عدد الأبناء الذي يتراوح معدله ما بين ثلاثة إلى أربع في كل أسرة نتج عن تعدد الزوجات. وليس كل هؤلاء الأبناء من أم واحدة عكس ما نلاحظه حاليا من حدة ظاهرة الإنجاب وكثرة الولادات التي تأثر سلبا إذا لم تتوازى وتيرة هذا النمو الديمغرافي مع وتيرة الإنتاج الإقتصادي. ولا أستبعد أن المرأة أو الزوجة في الأسرة

---

1 ابن عذاري: البيان ج 4، ص 23 -30.

2 ابن عذري: نفس المصدر، ص 97.

3 محمد بن فاطمة أنظر ابن القطان: المصدر السابق، ص112. ابن عذاري: نفس المصدر، ص 5.
Lagardère : Op.cit – P 173

4 وظاهرة تنظيم الأسرة ما تزال في تقاليد المجتمع. Lagardère : Ibid. محمد السويدي: المرجع السابق، ص 98.

5 ابن القطان: نفس المصدر، ص 73. مجهول: المقتبس من كتاب الأنساب، ص 29.

6 **هو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عطية المعروف بابن الزقاق البلنسي، وهو ابن أخت الشاعر أبي اسحاق بن خفاجة توفي في 529هـ/1134م، وهو لم يبلغ أربعين سنة. المقري: المصدر السابق، ج1، ص16. ويوسف فرحات: معجم الحضارة الأندلسية ص 112.**

7 بوتشيش: المرجع السابق، ص 23. عن تنظيم الأسرة عند الطوارق. أنظر: محمد سويدي: نفس المرجع، ص 98-99.

المرابطية لم تكن واعية ومدركة للحفاظ على هذه المعادلة وهي التي اعتبرت المدبرة الأولى لشؤون الأسرة والمنزل(1)

كما أن في العائلات البدوية كانت المرأة تسكن مع أفراد العائلة الموسعة، التي تكونت إضافة إلى الزوجين والأبناء، وآباء الزوج وأبناء العمومة وأخ الزوج أوابن الأخ والربيبة. وهم في غالب الأحيان يقيمون في منزل واحد مما يجعل دوافع الخلاف والمشاكل أكثر حدوثا. وقد احتوت كتب نوازل الفترة(2)على طبيعة العلاقة بين الزوجين، وحاولت تجسيد قول الله عزوجل:"ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينهم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"(3) هذه الآية التي تحث على الرحمة والمودة، فهل انطبق ذلك فعلا ؟

إن العلاقة بين الزوجين اتسمت تارة بالود والتلائم والانسجام وتارة أخرى شهدت نزاعات وخلافات أدت في بعض الأحيان بالمرأة إلى طلب الطلاق أو الخلع. ولعل أصدق تعبير على حسن العلاقة بين الزوجين ما ذكرته بعض مصادر التاريخية على علاقة زينب النفزاوية مع زوجها يوسف بن تاشفين. ولم تكن حسن المعاشرة بينهما من باب الصدفة، إنما ترجع أساسا إلى شخصية زينب النفزاوية وحسن تدبيرها لشؤون زوجها.فبالإضافة إلى ما أمدته به من مساعدات من مال ومشورة ونصائح ناجحة، قد استطاعت بذكائها وتجربتها في الحياة الزوجية تحقيق الإنسجام التام. فقيل عنها إنها كانت غالبة عليه، وسرت به وسر بها، وكانت أحب ما لديه(4) فقد استطاعت أن توفر له جوا عائليا مطابقا لميوله محترمة لعاداته البدوية إذ كان يأكل الشعير ولحم ولبن الإبل ويلبس الصوف(5).

كما أن الحرة حواء بنت تاشفين عبرت بصدق عن محبتها لزوجها حين قيل لها إرجعي إلى دارك بعد أن تمت مراسيم دفنه،قائلة:"لا رجعة إلى تلك الدار أبدا. أين الوجوه التي كنت أعرف فيها وأسكنها معهم"(6) ؟ ويبدو على بعض النساء السعي الدؤوب لكسب ود أزواجهن وذلك من خلال مساعدتهم ماديا ومعنويا(7) فلقد جاء في إحدى نوازل ابن رشد(8)" أن امرأة من سبتة أمتعت زوجها في أملاك خلال حياته. وعن إمرأة أخرى وهبت زوجها نصف صداقها كما وهبت إحداهن رياضا

---

1 ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 22. السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص 27.

2 التليلي: السفر1، م51، ص 283. السفر2، م 355، ص 1139. السفر2، م392، ص 1219. السفر3، م592، ص1581. السفر3، م 512، ص 1408.

3 سورة الروم: الآية 21.

4 ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص99.

5 ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 83 .شعيرة محمد الهادي: المرجع السابق، ص80.

6 عبد العزيز الأهواني: المصدر السابق، ص80.

7 ابن عذاري: البيان، ج4، ص 18.

8 التليلي: نفس المصدر السفر3، م 568، ص 1558.

لزوجها". فهل يعني هذا أن الثروة كانت فعلا بيد النساء ؟ أم كانت المرأة مهددة من طرف زوجها حتى تنازلت له عن بعض أملاكها ؟ ويتبين من خلال بعض فتاوى ابن رشد أن بعض النساء كن يهبن لأزواجهن هدايا العرس وأصبحت هذه عادة سائرة في وسط الأزواج داخلة في شورة المرأة لزوجها، وما هذا الفعل إلا تعبيرًا عن نية الزوجة الحسنة في التودد إلى زوجها، وكعربون في حسن المعاشرة ساهمت بعض النساء بأموالهن في شراء المنزل للسكن(1) لكن على ما يبدو أن هذه الهبات والهدايا لم تكن بدون مقابل، إنما تبرز من خلالها مكانتها العائلية لدى الزوج وأسرته. كما إستغلتها وسيلة لفرض شروطها كعدم الزواج عليها ثانية أو التسري عليها (خاصة في الأندلس) أو الغيبة الطويلة عنها كما سبق ذكره(2) فالقاضي ابن الحاج الذي كانت تعرض عليه الكثير من النوازل في هذه الحقبة وصور هذه الوضعية قائلا: "والمتعارف فيما يوسع النساء به على أزواجهن من أموالهن، إنما يردن بذلك استجلاب مودتهم واستدراك صحبتهم وجميل عشرتهم "(3) وبالتالي يمكنني القول أن هذه الهدايا هي بين العوامل التي خولت للمرأة نوع من النفوذ في أسرتها.

وفعلا فإن بعض الزوجات استطعن الحفاظ على هذه الرابطة الزوجية والمودة طيلة حياتهن. ومن ذلك رثاء الأعمى التطيلي(4) لزوجته أمينة لدليل على نجاح الحياة الزوجية ومدى الارتباط الوثيق بين الزوجين. وكذا ينطبق القول على شعراء آخرين أذكر منهم ابن الزقاق الذي رثى زوجته(5)

لكن هذه الصورة الجميلة للعلاقة الودية والحميمة للزوجين لم تكن معممة. إنما حدثت مشاكل كثيرة وخلافات ونزاعات تعددت أسبابها وترجع في معظمها لأسباب عائلية والتي أدت في بعض الحالات إلى نتائج سلبية لم يحمد عقباها. وفي هذا الصدد أشير إلى أن كتب النوازل تعد السجل الذي ضم في طياته نزاعات وخلافات عائلية ومنها الخلافات بين الأزواج. فكان الجميع يلجأ إلى القضاء كوسيلة لإيجاد حل لمشاكلهم. وتذكر هذه الكتب مسائل الخلاف بإسهاب مع ذكر الأسباب والأطراف المتسببة فيها محاولة الفصل في خلافاتها طبقا للحكم الشرعي للمذهب الملكي. ونظرا لكثرة هذه المادة، فقد أوجزت ذكر أهم أسبابها ونتائجها. ومن أسباب توتر العلاقات بين الزوجين مايلي:

- مخالفة الأزواج للشروط التي إلتزموا بها في عقود الزواج مما يدفع الزوجة في طلب ملح إلى إمتثال الزوج لشروطها. ومنهن من طلقت نفسها لما لم يوف الزوج بشروطها، ومنها ما يلي:
- طول غياب الزوج سواء بسبب التجارة أو الحج أو أسير حرب وقد نص فقهاء الفترة المرابطية أن أمر الزوجة وهي في هذه الحالات، يضل معلقا لا تتزوج ولا يورث حتى يوقن بموته وينصر طائعا(1)

---

1 التليلي: المصدر السابق، السفر3، م 568، ص 1558.

2 خلاص: المرجع السابق ص 97-98.

3 نوازل ابن الحاج و 5. بوتشيش: المرجع السابق، ص 37.

4 ديوانه، ص 56. أنظر الملحق رقم 9. وله أيضا قصيدة في رثاء النساء، أنظر الملحق رقم10.

5 بوتشيش: نفسه.

- زواج الرجل بإمرأة ثانية، فالزوجة الأولى لن ترض أبدا بالعيش مع الضرّة، والمثل الشعبي يعطينا صورة عن نفسية ربة البيت في هذا السياق، قائلا:" مشية للحفر ولا مشية لبيت أخرى".(2) فالزوجة الأولى تتمنى الموت على أن تشاركها إمرأة أخرى بيتها.

- كان العجز الجنسي من بين أسباب التي دفعت الزوجة إلى المطالبة بالطلاق،(3) كما أن إمرأة اعترفت لأهلها عن عدم رغبتها في معاشرة زوجها قائلة لهم بأنها تكرهه وتبغض قربه وتحب بعده.(4) وإذا كانت هذه حالة بعض الزوجات فإنهن حتما لا يراعين شؤون الأسرة، وعدم الرضا بوضعهن لا يبقى مكتوما بين الزوجين فقط، إنما تستمر وضعية توتر البعض وعدم الانصياغ حتى بحضور الضيوف، ومن ذلك أن إحدى الزوجات رفضت أن تصنع طعاما لضيوف زوجها لما طلب منها ذلك(5) ولذلك ترددت حالات النشوز على الفقهاء. ومنها تمسك حواء بنت تاشفين برأيها في عدم سكن دار الإمارة بإشبيلية إلى أن أصدر القاضي أبو الوليد بن رشد فتوى في شأنها. رغم ذلك لم تكن راضية عن زواجها بالأمير أبي طاهر تميم، وتسببت له في مشاكل صحية(6).

فحالات النشوز تكررت في هذه الفترة وقد تضطر المرأة أحيانا إلى طلب الخلع من زوجها مفتدية ذلك بأموال باهضة ومتنازلة له عن صداقها. وكان بعض النساء يدخلونه -أي الخلع- ضمن شروط عقود الزواج(7) إتقاء لشر ما يحدث مستقبلا مثل إضطهاد الزوج لزوجته. لأن مظاهر الإضطهاد كثيرة، فمن النساء من تعرضت لضرب عنيف حتى لجأت هذه المضطهدة إلى رفع شكواه للقضاء واستمرت بها هذه الوضعية حتى بلغ بها الأمر إلى محاولة إلقاء نفسها في البئر(8)

ولقد أشار ابن الحاج في إحدى المسائل إلى معاناة إمرأة من جراء سطوة زوجها:" إنها أشهدت في صحة من عقلها وذهنها وهي مضطجعة على الفراش، تشكو ألم ست جراحات من جسدها، وأن

---

1 ابن الحاج: المصدر السابق، ص 100.

2 بوتشيش: المرجع السابق، ص 41.

3 نفسه.

4 البكري: المصدر السابق ، ص 186.

5 بوتشيش: نفس المرجع، ص 39.

6 ابن زهر: التيسير: ص 97. التليلي:المصدر السابق، السفر2، م 1223، ص395. دندش: الندلس في نهاية المرابطين...، ص 132، 134.

7 سئل ابن الحاج عن المرأة خلعت زوجها على أن حطت عنه حميع كالئها وغير ذلك مما تضمنته عقد الخلع، وعلى أن لا تتزوج إلا بعد انقضاء عام من تاريخ الخلع، فإن تزوجت قبل العام فعليها أن تغرم له مائة مثقال مرابطية. انظر : التليلي: نفس المصدر، السفر 3، م 569، ص 1559. ومن خلال جواب ابن رشد على هذه المسألة، الموجز للخلع والمبطل للشرط، يظهر أن النساء كن يلزمن أنفسهن بشروط لا أساس لها في الشرع ويبالغن في ذلك-كعدم إعادة الزواج إلا بعد علم -إرضاء للزوج حتى يوافق على الخلع. راجع: نفسه.

8 بوتشيش: نفس المرجع، ص 38.

زوجها جرحها ذلك على وجه الاعتداء والقصد الموجب للقتل(1) ولقد بلغت درجة اضطهاد بعض الأزواج لزوجاتهن إلى دفعهن إلى الفرار من جحيم التوتر والمشاكل عندما تستعصي الحلول، وإن كانت حالات الفرار نادرة لا تنطبق على كل النساء إنما وقعت أحيانا أو كانت عادة لنساء جبل مرنيسة اللائي كن يهربن إلى هذا الجبل. ولا يتحرجن في السماح في أولادهن، وإنما كن يتزوجن من رجال أخرين كلما أصابتهم إهانة من أزواجهن مهما كانت ضئيلة(2) ويذكر الونشريسي حالة فرار إمرأة من زوجها تشكو إضراره وتريد التخلص منه وتخشى على نفسها إن عادت إليه بعد الفرار القتل(3) هذه بعض المظاهر الإضطهادية للمرأة الناتجة عن سوء العلاقات الزوجية، صورة مؤسفة للأسرة المغربية، لكن في معظم الأحيان كانت سوء العلاقات تؤدي إلى الطلاق، وإن كان هذا الأخير أبغض الحلال إلى الله، والصلح خير. قال الله تعالى: "فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا"(4)

ومن المعلوم أن المغرب الإسلامي تعددت به المذاهب الدينية، فكان لإختلاف المذهب الديني بين الزوجين مثارا لمشكلات أسرية عديدة منها أن امرأة سنية تزوجت من رجل خارجي جهلا منها. فلما علمت بمذهبه طلبت فراقه، وقد وعدها بالرجوع عن مذهبه لكنه لم يفعل. ففرق بينهما القضاء خشية من أن يفتنها عن دينها. كما أن صبية شيعية جميلة رغب فيها رجل سني فخاف على نفسه الفتنة في مذهبه(5) وهذا ما يدل على أن الزواج في المغرب الإسلامي كان يتم في إطار المذهب الديني في حالة إذا ما يتعدى الإطار العائلي والقبلي.

وبناء على ذلك فقد إقتضت الأعراف في المجتمع المغربي إصلاح ذات البين بين الزوجين المتنازعين. وقد يقوم بهذه المهمة بعض الأولياء أو المتصوفة أو أعيان البلدة، من ذلك مسعى الشيخ أبو يعزى(6) في استدعائه للزوجين المتنازعين، فيكلمهما حتى يذهب النفار والشراد ويسرهما ويضحكهما حتى يقع بينهما من الأنس والتأليف في المأمول، وينصرفا إلى بيت أبنائهما(7).

---

1 نوازل ابن الحاج و: 299. وانظر: الونشريسي: المصدر السابق، ج2، ص 289، 290.

2 بوتشيش: المرجع السابق، ص 38.

3 المعيار: ج3، ص279. ولقد حدث أن هربت إمرأة من بني حرير قرية من قرى القيروان، فمكنها القاضي من زوجها وقريبها بعد أن خوفهما عقاب الله وعذابه. فخرجا بها، فقتلاها في الطريق ونفس الظاهرة وقعت في عام 807هـ/ 1404م .الونشريسي: نفسه. هذا ما أستدل به أن ظاهرة الإضطهاد كانت مستأصلة في بعض المناطق الجبلية المغربية.

4 سورة النساء الآية: 128.

5 الونشريسي: نفس المصدر، ج3، ص 276، ص302، 301.

6 أبو يعزى يلنور بن ميمون: أحد أعمدة التصوف في العصر المرابطي وقد أناف على مائة سنة بنحو ثلاثين سنة، كان قطب عصره وأعجوبة دهره. توفي عام 572هـ/1176م، انظر: التادلي: التشوف ص ص 195-205. الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر 1970، ص 56-133.

7 بوتشيش: المرجع السابق، ص 41.

كما ذكر أن أحد أولياء تلمسان لما علم بأن أحد مريديه عزم على طلاق زوجته نهاه عن ذلك، وطلب منه امساك زوجته(1) لكن أحيانا تحدث حالة الطلاق في غير صالح المرأة التي لم تكن ترغب في الانفصال عن زوجها. وربما كانت تلجأ بعض من هؤلاء النساء إلى الأولياء من أجل الحفاظ على الرباط الأسري أو تلجأ إلى العرافين لتـقتني حرزا للزوج إذا أعرض عنها حتى تتقي شره ويقبل عليها. هذا التصرف كان مألوفا في الشوارع المغربية من طرف المشتغلين بضرب الخط أو كتابة المحة للنساء إذا أعرض عنهن أزواجهن أو خاصموهن. وذلك توثيقا للروابط الزوجية.(2) وهذا النوع من السلوك يرجع أساسا إلى الاعتقاد بالشعوذة وتأثيرها على بعض النساء لا سيما في البوادي والأرياف. وما هذه الظاهرة بغريبة على مجتمعنا فنراها مستمرة ليومنا هذا وتحدث كثيرًا عندما يفتر الوازع الديني.

ورغم تعدد الوسائل لتفادي وقوع الطلاق إلا أنه في بعض الأحيان يستعصى إيجاد الحلول له فيقع الطلاق رغم المساعي المختلفة. والسؤال الذي أطرحه ما مدى نسبة انتشار الطلاق في المجتمع المرابطي، لا سيما عند القبائل الصحراوية التي تمثل فيها المرأة الركيزة الأساسية للأسرة؟

إنطلاقا من القاعدة العامة للهرم الاجتماعي واستنادا على الأمثال الشعبية التي تعد صورة صادقة لتعبير العامة لما شاع في المجتمع من تصرفات الناس اخترت مثالا يقول:" إن وفــق وإلا حانوت الوثاق"(3) وهذا المثل في شأن الطلاق الذي يشير إلى العدول لحل الزواج.

وما هذا المثل إلا تعبيرا على تكرر حالات الطلاق وقتئذ في وسط العامة. ومن المعلوم أن العصمة كانت بيد الزوج إلا إذا اشترطت المرأة ذلك في عقد زواجها. ففي الحالة الأولى وهي الشائعة حتى في أيامنا، بإمكان الزوج التعسف في هذا الحق تجاه زوجته لسبب أو لأخر، ومن ذلك تصوير أحد الأزواج(4) طلاق زوجته لعدم طاقته البقاء معها نظرا لسلوكها معه فقال فيها شعرا.

أما الزمان فرق لي من طلـــة5 كانت تطل دمي بسيف نفاقها
الذئبة الطلساء عند زفافهـــــا والحية الرقشاء عند عناقـــها(1)

---

1 ابن مريم: أبو عبد الله بن محمد بن أحمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشره محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1326هـ/1908م ص 112.

2 الونشريسي: المصدر السابق، ج1، ص 171، وكمال أبو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي، ص3. بوتشيش: نفسه.

3 الزجالي: الأمثال، ص 58 نقلا عن بوتشيش: نفسه.

4 ابن سارة الشنتري (أبو محمد عبد الله) أديب، ناثر وشاعر، سكن إشبيلية وامتهن فيها بالوراقة وانتقل إلى المرية وغرناطة ممتدحا الولاة والرؤساء. كان حسن الخط، جيّد النقل، قائما على جمهرة من اللّغة والنحو. توفي عام 517هـ/1123م. انظر: ابن بسام: الذخيرة: ق م، م2، ص834.

5 الطلة: الزوجة: المصدر السابق، ص 834.

وأورد البكري قصة مطولة عن إمرأة رغبت في التخلص من زوجها، فخيرها هذا الأخير في أمرها، لكنه استخدم الحيلة حتى أخذ منها كل ما حمله لها في صداقها. فلما قبض ذلك أخبر أهلها بقصة خيانتها له. ولما استبان أهلها الريبة فيها قتلوها. وبذلك تمكن الزوج من التشفي من زوجته والثأر بطريقة غير مباشرة وتخلص من عشيرة امرأته بعد أن استرجع جميع ماله(2).

أما في البلاط المرابطي فتمثلت حالة الطلاق في زينب النفزاوية التي استشارها أبو بكر عمر في هذا الصدد.3 وربما تكون هي التي طلبت منه ذلك.(4)لكن هذا الطلاق وقع في ظروف سياسية طارئة وخطيرة عرفتها الدولة المرابطية عند قيامها. فاقتضى الأمر إلى أن تطلق زينب النفزاوية وتعيد الزواج من يوسف بن تاشفين)وبالتالي فهذه حالة نادرة فلا يمكن القياس عليها، رغم أن بعض النساء جعلن العصمة في أيديهن. وكذا حالة الطلاق التي اتبعها عبد الله بن ياسين (5)فهي حالة ظرفية في مرحلة خاصة من الدولة المرابطية وفي بيئة صحراوية بعيدة عن تعاليم الإسلام. وما يؤكد لي ذلك أكثر/ هو عدم تكرارها من طرف المجتمع الملثم بالأخص. فالمرأة هي الركيزة الأساسية، ولها نفوذ واسع في الأسرة والمجتمع، بل استطاعت أن تفرض سيطرتها على زوجها الذي لا يمكنه الزواج ثانية إلا إذا طلق الأولى(6). ويبدو أن الطلاق كان يشكل أمرا عظيما وخطيرا لدى المرابطين ولم يكن هيّنا على الأمراء إلا لأمر عظيم. "مثال/ذكر عن يحيى بن غانية الصحراوي -يعرف بالأمير أبي زكرياء- أنه تزوج في فتوته من امرأة من قومه شريفة وجميلة، وقرّبها عينا. ثم تركها وطلقها، ولما سئل عن ذلك قال، والله ما فرقتها عن خلّة تذم، ولكن خفت أن أشتغل بها عن الجهاد".(7)وكذلك عندما أمر علي بن يوسف بالبحث عن كتاب الأحياء لأبي حامد الغزالي أمر بتفتيش المكاتب الخاصة والعامة وأن يحلفوا بالإيمان المغلضة كالطلاق والعتاق(8) كما ردّ فقهاء الدولة عن التهم التي وجهها لهم المهدي بن تومرت "أن الموحدين يردون المطلقة ثلاثا إلى زوجها".(9)لذا يبدو الطلاق نادرًا لدى المرابطين.

---

1 ابن بسام: المصدر السابق، ص 834. التليلي: المصدر السابق، السفر2، م 31، ص1187. والسفر3، م429، ص 1278. م 476، ص 1355. م 534، ص1460.

2 المغرب: ص 185.

3 ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 83-84.

4 ابن عذاري: المصدر السابق، ص، 21.

5 البكري:المصدر السابق، ص 168.

Duveyrier : Opcit .P 429.6

7 ابن الخطيب: الاحاطة، ج4، ص 344 و 345.

8 الحلل الموشية: ص 104-105.

9 ابن القطان: نظم الجمان، ص 10.

ومن جانب آخر كان الطلاق يشكل عبءا على الرجل لما يقدمه من النفقات المفروضة عليه. فلقد حدد ابن الحاج نفقة المطلقة إذا كان "الزوج فقيرا بربع ونصف دقيق، وثمن الزيت وحمل حطب وأربعة دراهم صرف وبيت تسكنه وكسوة مع رقاد نصف درهم في الشهر".

بينما أفتى القاضي ابن حمدين بقرطبة للمرأة المطلقة بربعين من دقيق وثمنين زيت وثاني عبادي صرف (السكة العبادية). ويضاف إلى ذلك نفقة الابن التي يتساوى فيها الغني والفقير. وأما بالنسبة للرجل المتوسط الحال. فرض عليه في حال تطليق زوجته وهي حامل أو مرضعة ربع دقيق، وثمن ونصف زيت ونصف حمل حطب، وستة دراهم صرف وخرج مسكن وكسوة ورفاء. أما الغني فقد فرض عليه الانفاق على امرأته المطلقة ما مقداره ربع دقيق وثمن زيت وحمل واحد من الحطب وخمسة عشرة درهما في الصرف كل شهرا ويكتري لها منزلا. أما إذا كانت في بداية الحمل فيبتاع لها قميصا وسراويل وغير ذلك من الكسوة. وإن كان لها خادم فرض لها ما يفرض للمرأة(1).

وطبقا لهذه الشروط فلقد تحددت حالات الطلاق. وما هذه النفقة إلا صيانة لكرامة المرأة ففي كل الحالات فإنها تضمن المأكل والملبس والمسكن. وتختلف النفقة الزوج على مطلقها طبقا لمستوى دخله، وقد تكون هذه الاجراءات القضائية، هي التي حددت من ارتفاع حالات الطلاق تهربا من دفع النفقة.

ومما يتبين أن الطلاق كان محظورا وغير مرغوب فيه، واعتبر عيبا على المرأة وعلى أسرتها حينما عفت زينب النفزاوية عن القاضي ابن خلفون الذي مدح حواء بالجمال دونها قالت له طلقها يا قاضي ثلاثة، ثلاثة(2).

وهذا ما يدل على أن الطلاق كان لا يقع إلا عندما تستنفد حلوله. وربما كان للاجراءات الفقهية التي حددت نفقة المطلقة، تأثيرا في عدم تسرع الأزواج في الطلاق نظرا لارتفاع هذه النفقة لدى العامة. وعلى كل حال فإن مسؤولية الطلاق يتحملها الزوجان معا وإن كانت أحيانا لسلطة الأباء يد فيها والتأثير على بناتهم(3).

وهكذا يتبين أن اللجوء إلى الطلاق لن يتم إلا إذا استنفدت كل مساعي الإصلاح بين الزوجين. وكلما انخفضت نسبة الطلاق انعكس ذلك بالإيجاب على الأسرة والمجتمع، فيزداد الانسجام والتلائم بين الزوجين وينفسح المجال أكثر للأم لرعاية شؤون البيت وتربية الأطفال خاصة. طبقا للعادات والتقاليد القبلية والبيئة.

---

1 ابن الحاج: المصدر السابق، ص 90-94، وبوتشيش: المرجع السابق، ص 42-43.

2 أجابها: متى مدحتها فهي من سير طالقة، انظر النويري: المصدر السابق، ص386.

3 التليلي: المصدر السابق، السفر 3، م 446، ص 130.

جـ- مكانة الأم:

انفردت بعض القبائل الصنهاجية بالاعتناء بتربية البنت وتفضيلها على الولد لأن البنت هي التي تحمل موروثات العائلة الدموية وبالتالي تحافظ على استمراريتها لا سيما إذا كانت من عائلة شريفة (1) فلقد منح المجتمع الملثم مكانة رفيعة للمرأة عامة وللأم خاصة. فحظيت بالتقدير والاحترام والنفوذ حتى شغلت بال الكثير من المغاربة والأندلسيين وقتئذ، واتهم المرابطون بانصياغهم لنسائهم.(2)

لكن من هؤلاء الأمهات اللاتي "أدين أدوارا بارزة في الأسرة والمجتمع تحتفظ لهن المصادر بأسمائهن منسوبة إلى رجال هذه الدولة، فمنهم الولاة والأمراء والقادة الذين خلد التاريخ أسماءهم إلى جانب أمهاتهن. ولكن هذا لم يأت من باب الصدفة إنما مرده إلى نفوذ المرأة في المجتمع ولا سيما لامتلاكها للثروات المختلفة. فكانت المرأة في العائلات النبيلة لا تقوم بالأعمال المنزلية بل تسندها للخدم؛ إنما أولت عنايتها لتربية أطفالها فقط. حتى أن هؤلاء الأطفال يميلون كثيرا إلى أمهم دون والدهم.(3) ولذا اشتهر المجتمع الملثم دون غيره في المغرب الإسلامي بانتساب الرجال لأمهاتهم كابن عائشة وابن غانية وابن الصحراوية"، و على أساس رابطة الدم للأم يمنح الأبناء مكانتهم في المجتمع وفي القبيلة وفي الأسرة.(4) وبحثا عن أسباب ذلك يبدو لي أن جذورها ترجع إلى عهود سحيقة حيث كان يسود في بعض القبائل الصحراوية النظام الأمسي. آنذاك احتلت الأم مكانة الصدارة في الأسرة وفي تدبير متطلباتها ورعاية الأبناء، في حين كان اهتمام الأب السذود عن القبيلة لحمايتها من الغارات الخارجية للأعداء، وتوفير الرزق أولطول غيابه في السفر(5).وكنتيجة لتحملها لهذه المسؤولية احتلت الصدارة في المجتمع الملثم. ويظهر أن هذه العادة توارثتها الأجيال فاحتفظت الأم بمكانة الصدارة في العائلة. وتبقى هذه العادة مستمرة إلى حد الآن في بعض قبائل الطوارق التي تولي عناية خاصة لتربية البنت واعدادها للمستقبل. فتعلمها والدتها تفصيل الملابس وترقيعها وتصنيع شعر الماعز والجلود وطريقة إقامة الخيمة وفكها وطريقة التزيين للنساء لإن المرأة هي التي تحفظ ثقافة بيئتها (6). ولذلك فقد منحت البنت حرية التصرف منذ صغرها، إذ لا يتدخل الأب في تصرفاتها إلا إذا تعلق الأمر بحمايتها عند الخطر. أما إذا أصبحت الفتاة أُمًّا فتمنح حرية التصرف كاملة.(7) وهذا ما يؤكد مكانة الأم في العائلة، ان الطفل ينادى بإسمها، ومن ذلك ما ذكره النويري:"[...] وكذلك الملثمين

---

1 محمد السويدي: المرجع السابق، ص 96. Duveyrier : Op.cit , P 339

2 عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 177. وحسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ج2، ص49.

3 Duveyrier : Ibid, P 340. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 52.

4 Ibid , P : 340.

5 حسن أحمد محمود: نفس المرجع، ص 56.

6 محمد السويدي: المرجع السابق، ص 96. Duveyrier : Ibid, P 339

7 Ibid , P : 339

ينقادون لأمور نسائهم، ولا يسمون الرجل إلا بأمّه، فيقولون ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان، وهي إشارة إلى المكانة المرموقة التي احتلتها المرأة داخل العائلة".(1) لكن هل فعلا أن هذه الظاهرة عامة لكل المجتمع الملثم؟ فماهي أسبابها إذن ؟ وما هي انعكاساتها على المجتمع ؟

يبدو لي أن صيغة التعميم على كل الملثمين فيها نوع من المبالغة أو أن هناك إجحاف في إصدار هذا الحكم. لأنني لما انطلقت في التمعن في هذا الحكم ابتداء من الحكام المرابطين أي أمراء المسلمين الذين تعاقبوا في الحكم لم أعثر على أي أحد منهم إنتسب إلى إمرأة-إلى أمّه-(2) فهؤلاء كلهم دعوا لأبائهم.

لكن في المقابل نجد أن عددا من الولاة والأمراء والقادة المرابطين ينتسبون لأمهاتهم! ويبدو أن انفراد الدولة المرابطية بهذه الظاهرة دون غيرها من دول المغرب الإسلامي بشكل جلّي، يرجع أساسا لما تمتعت به المرأة المرابطية من فطنة ومكانة اجتماعية واقتصادية من جهة، وللجهود المعتبرة التي قدمها هؤلاء الرجال -الأبناء- خدمة لهذه الدولة من جهة أخرى. وأن هؤلاء الرجال لم يجدوا غضاضة في الحفاظ على نسبهم بعد الشهرة التي بلغوها ، بل بالعكس وجدوا في ذلك نوعا من التشريف والاعتزاز.(3)

ومن هؤلاء الأمهات التي حفلت بهم المصادر ما يلي: "تاعيشت" أو تعيشت، وهي أمة سوداء، أم إبراهيم بن يوسف بن تاشفين(4) و"عائشة": أم الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين والمعروف بإبن عائشة(5) ويظهر أن عائشة هذه بنت ياران بنت تايغشت وهي أخت لإسحاق بن ياران. تزوجها أبو بكر بن عمر ثم تخلى عنها إثر سفره للصحراء في (463هـ/1070م). ويحتمل أنه تزوجها يوسف بن تاشفين وهي أم لهذا القائد والوالي. كما ينسب إلى "عائشة" والي درعة

---

1 نهاية الأرب: ص 381. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 52. بوتشيش: المرجع السابق، ص 52. حسن علي حسن: المرجع السابق، ص352.

2 أبو بكر بن عمر اللمتوني: تـ 448هـ/1056م- يوسف بن تاشفين (448هـ-500هـ/1056-1106م)، علي بن يوسف: (500هـ-337هـ/1106-1142م). تاشفين بن علي: (537هـ-540هـ/1142-1145م)- ابراهيم بن تاشفين بن علي: (540هـ-1145م) واسحاق بن علي بن يوسف(540هـ-541هـ/ 1145-1146م)- حسن أحمد محمود: نفس المرجع، ص 399. حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ج2، ص7.

3 من الشواهد في مجتمعنا الحالي أن الشاب خاصة إذا تزوج يصبح ينادي أمه باسم العجوز أو الحاجة، أو خالتي فلانة بإسمها- كناية عن انفصاله عنها واعتزازا برجولته ونوع من المقاطعة لرابطة الأمومة للأسف!

4 ابن القطان: المصدر السابق، ص 82. Lagardère : Op.cit; P : 175, 177.

5 من كبار قوائد المرابطين عينه أبوه قائدا على شرف الأندلس. وفي عهد أخيه علي بن يوسف شارك في معركة أقليش (501هـ-1108م). وفي عزوة برشلونة (508هـ-1115م). انظر: ابن القطان: المصدر السابق، ص82. ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص101-102. Lagardère : Op.cit, P 174

وسجلماسة وهو" داود بن عائشة" ويحتمل أن تكون عائشة أما للإثنين معا، لأن غموضا يخيم حول هذه المرأة.(1)

واشتهرت من الأمهات اسم" فاطمة" ونسب إليها أبو محمد بن عبد الله " بن فاطمة" والي بلنسية(2) كما خلفت "فاطمة" بنت الأمير سير بن أبي بكر وحواء بنت تاشفين، أميرا يعرف باسم محمد ابن " فاطمة" الذي أصبح من القضاة المشهورين آنذاك.(3) كما عرف الأمير محمد بن عبد الله بن يغمر اللمتوني بابن "حواء" نسبة لأمه. وعرف والي فاس بابن" الصحراوية".(4) وآخر ولاة درعة هو يحي بن "مريم" الزرجاني وهو زوج "ميمونة" بنت يانتان بن عمران التي وقعت في أسر الموحدين من ضمن أربعمائة امرأة مرابطية.(5) ومن الأميرات اللمتونيات " فانو" وهي بنت يوسف بن تاشفين وأخت علي بن يوسف. زوجة ابن عم لها.(6) أما ابنها فاشتهر باسم يحيى بن "فانو" أو "فانوا"(7) الذي كان عاملا على تلمسان حينما دخلها محمد بن تومرت(8). ومن ولاة قرطبة ما بين (525هـ-526هـ/1131م-1132م) ابن "قانونة" (9) وهي إحدى الأميرات اللمتونيات.(10) وعندما اندثرت دولة المرابطين على يد الموحدين حمل لواء صنهاجة الجيل الثالث "بنو غانية" بتأسيس دولتهم في جزر البليار. و"غانية" أميرة لمتونية احدى قريبات أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي زوجها بعهد من أبيها لعلي بن يحيى المسوفي. فأنجبت محمد ويحي اللذين عاشا تحت رعاية أمير المسلمين وفي كنفه. وانتسبا إلى أمهما "غانية" لما امتازت من نسب رفيع وأخلاق سامية.(11) وقد تزوجت الأميرة "غانية" بعد وفاة زوجها علي

---

1 ابن القطان: المصدر السابق، ص 8 ص 182. ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص 112. Ibid : p 175

2 هو أحد مشاهير القوائد المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين وابنه علي. اشترك في فتح بلنسية عام(495هـ-1102م). ونظرا لبلائه الحسن عينه يوسف بن تاشفين خلفا للقائد الشهيد أبو الحسن علي بن الحاج في(494هـ-1104م) ثم عين والي على بلنسية وأقر في هذا المنصب من طرف علي بن يوسف: أنظر: ابن القطان: نفس المصدر، ص 112. ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 42، 630. وأنظر. Lagardère : Ibid, P 173

3 وهي زوجة أمير المسلمين علي بن يوسف: أنظر: ابن عذاري: نفس المصدر، ج4، ص 56. Ibid : P 173.

4 وهو أبوجعفر بن عطية: أنظر: ابن الأبار: الحلة سراء، ق2، م2، ص236، ابن عذاري: البيان: ق: الموحدين، ص 198، 199. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج1، ص 257.

5 البيذق: أخبار المهدي: تق. حاجيات، ص 136.

6 ابن الأبار: الحلة السراء: ج2، ص 212. زوجها هو: أبو بكر بن تفلويت، عين واليا على مرسية ثم بلنسية، بالأندلس.

7 لمزيد من المعلومات عن فانو أو فانوا أنظر: حاشية كتاب نظم الجمان/المحقق علي محمود مكي ص229.

8 البيذق: المصدر السابق، ص 62. و يسميه ابن عذاري: " بانجمار" البيان، ق: الموحدين، ص 30.

9 وهو أبو محمد عبد الله بن أبي بكر بن يوسف ويسميه صاحب مفاخر البربر: ابن جنونة ص 82.

10 ابن القطان: نفس المصدر، ص 190.

11 ابن عذاري: المصدر السابق، ق: الموحدين، ص 215، ابن خلدون: العبر، ج12، ص 397-398.
Bel Alfred : Les Benous Ghanya, P3,4.

بن يحي المسوفي، والي قرطبة وهو القائد المرابطي محمد بن الحاج اللمتوني. وعاش "محمد ويحيى" في كنف زوج أمهما الذي ولى يحيى وهو الأكبر سنا عاملا على مدينة أستجة.(1) ولا يستبعد دور أمه غانية في هذا التعيين.وعندما ولي علي بن يوسف القائد محمد بن علي المسوفي على جزر البليار(2) احتفظ هذا الأخير بنسبه إلى أمه "غانية" وفقا للعادات والتقاليد التي كانت متبعة أنذاك لدى كبار القادة من لمتونة ومسوفة.(3) وكان لهذه المرأة إبنا اسمه يحي وصل إلى أرفع مكانة في الدولة المرابطية، وكان دور هذه المرأة هو توثيق العلاقة بين إبنيها مما دعم مكانتهما وأكسبهما ثقة أمير المسلمين علي بن يوسف الذي اعتمد عليهما في توطيد دعائم الحكم المرابطي في الأندلس وجزر البليار، وأوكل إليهما أخطر المهام ولم يخيبا ظنه فيهما.(4) وهذه المرأة "غانية" التي اقترن اسمها باسم ابنيها كان للدولة التي عرفت باسمها سجلا تاريخيا مع الموحدين بعد انهيار دولة المرابطين بالمغرب.

ونظرا لإنتشار هذه الظاهرة في البلاط المرابطي فلم يقتصر الانتساب إلى الأم على الأمراء فقط إنما تعداه إلى عامة المجتمع. فعندما دخل المهدي بن تومرت مدينة فاس في مستهل دعوته كان قاضيها يدعى بابن معيشة(5) كما اشتهر بعض العلماء بنسبهم إلى أمهاتهم منهم أبو الحسن بن سكينة(6) بل ذهب بعض الدارسين إلى القول أن اسم "ابن تومرت" يدل على صيغة التأنيث وانتهوا إلى أن هذا الاسم لإحدى جداته.(7) واشتهر أيضا الشاعر الأندلسي باسم "ابن اللبانة" نسبة لأمه التي كانت تبيع اللبن.(8) كما أنه من التقاليد عند العرب نسبة الولد إلى مرضعته مثلما هو واقع في إحدى قبائل "الراكنة" بموريتانيا. كمحمذ بن "سكينة" وولد "منينة"(9) ونسب الولد إلى أمه ظاهرة شائعة في الاخوة "أبناء العلات"،ومن ذلك في الرقيبات: أولاد "مية"، أولاد "الكسيمية"، وفي أولاد أبي السباع: أولاد "بنت

أستجة: مدينة أندلسية قديمة، تقع في الجنوب الغربي من قرطبة. اشتهر أهلها طيلة العهود الإسلامية في الأندلس بعصيانهم وتمردهم. وتميزت بحصانة موقعها وسعة أرباضها وببساتينها الينعة وأسواقها العامرة. أنظر: الحميري: المصدر السابق، ص 53.

1 ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص 344، حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ج2، ص 55.
Bel Alfred : Ibid, P 4

2 ابن خلدون: نفس المصدر، ص 398-المراكشي: المعجب: ص 342 – ابن الخطيب: نفسه.

3 حسين علي حسين: المرجع السابق، ص 352. Bel Alfred: Ibid, P3.

4 عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار) "98-685هـ/708-1287" ط1-دار العلم للملايين ، بيروت-1984-ص 299-300. Bel Alfred : Ibid, P 17

5 البيذق: أخبار المهدي، ص 24. والتي ربما في الأصل ابن أم عيشة وحذفت الألف لكثرة تداول إسمها.

6 ابن عبد الملك: المصدر السابق، ج5، ق2، ص 561-562.

7 تومرت: تعني صار فرحا وسرورا باللسان البربري. ابن القطان: المصدر السابق، ص 37. المقتبس من كتاب الأنساب، ص 29. حسن علي حسن: نفسه.

8 **صالح خلاص: المرجع السابق، ص** 91.

9 المختار بن حامد: المرجع السابق، ج2، ص 183.

السيد"، أولاد "بنت كلاد"، وفي أولاد أمبارك: أولاد "العالية"، أولاد "عيشة". كما ينسب الولد إلى قبيلة مثل: هنون العبيدي نسب إلى العبيدات قبيلة أمه.(1)

هذه نماذج لبعض الأمهات التي اقترنت أسماؤهن بأسماء أبنائهن، وتعد دليلا على مكانة الأم في الأسرة وفي المجتمع قديما وحديثا. ذلك ما يثير التساءل عن أسباب هذه الظاهرة الاجتماعية التي ماتزال تحافظ عليها بعض القبائل الصحراوية حاليا. وقد أعطاها بعض الدارسون ابعادا اجتماعيا واقتصادية وحتى سياسية. مما نتج عنه اختلاف الآراء والتفاسير في معرفة سبب اختيار أحد خطي الإنتساب إلى الأم أو إلى الأب. فالبعض يرجع السبب إلى تعدد الزوجات في الأسرة، إذ كانوا يميزون الأولاد التي تنسب أسماؤهم إلى أمهاتهم، كمحمد بن فاطمة، و محمد بن عائشة.(2) ومن الأمثلة عن ذلك فإن عائلة يوسف بن تاشفين نجدها عائلة أبسية رغم أنها تشمل على أولاد نسبوا لأمهاتهم أمثال إبراهيم بن تاعيشت وأبو عبد الله بن عائشة. لكن بالمقابل نجد أن كل من المعز والفضل لم ينسبا إلى أمهما زينب النفزاوية التي بلغت شهرة كبيرة في البلاد.(3) مثلما أن "علي ولي العهد" لم ينسب إلى أمه قمر، أما يحيى وعمر فلم يعرف اسم أمهما. وربما مرجع ذلك لأن كل من تاعيشت وعائشة حافظتا على العادة الصحراوية الموروثة. أما زينب النفزاوية فكانت تسكن أغمات وهي من بيئة متحضرة تختلف عاداتها عن العادات الصحراوية. مثلما ينطبق القول على الجارية قمر الرومية الأصل، لذا أبناء هاتين المرأتين نسبوا لأبائهم الذين كانوا يمثلون السيادة اللمتونية على سائر القبائل الصنهاجية.

ولكي تتضح معالم هذه العادة كان لابد لي من الرجوع إلى الدراسات الأنتروبولوجية وعلم الاجتماع عن المجتمع الطوارقي لأجد تفسيراً مقنعا لها. ومن الدارسين الذين أعطوها أبعادًا اقتصادية نجد رالف لنتون الذي يرى:"أن جميع المجتمعات يبرز فيها توزيع الأنشطة بين الرجال والنساء. ويكاد يكون هذا التوزيع صارما في أغلب الأوقات. لأن مهمة الطعام والمواد الخام تقع عادة على أحد الجنسين دون الآخر.(4) ومن الطبيعي والحالة هذه أن تحاول الفئة القائمة على رابطة الدم التمسك بأعضاء ذلك الجنس صاحب الأنشطة البالغة الأهمية من الناحية الاقتصادية."(5)

فإذا كان المجتمع يعتمد بالدرجة الأولى على الزراعة التي تقوم بها النساء نجد أن الجماعة القائمة على رابطة الدم تعاني من فقدان نسائها عن طريق الزواج أكثر مما تعانيه من خسارة رجالها.(6) أما في مجتمع الرعاة فيقوم الرجال بمهمة الاعتناء بالحيوانات ولذلك تقوم هذه الجماعة على المحافظة

---

1 المختار بن حامد: المرجع السابق، ج2، ص 184.

2 حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ج2، ص 49.

3 ابن عذاري: البيان، ج4، ص 30.

4 نقلا:عن محمد السويدي: المرجع السابق، ص 93.

5 نفسه.

6 نفسه.

على عضوية الذكور وتوسيعها، وانتساب الأبناء لآبائهم(1)،كما يؤول حق اختيار خط الانتساب إلى عوامل اجتماعية منها إلى مكان إقامة الزوجين، إذ أن في نظام الانتساب إلى الأم، يرتبط سكن الزوجين بمكان سكن أهل الزوجة. بينما في نظام الانتساب إلى الأب، يرتبط سكن الزوجات بمكان سكن أهل الزوج. وهذا يعني أن مكان إقامة الزوجين يؤول عادة إلى الشريك الذي عن طريقه يحصل الأطفال على عضويتهم في العائلة والذي يعيش فيه الزوجان مع أهله(2)،كما أعطى البعض بعدا سياسيا لهذه العادة من ذلك أن للسيادة والسلطان دورا مؤثرا في المجتمع. فالقبيلة السائدة تعمل على الحفاظ على سلالتها برعايتها للبنت التي تعد بمثابة –الأمينة– التي تحفظ النسب الشريف وموروثات القبيلة(3)، لكن يبدو أن هذه العادة تقلصت كثيرا في بعض القبائل التي اعتنقت الإسلام والتي امتثلت لتعاليم الدين الإسلامي، عملا بقول الله تعالى:"ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله".(4)وربما التفسير لهذه الظاهرة– بمنظور سياسي– هو الذي أشار إليه "دي فري" في دراسته لبيئة الطوارق(5)إلا أنه طبقه على العبيد إذ أن رابطة الدم تنتقل عبر الأبناء عن طريق الأم وليس عن طريق الأب موضحا ذلك بالأمثلة التالية:

1)إذا كانت الأم حرةً والأب حرّ يكون الابن حرّ ونبيل.

2) إذا كانت الأم من العبيد والأب حر، فيولد الإبن عبدا.

3) إذا كانت الأم حرة والأب عبدا. الابن يكون حرا(6).

وبناء على ذلك فإن لمتونة التي سادت في القرن (5 هـ/11م) فقدت هذه الصفة في المجتمع الطوارقي الحالي بانتقال السيادة إلى قبيلة ترغة(7) وهذه الأخيرة حافظت على عادات وتقاليد

---

1 ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص104. ابن خلدون: العبر، مج12، ص 373. شعيرة محمد الهادي: المرجع السابق، ص 80-81. وحسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 42.

2 محمد السويدي: المرجع السابق، ص 93-94.

3 ابن خلدون: المقدمة، ص 222. السويدي: نفسه. وانظر Duveyrier : Op.cit, P 346

4 سورة الأحزاب: الآية 5.

5 إن المجتمع الطوارقي أو القبائل الطوارقية قبائل سائدة وقبائل مسودة، قبائل من النبلاء وقبائل من الأقنان. والنبلاء يحتكرون الحياة السياسية ويؤلفون مجالس القبيلة ويتولون القيادة في الحروب، ويدبرون دفة الحياة العامة، ويحتكرون التجارة ...أما الأقنان، فلهم وضع غريب. فهم لا يباعون ولا يشترون كما يباع العبيد و يشترون ولكنهم يورثون كما يورث المتاع. هذه الأوضاع التي تعرض لها ذي قريبة في دراستها لبيئة الطوارق تورثها هؤلاء عن أجدادهم القدماء، وليس من شك أن قبائل الملثمين في العصور الوسطى كانت تعرف ذلك النظام. Duveyrier: Ibid, P 339-329.

Duveyrier: Ibid, P 337.6

7 إن قبيلة لمتونة كانت لها الرياسة زمن المرابطين. وكان رجالها يديرون دفة الحكم وكانت الرئاسة في لمتونة " في بيت ورتانطق" الذي أنجب يوسف بن تاشفين، أنظر : العبر: ج12، ص 379. والقبيلة التي كانت تكتب لها السيادة، كان تخضع القبائل الأخرى إليها بحد السيف وتستعبدها استعبادا فتصبح القبيلة المنتصرة قبيلة السادة.و القبائل الأخرى قبائل مسودين: ابن خلدون المقدمة، ص212. Duveyrier : Ibid. P 337-339. حسن أحمد محمود قيام دولة المرابطين ص 52-53. ونجد الصلة كبيرة بين قبائل الطوارق الحالية والملثمين القدماء ولفظ الطوراق تحويل "

-الماضي- الأجداد. ومن هذه التقاليد أهمية المرأة في الوسط الاجتماعي وما امتازت به من فطنة وذكاء، وما تزال العادة عند الطوارق في البحث عن النسب الشريف والأصل الطيب في العائلات النبيلة الشريفة مستمرة.(1) ومن الأمثلة على ذلك رغبة الناس في مصاهرة عائلة "إمامن" (2) « IMAMAN »ونجد نفس العادة منتشرة في منطقة -رهات Rhat- إذ يتوارث الحكم في أبناء الأخت.(3) وهكذا تعتقد بعض قبائل الطوارق بأن الأم هي التي تحمل أبناءها قبل الولادة. لهذا فهم أبناؤها، وليسوا أبناء الرجل، فإذا تزوجت المرأة من قبيلتها فأولادها يرجعون إلى نفس القبيلة.(4) ومثل هذه الحالة حدثت في العهد المرابطي، فحواء بنت تاشفين تزوجت بابن عمها الأمير سير بن أبي بكر، فنسب إبنها لأبيه.(5) وأما إذ تزوجت المرأة من خارج قبيلتها فالأولاد يرجعون لها وليسوا لأبيهم أو لقبيلته. وإذا توفي الزوج فإن الأولاد وأمهم يرجعون إلى قبيلة الأم.(6) وهذا ما وقع تماما لبني غانية في العهد المرابطي، فهذه المرأة "غانية" اللمتونية، تزوجت بعلي المسوفي، ونسب الأبناء إليها نظرا لسيادة قبيلة لمتونة، على قبيلة مسوفة، و لما توفي زوجها بقي إبنيها معها، وكفلهما زوجها الثاني والي قرطبة محمد بن الحاج اللمتوني(7).

أما في بلاد شنقيط -موريتانيا حاليا- التي تعد موطن قبيلة لمتونة التي كانت سائدة بها في القرن (5هـ/11م)، فإن بعض قبائلها ذات الأصل الصنهاجي تتبع وتحافظ على نظم تقليدية بالحفاظ على رابطة الأمومة عن طريق تدعيم الزواج من بنت أخ الأم (بنت الخال)(8) وهذه الحالة تشبه ما هو سائد عند بعض قبائل الطوارق في الجزائر، أما القبائل السائدة أي الحاكمة في بلاد شنقيط فهي قبائل

لتوارغ" هو جمع "لترغة". من القبائل الملثمين، ولا يزال الطوارق يشغلون نفس البقاع التي كان يشغلها الملثمون. وبعد سقوط دولة المرابطين انتقلت السلطة إلى "ترغة". إبراهيم حركات: نظام السياسي والحربي، ص 8. بال ألفراد: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي: ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص 227-228.

- Jean Marc Balencie, Arnaud de la grange : Monde rebelles « La question Touareg : (acteurs, conflits et violences politiques), ed, michalon ; Paris, 1996, P : 230-231.

1 Duveyrier : Opcit : P : 339.

2 إيمامن: تعني السلطان. أنظر: Duveyrier : Ibid, P 350

3 عندما توفي رئيس هذه القبيلة المدعو: شافوو، Chafao رشحت القبيلة ابن أخته الكبرى ليتولى الحكم بعده باسم "أمغار". أنظر: Duveyrier :Ibid, P 346.

4 محمد السويدي: المرجع السابق، ص 96.

5 دعي بيحي بي سيرين أبي بكر.

6 محمد السويدي: نفسه، ص 96.

7 ابن الخطيب: الإحاطة، مج4، ص Bel Alfred : Op.cit, P 3,4.344

8 Marchesin : Op.cit, P 28, 29.

المور MAURES،(1) التي تتميز بسيادة الأب في الأسرة وانتساب الأطفال إليه. وذلك بتوثيق الزواج ببنت أخ الأب –أي بنت العم– لكن هذا لا يعني إقصاء دور الأم في هذه القبائل، فهي تحافظ دائما على دورها الأسري ومكانتها الاجتماعية لاسيما إذا تعلق الأمر بمسائل الإرث ورعاية الأطفال(2).

وهذا الوضع الحالي للأم دليل على أن مكانتها التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ لم تجتث من تقاليد المجتمع رغم اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية لدى قبائل الملثمين منذ قرون خلت.

ومن تتبعي لمراحل تكوين الأسرة، لاحظت وجود تفاوت في معاملة المرأة بين المجتمع الأندلسي والمغربي من جهة، وبين جهاتهما المختلفة من حضر وبدوٍ من جهة أخرى، إضافة إلى تأثير الفوارق الاجتماعية في نفس الحيز الجغرافي بين فئات المجتمع الغنية والفقيرة. فأمر زواج المرأة كان يتم بالدرجة الأولى على أساس الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية ثم تليه الاعتبارات الثقافية، وفي الأخير يأتي الاعتبار النفسي أو العاطفي للمرأة بصفة عامة. وإن كان معظمهم أخلى بهذا الحق الأخير للمرأة، إلا أن بعض النساء استطعن بطريقتهن الخاصة أن يثبتنه. وذلك بواسطة فرض شروط عديدة في عقود زواجهن مع إلزام الأزواج بتنفيذها. واتضح لي ذلك من بعض النوازل والفتاوى لهذه الفترة، فبعض النساء كن شديدات الحرص على تنفيذ شروطهن حرفيا. وهذا ما سبب نشوب الخلاف بين الزوجين أدى في بعض الحالات إلى الطلاق؛ وقد تتعدى انعكاسات هذا الأخير إلى مستوى العائلات وحتى على مستوى القبيلة.

لكن الملفت للانتباه أن معظم عقود الزواج مقيّدة بشروط النساء خاصة منها شرط المغيب الذي شاع آنذك. وفي حالة ما أخلى الزوج على ما تعهد به –وهذا ما حدث في معظم الأحيان وفي مدة قصيرة بعد الزاوج– كان الطلاق حقا مكتسبا للمرأة تمارسه في أي وقت شاءت دون الرجوع إلى الإجراءات الكثيرة للإثبات حتى يصدر القاضي حكمه. ونتيجة لذلك فإن الأسرة التي تم بناؤها على أساس شرط ما ثم اختلف فيه كانت نهايتها وفك أواصرها بسبب ذلك الشرط الذي شكل حق –الفيتو– بيد المرأة.

فإن كان هذا ينطبق على المرأة المغربية بصفة عامة فإن نظيرتها في البلاط المرابطي كان لها شأن مغاير، فالزواج كان يتم بالأخص في إطار القربى –أي زواج داخلي–. ويبدو أن الطلاق كان محدودا جدا. فمن النساء اللائي طلقن زوجة يحيى بن غانية لكن ليست هي التي طلبت ذلك بل هو

---

1 تشكل قبائل المور أغلبية سكان موريتانيا، وترجع أصولها إلى قبائل صنهاجة، تنتمي بعض قبائلها إلى حسان بن مقبل، لذا عرفوا بني حسان أو –أولاد حسان– الذين توسع نفوذهم السياسي في بلاد شنقيط ما بين القرنين (9-12هـ/15-17م)، ويشتركون مع الطوارق في بعض العادات والتقاليد، مما يدل على استمرار وجود الرابطة الروحية بينهما. أنظر: ATTILIO Gaudio : Dossier de la Mauritanie, P20,21.

وأنظر: ART : « MURITANIYA » in encyclopedie de l'Islam, T : VII, PP 616-617.

ART : « MAURES » in, ibid, T :VI, PP 839-841.

2 Marchesin : Op.cit, P29.

الذي طلقها بسبب إنشغاله بالجهاد وكثرة غيابه عنها. وهذا ما يدل على تأثر يحيى بن غانية بما كان يصدر من نساء الأندلس وتضمرهن من طول غياب أزواجهن فأشفق على زوجته. وبالعكس من ذلك فإن هذه المرأة الصنهاجية لم تبادره بطلب الطلاق. كما أنه شاع من العادات الصنهاجية أن الزوج لا يطلق زوجته إلا بإذنها وربما برضاها، حتى لو كان طلاقها على مضض منها في بعض الحالات عندما لا تكون راغبة في ذلك.

ومن الشواهد على حضر الطلاق في البلاط المرابطي هو التزام القاضي ابن خلفون أمام زينب النفزاوية بتطليق حواء بنت تاشفين من زوجها في حالة ما إذا مدحها من جديد. وذلك إرضاء لزينب –المتنفذة– في الحكم وحفاظا على منصبه في القضاء.

وعموما فإن كثرة المسائل –النوازل– والفتاوى تعد مؤشرا لارتفاع معدل الزواج في المجتمع. وما هذا إلا دليلا على حيوية واستمرار الحياة به وذلك نتيجة للاستقرار السياسي الذي ساد البلاد وما تبعه من اطمئنان نفسي لأفراد المجتمع عامة، وما تلى ذلك من ازدهار اقتصادي خاصة في عهد يوسف بن تاشفين وبداية عهد إبنه علي. فعمت الكثير من المدن والمناطق مظاهر الأفراح والابتهاج بالأعراس. لأنه إذا ما انعدم الأمن وعم الخوف والقتل ينعكس ذلك سلبا على المجتمع عامة وعلى المرأة خاصة. فهذه الأخيرة تتخلى عن الاعتناء بنفسها وزيها وزينتها. وهذا أمر طبيعي في أي مجتمع، إلا أنه حدث مبكرًا في الدولة المرابطية القصيرة العمر. وذلك بسبب غارات النصارى على ممتلكات المسلمين بالأندلس والثورات العديدة التي قامت بها. وأشد من ذلك ظهور الدعوة الموحدية بالمغرب. وفي هذا الصدد استغل الموحدون عرس ابن الصحراوية ودخلوا مدينة فاس ليلة زفافه.

كما أن ثورة ابن مردنيش مع إبراهيم بن همشك كانت بسبب طلاق بنت هذا الأخير. فاشتدت العداوة بينهما حتى بعد انقراض الدولة المرابطية. وقالت هذه المرأة قولتها المشهورة التي أصبحت مثلا يضرب بين نساء الأندلس، وذلك عندما سئلت عن صبرها على إبنها: "جرو كلب، جرو سوء، من كلب سوء لا حاجة لي به". وهكذا أسلمت إبنها لأبيه الأمير أبي محمد بن سعد بن مردنيش واختارت كنف أبيها إبراهيم".

وما هذا إلا مثال عن واقع كانت تخضع له الأسرة متأثرة بالظروف السياسية والاقتصادية للدولة. التي كان له الأثر العميق في تحديد العلاقات الزوجية والأسرية والاجتماعية.

أما ظاهرة الانتساب إلى النساء التي انتشرت في عهد المرابطين دون غيرهم من دول المغرب الإسلامي ، فقد تجلت بوضوح لاسيما في الأندلس، و إشمأزت منها نفوس الاندلسيين. وفي الواقع إن الانتساب إلى بعض النساء الفاضلات شرف وفخر. من ذلك أنها قامت دولة بالمغرب العربي انتسبت إلى امرأة، ألا وهي الدولة الفاطمية التي اشتقت إسمها من السيدة الفاضلة وهي فاطمة الزهراء رضي الله عنها، بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم). فسعت هذه الدولة إلى تدعيم شرعية حكمها وكسب ولاء السكان بفضل هذا النسب الشريف لآل البيت رضي الله عنهم. وكذلك كان شأن الدولة الموحدية

فمؤسسها عبد المؤمن بن علي يرجع بنسبه الشريف لآل البيت عن طريق أمّه، و هي "تعلو" بنت عطية بن الخير بن الخليفة بن موسى بن علي بن حسنن بن "كنونه" بنت إدريس بن إدريس... بن فاطمة الزهراء (ض) فبالتالي ليست كل امرأة تنال المكانة و التقدير و الاعتزاز من طرف قومها، إلا إذا كانت قامت بدور هام تستحق به فعلا تلك المرتبة، أو كانت تحمل نسب السلف الصالح الذي لابد من المحافظة على استمراريته في الحياة بوصفه سمة شرف ورفعة لحامليه في المجتمع الإسلامي.

وبما أن حامل مورثات القبيلة السائدة حسب عادات بعض قبائل صنهاجة الجنوب هي الأم، فأولوا لها عناية خاصة واقترن اسمهابأسماء الأمراء والولاة والقادة الكبار، كأبي عبد الله بن فاطمة وداود بن عائشة ويحيى بن غانية وغيرهم... الذين سهموا في توطيد أركان الدولة المرابطية وفي تمديد عمر الإسلام في الأندلس بجهادهم للنصارى. وما يدل على أن هذه العادة اختصت بها النساء اللمتونيات فقط، هي أنها لم تنطبق على غيرهن من نساء الأمراء غير الصنهاجيات كزينب النفزاوية البالغة الصيت وقمر، وضوء الصباح أمهات أولاد أمير المسلمين علي بن يوسف. لكن عادة الانتساب إلى الأم اعتبرها بعض الأندلسيون سيادة النساء على الرجال واحتقروهم في ذلك. وانعكست سلبا على رجال –المرابطين– رغم ما قدمه هؤلاء القادة المنتسبون إلى أمهاتهم من خدمة جليلة وجهود جبارة في الدفاع عن الأندلس من غارات النصارى. وأحسن مثال على ذلك وقعة إقليش في عام (501هـ/1105م)، التي اشترك فيها كل من القائدين داود بن عائشة وأبو محمد عبد الله بن فاطمة.

وربما هذا التفسير السطحي لهذه العادة يرجع أساسا إلى فتور العلاقات والتأثير الحضاري بين الأندلسيين وسكان الصحراء عامة، أو إلى حقد بعض الناقمين على الحكم المرابطي للأندلس. فتوهم البعض أن المرأة هي التي تسير الأمور والرجال ينقدون لأوامرها. لكن الدراسات السيويولوجية الحديثة تدحض هذه النظرة الضيقة التي شاعت على المرأة المرابطية، وترى أن اختيار أحد خطي الانتساب للأب أو للأم يخضع إلى تاثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحكمت في تحديد نوع الانتساب. ولم يثبت تاريخيا ضغط أمهات هؤلاء القادة في توجيه ابنائهم رغم التأثير البالغ لدور الأم في تربية أبنائها ورعايتهم، باستثناء وصف المؤرخ الموحدي عبد الواحد المراكشي. وأخذ عنه الكثير من الدارسين المسلمين والأجانب، ونقلوه دون تمحيص. حيث ذكر ما يلي:"...واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، واحتوت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة على كل مفسد وشرير، وقاطع طريق، وصاحب خمر وماخور".فما مدى صحة هذا الحكم في حق المرأة المرابطية؟

د- **مكانة المرأة الاجتماعية والاقتصادية :**

لقد صاحب قيام دولة المرابطين ظاهرة اجتماعية لم تكن مألوفة في المغرب من قبل، وتتمثل في بروز المرأة الصنهاجية سافرة في المجتمع، إلى جانب مشاركتها في الحياة العامة، إضافة إلى تمتع هذه المرأة بنوع من الحقوق كالحرية والمساواة، هذه الحقوق التي استنكرت من طرف البعض. وفي ظل انتشار هذه الظاهرة، يمكن لي أن أتساءل عن مدى التوافق بين سلطة فقهاء المالكية وبروز المرأة في المجتمع المرابطي ؟

إن النظم الاجتماعية لشعب الملثمين منحت المرأة مكانة عالية في المجتمع. فهي تتمتع بالمساواة التامة، وتشارك في مجلس القبيلة وتقتني الثروات. إلى جانب ذلك فهي التي تطهو الطعام وتربي الأولاد وتحوك الثياب. وعلى هذا الأساس فهي تعد الركن الركين في إقامة بناء الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ونتيجة لذلك تمتعت بسلطة واسعة في عشيرتها خاصة وفي قبيلتها عامة.(1) ولما آلت السيادة في الصحراء لقبيلة "لمتونة" انعكست تلك السيادة مباشرة على أسرها، لأن المرأة هي الركيزة الأساسية في الأسرة. بالإضافة إلى الدور الفعال لأواصر القربي والرحم في التآلف والتآزر والتماسك بين أفراد القبيلة.(2)كما أن لعامل المصاهرة الأثر البالغ في ذلك، رغم خضوع هذا الأخير بدوره لعدة عوامل (منها: النسب والقربى بين العائلات وتبادل المنافع الاقتصادية). وعلى هذا الأساس تحدد المكانة الاجتماعية للمرأة. فهذه المكانة لا تزال إلى حد الآن في بعض قبائل الطوارق (3) وبعض القبائل الموريتانية (4) شبيهة بتلك المكانة التي حظيت بها في عهد المرابطين.(5) وفي هذا الشأن يورد الشيخ المختار بن حامد (6) ما يلي:"إن النساء عند عامة أهل القطر، كأنهن لم يخلقن إلا للتبجيل والإكرام، والتودد لهن. فلا تكليف عليهن ولا تعنيف، فالمرأة سيدة جميع ما يتعلق بالبيت من متاع وماشية، والرجل بمثابة الضيف. فلها أن تفعل ما شاءت من غير اعتراض عليها ولا مراقبة. وليس من العادة أن تفعل شيئا من الخدمة بيدها إلا أن تكون في بيت فقير". ومن قبيل هذا القول ما أورده

---

[1] المختار بن حامد: تاريخ موريتانيا، ج 2، ص 179. سناء الخولي: الأسرة والحياة العائلية، دار النهضة العربية، بيروت، 1984، ص 63-64. Duveyrier: Op.cit, P339. السويدي: المرجع السابق، ص96.

[2] ابن خلدون: المقدمة: ص 122. و سناء الخولي: نفسه.

[3] يرجع البعض نسب طوارق إلى جدتهم "تين هينان" التي نسجوا لها أساطير وقصص كثيرة. ويعتقدون أن تمتع المرأة الطوارقية بالحرية يرجع جذوره إلى هذه المرأة التي اكتشف قبرها بالقرب من قرية "أباليسة". وذلك بمقبرة ترجع إلى ما قبل الفتح الإسلامي. ATTILIO Gaudio: Op.cit, P82. محمد السويدي: نفسه.

[4] المختار بن حامد: نفسه. Duveyrier: ibid. السويدي: نفسه.

[5] ابن عذاري: المصدر السباق، ج 4، ص 18

[6] **تاريخ مريتانيا، ج 2، ص 179-180**

"دي فيرية Duveyrier"[1]. في دراسته عن المجتمع الطوارقي:"أن النساء ذات مكانة رفيعة، بل تعتبر ندا للرجل، وتتمتع بالمساواة التامة. وهن يقتنين أغلب الثروات ويتمتعن بنفوذ لا حد له، ولا يباشرن أعمالهن البيتية بل يقوم العبيد بأدائها." ويبدو من خلال هذين النصين، أن الوصف يخص نساء الطبقة الخاصة أو الوجهاء أو الأغنياء في القبيلة؛ أي أن مكانة المرأة تحدد حسب مرتبتها في السلم الاجتماعي، وأن الواقع النسوي لمجتمع الملثمين الحديث له علاقة وطيدة بما ساد في القرنين (5-6هـ/11 و12م) وما يزال ذلك محفوظا في ذاكرتهم. لكني في الحقيقة تساءلت عن ماهية جذور هذه الظاهرة النسوية التي يقال عنها أنها "سيادة المرأة على الرجل" طبقا للنظام الأمسي القديم ؟ وهل فعلا سادت النساء المرابطيات على رجالهن ؟

للإجابة عن السؤال لابد من الرجوع إلى أصل هؤلاء القبائل الصحراوية ونمط معيشتهم. فاستنادا على إحدى الروايات التي تتحدث عن أصل صنهاجة، يتبيّن أن بعض قبائلها تشترك فيما بعضها البعض برابطة الدّم، وتمت بصلة وثيقة جدا إلى امرأة تعرف باسم "تازكاي العرجاء"[2] أبوها من قبيلة زناتة.[3] وكانت امرأة جميلة حسنة بدنة تليعة بارعة الكمال، تزوجت "بلمط بن عزاغ" من أولاد حمير. وكان لها منه ولدان هما: صنهاجة ولمط، وهما أخوين شقيقين[4] وبعد وفاة زوجها بمدة -غير محددة في المصادر- تزوجت ثانية برجل أعجب بحسنها، وهو "المسور بن المثنى بن كلاع بن أيمن بن سعيد بن حمير."[5] وأطلق على هذا الأخير اسم "هوار".[6] وأنجبت منه ابنا اسمه المثنى الذي هو أخ لصنهاج و لمط من الأم -تازاكي- وهكذا منذ هذا العهد برز دور هذه المرأة في قبيلتها زناتة. وربما سبب شهرتها يرجع إلى الدور الذي قامت به في تربية أبنائها وجمع شملهم، بدليل أن المثنى تربى عند أخواله الزناتيين بعد وفاة والده. ونسب هؤلاء الأخوة إلى أمهم " تازاكي العرجاء" وكثر نسلهم ثم تعددت قبائلهم مع مرور الزمن. ولما اشتد التنافس بينهم نزحوا إلى الصحراء وتفرقوا إلى عدّة قبائل.

---

[1] Duveyrier: Op.cit, P 339.

[2] وتسمى تصكي: أنظر: إبن خلدون: العبر، ج 12، ص 427

[3] إن هذه المرأة نسبت إلى أبيها من قبيلة زناتة العريقة بالمغرب واسمه زحيك بن ماغيس: أنظر: إبن خلدون: نفسه.

[4] تختلف رواية ابن خلدون في أولاد تصكي: فقبائل لمطة وكزولة وهسكورة هم بني تصكي وهم إخوة هوارة وصنهاجة. **وأن أم الثلاثة تصكي العرجاء بنت زحيك بن مادغيس، أما "صنهاجة" فمن ولد عاميل بن زعزاع، وأما هوارة فمن ولد أوريغ وهو ابنها ابن برنس**، أما الأخرون فلا تحقيق في نسبهم. أنظر: ابن خلدون: نفسه.

[5] **إسماعيل العربي: المقتبس من كتاب نزهة المشتاق**، ص 125.

[6] أطلق عليه اسم هوار لكلمة تقولها فسمى بها هوارا وهي التهور التي تعني عند العرب الحمق. أنظر القصة: إسماعيل العربي: نفسه.

وفي القرن (5 هـ/11م) أسست قبيلة لمتونة التي تنتمي إلى قبيلة صنهاجة العريقة دولة المرابطين(1) التي أعطت للمرأة حق الخروج والعمل والمشاركة في كثير من أنشطة الحياة(2) وربما يرجع هذا التصرف لعادات قبلية مضافا لها تمسكهم بتعاليم الإسلام الذي كرم المرأة ومنحها حقوقها كاملة مما سمح لها بالمشاركة في الحياة العامة. وما تزال قبائل اللثام إلى حد الآن تقريبا في نفس مواطنها تحتفظ بعادات وتقاليد الأجداد(3) ومن بين العادات الباقية منح المرأة مكانة رفيعة في المجتمع(4) ومما أثار تساءلي، هل فعلا أحرزت المرأة على الصدارة في المجتمع ؟ إذن ما هي مظاهر ذلك، وما هي انعكاساتها على المجتمع ؟

إن خير ما استدل به على ذلك هو مدح بعض شعراء(5) الأندلس " لحواء" بنت تاشفين ولمريم بنت إبراهيم بن تفلويت ولزينب بنت علي بن يوسف(6) التي عاشت في المجتمع الأندلسي المتحضر والمغاير لبيئتهما. فمن خلال ذلك المدح تتبين العوامل التي أهلتهن للصدارة في المجتمع، ويبدو أنها لم تقتصر على العامل المادي نظرًا لامتلاكهن للثروة، إنما ترجع لخصال حميدة تمتعت بها كل من "حواء" و "مريم" كالتقوى والورع والجود والعلم والتدين..(7) لكن هذا لا يعني بتاتا أنهما انفردتا بهذه الخصال دون باقي النساء وقتئذ، إنما زادهما رفعة ومكانة كونهما ينتميان إلى قبيلة لمتونة التي آلت السيادة إليها في هذه الفترة. وهذا مما يوحي إلى المنزلة الرفيعة التي خص بها المرابطون نساءهم، ويؤكد أن للأصل والنسب معالم أساسية في تحديد مكانة المرأة في السلم الاجتماعي(8) ومن ذلك ما أشاد به الأعمى التطيلي الأميرة حواء(9) كما أشاد بشجاعة قومها وذودهم عن الإسلام خاصة في الأندلس(10) وأثنى أيضا الشاعر ابن خفاجة على قوم الأميرة مريم بنت إبراهيم.(11) ويظهر أن حواء

---

[1] إبن خلدون: المرجع السابق، ج 12، ص 380، 379. أنظر المدخل التاريخي من هذا البحث.

[2] حسن علي حسن: المرجع السابق، ص 358

[3] إبن خلدون: المقدمة، ص 135.

[4] محمود السيد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين. مؤسسة شهاب الجامعة – الإسكندرية – 1999 ص 111.

[5] منهم: الأعمى التطيلي وابن خفاجة. لأن الشعر هو المرآة التي تعكس أوضاع المجتمع. أنظر الملحق رقم 4 و7.

[6] مدحها الشاعر أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن المواعيني. أنظر ابن سعيد: المغرب، ج1، ص 242.

[7] عبريق سهيلة: فن المديح في عهد المرابطين، ص ص 126-129

[8] سناء الخولي: المرجع السابق، ص 63

[9] يا أخت خير ملوك الأرض قاطبة ... وإن اعدّوا وإن اسموا وإن نسبوا
إذا رضوا فارجوهم في كل نائبة ... وكن على قدر منهم إذا غضبوا
إذا دعوا قامت الهيجاء على قدم ... كأنما تنتمي فيهم وتنتسب. ديوانه: ص 18.

[10] هم ثبتوا الدين أضاقت مذاهبه ... بأنفس صيغ منها الدين والحسب. نفسه، ص 17.

[11] من أسرة يتلثمون إلى الوغي ... يوم الحفيظة بالعجاج الأقتم
من بيت عزّ، من نيال، حيث لا ... تلقى بغير مسود ومعظم. ديوانه: ص 253.

امتلكت ثروة طائلة وكانت تديرها بنفسها مع ذلك فإنها كانت تقية ورعة شأنها في ذلك شأن أخيها يوسف بن تاشفين، حتى قال عنها الأعمى التطيلي(1)

دنيا ولا ترف، دين ولا قشف ملك ولا سرف، درك ولا طلب.

كما قال الشاعر ابن خفاجة (2)في مريم بنت إبراهيم:

ذات المكانة والديانة والتقــى والخلق الأشرف والطريق الأقوم

ذات الجلالة والجزالة والنهى والبيت الأرفع والنصاب الأكــرم

كما قيل في جودهما ما يلي:

أما رأيت ندى حواء كيف دنا بالغيث إذ كاد يأتي دونــه العطب

وقد صرح الأعمى التطيلي في هذا المدح برغبته في العطاء المادي قائلا:

قد عمّ برك أهل الأرض قاطبة فكيف أخرج منه جارك الجــنب(3)

أما الأميرة مريم بنت إبراهيم فقد أشاد الشاعر بسخائها ضمن السخاء المرابطي وشجاعته قائلا:

إن جاد، جاد هناك حاتم طئي أو صال، صال ربيعة بن مكدم(4)

أما أهم ما ميّز المكانة الرفيعة للأميرة حواء، هي تلك الصورة التي رسمها لها الشاعر الأعمى التطيلي:

مليكة لا يوازي قدرها مـــلك كالشمس تصغر عن مقدارها الشهب

أنثى سما باسمها النادي وكم ذكر يدعى كأن اسمه مـــن لؤمه لقب(5)

وهكذا يتجلى إيمان الشاعر بأن الذكورة ليست أسمى ولا أفضل من الأنوثة. ومن ذلك فليس التأنيث منقصة لإسم الشمس، ولا التذكير فخر الهلال. فلقد شبه هذا الشاعر ممدوحته الأميرة حواء في حسنها ومكانتها العالية بالشمس التي تتصدر كل الكواكب(6)ويبدو أن هذه الصورة الشعرية معبرة بصدق عن نظرة المرابطين تجاه المرأة التي تعد مصدر الحياة. والمفروض أن تكون هذه الصورة كذلك في كل المجتمع الإسلامي عامة، لأن الإسلام سوى بين الرجل والمرأة في العمل، وقال الله عز و جلّ في هذا الشأن:

"فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض."(7)

---

[1] المصدر السابق، ص 17. أنظر القصيدة في الملحق رقم 4.

[2] المصدر السابق، ص 253.

[3] نفس المصدر، ص 16-18

[4] ابن خفاجة: [illegible] ، ص 253. سهيلة عبريق : المرجع السابق، ص 129

[5] نفس المصدر، ص 17

[6] سهيلة عبريق: نفسه.

[7] سورة آل عمران: الآية 195.

وللإشارة فإن المرابطين لم يستأثروا بمنح هذه الحرية والمكانة لنساء البلاط أو للصنهاجيات فقط، بل أعطوا للمرأة عامة سواء في المغرب أو الأندلس حق الخروج والسفور والمشاركة في الحياة العامة على قدم المساواة مع الرجل رغم أن المجتمع المغربي لم يكن يألف ذلك(1)وهذا ما دفعني إلى أن أتساءل عن المصادر الحقيقية للثورة التي امتلكتها بعض النساء والتي أهلتهن إلى احتلال الصدارة والنفوذ في المجتمع، وعن مجالات استثمارها ؟

إذا انطلقت في البحث عن مصادر ثروة النساء في هذا العصر منذ صدر تأسيس دولة المرابطين، فإن مصادرها كانت عن طريق الإرث والوصية والهبات والأحباس، بالإضافة إلى ما كسبت من أموال بمساهمتها في النشاط الاقتصادي(2)ونتيجة لهذه العوامل اشتهرت بعض النساء بالثراء المادي.

فأشهر نساء الفترة غنى هي الحرّة زينب النفزاوية (3)التي ورثت عن أبيها التاجر أموالا أهلتها إلى كسب مكانة وسمعة طيبة في منطقة السوس حتى تودد لها الكثير من شيوخ القبائل. كما أنها ورثت من زوجها لقوط بن يوسف المغراوي (4)ثروة طائلة. ففي العائلات الغنية ترث المرأة من تركة أهلها ولاسيما الوالدين مما يجعل المرأة في هذه الطبقة الخاصة عزيزة النفس وقوية الشخصية حتى في بيت زوجها.وذلك ما أشارت إليه فتاوى هذه الفترة حيث أصبح الإرث مصدر خلاف ونزاع بين أفراد العائلة. ومن ذلك ما حدث لأحد الأبناء استولى على حق إخوته الإناث.(5)كما حاول الزوج الإستلاء على مال زوجته الذي ورثته من أهلها(6) وغيرها من الحالات التي شكلت مصدر خلافات عائلية بين المرأة وأهلها أو مع زوجها أو بين الإخوة والأخوات.

كما كانت الهبات والأحباس إحدى الطرق التي استطاعت المرأة الامتلاك من خلالها العقار أو الأموال أو الحلي، ويظهر أن إمتلاكها للثروة هو الذي مكنها من كسب نوع من الاستقلال المادي عن زوجها وانعكس ذلك على علاقتها معه وعلى فرض إرادتها في إدارة شؤون بيتها(7)من ذلك ما تطلعنا به إحدى النوازل:"أن امرأة من مدينة سبتة بالمغرب، وهبت ميراثها في ابنتها لحفدتها بني ابنتها

---

[1] محمود السيد: المرجع السابق، ص 112

[2] كمال مصطفى: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي، من خلال نوازل الونشريسي: مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1997، ص ص 26-27-32

[3] الإدريسي: المصدر السابق، ص 227.

[4] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 18. ابن خلدون : العبر، ج12، ص 382. السلاوي: المصدر السابق، ج2، ص 15

[5] التليلي: المصدر السابق، السفر3، ص 525، ص 1407، 1408.

[6] نفس المصدر: م 615، ص 1601. و م 654، ص 1638.

[7] ما تزال هذه الظاهرة مستمرة حاليا انظر : سناء الخوالي: المرجع السابق: ص 301

المذكورة في جميع ما تخلفه وكان مما خلفته نصف جنة. كما أنها كانت قد أمتعت أمها بغلتها طول حياتها في صحتها وعقد بذلك عقدا للإثبات."(1)"كما أن رجلا وهب لابنته هبة واشترط فيها أنها إذا توفيت عن غير ولد، وكانت ابنة أختها حية يوم موتها فمرجع الهبة المذكورة إلى ابنة أختها فلانة المذكورة وتكون لها مالا وملكا."(2)ومن هذين المثالين لعقود الهبات يتضح أن هذه الأخيرة مقيدة بشروط التي تجعلها دائما موروثة في عائلة الأم، وهذه عادة شائعة في المجتمع المغربي وفي بعض العائلات ربما من أجل الصيانة والحفاظ على مكانة الابنة أو المرأة عامة في المجتمع(3)

أما الأحباس فقد كثرت في الغرب الإسلامي على الزوجات والذراري إناثا وذكورا وذلك بهدف تأمين حياة كريمة لهم أو للحفاظ على بعض الممتلكات من محاولات الانتزاع(4)وهناك إشارات عديدة إلى مثل تلك الأحباس. وأذكر عل سبيل المثال أن رجلا حبس على ابنته نصف جميع حظه في حمام وعلى عقبها بعد موتها، وعلى عقب عاقبها ما تناسلوا(5)كما تم حبسا مؤبدا من رجل على ابنته وعلى كل ولد يحدث له بعدها من ذكر أو أنثى(6)بيد أنه ليس في كل الحالات تجد البنت هذه الرعاية الأبوية، بل يحدث أن ترمى البنت بالسفهة والقصر فتمنع من حقها. ومن ذلك:"تحايل رجل وهو في مرضه على حبس ثروته على أبنائه الذكور بإشهاد بناته على ذلك وموافقتهن على ذلك"(7)وربما ما وافقت البنات على رغبة والدهن إلا إشفاقا عليه لأنه مريض أو طاعة له، أو خوفا من سطوة إخوانهن مستقبلا نظرا لتبعيتهن لهم.

وعموما مهما كانت مرتبة المرأة في العائلة فقد حظيت بالرعاية من طرف أسرتها.وجمعت بعض نساء الوجهاء ثروات هامة كأراضي واسعة، ومساكن، ومواشي، ورحى...الخ مكنتهن من احتلال مكانة معتبرة في المجتمع والإسهام في الحياة الاقتصادية للدولة(8) وتشكلت ملكية عقارية خاصة التي استولت عليها بنات الوجهاء كالفقهاء والقضاة،(9)مما دفعني أن أتساءل هل يمكن التوفيق بما قاله المراكشي النساء لأموالهن ؟

---

[1] التليلي: المصدر السابق، السفر 1، م 71، ص 323

[2] نفس المصدر ، السفر 2، م 358، ص 1063

[3] Marchesin : Op.cit, P1

[4] كمال أبو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي، ص 176-179. عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص 150.

[5] التليلي: نفسه. عز الدين أحمد موسى: نفس المرجع، ص 115

[6] التليلي: نفس المصدر ، السفر2، م 318، ص 1063.

[7] نفسه: م 275، ص 959.

[8] عز الدين أحمد موسى: نفس المرجع، ص 165، 186.

[9] التليلي: نفس المصدر ، السفر 1، م:169، ص 734. أنظر الملحق رقم 11.

لقد أنفقت بعض النساء الغنيات أموالهن في طرق البر والإحسان أو في مشاريع اجتماعية، فزينب النفزاوية كانت في طليعة النساء التي وضعت ثروتها في خدمة الدولة(1)عند قيامها، فاستثمرها يوسف بن تاشفين في عدّة مجالات. وتتضح ضخامة الثروة التي كانت تملكها زينب النفزاوية من حجم الهدايا التي قدمت للأمير أبي بكر بن عمر الذي اقتنع بها وصرف نظره على إمارة المغرب عائدا إلى الصحراء(2)ويضاف إلى ذلك تميمة بنت يوسف بن تاشفين التي كانت تملك ثروة هامة، تديرها بنفسها واتخذت لذلك الوكلاء والكتاب وكانت تحاسبهم وتبرز لهم(3)ويتضح من ذلك مدى حرصها على إدارة ثروتها بنفسها.

يضاف لذلك كرم وجود كل من الحرّة حواء بنت تاشفين(4)ومريم بنت إبراهيم(5) أما نساء العامة فهن كثيرات في الجود والكرم والأعمال الخيرية رغم صمت المصادر التاريخية عن ذكرهن بأسمائهن، واتضح ذلك من خلال كتب النوازل. فمنهن من حبست أموالها على أخويها(6)وأخرى أوصت بجزء من أملاكها لأحد الأسرى(7)كما أوصت إحداهن بثلث أملاكها للمساكين(8)ويذكر عن أخت عبد السلام التونسي (9)أنها تحملت مشاق السفر من تونس إلى مدينة أغمات لتسلم نصيب أخيها في الميراث الذي قدر بألف دينار.(10)وبعض النساء الغنيات وخاصة المسنات كنّ يساعدن الفقيرات في تجهيز أنفسهن.(11)وهكذا يتبين من خلال هذه النماذج مدى إساءة المراكشي لسمعة نساء هذه الفترة ونقل هذه الإدعاءات إلى المشرق.

فإذا كان هذا هو حال الأميرات أو بعض النساء الغنيات اللائي امتلكن الثروة بطرق شرعية وأنفقناها في أبواب البر، فإن هذا الشأن لا ينطبق على نساء عامة المجتمع المرابطي، وهن الأكثرية

---

[1] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 87. بوتشيش: المرجع السابق، ص 48، 49.

[2] ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 24، 25. الحلل الموشية: ص 8.

[3] ابن عبد الله: معجم أعلام نساء المغرب، ص 7و8.

[4] الأعمى التطيلي: المصدر السابق، ص 15. المختار التليلي: فتاوى ابن رشد، السفر 2، م 395، ص 1223، 1224

[5] ابن خفاجة: المصدر السباق، ص 245.

[6] الونشريسي: المصدر السباق، ج 6، ص 169.

[7] نفس المصدر، ج 1، ص 296-297

[8] المختار التليلي: نفسه، م307، ص 1043.

[9] أبو محمد عبد العزيز التونسي: أصله من تونس، أخذ الفقه عن أبي عمران الفاسي وأبي إسحاق التونسي. استقر بأغمات، درس الناس الفقه ثم تركهم لما رآهم نالوا به الخطط والعمالات، كان زاهد في الدنيا متقشفا، مات بأغمات في 486 هـ /1093م. ابن الزيات: التشوف، ص 70

[10] نفسه

[11] ابن حزم: طوق الحمامة، ص 50. خلاص: إشبيليا في القرن 5 هـ...، ص93.

Henri Lhote. Le Hoggar espace et temps, Armand colin, Paris, 1984, P12. (Collection civilisations)

حيث دخلن عالم الشغل والاسترزاق بعرق جبينهن. وساهمن في مختلف الأنشطة الاقتصادية حسب ما تقتضيه ظروفها البيئية والاجتماعية والمادية.

ففي الأوساط الحضرية مثلا مارست المرأة عدّة أنشطة. وكان دورها بارزا بالأخص في الغزل وفي الصناعات النسيجية الصوفية والقطنية والحريرية[1]واشتهر أهل السوس وأغمات بأنهم أكثر الناس تكسبا، وأطلبهم للرزق. وأنهم يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب[2]"فكانت النساء ماهرات في غزل الصوف، الذي يعمل منه كل عجيب وحسن بديع مثل الأكسية الرقاق والثياب الرفيعة ما لا يقدر أحد على عمله بغيره من البلاد".[3]أما نساء سجلماسة فكن أيضا يسترزقن من غزل الصوف، فيبعن الإزار الصوفي بـــ خمس وثلاثين دينارا فأكثر. كما كن يصنعن الغنارات ويبعنها بالثمن نفسه.

كما اشتهرت مدينتي داي وتادلة[4]بالصناعات القطنية بحيث يعمل بها أنواع من الثياب القطنية التي اكتسب شهرة خاصة في المناطق الأخرى من المغرب[5]ومما يذكر أن "زينب" شقيقة محمد بن تومرت التي عاشت في كنف دولة المرابطين، كانت تمتهن غزل الصوف و تبيعه) ومن عمل يدها كان يقتات ابن تومرت كل يوم رغيفا وقليلا من الزيت[6]ومن النساء اللائي ورد في شأنهن الاسترزاق بصناعة الغزل أيضا بنات المعتمد بن عباد، اللائي كن يغزلن الصوف لبنات عريف أبيهن بالأجرة بمدينة أغمات[7]وهذا ما يوحي أن عملية الغزل لم تكن تتطلب خبرة كبيرة ومهارة بالنظر أن هؤلاء البنات اللائي من الطبقة الأرستقراطية تعلمنها واسترزقن منها. ويظهر أن غزل القطن ونسج الصوف كان مصدر رزق للفقيرات[8] اللائي لم يملكن المادة الخام، مثل بنات المعتمد بن عباد في منفاهن.

---

[1] عز الدين موسى: المرجع السابق، ص 213، 215، 217

[2] البكري: المصدر السابق، ص 163-170. علام عبد الله: المرجع السابق، ص 246.

[3] الإدريسي: المصدر السابق، ج 2، ص 227

[4] تقعا بالقرب من جبل درن بالمغرب الأقصى، وما بين المدينتين، ومدينة أغمات مسيرة أربعة أيام، ورغم صغر مدينة داي إلا أنها عامرة نظرا لكثرة تردد القوافل التجارية عليها استجلابا للقطن وللمنسوجات القطنية التي اختصت بها تادلة: أنظر: الإدريسي: نفس المصدر: مج2 ص 241-243

[5] الإدريسي: نفسه.

[6] ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 294. ابن خلكان: المصدر السباق، مج5، ص 54. عبد المجيد النجار: المرجع السابق، ص 36- 135

[7] المراكشي: المصدر السباق، ص 155

[8] الونشريسي: المصدر السابق، ج3، ص 306، 307

وعموما فقد اشتهرت عدّة مدن مغربية بهذه الصناعة (1) و اشتهرت منها أكسية رجراجة التي كان النساء يلتحفن بها في مراكش (2) كما يذكر أن إحدى النساء أعدت كفنها من عمل يدها، بحيث زرعت في أرض موروثة لها الكتان، ثم صنعت من هذا الأخير كفنها، وذلك تحريا للحلال (3) وللإشارة فإن هذه الصناعات النسيجية ولاسيما الصوفية ما تزال مستمرة في وسط النساء إلى حد الآن في المناطق الريفية وهي تعد من الصناعات التقليدية ذات القيمة التاريخية لكل مدينة مغربية.

ولكن لم تخل هذه الصناعة من الغش وتحايل النساء للكسب الوفر. إذ بعد إتمام عملية الغزل يبللنه بالماء ثم يضعنه على شكل كبات ليثقل في الميزان وليبدو بمظهر جميل. ولذلك أمر ابن عبد الرؤوف بائعي الغزل بتبييس هذا الأخير في الشمس (4) مثلما نهى ابن عبدون عن هذا التدليس وأمر بعدم بيع الغزل مكببا لثقله في الميزان (5) ويتبين مما سبق أن صناعة المنسوجات كانت رائجة في الأندلس في أوساط النساء. خاصة المنتوجات الحريرية لذلك ساهمت بعض النساء في تربية دود الحرير – القز– التي اشتهرت بزراعتها بعض مدن من بلاد الأندلس (6) ففي شهر فبراير تبدأ النساء بتحضين بيض الحرير حتى يفقس إلى أن يتولد الحرير في شهر مارس (7) ولذا اشتهرت عدّة مدن أندلسية بالصناعات النسيجية الحريرية ذات الجودة الرفيعة لاسيما في مدينة مالقة. وكان ثمن الحلة الموشية من إنتاجها يتجاوز آلاف الدنانير. أما مدينة المرية فقد بلغ عدد الطراز بها أكثر من ثمانمائة طرازا ولا يستبعد أن تكون النساء كثيرات ضمن هذا العدد العام (8)

وقد تنوعت أنواع الأقمشة الفاخرة التي لم تكن سوى في متناول سيدات الطبقة الخاصة من الأمراء والأغنياء. ومن الصناعات: المعاجر وهو ما تضعه النساء على رؤوسهن أو يلتحفن به (9) وهذا

---

[1] إضافة إلى سجلماسة ومنطقة السوس أذكر: لمطة، تلمسان، وجدة، رجراجة، سلا.... انظر الإدريسي: المصدر السابق، ج2، ص 227. وعز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي...، ص 220

[2] الإدريسي:نفسه. وعز الدين موسى: المرجع السابق، ص 220.

[3] التادلي: المصدر السابق، ص 187-188.

[4] Rachel Arié : « le traité de Hisba d'Ibn Abd ALRA'ÜF » in, Hesperis Tamuda, VI, 1ère Fax, ED : Techniques Nord Africaines, Rabat, 1960, P37.

[5] المصدر السابق، ص 87

[6] اشتهرت الأندلس بزراعة أشجار التوت، (يطلق عليها الفرصاد) لملائمة مناخها لزراعته وبالتالي ازدهرت بها حرفة تربية دود القز، الذي يعيش على ورق التوت، وقيل أن مدينة جيان احتوت على أكثر من ثلاثة آلاف قرية تربى بها دود الحرير، إضافة إلى بسطه ووادي آش وجبل نشير بكورة غرناطة، والمارية وبطليوس وغيرها من المناطق.... أنظر: الإدريسي: نفس المصدر، مج 2، ص 568. ابن الحاج : المصدر السابق، ص 106. محمود السيّد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص190.

[7] كمال أبو مصطفى: المرجع السابق، ص190.

[8] نفسه

[9] الإدريسي: نفس المصدر، ص 562

ما يشير إلى تستر المرأة عند خروجها بقماش رفيع في الأوساط الغنية. كما كانت تجهز العروس – الغنية– في المغرب ببعض هذه الأقمشة الرفيعة. وخلاصة القول)يبدو لي أن ما أبدعته أنامل العاملات، لسد حاجتهن الاستهلاكية سواء اليومية أو خاصة في المناسبات كالأفراح والمواسم الدينية، كانت تتمتع به وتهنأ به نساء الطبقة الغنية في المجتمع. ومن ذلك أن امرأة فقيرة دفعت لزوجها غزلا ليبيعه ويشتري بثمنه أضحية العيد(1).

أما في الوسط الشعبي، فقد انحصر عمل المرأة على الخصوص في بعض العائلات في رعاية أطفالها وزوجها، وما تتطلبه هذه الرعاية من جهد المرأة في القيام بالشؤون المنزلية من طهي طعام وكنس وتنظيف...الخ) مما جعل دورها ينحصر بين جدران البيت، فأصبحت عبارة عن مجرد كيان تابع للرجل من حيث الاسترزاق.(2) وكان على الرجل العامي العمل بجهد خارج المنزل لكي يوفر قوت عياله. لكن من جهة أخرى يمكن وصف هذه العلاقة بين زوجين في هذه الطبقة أنها قائمة على نوع من التعاون والتضامن الذي فرضته الحياة من خلال عمل المرأة داخل المنزل والزوج خارجه.(3) إلا أن هذا لا ينطبق على كل النساء، فقد كانت بعض النساء تتجاوز في أعمالها الواجبات المنزلية أحيانا للمساهمة في رفع دخل الأسرة أو في توفير القوت الضروري لها وهي لا تبرح منزلها، لكن إذا اضطرت إلى ذلك كانت تسعى خارجه. ومن الأمثلة على ذلك ما اشتهرت به أم الشاعر الأندلسي أبو بكر بن "اللبانة"(4) الذي اشتهر باسم مهنة أمه. عرفت هذه المرأة أنها كانت عاملة مجدة، أخذت على عاتقها إعالة أولادها ببيع اللّبن. كما أن بعض النساء النشطات، كن يقمن بخبز الدقيق في بيوتهن ثم يأتي من يحمله إلى الأفران ليقوم الخبازين بخبزه.(5) والبعض منهن امتهنت حرفة الحلاقة وجعلتها شرطا في صداقها(6). وهكذا يظهر مساهمة المرأة في مختلف أنواع الأنشطة الاقتصادية.

ولا يفوتني أن أشير إلى أن وضع المرأة في هذا الوسط، كان له علاقة وطيدة مع إمكانياتها المادية ومركزها الاجتماعي، لأن بعض نساء هذا الوسط، ترفعن عن الخدمة حتى في المنزل واشترطن خادم يقوم مقامهن في تدبير شؤون البيت، ومنها ما ذكره ابن زيات عن أحد أصحاب أبي

---

[1] التادلي: التشوف: ص 273.

[2] عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ الحضارة العربية، ص97. Guichard : op.cit ; P79

[3] خلاص: المرجع السابق، ص 91

[4] ابن اللبانة: هو أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي ولد بمدينة دانية شرق الأندلس، يعد كاتب وشاعر بني العباد الوفي لهم بعد قضاء المرابطين على دولتهم. لقد زار المعتمد بن عباد في منفاه بأغمات، وترك عددا من القصائد، ترك كتاب "نظم السلوك في مواعظ الملوك". لم يعرف تاريخ ميلاده، توفي في عام 507هـ /113ام.الضبي: بغية الملتمس، ص 143. يوسف فرحات: معجم الحضارة الأندلسية، ص 64

[5] التادلي: التشوق: ص 181-303. حسن علي حسن: المرجع السابق، ص 349

[6] الونشريسي: المصدر السابق، ج1، ص85.

يعزى، الذي تزوج، فطلبت منه زوجته خادمة، ولم تكن عنده، فلما اشتكى لأبي يعزى تطوع هذا الأخير في خدمة هذه المرأة متنكرا في زي المملوكة(1)-خادمة-، وخدم هذه الزوجة عاما كاملا. فكان يطحن ويعجن ويخبز ويسقي الماء بالليل ويتفرغ بالنهار للعبادة في المسجد. فاستعجبت هذه الزوجة من تصرفاته ومن حسن خدمته لها، حتى انكشف أمره لديها، حينئذ اتعضت هذه المرأة واستحيت من الشيخ وأقسمت على خدمة نفسها بنفسها منذ ذلك الحين.(2)كما أشارت عدّة نوازل على امتلاك بعض النساء للخدام، وترفعن عن ذلك(3)وكان الناس يفضلون الطباخات السودانيات، لأنهن يحسن الأطعمة ولاسيما أصناف الحلويات، فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن(4)

أما وضعية المرأة في الريف فقد اختلفت نسبيا على وضعية نظيرتها في العائلات الحضرية، ففي هذه الشريحة من المجتمع النسوي، تعيش المرأة في غالب الأحيان تحت وطأة الحاجة التي ترتبط بالظروف المالية والاقتصادية لأسرة والديها من جهة ولأسرتها الخاصة من جهة أخرى. فهذه المرأة البدوية هي أكثر نشاطا من نظيرتها في المدن. إذ تسعى بنفسها لسد الاكتفاء الذاتي لأسرتها. فبالإضافة إلى ما على عاتقها من شؤون المنزل من طهي ونظافة وتربية للأبناء، وما تستدعيه الحياة في الأرياف إلى توفير الحطب لاسيما للطبخ فإنها ساهمت في الزراعة والصناعة، كما دخلت أيضا غمار السوق(5) لكن أنشطتها تنحصر في الإطار العائلي والوراثي(6)في غالب الأحيان، وتطلعنا إحدى نوازل الفترة أن إحدى النساء ساهمت مساهمة فعالة مع زوجها في عمله خلال كل مراحل الموسم الفلاحي(7)وامرأة أخرى بعدما حضرت الطعام حملته للحقل لزوجها، وحين وصلت حاولت أن تتبع الحصادين وتلتقط الزرع من بعدهم، لكن منعها شريك زوجها من ذلك، خوفا من أن تجمع كمية معتبرة، هذا الأمر الذي سبب الخلاف بين الشريكين(8)ويذكر البيذق أن أم عبد المؤمن بن علي "تعلو"، كانت تخرج أثناء الحصاد مع زوجها وهي حامل بعبد المؤمن(9)وتتميز بعض البدويات التي تضطرهن الظروف إلى بيع الخبز والفواكه والخضر والبيض والجبن على قارعة الطرق المعتادة من طرف المسافرين، وعرفن

---

[1] التادلي: المصدر السابق، ص 200-201.
DERMENGHEM (Émile) : le culte des saints dans l'islam maghrébin, ED : Gallimard, France, 1954. P62

[2] نفسه: ص DERMENGHEM: Ibid.201

[3] التليلي: المصدر السابق، السفر3، م 653، ص 1637. و م 545، ص 1486.

[4] مجهول: الاستبصار، ص 216. وأنظر كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، ص 96.

[5] عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين: ص 305،303.

[6] عز دين احمد موسى: المرجع السابق، ص 186. حسن علي حسن: المرجع السباق، ص 362.

[7] ابن الحاج: المصدر السابق، ص 8.

[8] التليلي: نفس المصدر، السفر2، م 345، ص 1115.

[9] أخبار المهدي: تح حاجيات: ص 34.

بالنشاط الدائم من أجل الكسب الحلال(1)هذا من بين ما بين لنا عدم تعاملها مع اللصوص والمخمورين بل كانت تسعى للكسب من عرق جبينها.

يقال أن انشاط المرأة المجتمع وأن السوق هو نفط المجتمع، فما هي طبيعة علاقة هذه المرأة بالسوق؟

لم يقتصر نشاط المرأة على ممارسة بعض الأنشطة الاقتصادية كالفلاحة وبيع بعض ما تنتجه في الشوارع للمسافرين وفي دور النساء المحتجبات، بل دخلت غمار السوق كبائعة أو مشترية أو دلالة أو سمسارة(2)وحتى عونا للمحتسب. –أي أمينة-(3).

ومن المؤكد أن السوق سوف تعود عليها بأرباح أكثر مما تقدمه للمسافرين، لذلك كان عليها حتما منافسة الرجال في البيع والشراء، وبدت هذه الظاهرة واضحة أكثر في الأندلس لأن النساء كن أكثر حرية في الشغل. وتتضح صورة السوق جليا وقتئذ من خلال كتب الحسبة في تلك الفترة، وما كان يقوم به المحتسبون وأعوانهم في الأسواق من تشدد مع النساء اللائي كن يقصدنها سواء كانت المرأة بائعة أم مشترية. وعملت هذه الكتب على تحديد علاقة النساء بالسوق صيانة وحفاظا عليهن وعلى نظام السوق. ومما نصت عليه ما يلي:" ينبغي أن لا يستعمل النساء في بيع غزلهن إلا الشيوخ الثقاة الذين عرفت أمانتهم وفضلهم بمخالطتهم النساء في ذلك الوقت، وكلامهم معهن والأخذ منهن والإعطاء لهن، وينبغي أن يكون لهن موضع يجتمعن فيه لبيع غزلهن. ولا يمكن من جلوسهن في الحوانيت، وأن لا يبيع لهن شاب، ولا من تعرف له صبوة بوجه ولا بحال، لأن النبي صلى الله عليه وسلم، يقول:" باعدوا بين أنفاس الرجال وأنفاس النساء."(4)وفعلا كانت تخصص في السوق أماكن للنساء، وعرفت إحدى الأسواق "بسوق الغزل" لأن النساء كن يجتمعن فيها لبيع غزلهن.(5)كما كان باب العطارين بقرطبة مجمع للنساء يشترين حاجتهن الخاصة من عطور وزيوت وصابون وتوابل وبخور.(6)كما كانت أم الشاعر ابن اللبنة "امرأة برزة فارسة وصاحبة دكان والمكيال والميزان، وصاحبة حق وصدق في حرفتها."(7)ومن أجل هذا اشتهرت بين الناس وغلب اسم اللبن عليها – بحيث

---

[1] دندش: المصدر السابق، ص 303.

[2] عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص 266، 283.

[3] ابن عبدون: المصدر السابق، ص47. Rachel Arié : op.cit .P37

[4] ابن عبد الرؤوف: المصدر السباق، ص 87. ابن عبدون: نفسه.

[5] بوتشيش: المرجع السابق، ص 42.

[6] عبد العزيز سالم: قرطبة، ص 294.

[7] عصمت دندش: نفس المرجع ، ص 317

لم يذكر اسمها- ونسب أولادها لحرفتها. و أورد البيذق(1)أنه خلال رحلة عودة ابن تومرت وجدوا بتلمسان نساء يبعن اللّبن فنهاهن عن التبرج، ولم يمنعهن عن البيع. مما يوحي أن المرأة لم تمنع من الدخول إلى السوق، إنما ألزمت بحدود عدم التبرج والإقامة بأماكن خاصة تفاديا للاختلاط ولعواقبه غير المحمودة عليها، ويظهر أنه كانت لها الحرية في اقتناء بعض حوائجها من السوق لاسيما العطور.

ولقد أشرفت بعض النساء الغنيات في الأندلس على إدارة شؤونهن المالية بنفسهن. ومن ذلك ما حدث عن عملية بيع وشراء بين امرأتين من بلنسية(2)، بحيث اشترت إحداهما وهي "إدلال" أم ولد (فلان) من عائشة بنت (فلان) جميع الدار التي بحاضرة بلنسية وداخل سورها [...] وجميع الجنة التي بخارج مدينة بلنسية بموضع كذا، ومنتهى حدها كذا، بعامة جميع حقوق الدار والجنة المبيعتين المحدودتين فوق هذا، ومنافعهما ومرافقهما الداخلة فيها والخارِجة عنهما، وبقاعة ذلك كلّه وبنيانه وأنقاضه علوّ ذلك وسفله، وبما في الجنة من ضروب الشجرات وأنواع الغرسات المثمرة وغير المثمرة إشتراء صحيحا، تاما مبتولا دون شرط ولا ثنيا ولا خيار [...] في عام خمسة عشر وخمسمائة(3). ومن هذه المسألة استنتج أن المسكن كان من بين الإنشغالات التي استرعت اهتمام بعض النساء بيعا وشراء نظرا لضرورته الاجتماعية، ومما يؤكد ذلك أن بعض النساء اشترينه حتى من أزواجهن(4).

والملاحظ على عقود الأشرية والأقضية أنها كانت تنص على أسماء الأشخاص المتعاملين بالإضافة إلى اسم الشاهد على ذلك البيع، مع ذكر المكان والزمان اللذان تم فيها العقد. وهذا مما يزيد في صحة هذه الوثائق الرسمية. كما امتلكت المرأة الأراضي الواسعة كنت قد اشرت إلى بعضها ضمن شروط عقود الزواج(5)، و امتلكت المواشي من بقر وغنم، ووكلت عليها من يقوم بخدمتها(6). وأيضا دخلت كشريك مع بعض الرجال في امتلاك بعض العقار كالرحى والحمام(7)، وكل ذلك خول لها نوعا من الإدارة على أملاكها الخاصة ونفوذا اجتماعيا، هذا الأمر إنشغال بعض الناس التساؤل عنه، فأفتى في ذلك القاضي أبو الوليد بن رشد على "أن المرأة يمكن أن تكون هي المدبرة في التجارة إذا

---

[1] أخبار المهدي: ثق حاجيات، ص 40-42.

[2] مدينة أندلسية تقع شرقي قرطبة، ذات مناظر طبيعية خلابة، استردها المرابطون من النصارى في 495هـ/ 1101م. أنظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1 ص 490.

[3] التليلي: فتاوى ابن رشد، السفر2، م: 321، ص1071-1072.

[4] نفس المصدر: السفر3، م 654، ص 1638.

[5] أنظر الملحق رقم 12.

[6] نفس المصدر: السفر3، م 509، ص 1401، و السفر 1، م 140، ص 608، ابن الحاج: المصدر السابق، و 106، 107.

[7] نفس المصر: السفر1، م 18، ص 183 و م 64، ص 308.

أذن لها سيدها بذلك"(1) هذا ما حدث فعلا، فكانت تدير شؤون تجارتها بنفسها أو بمساعدة الوكلاء لها. وكثيرا ما كانت عقود الشراء والبيع والشركة مثارا للخلاف بين الأشخاص المعنيين سواء بين النساء بعضهن ببعض، أو بين الشريكة و الشركاء.

فمنهن من اشترت دارًا من امرأة بثمن أحضرته وقبضته ثم وقع الخلاف في قبض الكراء(2) أما المثال الثاني عن الخلاف، في امرأة لها حصة معلومة في رحى مع رجل على الإشاعة، فغابت المرأة عن تلك الجهة مدّة معلومة، فانبسطت يد الشريك عن استغلال الرحى ولم يدفع لها ولا لأحد من أهلها شيئا مما وجب لها في حصتها من غلة الرحى، بل لما رجعت طلبت نصيبها منه [...] فتماطل تارة وأنكر حقها تارة أخرى حتى توفي [...](3) كما مارست بعض النساء مهنة الدلالة والسمسارة، وكانت الدلالات يحملن بضائع التجارة إلى منازل السيدات المحتجبات، ويتقاضين أجورًا عن البيع والقبض، ومثلهن أيضا المتصرفات اللائي يقضين حاجات النساء من الأسواق خاصة للسيدات المحتجبات، ويبتعن منهن الألبسة والحلي وأدوات الزينة(4) لكن بمقابل هذا النشاط يلاحظ أن العنصر النسوي شكل إحدى السلع في أسواق النخاسة أو الرقيق(5) وشاركت بعض النساء هؤلاء التجار، وعرفت لديهم باسم "الأمينة" التي كانت توافقهم في الغش وتشهد باستبراء الخدم بمقتضى مراد التجار وبحسب ما يعطي المشترين، ويقصد بذلك التعجيل بالإجماع بهن، ولذلك نصت كتب الحسبة على أنه، ينبغي على المحتسب أن يقدم امرأة أمينة من ثقاة المسلمين الخيار أهل الدين والمروءة، يؤمن عليها مكر ذلك الصنف من النخاسين.(6)

---

[1] التليلي: فتاوى ابن رشد: السفر 1، م: 391 ص:1217.

[2] و "كتبت عليها بذلك وثيقة، وبعد ذهاب مدّة تطوعت لها بها بعد العقد، وأسقطت المكتوبة المذكورة حقها فيها، وأشهدت بقبض بعض الكراء وبعضه يدفع في أثناء المدّة وبعضها بعد انقضائها، ثم قام وكيل المشترية المذكورة عند ذهاب المدة تطلب الكراء من البائعة المذكورة في الحصة، فاعترف وكيل البائعة بالكراء وادعى الدفع في كل شهر ما يجب فيه وبأن البيع كان فاسدا في الحصة، وأنها أقلتها منه، ودفعت له في أثناء المدة بعض الثمن الذي وقعت به الإقالة [...]". أنظر جواب المسألة: التليلي: فتاوى ابن رشد: السفر 2، م 615، ص 1601

[3] أنظر بقية المسألة والفتوى: نفس المصدر السفر 1، م: 18، ص 183

[4] عز الدين موسى: المرجع السابق، ص 283

[5] كانت تقام في معظم المدن الأندلسية في القرن 6هـ/16م أسواق النخاسة، وكان التعامل فيها يتم عن طريق السمسارة والنخاسين الذين يجلبون الرقيق من أوروبا خاصة الرقيق الأبيض (من الصقالبة وافرنجة وجليقية) والرقيق الأسود من السوس (بلاد السودان)، وكان يتحكم في أسواق النخاسة التجار اليهود الذين استقروا بمدينة اليسانة LUCENA قرب بجانة، ونستدل مما أورده السقطي أن تجار الرقيق في مدينة مالقة كانوا يعمدون إلى الغش من تحمير الخدود ودهن وجوه السودان وأطرافهم وتسويد الشعر وذلك باستخدام بعض الأصباغ والدهان الطيب. السقطي: المصدر السباق، ص 50-54. كمال أبو مصطفى: تاريخ الأندلس في عصر دولتي المرابطين والموحدين، ص 300.

[6] السقطي: نفس المصدر، ص 54-56

هؤلاء الأمينات اللائي كن يشاركن تجار الرقيق في الغش كن يحققن أرباحا وفيرة. وتجدر الإشارة إلى أنه كان يوجد بالأندلس نوعان من الرقيق الإناث إحداهما يسمى "العلية" أو المرتفعات ثمنها مرتفع يبلغ ما بين خمسين إلى ستين دينار. والنوع الآخر يسمى "الوخش" وهو أرخص من الأول. وتعددت أنواع وأصناف الرقيق فقالوا: "الخادم البربرية للذة والرومية لحيطة المال والخزانة والتركية لإنجاب الولد والزنجية للرضاع... الخ"(1)

وهكذا فإن المجتمع المرابطي تشكل من عدّة أجناس مختلفة الأصول والعادات والتقاليد، وبالتالي حتى ولو كان موضوع بحثي يتعلق بدراسة المرأة في العهد المرابطي، إلا أن ضرورة البحث دفعتني إلى التطرق إلى المرأة الذمية وطبيعة العلاقة بينها وبين المرأة المسلمة التي عاشت إلى جانبها في كل من المغرب والأندلس.

فنساء أهل الذمة تواجدت على نوعين في المجتمع المرابطي، إما جواري لم يعتنقن الإسلام، ويتواجدن في القصور ومنازل الأغنياء بالأخص، وإما وجدن ضمن الجالية المسيحية واليهودية.(2) وبالنظر لمساهمة هذه الجاليات في مختلف مجالات الحياة للدولة فإنه من المحتمل أن نساءهم لم تكن بمنأى عن الحياة العامة. ولكن في الواقع أن المرأة الذمية -المسيحية واليهودية- في الدولة الإسلامية عامة كانت تخضع لمعاملة خاصة من طرف أهلها وفقا لشرائعهم الدينية، وكانت هذه الأخيرة تسيرها الكنائس والبيع.(3) لكن طبيعة التعايش السلمي بين المسلمة والذمية سوف ينتج عنه تصرفات مخالفة للشرع، لذلك نصت كتب الحسبة على منع المرأة المسلمة من الدخول للكنائس منها: "يجب أن يمنع النساء المسلمات من الدخول الكنائس المشنوعة فإن القسيسين فسقة زناة لوطة".(4) وهذا النص يدل على أن نساء المسلمات كن كثيرا ما يدخلن الكنائس، وربما كان ذلك للتفرج على الاحتفالات الدينية والمواكب

---

[1] السقطي: المصدر السباق، ص 67-68-69. كمال أبو السيد: المرجع السابق، ص 300.

[2] عاشت هذه الجاليات في ظل الحكم المرابطي كمختلف فئات المجتمع الأخرى. وقد أظهر المرابطين تسامحا معها. واستخدموهم في عدة وظائف في الدولة كالجيش وجباية الأموال. كما اشتغلوا بعدة حرف في المدن المغربية: سجلماسة، أغمات، فاس، مراكش، والأندلسية: كقرطبة وغرناطة. ومهروا في بعض الصناعات مثل صناعة الحلي التي تولى لها النساء عناية خاصة وتسعى دوما لاقتنائها واعتبارها من أهم أدوات زينتها. أنظر: البكري: المصدر السابق، ص115. إسماعيل العربي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ص138. الحال الموشية: ص 90، 97. الحميري: الروض المعاطر، ص 46. Dozy: Histoire des musulmans d'Espagne, P.P 317-346. وانظر: إبراهيم حركات: المجتمع الإسلامي...، ص 138-149. كواتي مسعود: اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط الدولة الموحدية، دارة هومة، الجزائر، 2000، ص 124.

[3] عبد الوهاب خلاف: المرجع السابق، ص 72، 73، 265، 266. حركات: نفس المرجع، ص 145، 146. كواتي: نفس المرجع، ص ص 132، 134.

[4] ابن عبدون: المصدر السباق، ص 48.

التي تقام بها.(1) مثلما كان الفقهاء يهمهم أمر المسيحيات لدرع المفاسد،فنصت كتب الحسبة على أنه: "يجب أن تمنع الإفرنجيات من الدخول إلى الكنيسة، إلا في يوم فضل أو عيد، فإنهن يأكلن ويشربن ويزنين مع القسيسين"(2) وفي هذا النص دلالة على شيوع دخول المسيحيات –أو النساء عامة– الكنيسة في غير أيام الأعياد والأيام المشهودة في بعض المدن الأندلسية. ويبدو أن هذا التشدد ما هو إلا درءا للمفاسد وحفاظا على المرأة المسلمة بالمقارنة إلى ما شاع من ميوعة الأخلاق والإفراط في الحرية الممنوحة للمرأة الأندلسية، ونظرا للامتزاج السكاني في المجتمع فقد، منع أهل الذمة من التزيي بزي المسلمين وألزمت نساؤهم بلباس الجلجل،(3) ولبس أحد الخفي أسود والآخر أبيض أو أحمر تمييزا عن نساء المسلمين، وأن لا يشرف أهل الذمة بمنازلهم على المسلمين حفظا وصيانة للمرأة المسلمة. كما تأثر بعض المسلمين بعادات أهل الذمة إذ تطلعنا إحدى الفتاوى:"أنه إلتبس الأمر على المرأة إذا كانت حافظا لا تكتل القمح ولا غيره من الطعام ولا تحضر موضعه".(4) وهذا ما نفاه الونشريسي وأنكره على المسلمين وقال هذه عادة عند اليهود تأثر بها بعض المجاورين لهم من المسلمين، وأتبعتها بعضه النساء المسلمات،(5) وهذا ما يؤكد حرص العلماء والفقهاء على سلامة المجتمع المغربي الإسلامي من العادات الدخيلة عليه وأن الأمر بالمعروف والنهي عن النكر لم يتوقف في العهد المرابطي.

وهكذا ساهمت المرأة في مختلف الأنشطة الاقتصادية، فإلى جانب أنها كانت ربة البيت ومدرسة للتربية وراعية لأفراد أسرتها، كانت أيضا المشرفة على الحقل إلى جانب رجال أهلها في البادية. وكانت أيضا صانعة ماهرة في الحضر والوبر،(6) لا سيما أنّ الإسلام ضمن لها حقوقها الاقتصادية أكثر من الرجل. لأنه يخوّل لها حق الإنفاق في البرّ من مالها ومن مال زوجها، بينما يحظر على الرجل هذا التصرف في مال زوجته دون إذنها. ولذلك كانت المرأة في هذا الشأن محط احترام الرجل ومثار حبّه إلا في النّادر،(7) وما يلاحظ هنا أن مكانتها الاجتماعية كانت مرتبطة بثروتها.

وهذا ما أجده يشبه نساء المجتمع الطوارقي، فهن يمثلون (نساء) القبيلة التقليدية بحفاظهن على تقاليدها وعاداتها التي تحمي حق المرأة الطارقية في إدارة شؤونها المالية وممتلكاتها من أراضي

---

[1] خلاف: المرجع السابق، ص 265.

[2] ابن عبدون: المصدر السابق، ص 48.

[3] الجرسيفي: المصدر السابق، 265.

[4] الونشريسي: المصدر السابق، ج2، ص 489.

[5] المعيار: ج2، ص 489.

[6] بن عبد الله عبد العزيز: تاريخ الحضارة المغربية ج 2 ص 103

[7] نفسه.

ومنازل، وينابيع الماء والحدائق،(1) وهذه المكانة الاقتصادية هي التي جعلتها تحافظ على المظهر الخاص لهذه المنطقة(2) وهذا الأمر الذي أدهش الباحث "دي فري"، الذي اعتبر هذه الحرية والمساواة الممنوحة للمرأة الصحراوية نتيجة تأثر القبائل الصحراوية بالعادات الأوروبية المسيحية. واعتبر المرأة الصحراوية أكثر مساهمة في النشاط الاقتصادي من المرأة المسلمة في شمال إفريقيا عامة.(3) لكن يبدو أن نظرته لحرية المرأة وتمتعها بحقوقها مخالف للحقائق التاريخية، وذلك استنادا لما ورد عند البكري والإدريسي مما ينفي ذلك وهو: "أن نساء أهل السوس وأغمات وسجلماسة ورجراجة وغيرها كانت أكثر المناطق نشاطا وتكسبا."(4) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أسبقية المرأة المسلمة في حصولها على حقوقها)كحرية الامتلاك والعمل والتصرف في أموالها ، في حين كانت المرأة تحت وطأة اضطهاد الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى(5).

2- لباس المرأة وزينتها:

أ- اللباس:

ومن خلال الحديث عن حرية المرأة ومشاركتها في النشاط الاقتصادي يمكن لي أن أتساءل عن الهيئة التي كانت تظهر بها خارج بيتها، وهل السفور -كشف الوجه- كان خاصا بالمرابطيات فقط إلى درجة دفعت ابن تومرت إلى تكفير حكام المرابطين، وأوجب قتالهم. من المؤكد تاريخيا أن هذه الظاهرة -أي سفور المرأة- شاعت لدى المرابطيات بالأخص، هذا ما يميز الملثمين الذين أعطوا للمرأة عامة حق الخروج والسفور والمشاركة في بناء المجتمع على قدم المساواة مع الرجل.(6) بيد أن سكان حواضر المجتمع المغربي لم يكنوا يألفوا ذلك فبدت هذه العادة غريبة عليهم، ومنها اتهام ابن تومرت المرابطين بذلك ومساندة معظم القبائل له بالمغرب الأقصى ابتداء من قبيلته مصمودة(7) بينما في الأندلس لم يجد الناس غرابة أو حرجا في ظهور المرابطيات سافرات الوجوه، لأنهم اعتادوا ذلك من بعض نسوة الطبقة الخاصة كولادة بنت المستكفي أو تزهون الغرناطية اللائي كن يخرجن سافرات متبرجات وبعض الإيماء والجواري اللائي انتهجن نفس السلوك(8).

---

[1] Duveyrier: OP. Cit. P340, 372. محمد السويدي: المرجع السابق، ص96-97.

[2] ibid. P 372

[3] ibid. P 372

[4] المغرب، ص 163-170. نزهة المشتاق، ج2، ص 227.

[5] ابن عبد الله عبد العزيز: تاريخ الحضارة المغربية ج 2 ص 103

[6] عبد الله علام: نفس المرجع، ص 234

[7] المهدي بن تومرت: المصدر السابق، ص242.

[8] المقري: المصدر السابق، ج4، ص733. محمود السيد: المصدر السباق، ص 111. وأنظر MARIA-J- Viguera ماريا ج، فيغيرا: أصلح للمعالي: عن المنزلة الاجتماعية لنساء الأندلس" ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ج2 مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1999، ص 999، 1000

واعتمادًا على بعض كتب الحسبة للفترة المرابطية فيما يخص احتجاب المرأة وسفورها ولباسها ونوع سلوكها وعلاقتها خارج منزلها أو مع غير المحارم، اتضح لي أن الأمر والنهي كان في معظمه يتعلق بنساء العامة.فالمرأة في هذه الطبقة هي التي دخلت معترك الحياة أكثر من نساء طبقة الخاصة، فابتداء من المنزل أمرت كتب الحسبة (1) المرأة بالتستر وعدم الكشف عن وجهها. من ذلك أن بعض النساء تمكث في منزلها، لكن تقضي معظم أوقاتها في متابعة مشهد الشارع. فالبعض منهن يطلعن على الشارع من أماكن خاصة بالمنازل كالشراجيب (2) وهؤلاء هن الحرائر المحتجبات من نساء العائلات الوجيهة أو المتدينة. لكن بعض النساء يقفن على أبواب منازلهن في الأزقة مكشوفات الوجه. وهذا ما نهى عنه ابن عبد الرؤوف (3) طالبا من رجال الحسبة منعهن، لأن ذلك يؤدي إلى الكشف عن المرأة. ومن هنا يتبين حرص المجتمع على احتجاب المرأة وصيانة عرض عائلتها. لكن رغم النهي يبدو أن بعض النساء، كانت تتحايل وتتحين الفرص، لنزع قناعها عن وجهها، أو حتى خمارها عن رأسها، ويؤكد ذلك إحدى الروايات التي أشارت إلى:" امرأة تباشر البيع وهي مكشوفة الوجه خصوصا في زمن الحر، وهي تتعامل مع رجال مسلمين ورجال من أهل الذمة الذين يقصدون لبيع السلع من النساء في الدور أو لتعديل حوائج مثل الغزل." (4) كما تنتهز المرأة فرص المناسبات كالأعراس والأعياد مثلا للبروز حاصرة الرأس ومتجملة بالزينة (5) أو عند خروجها في الأعياد أو للحمامات أو المنزهات.

فقد شاع في الأندلس خروج المرأة للتنزه والاستجمام أو لقضاء حاجاتها حتى أصبح ذلك عادة مألوفة. فكان البعض منهن يخرجن بصحبة الأهل، وهذا ما يدل على انسجام العلاقات بين المرأة وأهلها ضمن حياة هنيئة منصفة لحقوقها. ومن الأمثلة على ذلك ما كان يقوم به أهل المرية في كل موسم ربيع. فيرحلون مع نسائهم وأولادهم إلى منطقة بجانة للاستجمام. حيث تقام الاحتفالات وتكثر المطاعم والمشارب، حتى يبلغ المسكن بها أكثر من ثلاثة دنانير مرابطية في الشهر (6) وهذا يدل على كثرة العائلات والازدحام في هذه المنطقة نظرا لنقاوة هوائها وحماماتها الإستشفائية (7) فكانت تتوفر على بيتين إحداهما خاص بالرجال والآخر خاص بالنساء.

[1] الكتب التي اعتمدت عليها خاصة في معظمها المجتمع الأندلسي، لكن هذا لا يمنع تعميم أحكامها أحيانا على المجتمع المغربي لاسيما منذ عهد أمير المسلمين علي بن يوسف حيث تم التأثير والانصهار حضاري بين العدوتين.

[2] عبد الوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية، ص 295.

[3] المصدر السابق : ص 113

[4] الونشريسي: المصدر السابق، ج5، ص 197

[5] ابن عبد الرؤوف: نفس المصدر، ص 83

[6] **الإدريسي:المصدر السابق، ج2، ص 566. بوتشيش: المصدر السابق، ص 104**

[7] ابن عبدون: المصدر السابق، ص 27.

لكن في حالات أخرى تخرج المرأة بمفردها أو برفقة بعض النساء من أهلها أو صديقاتها لبعض شؤونها، ففي هذا الحال تتعرض لعدة مضايقات أو مشاكل، فأولت لها كتب الحسبة نهيا أو تعزيرا لذلك.(1) ففي السوق أو في الشارع يتبعهن المعجبين بهن بالسير من ورائهن مع ترديد بعض الألفاظ والكلمات على سبيل المداعبة. وإن كانت بعض النساء تعتبر هذا العمل فضيحة لهن وتعرضن على ذلك، فقد تضطر أخريات أن تتكلم مع الشاب لإقناعه بعدم تتبع خطاها خوفا من أن يراها أقاربها، أو تلجأ إلى تغيير الطريق حتى يلتبس عليه معرفة مسكنها،(2) وهذا المشهد منذ العهد المرابطي ليس بغريب عن واقعنا الحالي، فإنه يتكرر يوميا عندنا، ومن خلال نواهي كتب الحسبة يبدو أن المرأة في الأندلس كانت أكثر بروزا في المجتمع من نظيرتها المغربية.ومن ذلك ما شاع بين بعض شاعرات الأندلس في منطقة وادي آش حيث تميزت بميوعة الأخلاق، وكن يمارسن السباحة في هذا الوادي، وأثرت في حسهن الشعري مناظر الطبيعة الخلابة فتركن أشعارًا.(3) كما سنرى في الفصل الموالي. ولا يفوتني أن أشير إلى ما يحدث من تبرج وزينة في مناسبة الأعياد عند خروج النساء لزيارة الأقارب، أو زيارة المقابر، فكانت زيارة المقابر تتم في كل أسبوع بعد صلاة الجمعة. مما دفعني للتساؤل عن موقف العلماء من هذه العادة.

وإن كان ابن عبدون تساهل في ذلك ولم يمنعها عن النساء إلا أنه تشدد في مراقبة المقابر والطرق وذلك نظرا لما كان يحدث من اختلاط وازدحام في الشوارع، من ذلك أن بعض الشبان يستغل المناسبة لمراودة النساء اللائي يخرجن مزينات للفرجة والاستمتاع،(4) واتخذت القبور خبايا للخلوة، فأمر المحتسبون بتفتيشها وبمراقبتها(5) كما سعى إلى منع النوائح خاصة إذا كن حاسرات الرؤوس متكشفات الوجوه، ومعاقبة من يشجعهن على ذلك(6) وحدث أن تتبعت حواء بنت تاشفين جنازة زوجها الأمير سير بن أبي بكر ومكثت عند قبره حزينة باكية(7) والملاحظ أن المصادر لم تشير إلى منعها من تتبع جنازة زوجها. كما اعتاد الناس في هذه المناسبة الحزينة أن يقرأ القرآن على الميت، وفي الشأن أمرت كتب الحسبة أن تقرأ النساء للنساء في المآتم وإن قرأ عميان الرجال فعلى حدة ومن وراء حجاب.(8) ومما سبق، يمكن استنتاج أن التزام النساء الأندلسيات بستر وجوههن كان نسبيا إلى حد ما، فبينما النساء

---

1 ابن عبدون: المصدر السباق، ص 27.

2 ابن عبدون:نفس المصدر، ص 27-28-47. الجرسيفي:المصدر السابق، ص 121.خلاف:المرجع السابق، ص 294

3 ابن الآبار: المقتضب، ص 214-216. الضبي: بغية الملتمس، ص 729. المقري: النفح، ج4، ص 288-296-297

4 ابن عبدون: نفس المصدر، ص 26-27.

5 نفسه، ص 27.

6 السقطي:المصدر السابق، ص 68.

7 عبد العزيز الأهواني: نوازل ابن رشد، ص 75-76.

8 السقطي: نفسه. ابن عبدون: نفسه، ص 27. ماريا -ج- فيغيرا: المرجع السابق، ص 995، 1001-1012.

الحرائر كن محتجبات فإن الجواري والإيماء شاعت فيهن ميوعة الأخلاق والسفور إلى درجة ألفها بعض الأندلسيين(1).

وبالمقابل فإن المرأة المغربية عموما كانت محتشمة ومتحجبة لاسيما في الحواضر كمراكش، فاس، تلمسان، فقد ثبت أن نساء مراكش كن يتسترن بمعاجر الصوف وكانت الحرائر أكثر التزاما بالحجاب ومكوثا بالمنازل. أما في البوادي فقد اعتادت المرأة العاملة في الحقول أن تسفر عن وجهها أمام أهلها من غير المحارم وهذا تحت تأثير ظروف العمل من جهة، كما أنها اعتادت على ذلك منذ صغرها فأصبح الأمر لديها طبيعيا. وعلى كل حال فإن حجاب المرأة له علاقة وطيدة مع ارتقائها في السلم الاجتماعي، فكلما ارتفعت مكانتها الاجتماعية. كلما زاد اشتدادها وتمسكها بالحجاب ولاسيما إذا كانت من عائلات متدينة. وربما قد يبالغ البعض في الحجاب لدرجة كبيرة نتج عنها تعطيل بعض الأحكام القضائية، وربما ينجر عنها ضياع بعض مصالح الناس وطمس حقوقهم في حالة غياب هذه المرأة المحتجة عن التقاضي.

وعلى كل حال يتبين أن سفور المرأة لم يكن خاصا بالأميرات المرابطيات اللاتي اتخذ منهن المهدي ابن تومرت حجة في اتهام المرابطين بذلك، خاصة وأن كتب الحسبة لم تذكر شيئا عن هؤلاء الأميرات. وفي المقابل سئل أبو الوليد بن رشد عن اللثام بالنسبة للرجال لأنه أثار حفيظة بعض الأندلسيين ولم يستفت عن سفور الأميرات اللمتونيات أو المسوفيات وغيرهن. فهل هذا يعني أن قضية السفور لم يتفطن لها سوى المهدي بن تومرت ؟

إن الأميرات المرابطيات اللائي ذكرتهم بعض المصادر كانت تقيات متدينات ذوات البر والإحسان، فكان يقصدهن الناس ويتشفعن بهن لدى الأمراء فتقضى حوائجهم. كما غلب عليهن حسن الخلق(2) وما اتهام ابن تومرت المرابطين بالخروج عن الدين نظرا لسفورهن ولباسهن المتميز إلا لغرض سياسي يخدم الدعوة الموحدية كما أسلفت ذلك. وما استنتجته من الفتوى عن لثام(3) رجال

---

[1] كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية...، ص 95.

[2] الأعمى التطيلي: المصدر السابق، ص 15. ابن خفاجة: المصدر السابق، ص 245. ابن عبد الله بن عبد العزيز: معجم أعلام النساء، ص7، 10، 15.

[3] هم قوم يتلثمون ولا يكشفون على وجوههم وذلك سنة لهم يتوارثها، خلفا عن سلف، أما أسباب ذلك فهي عديدة منها أنهم تلثموا لشدة الحر والبرد ولفح العواصف والرمال، وقيل كان سببه إغارة أعدائهم على بيوتهم أثناء غيبة الرجال فأشار الشيوخ على النساء أن يلبسن زي الرجال، ويتلثمن ويضيقن اللثام لكي لا يعرفن. ففعلوا وتغلب النساء على المغيرين عليهم، فمنذ ذلك الحين لازم الرجال اللثام تبركا به لا يزيلونه ليلا ولا نهارا. للمزيد من المعلومات أنظر ابن الأثير: المصدر السابق ج 8 ص 330. ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص 128. ابن خلكان: المصدر السابق، مج 5 ص 19. **الحلل الموشية: ص 17. فاتهمهم الموحدون بأنهم يشبهون النساء في تغطية الوجوه وبالتلثم والتنقب ويتشبه نساؤهم بالرجال في الكشف عن الوجوه بلا تلثم ولا تنقب.** ابن تومرت:أعز ما يطلب، ص 242. ابن القطان: نظم

المرابطين ينطبق عن سفور نسائهم، إذ يقول في ذلك أبو الوليد بن رشد:"قد خلق الله الخلق أجمعين، وجعلهم شعوبا وقبائل، وباعد بينهم في البلاد وخالف بينهم في الأزياء والهيئات. فلا يجب على أحد منهم الرجوع عما اختاره من زيه وهيئته إلى زي سواه وهيئته، لأن ذلك من قبيل الجائز المباح للعباد".(1) لكن الملفت للانتباه أن هذه المسألة لم يثرها ابن تومرت إلا في مراكش حيث كانت مركز الحكم وإقامة الأميرات المرابطيات(2) وربما أن في نفس المدينة كانت النساء يلتحفن ويتنقبن عندما يخرجن إلى الشارع(3) ومن ذلك كان سهم ابن تومرت صائبا لهدفه. فوجد بعض الناس أنه محق فيما ادعى إليه. ومما زاد إلتفات الناس حوله، هو توظيف ابن تومرت لآيات قرآنية وأحاديث نبوية وفق أغراضه السياسية، منها:"خالفوا اليهود وخالفوا المشركين، خالفوا المجوس وكذلك المجسمون الكفار، وهم يتشبهون بالنساء في تغطية الوجوه بالتلثم والتنقيب ويشبه نساؤهم الرجال في الكشف عن الوجوه بلا تلثم ولا تنقيب".(4)

كما استغل الحديث الشريف:"لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء".(5) وأوهم ابن تومرت العامة بأن كشف المرابطية لوجهها هو تشبه بالرجال، وتلثم رجال المرابطين يشبه النساء في التنقيب.

وفي الحقيقة إن مسألة كشف المرأة لوجهها فيها اختلاف بين العلماء، وفضلت الاستناد على حديث عائشة رضي الله عنها في دحض حجة ابن تومرت الذي استغلها لتدعيم أغراضه السياسية وذلك بالإساءة لسمعة المرأة المرابطية. قالت عائشة: "أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليها ثياب رقاق، فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا أسماء إن المرأة إذ بلغت المحيض، لم تصلح أن يرى منها، إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه".(6) وهذا الحديث الصحيح يسمح للمرأة الكشف عن وجهها. إلا أنه يوجد أراء منها أن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها

الجمان، ص 46. علام: المرجع السابق، ص 71. عنان: عصر المرابطين والموحدين ج 1 ص 211. حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ج 2 ص 73.

1 التليلي: المصدر السابق، السفر 1، م 277، ص 963.

2 عبد الحميد النجار: محمد بن تومرت، ص ص 98-101. أنظر الملحق رقم 13.

3 الإدريسي: المصدر السابق، ص 562

4 ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص247.

5 صحيح البخاري: طبعة جديدة ومنقحة للشيخ محمد علي قطب وهشام البخاري، ج4، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1417- 1997م، رقم 5885، ص 1873.

6 صحيح البخاري: نفسه. محمد ناصر الدين الألباني: صحيح سنن أبي داود (للإمام الحافظ أبي داود سليمان) مج2، ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1419هـ/1998م، رقم 4104، ص 520.

وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك، وإذا كانت عجوزا أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها(1) وهذا الرأي أخذ به الكثير من العامة وتشدد البعض فيه حتى أصبح مفروضا عندهم. فاستغله ابن تومرت في تدعيم حملته الدعائية والعدائية تجاه المرأة المرابطية. وهذه الأخيرة في واقع الأمر انتهجت عادة أهلها التي توارثتها نساء الصحراء فقط.

لكن إذا تمعنا في أزياء نساء الفترة المرابطية نجدها تختلف عن بعضها البعض من منطقة لأخرى، ومن خلال ما رمى به ابن تومرت(2) المرأة المرابطية بالسفور والتبرج يمكن استخلاص لباسها – طبعا إذا صحت شهادته في ذلك– فكانت تلبس لباسا شفافا، وتجعل شعرها على رأسها يشبه سنم الجمل، وهذا الغطاء عبارة عن قطعة من النسيج الرقيق يبلغ طوله نحو ذراع تعصب به المرأة رأسها، ويرتفع ويلتف على شكل سنم الجمل ربع ذراع. ويزخرف بالذهب واللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة.(3) وما يزال هذا النوع من اللباس مشاهد من طرف بعض النساء الصحراويات. ويتميز هذا اللباس بالألوان الباهية مثل الأحمر والأزرق، وبالتالي يكون ابن تومرت قد استغل ذلك للدعاية وهو أن هؤلاء النساء قال فيهم الرسول (صلى الله عليه وسلم):" صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وأن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا".(4) وجعل من هؤلاء النساء إحدى علامات أقوام آخر الزمان(5) وهكذا فسر هذا الحديث تفسيرا دعويا بعيدا عن الحقيقة. وأحل دماء وأموال وحريم المرابطين(6)

أما عند عامة الناس فقد كانت بعض النساء يغطين رأسهن بخمار من ثوب الحرير أو الكتان الذي يختلف من حيث الجودة والشفافية والثمن حسب إمكانيات المرأة ومكانتها الاجتماعية. يلبس هذا الخمار من أعلى الرأس ويسدل على الوجه. كما يمكن ستر الوجه بالمعاجر أو بالبرقع أو ما يسمى بالكنوش(7) ويسترن أقدامهن بلبس الجوارب والأخفاف والصنادل(8) فقد كن يلبس في الصيف قميصا يحزمنه بنطاق لا يخلو من قبح، أما في فصل الشتاء فيرتدين ثياب عريضة الأكمام مع سراويل طويلة

---

[1] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مج6، ص 152.وأنظر الصورة ص 250.

[2] أعزما يطلب: ص 242-243

[3] دندش: الأندلس في نهاية المرابطين... ص 320. بوتشيش: المرجع السابق، ص 85.

[4] ابن تومرت: نفس المصدر، ص 244. ابن القطان: المصدر السابق، ص 46

[5] وعدلهم عشرون علامة قائلا:"... ونحن نذكر منها ما فيه بيانها ليقع العلم بها بالمشاهدة". أنظر: أعز ما يطلب، ص ص 242-243.

[6] أنظر: ابن تومرت نفسه. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 211.

[7] عبد العزيز سالم: تاريخ المرية ص 155

[8] دندش: نفس المرجع، ص 322-321. بوتشيش: نفسه.

تسترهن، وخمارا يغطي رأسهن. أما في مراكش فيلتحفن بثياب من حرير وقماش يسترهن حتى الأقدام، ويحرصن على ستر وجوههن خاصة إذا خرجن من الحمام[1] وهذا ما يوحي أن بعض النساء كن يبدين وجوههن أحيانا. ولكن في الأندلس كان لباس النساء أكثر رفعة وجمالا منها، السراويل الطويلة والمتموجة الساق، والأحذية المصنوعة من الجلد الناعم والمطرزة بالحرير الملوّن، بالإضافة إلى تزين أرجلهن بالأساور. أما الخمار فهو من النوع الرفيع في غالب الأحيان[2] وكان لهن ذوق رفيع في اختيار الألوان والأنواع. فمثلا اللون الأزرق يلبس مع لباس لونه أخضر ويخصص للون الأزرق السماوي لباس لونه أخضر فستقي.[3]

وهكذا فإن لباس المرأة عامة يختلف من منطقة لأخرى حسب عاداتها ولذلك لم يأخذ الفقهاء لباس المرابطيات لعلمهم ما للطبيعة والعادات والتقاليد من تأثير عليه، وكما أن المرأة المرابطية لم تكن حاسرة الرأس إنما كاشفة الوجه فقط. والملاحظ مما سبق ذكره أن المرأة مهما اختلفت في نوع لباسها حسب مختلف مناطق الدولة، فإنها حافظت على ستر رأسها سواء بخمار خاص أو بملحقة تغطي الرأس والجسد معا.[4] وقد تلبس المرأة حاليا ملحفة سوداء تنسحب إلى قدميها، تلتحف في بعضها بمثابة القميص، وتجعل بعضها فوق رأسها، ثم تجعل طرفه أمامها وترمي جانبه الأعلى فوق منكبها الأيسر، وربما تتخذ ملحفة خضراء أو بيضاء تجعلها على ملحفتها وتنسحب خلفها، إن شاءت ذلك، وقد تتخذ رداء مخططا أو كساء من الصوف (5) وما يزال هذا الاختلاف في اللباس مستمرا في المجتمع المغاربي.

ب- الحليّ:

أما فيما يخص حلي المرأة فقد تعددت أنواعه واشتمل على القلائد والدمالج والشنوف، والخلاخل من الذهب الخالص، والفضة والأحجار الكريمة من الياقوت والزبرجد والزمرد، ونفيس الجوهر.(6) يختلف استعماله حسب إمكانيات المرأة المادية وانتمائها العائلي أي حسب الوسط الاجتماعي

---

[1] بوتشيش: المصدر السابق، ص 86. برشفيك: المرجع السابق، ص 293.

[2] دندش: المرجع السابق، ص 322. بوتشيش: المرجع السابق، ص 86. كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، ص 95-96.

[3] دندش: نفس المرجع، ص321.

[4] ثبت وأن خرجت نساء الموحدين سافرات غير محتجبات في إحدى حمالات أمير المؤمنين الواثق بالله سنة 665هـ/1267م. أنظر: ابن عذاري: البيان، ق:الموحدين، ص 461-462. وهذا ما يدل على أن ما نهى عنه ابن تومرت لم ينطبق على نساء الموحدين في آخر عهدهم.

[5] المختار بن حامد: المرجع السابق، ج2، ص 179.

[6] دندش: نفسه. المختار بن حامد، نفس المرجع، ص 181. برشفيك: نفس المرجع، ص 294.

الذي تعيش فيه، ويحفظ الحلّي في علب أو صناديق في غاية من التحفة والزخرفة والجمال[1] مما يعكس غنى الخزينة المرابطية التي امتلكت ثروات ضخمة من الذهب.

تحتوي كتب الجغرافية وكتب الحسبة نصوصا تكشف على مدى اهتمام المرأة بجمالها ونظافتها. واستعمال وسائل ومواد التزين المختلفة. وهذا الأمر لا تختلف فيه المرأة في أي زمان ومكان. فلقد ذكر الإدريسي أن نساء سوس تمتعن بجمال فائق وحسن بارع وجمال ظاهر، [2] ليس بأرض المغرب أجمل منهن. [3] وبعض نساء فاس تميزت بحسن الجمال خاصة اللائي تسكن زقاق ميزاب ابن حنين. كما انطبق الجمال على مناطق مختلفة في المغرب كنساء برغواطة ونساء حاحة فوصفن بأنهن بيض متوسطات البدانة في غاية الظرف واللّطف[4].

أما في الوسط المرابطي فقد اشتهرت الصحراويات أيضا بالجمال ومن ذلك ما كان يختاره عبد الله ابن ياسين، كان إذا سمع بامرأة جميلة تزوجها[5] وفي ذلك جمال زينب النفزاوية الذي تعدى الأفاق[6] وأثار غيرتها لما مدح الشاعر ابن خلفون حواء بنت تاشفين بالجمال، فشبه جمال زينب بالشمس في ضيائها وعلوها.قائلا: أنت بالشمس لاحقة وهي بالأرض لاسقة[7]

ومن هذا يتجلى أن الجمال بالنسبة للمرأة غاية لن تدرك مهما بلغت من سعي لتحقيقها. وكلما سمعت أو رأت من هي أجمل منها تضاعف سعيها في تزيين نفسها. كما ينطبق المقال نفسه على المرأة الأندلسية التي خلدتها أشعار عدّة شعراء البلد، واتصف الجمال الرائع لاسيما لدى النصرانيات والرقيق، [8] حيث اتخذ الحكام والأمراء والوجهاء منهن أمهات الأولاد نظرا لحسنهن، وحتى البعض حملن أسماء تدل على جمالهن الفائق: كقمر والثريا، وضوء الصباح...الخ[9].

جـ- مواد التجميل:

لكن في الحقيقة أن جمال المرأة الطبيعي يتعرض مع تقدمها في السن إلى التغيير والتشويه، وذلك حسب الظروف الصحية للمرأة سواء الجسمية أو النفسية. كما تتأثر صحتها بالدرجة الأولى بمستوى معيشتها في عائلتها ومدى عنايتها بنفسها. فتبادر إلى ذهني عن كيفية اعتناء المرأة بجمالها أو

---

[1] ديماند (م، س): الفنون الإسلامية ترجمة أحمد محمد عيسى، طـ 3، دار المعارف القاهرة، 1982، ص 172

[2] الإدريسي: المصدر السابق، ص 227. Lhote (H): Op.cit, P 162

[3] البكري: المصدر السابق، ص 110. مجهول: الاستبصار، ص 189

[4] البكري: نفس المصدر، ص 140. ATTILIO – Gaudio : Op.cit, P62

[5] البكري: نفس المصدر، ص 169. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 75. راجع الفصل الأول من هذا البحث ص 43.

[6] ابن خلدون: العبر، ج 12، ص 169. السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص 20

[7] النويري: المصدر السباق، ص 385-386. أنظر الفصل الأول من هذا البحث ص 56.

[8] السقطي: المصدر السباق، ص 54.

[9] السقطي نفسه. ابن أبي زرع: نفس المصدر، ص 99. وأنظر: ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص 446.

كيف استطاعت المرأة في العهد المرابطي تفادي تشويه جمالها الطبيعي إذا كانت جميلة فعلا ؟ أما إذا كان العكس فما هي الوسائل ومواد الزينة التي استعملتها لتصطنع جمالا يرضيها ؟

يمكن الجواب على هذا السؤال بالإستناد على ما وصفته بعض النصوص التاريخية للفترة، لأن الاعتناء بصحة الجسم تأتي من أولويات الأمور لجمال المرأة، إذ ذكر أن نساء سجلماسة كن يأكلن حيوانا يسمى الخردون (اسمه أقزيم بالبربرية) لتسمين أبدانهن(1) ويبدو أن السمنة بالنسبة للمرأة كانت شغلها الشاغل حتى أن بعض النسوة أفطرن في رمضان من غير عذر شرعي مخافة اختلال صحتهن. كما كانت بعض البنات الأبكار يفطرهن أهلهن خيفة على تغيير أجسامهن على الحسن والسمن. وكذلك كان الأمر على من عقد عليها زوجها ولم يدخل بها فتترك الصوم خيفة النحافة.(2) و تؤثر بعض المواد الطبيعية والمساحيق جمالا وصحة المرأة، ومنها استعمال الحناء سواء في الأيدي أو في الأرجل أو للشعر. كما كانت تدهن رؤوسها بزيت يعرف عندهم بزيت أرغان، ليطول الشعر ويتكسر(3) ويمسك لون السواد لمن ترغب في هذا اللون(4) مثلما كانت المرأة الأندلسية في غاية العناية بجمالها، فكانت تصبغ شعرها بالسواد أو بالشقرة، ويبدو من استعمال هذا اللون الأخير، تأثير جمال النصرانيات ولاسيما النساء الصقالبيات (5) الشقروات عليها. وهذا مما هو مشاهد أيضا عند المرأة المسلمة المعاصرة. وفيما يخص تصفيف الشعر، فكانت المرأة عموما تظفر شعرها أحيانا أو ترسلها على أكتافها أحيانا أخرى(6) وأما النساء المرابطيات في مراكش فكانت تجمعن شعورهن فوق رؤوسهن كأسنمة البخت(7) وهذا الوصف الذي ذكر عن الأميرة الصورة أخت أمير المسلمين علي بن يوسف(8) وللأسف لم أعثر عن وصف ذلك لباقي الأميرة كحواء بنت تاشفين وزينب النفزاوية أو مريم بنت إبراهيم بن تفلويت وغيرهن... ومن الملاحظ اليوم في صحرائنا أن بعض نساء الطوارق مازلنا يجمعنا شعورهن إلى الأمام بشكل السنم على عادة النساء المرابطيات.(9) أما للحفاظ على صحة وجمال

---

[1] الإدريسي: المصدر السابق، ص 230.

[2] ابن الحاج: المصدر السابق، و، 116.الونشريسي: المصدر السابق، ج 2 ص 487-488. ما تزال عادة التسمين في سن الصبي إلى حد الآن في القبائل الصحراوية. أنظر: المختار بن حامد: المرجع السابق، ج2، ص 180. إبراهيم حركات: المجتمع الإسلامي، ص 49.

[3] الإدريسي: نفس المصدر، ص230. بوتشيش: المرجع السابق، ص 53.

[4] الإدريسي: نفسه. بوتشيش: نفسه.

[5] كمال أبو مصطفى:المرجع السابق، ص 300.

[6] بوتشيش: نفس المرجع، ص 54.

[7] ابن تومرت: أعزما يطلب، ص 243.

[8] ابن تومرت: نفسه.

[9] بوتشيش: نفسه.وعادة في ظفر الشعر تتخذ عدة أشكال أخرى، نجدها حاليا في موريتانيا. أنظر: المختار بن حامد: المصدر السابق، ج2، ص 181.

العيون فكانت تكتحل بالأثمد (1)-الكحل- كما استعملت أنواعا من العطور، (2) وأضافت إلى ذلك نوعا من الزينة في اللباس والحلّي لتزداد جمالا ورقة. وتشترك كل النساء في ذلك لكن كل واحدة حسب وسطها الاجتماعي وإمكانياتها المادية. وقد بدا لي جليا رغبة المرأة الملحة في الحفاظ على جمالها الطبيعي واصطناع جمال آخر من خلال ما أورده السقطي (3) بذكر أنواع من المساحيق وطرق استعمالها. ولا تختلف في استعمال تلك المساحيق الحرّة أو الجارية، إنما ذلك له علاقة بذوق كل امرأة ورغبتها في ذلك. كما شاع استعمال هذه المساحيق من طرف النخاسين بغرض غش الرقيق لرفع أسعارهن (4)

فمثلا لتبيض بشرتهن يستعمل سائلا من الباقلاء في ماء البطيخ ستة أيام، ثم في لبن الحليب سبعة أيام يحرك اللبن في كل يوم، و يغمرون به الوجه فيعطي بياضا له إلا أن هذا اللون مؤقت. أما إذا رغبت المرأة في اللون الذهبي "فتستعمل الكروياء المغلية في الماء حتى تتلون وتجعلها على وجهها مدّة أربع ساعات فتصير بشرتها ذهبية اللون. ولإعطاء خدودها لونا ورديا – أي تحمير الخدود- فإنها تستعمل غاسولا تمزج فيه عدّة مواد فتأخذ دقيق الباقلاء والكرسنة خمسة أجزاء تضاف إليه عروق الزعفران وورق الحناء من كل واحد ربع جزء، ويغمر ذلك". (5) و "لصباغة الشعر بالسواد فاستعملت دهن الآس ودهن قشر الجوز الرطب ودهن الشقائق الذي يغسل بطبيخ الأملج. ولإزالة النمش والوشم من بشرة الوجه تستعمل لذلك غاسول مصنوع من عروق القصب واللوز المر والكرسنة والباقلاء وحب البطيخ معجونا بالعسل؛ وتزيل البرص بالإبرة وتخضب عليه القلقديس والعصف والزنجار"، (6) بالإضافة إلى وصفات تجميلية أخرى، مثلا كتغيير اللون الأزرق للعين بتقطير فيه ماء قشر الرمان الحلو وتصير سوداء؛ كما يورد مواد عديدة للحفاظ على نظافة مختلف أعضاء الجسم (7)

هذه بعض المواد التحضيرية التي تعطي لنا صورة عن عناية المرأة بزينتها وجمالها. هذا الجمال الذي كانت بعض الناس تكشف عنه على حد قول ابن تومرت الذي صادفهن بقرية صاء

---

[1] يعتبر الكحل من المعادن الهامة التي تدخل في صناعة العقاقير الطبية من خواصه تقوية العين لأنه يستخدم كغسول لها، تتركز مناجمه في جبل يقع من بسطة وفي طرطوشة، ولازالت هذه المناجم تستغل بإسبانيا حتى الآن، كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية...، ص 214.

[2] انتشرت صناعة العطور والزيوت العطرية في بعض مدن الأندلس منها قرطبة، وكان استخدامها هام جدا بالنسبة للنساء، كالعنبر والمسك والعطور المستخرجة من زهار المختلفة. أنظر كمال أبو مصطفى: نفسه. عبد الوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية، ص 300. برشفيك: المرجع السابق، ج2، ص 294.

[3] المصدر السابق: ص ص 50-52.

[4] نفسه.

[5] نفس المصدر: ص 50.

[6] نفس المصدر: ص51.

[7] نفس المصدر: ص 51-52.

محليات مزينات فأعرض عنهن. ولما رأى بمراكش الأميرة "صورة" مع الجواري الحسان ضربهن لأنهن متبرجات ومتحليات بزينة[1] واعتبر بذلك المرابطيات كاسيات عاريات، شاعت فيهن ميوعة الأخلاق. واتخذ من أمره بالمعروف[2] ونهيه عن المنكر، هذا السفور والتبرج طعما لحملته الدعائية. ولكن في الحقيقة إن مظاهر الترف والإسراف كانت منتشرة من قبل في الأندلس منذ عهد ملوك الطوائف، ولم تكن وليدة العهد المرابطي.

وإلى هامش هذا النوع من الحياة المترفة لبعض النساء فإن بعضا منهن، كن صالحات حيث اختارت حياة العبادة التي وجدت فيها الطمأنينة وصفاء الروح، إضافة إلى التزامهن بعمل البر والإحسان، ومن أمثلة ذلك زينب بنت عباد بن سرحان التي كانت دينة فاضلة كثيرة الأوراد صوامة قوامة. كما أن بنت الفقيه الصدفي[3] نشأت صالحة حافظة للقرآن، وقائمة عليه[4] إضافة إلى زوجة الشيخ أبي يعزى التي كانت تقيم الليل وتكثر من الصلاة[5].

ومن أمثلة هذه النسوة اللائي فضلن حياة الزهد والاعتكاف على العبادة والانقطاع إلى الله في ريعان شبابهن يذكر "التادلي" أن من هؤلاء، شابة هسكورية * التي لم تبلغ الحلم والتي عدت من الأولياء، وانقطعت عن الناس وعن أهلها للتفرغ للعلم والعبادة إلى أن ماتت بعيدة عن والدتها[6] كما كانت منهن أيضا محدثات، يذكر يحيى بن عبد الرحمان بن عبد الله، أنه حدثته جدّته أن أمنة (آمنة) بنت يغروسن، ولقد أدركت هذه الأخيرة عبد السلام التونسي[7] وقصدته تلتمس منه الدعاء. وكان عبد السلام التونسي يجتمع إليه الناس إثر كل صلاة جمعة فيدعو لهم، فقالت آمنة في ذلك:"فوقفت مع الناس وهو يدعو لهم واحدا واحدا إلى أن انفضوا كلّهم، فوقفت وحدي وأصابتني رعدة من هيبته، فقال لي، ما تريدين؟ فقلت: يا سيدي ادع الله لي أن يتوب عليَ." فقال:" تاب الله عليك."[8] قالت "فانصرفت إلى منزلي وتجردت من أثوابي وتطهرت وأقبلت على طاعة الله عز و جل". وكانت آمنة بنت

---

[1] لكن في نفس الوقت كانت تعجبه نساء البلاط، فلما أخذ "برزيجن بن عمر" المدعو بعبد الواحد، وعده بأن سوف يجزيه عليه بالقصور المشيدة والجواري المزينة والخيول المسومة. أنظر: البيذق: أخبار المهدي: تق حاجيات، ص 37

[2] عبد الحميد النجار: المرجع السابق، ص 118-119.

[3] هو حسين بن محمد بن فيرة بن حيون يعرف بابن سكرة الصدفي، من أهل سرقسطة وسكن مرسية. ابن بشكوال: الصلة، ج 1 ص 144

[4] ابن عبد الله عبد العزيز: معجم أعلام نساء المغرب، ص 21.

[5] بوتشيش: المرجع السابق، ص 55.

* نسبة لقبيلة هسكورة بالمغرب الأقصى.

[6] التشوف: رقم 112، ص 257

[7] صاحب عمه أبو محمد عبد العزيز التونسي إلى أغمات، أنظر ترجمته، نفس المصدر رقم 13، ص 89-90

[8] نفسه.

يغروسن تلبس خمار صوف وجبة صوف وتقيم النهار من أوله إلى آخره بجامع تلمسان إلى أن لحقت بالله عز وجل بعد أن عمرت على ما ينيف المائة سنة[1] وهذا النموذج من النساء تدل على بداية انتشار تيار الزهد والتصوف في الوسط النسوي، الذي كانت أرضيته في نهاية دولة المرابطين، ثم اشتد وتوسع أكثر في عهد دولة الموحدين. واستنادا على ما ذكر التادلي أن بعض النسوة بلغن درجة عالية في الصلاح والانقطاع إلى الله والتقرب إليه بالعبادة وفعل الخيرات حتى أصبح الناس يتبرك بالبعض منهن. ومن هؤلاء قبر مجهول بالقرب من مدينة أغمات وريكة بالقرب من قبر عبد العزيز التونسي، يقال أنه قبر أخته التي انقطعت إلى العبادة إلى أن ماتت وهي بكر. وأن عبد العزيز التونسي كان إذا جاءه أحد يستوهب منه الدعاء يأمره أن يذهب إليها لتدعو له،[2] وهذا ما يدل على صلاح هذه المرأة ومكانتها الاجتماعية والدينية. ومن خلال هذا النموذج من النساء المتصوفات التي زخر بهن كتاب التشوف يتبين أن حركة التصوف التي زرعت بذورها في نهاية عهد المرابطين، لم تكن مقتصرة على جماعة من الزهاد والمتصوفة الرجال فقط بل عمت حتى النساء فمنهن من عرفت هويتها ولكن الكثيرات كن مجهولات الهوية وكثيرات العدد. وقد أشار الأستاذ محمد الأمين بلغيث (3) في دراسته للربط "أن الرباط نوعان، ربط للرجال وربط للنساء، وأن هذه الأخيرة كانت تقوم برسالة اجتماعية سامية. فإنها لم تستهدف مجرد العبادة فحسب، وإنما استهدفت أيضا أن تكون كالمستودع للنساء المطلقات والأرامل أي ملاجئ لهن مثل رباط البغدادية في القاهرة. إلا أن وجود المرأة كان محدودا في هذه الفترة المرابطية"(4) رغم أنه لا يوجد من نساء البلاط المرابطي من الزاهدات في الحياة إلا أن هذا يعني عدم وجود نساء صالحات عفيفات، فكانت ورقاء بنت ينتان رغم شاعريتها امرأة صالحة حافظة للقرآن. كما كانت زينب بنت إبراهيم بن تفلويت من أهل الخير والتصاون والصدقات والنوافل(5) ولم يصدق على الكثير أنهن تأثرن بميوعة الأخلاق في الأندلس وأصبحن يعاشرن

---

[1] التادلي: المصدر السابق، ص 312.

[2] من أشهر النساء الزاهدات في المشرق رابعة بنت إسماعيل العدوية المعروف بأمّ الخير. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 2 ص 285-288. الزركلي: الإعلام: مج1 ص 10، وأنظر ، بن عبد الله عبد العزيز: المرجع السابق، ص70.

[3] الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير، إشراف: عبد الحميد حاجيات: الجزائر 1406هـ/ 1986م ص 252-253.

[4] كانت مشاركة النساء في هذه الربط واسعة خاصة في العهد الموحدين، منها رباط خاص بالنساء بإفريقيا، و رباط سلا الذي ضم مائة ألف إنسان (رجال و نساء) ورباط شاكر الذي كان يضم ألف امرأة من الأولياء الموردين إليه. أنظر التادلي: نفس المصدر، ص 312-330-331. محمد بلغيث: نفسه، ص 252-253. سحر عبد العزيز سالم: مدينة الرباط في لتاريخ الإسلامي مؤسسة شهاب الجامعة، 1996، ص 169.

[5] محمد المنوني: المرجع السباق، ص 74.

المخمرين وقطاع الطرق[1] لأن هذه التهمة ليست موجهة لنساء البلاط المرابطي عامة إنما اختصت بها اللمتونيات والمسوفيات، إذ يقول المراكشي:"وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور".[2] وإن شاعت ظاهرة الخمر في بعض أوساط المجتمع[3] إلا أنها لم تثبت على الأميرات المرابطيات إنما لوحظت عند الجواري. لأن بعض المسلمين كانوا يشترون الخمور بحجة أنها لخدمهم من النصارى، مثلما كانت تتعاطى الخمر في الأعراس،[4] وهذه الظاهرة لم تخل منها الدولة الموحدية أيضا فيما بعد،[5] وفي الحقيقة أن المجتمع لم يخل من الأشرار وقطاع الطرق،[6] خاصة بعد تأزم الوضع المالي بعد موقعة اقليش (501هـ/1108م) وبالتالي لا أستبعد اشتداد رغبة النساء في الحفاظ على أموالهن – لأن الدولة تميزت باقتصاد المغازي – لاسيما وأن المجتمع المرابطي يمجد الأمومة طبقا للعادات القبلية القديمة،[7] والمرأة هي المدبرة لشؤون الأسرة عامة وأشد ما تخشاه هو الفقر.

والملاحظ مما سبق ذكره عن بعض الأميرات اللمتونيات، لم أعثر فيما توفر لدى من المصادر على أن إحداهن تعاملت مع المفسدين أو الأشرار أو قطاع الطرق. بل بالعكس فإن تميمة أخت على بن يوسف جمعت ثروة مادية أشرفت على إدارتها بنفسها وأعانت بها في أوجه الخير والبر وكان لها كتاب تحاسبهم بنفسها وهم على سيرة حسنة،[8] ويشهد على ذلك المؤرخ ابن أبي زرع حيث يقول: "وكثرت الخيرات في دولتهم، وعمرت البلاد، ووقعت الغبطة، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع طريق، ولا من يقوم عليهم. وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدي الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة".[9] ولو كان ذلك فعلا كما وصف عبد الواحد المراكشي لما سكتت على تلك الأمور شعراء الهجاء بالأندلس، ولما انتشرت أسماء تلك النساء على ألسنة الناس كما فعل باعتماد

---

[1] مدحت كل من الأميرة حواء والأميرة مريم من طرف أكبر شعراء الأندلس. أنظر الملحقين رقم 4 و 7.

[2] نفس المصدر: ص 177.

[3] ابن عبدون: المصدر السابق، ص 54.

[4] ابن عبدون: نفسه. كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الإقتصادي ، ص 242.

[5] على الرغم من غلبة الشعور الديني و تشدد الموحدين في منع المسكرات فكان يسمح بشربها في الاحتفالات مما كان إيذنا في تعاطيها بين السادة من بني عبد المؤمن وغيرهم. أنظر: ابن صاحب الصلاة: المصدر السباق، ص216-217. كمال أبو مصطفى: نفس المرجع، ص 213.

[6] ابن عبدون: نفس المصدر، ص54.

[7] عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص 165.

[8] عبد العزيز بن عبد الله: معجم أعلام نساء المغرب، ص 7، 8 الحسن السائح: المرجع السابق، ص 234.

[9] روض القرطاس:ص 108.

الرميكية (1) وزايدة المسلمة (2) وبنزهون القلاعية، وبحفصة الركونية (3) اللائي تميزن بميوعة الأخلاق والسفور والمجون، بل بالعكس فإن تميمة بنت يوسف بن تاشفين كانت راجحة العقل، إذ لما بهت أحد كتابها بجمالها أبعدته بطريقة ذكية مقنعة قائلة له:

هي الشمس مسكنها في السما   فعز الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع إليهـــا الصعود   ولن تستطيع إليك النزولا

وهذا التصرف الصادر من الأميرة تميمة لدليل قاطع وحجة داحضة لاتهام المراكشي (4) لنساء أكابر لمتونة ومسوفة. وتشويه سمعتهن في المشرق وفي المغرب.

هذه حوصلة عامة عن مكانة المرأة الاجتماعية التي ارتبطت بالدرجة الأولى بالوضع المادي لعائلتها وبعادات وأعراف بيئتها. فحظيت بمكانة رفيعة في العائلات الصنهاجية، من حرية في التصرف والمساواة مع الرجل داخل الأسرة والمجتمع. لكن التفاوت في اقتناء الثروات بين العائلات والأسر انعكس مباشرة على مكانتها وحياتها في المجتمع، فبينما كانت في الأسر الفقيرة سجينة البيت أو حاولت بداخله الاشتغال بالمغزل والفخار وهي خاضعة لسلطة وتبعية الرجل، ففي البادية كان مجال عملها متعبا وشاقا في الحقل طبقا للمواسم الفلاحية. ويضاف إلى ذلك اشتغالها بالتجارة سواء بائعة أو دلالة أو متصرفة، فإنها في الأسر الوجيهة والغنية كانت أكثر حظّا وهناء، لذا انصرف انشغالها إلى الاعتناء أكثر بلباسها وجمالها وزينتها. ومن جانب آخر ضم المجتمع نساء تميزن بالانقطاع عن الحياة المترفة فزهدن في الحياة وتفرغن للعبادة ولخدمة الأولياء الصالحين والقيام بعمل البر والإحسان.

أما فيما يخص احتجاب المرأة فكانت درجة الاحتجاب تتناسب ومكانة المرأة في السلم الاجتماعي، إلا أن سفور النساء كانت ظاهرة شملت نسوة من الطبقة العامة في البوادي، ولم يكن خاصا بالأميرات المرابطيات فقط) كما زعم محمد بن تومرت، وغذى بها ثورته على المرابطين. ولأن كتب الحسبة وقتئذ لم تخصص في نهيها عن السفور والتبرج والاختلاط على الأميرات المرابطيات إنما معظم نصوصها كانت تشير لنساء العامة اللائي كن يختلطن بالرجال في المرافق العامة كالأسواق والطرق... فنتج عن ذلك انحراف عن الأخلاق الإسلامية الفاضلة لدى البعض.

ومما زاد في استفحال ميوعة الأخلاق هو تعدد أجناس وأصول النساء في المجتمع المرابطي فدخلت عادات وتصرفات وسلوك جديدة في المجتمع لاسيما في الأندلس، مما أعطى صورة مشوهة لسلطة المرابطين الدينية التي قامت في أساسها على الدعوة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أن تيار الانحراف عن الرشاد كان أقوى من الجهود الجبارة التي قام بها فقهاؤها لاسيما في الأندلس.

---

1 المقري: النفح، ج4، ص 295-297.

2 Lévi Provençal : Zaida La Mora, P2, 5, 6.

3 ابن الأبار المقتضب: ص 216-219

4 المنوني: المرجع السابق: ص 74

وفي هذا الصدد قال ابن عبدون:"وبالجملة، فإن الناس قد فسدت أديانهم، وإنما [...] الدنيا الفانية والزمان على آخره [...] ولا يصلح هذه الأمور إلا نبي بإذن الله، فإن لم يكن نبيًا، فالقاضي مسؤول عن ذلك كله". من ذلك تتبين المسؤولية العظمى التي كانت على عاتق الفقهاء.

فهذا الوضع الذي كان خاصا بالأندلس وشاع أيضا بالمغرب، انتهزه ابن تومرت في إثارة الثورة بالمغرب، في حين كانت الثورات قد اشتعلت في الأندلس من قبل، فتظافرت للإطاحة بالدولة المربطية، مما كان له تأثير سلبي على الحياة الاجتماعية والاقتصادية، للدولة التي كانت تحظى فيها المرأة بمكانة رفيعة.

ولم يؤكد أي مؤرخ أن النساء هم سبب ضعف دولة المرابطين، وانتشار الفوضى بها، ما عدا عبد الواحد المراكشي مؤرخ البلاط الموحدي، وأصبح مصدرًا لمن جاءوا من بعده. وربما الفساد الذي وصفه المراكشي ينطبق مع ما وصفه الفقيه ابن عبدون المعاصر للمرابطين، غير أن وصف هذا الأخير لا يخصص المرأة اللمتونية أوالمسوفية، إنما جاء بصيغة التعميم على الطبقة العامة في المجتمع، والتي اختلفت فيها الديانات والعادات باختلاف أجناسها، مما يؤكد عدم نزاهة المراكشي الموالي للموحدين، ومحاولة طمس بعض الحقائق التاريخية المتعلقة بالمرابطين.

الفصل الثالث

مساهمة المرأة في الحياة العلمية والفنية

- تمهيد

1- تعليم المرأة

2- مساهمة المرأة العلمية والأدبية

أ- العلوم الدينية

ب- الأدب والشعر

جـ- الطب

3- مساهمة المرأة الفنية

أ- الموسيقى والغناء

ب- الخط والزخرفة

جـ- العمران

تمهيد:

عملت دولة المرابطين على نشر تعاليم الإسلام وتثبيت أركانه. ونعمت البلاد بالأمن والرخاء منذ أواخر عهد يوسف بن تاشفين. وكنتيجة لهذا الاستقرار انصرف الناس إلى البناء الحضاري وتحصيل العلوم والأدب.(1) إلا أن اختلاف الدراسين للحياة الثقافية الاندلسية أثار عدّة تساؤلات، فيما فوصفتها الدراسات الأجنبية بما يلي:"إن المرابطين امتازوا بالخشونة والبداوة والمحاربة، ولم يأخذوا بنصيب من رقة الحضارة الأندلسية وتهذيبها."(2) "واعتبر عصر سيادة المرابطين على الأندلس عصر تأخر وانكماش الثقافة الأندلسية خاصة في عهد يوسف بن تاشفين.(3) ووصفها دوزي(4) بما يلي: "فقد دالت دولة الحضارة وقامت الهمجية على أنقاضها، وبدلا من سماع مسجلات العلماء والشعراء والغناء بدأنا لا نسمع إلا أصوات الفقهاء وصليل السيوف". لكن ما لبث الثقافة الأندلسية أن غلبت على أمراء المرابطين في عهد ابنه علي. فأصبح الأمراء يتعشقون الأدب ويستمعون بسماع الشعر. ويرعون العلماء ويغدقون الأموال على الشعراء."(5) وبالمقابل ورد في الدراسات العربية أن الحركة الفكرية برعاية المرابطين ضمت جمهرة كبيرة من العلماء والأدباء والشعراء.(6) هذا مما يثير التساؤل عن أسباب هذا الواقع الثقافي وما هو الرأي الأرجح في ظل الحقائق التاريخية ؟ فإذا اعتبرنا أن عهد يوسف بن تاشفين انكمشت فيه الحضارة في الأندلس،(7) فربما يرجع ذلك إلى الظروف السياسية والأمنية للأندلس التي فرضت عليه ذلك التصرف دفاعا عنها: لأني ما لاحظته، هو أن يوسف بن

---

[1] الهرفي: المرجع السابق، ص 308. حسن علي حسن: المرجع السابق، ص 491. إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ج1، ص 394. سعد عبد الله البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1417 هـ/1997، ص 133.

[2] آنخيل جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي: ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، (د.ت)، ص 123.

[3] يوسف أشباخ:المرجع السابق، ص 493.

[4] Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, Vol 2, P 387

[5] أشباخ: نفس المرجع، ص 494. عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج2، ص ص 645، 475.

[6] لقد أحص يوسف فرحات 68 شاعرا من بينهم الشاعرة نزهون القلاعية. أنظر: معجم الحضارة الأندلسية ص ص 110-131.و سبب الانكماش الأدبي عما كان في عهد الطوائف، لم يكن متعمدا لأن الأمراء شغلوا بأمور الدين والجهاد أكثر من الأمور الثقافية. انظر: نفس المرجع، ص109. وحسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ص 385-387.

[7] إن شأن المغرب لم يكن كذلك، وهذا بشهادة ما ورد عن عبد الواحد المراكشي:" إنه انقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم ينفق اجتماعه في عصر من الأعاصير. وفي هذا العهد صارت مراكش منتدى الأدباء والشعراء وملتقى الحكماء والعلماء جمعهم يوسف بن تاشفين من الأندلس ووفدوا عليه من القيروان". أنظر المعجب: ص164 والغبريني: المصدر السابق، ص 37.

تاشفين لم يعارض ثقافة الأندلس أو حاول الإساءة لها بدليل أن وليّ عهده "علي" ترعرع في أحضانها وسهل من ثقافتها. وهذا ما انعكس فيما بعد على الجانب الثقافي للدولة حين أصبح حاكمها، وحرص علي بن يوسف على تنشئة أبنائه تنشئة علمية. وما لبثت أن أصبحت مجالس الأمراء مقصدا لمشاهير العلماء والأدباء الذين عرفوا بالتقوى والعلم الغزير.(1) كما فسح المجال العلمي للأميرات المرابطيات ونلن حظا وافرا من العلم.(2) واتسعت دائرة الإقبال على التعليم إلى نساء العامة خاصة في الأندلس. وهذا ما دفعني للتساؤل عن إفرازات هذا الانصهار الحضاري بين العدوتين في الوسط النسوي ؟

أ - <u>تعليم المرأة:</u>

إذا كانت أول آية نزل بها الوحي هي " اقرأ".(3) تأمر بالقراءة للذكر والأنثى على حد السواء وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم):" طلب العلم فريضة على كل مسلم".(4) فما نصيب المرأة من ذلك ؟ وما هي الطرق التي سلكتها لتحقيق هذه الغاية ؟ وما هي المجالات العلمية التي استرعت اهتماماتها. وبالتالي إلى أي مدى استطاعت المساهمة في الحياة العلمية ؟

بناء على أن طلب العلم فريضة، يتحتم على المرأة أن تعلم أمور دينها، كما عليها أن تتعلم أمور دنياها لأنها المدرسة الأولى للطفل تربية وتعليما وتأديبا، فحروف الهجاء يتلقاها الطفل من أمه.(5)

وفي ذلك يقول الشاعر أحمد شوقي:

الأم مدرسة إذا أعدتها أعدت شعبا طيّب الأعراق.(6)

ومن ذلك أستنتج أن أقوم طريقة للبناء الحضاري لأي أمة ترسى قواعدها على أسس التربية والتعليم. ويلاحظ في هذا المجال اهتمام حكام المرابطين بنشر العلم ورعاية العلماء منذ إنشاء نواة الدولة المتمثلة في رباط عبد الله بن ياسين.(1)

---

[1] لقد اشتغل بالعلوم والأدب، وكثر النبهاء، وتعدى الأمر إلى اشتغال أمير المسلمين علي بن يوسف بالعلم حتى غدا عالما مشهورا بصدق روايته. أنظر: حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 384. من أشهر الأمراء في هذا المجال: الأمير إبراهيم بن يوسف وأبي بكر بن تافلويت، الأمير مزدلي والزبير بن عمر. أنظر: حسين مؤنس سبع وثائق جديدة عن المرابطين، ص 25. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج2، ص 645.

[2] محمد بلغيث: التعليم والمؤسسات العلمية بالأندلس عصر المرابطين، دراسة مرقونة، الجزائر، 2000، ص ص 16-17-20.

[3] سورة العلق: الآية 1.

[4] البغوي (أبو محمد الحسين مسعود) بشرح السنة، ج1، تق: علي محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، ط1 دار الكتب العلمية - بيروت، 1412 هـ/1992 م، ص 231.

[5] الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط (عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، تونس، 1987، ص 288- 289.

[6] حنا الفاخوري: منتخبات الأدب العربي -المكتبة البوليسية، بيروت (دت)، ص 536.

أما فيما يخص طرق تعليم المرأة فإن المرابطون حافظوا على النظام الذي كان معمولا به.(2) فكانوا يرسلون أبناءهم إلى الكتاب والتي يسمونها المحضرة. كما كانت الفتاة تتلقى تعليمها على يد وليّ أمرها أو على أحد الرجال من ذوي محارمها، كجدها وأخيها وزوجها أو ابنها.(3) فمثلا أم هانئ بنت القاضي محمد بن عبد الحق بن عطية أخذت العلم على والدها،كما أخذ الناس عنها.(4) وابنة وزوجة أحمد بن الحطية تعلمتا الخط على هذا الأخير،(5) كما أن حمدونة وزينب ابنتا زياد بن بقي العوفي تلقتا تعليمهما على يد والدهما الذي كان مؤدبا.(6)

كما كانت تأخذ العلم عن طريق المرأة نفسها، ومنها أن أم هانئ أخذ الناس عنها. وحمدونة بنت زياد المؤدب، كانت تعلم النساء الأدب، فذاع صيتها وعظمت منزلتها.(7) وكما كان بإمكانها أخذ العلم عن غير الرجال من ذوي المحارم ولكن يتم ذلك من خلف ستر أو أن يكون الرجل ضريرًا معروفا بالعفة.(8) ونتيجة لتعليم الفتاة ترددت عدة أسماء منها طونة بنت عبد العزيز التي أخذت العلم عن عبد العزيز عبد البر وعن عمر العذري الدلائي.(9) والملاحظ حاليا أن نساء الحضرة بموريتانيا تأخذ العلم من الزاوايا، ويشاركن الرجال في جميع الفنون مع الصيانة وعدم التبذل.(10) وما زال الاهتمام بتعليم الفتاة مستمراً في بعض قبائل الطوارق المعاصرة بنفس الطرق القديمة، وهذا ما يدل على تأصل فكرة تعليم المرأة (منذ القرن 5هـ/11م) أي في العهد المرابطي. كما عرفت البنت الأندلسية الرحلة في طلب العلم، فبعد إكمال تعليمها في بلدها كانت تنتهز فرصة الرحلة لطلب العلم خارج بلدها برفقة ذي محرم من أب أو أخ أو غيره،(11) وهذا ما يدل على شغفها للعلم وطموحها على الإجازات العليا من المشرق. فمن هؤلاء الطالبات للعلم أذكر خديجة بنت أبي محمد بن عبد الله بن

---

[1] دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص 369. ATTILIO, Gaudio : op.cit, P37

[2] كانت الفتاة في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية تلقى تعليمها منذ السن السادسة أو السابعة من عمرها مثلها مثل الذكور تماما. وقد حافظت قرطبة على هذا النهج في تعليم الإناث في عهد المرابطين، كما شاركتها مدن أخرى في ذلك. أنظر: Henri Pérès : op.cit .P 578.

[3] دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص 396. العريني: يوسف بن علي بن إبراهيم: الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، ط1، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة – الرياض، 1416 هـ/1995م، ص 149.

[4] المقري: المصدر السابق ج4 ص 292.

[5] إبن عبد الله: معجم نساء المغرب، ص 9.

[6] المقري: نفس المصدر، ص 289. Ibid: P591.

[7] المقري: نفسه. Pérès (H) : Ibid. P59.

[8] العريني: نفس المرجع، ص 150.

[9] ابن بشكوال: الصلة: رقم 1541، ص696-697.

[10] المختار بن حامد: تاريخ موريتانيا الثقافي، ج2، ص 180.

[11] العريني: نفس المرجع، ص 150.

سعيد الشنتجيالي التي سمعت مع أبيها ومن الشيخ أبي ذر بن أحمد الهروي صحيح البخاري وغيره. وشاركت لأبيها هناك في السماع من شيوخه بمكة المكرّمة. ويضيف ابن بشكوال (1) قائلا:"ورأيت سماعها في أصول أبيها بخطه. وقدمت معه الأندلس وماتت بها".

2- مساهمة المرأة العلمية والأدبية:

إذا كان أمراء المرابطين شجعوا العلم والعلماء، فما هي إذن مظاهر ذلك لدى نساء البلاط ؟ وهل شملت عنايتهم نساء عامة المجتمع أم كان العلم محصورًا في الطبقة الخاصة فقط ؟ وبالتالي ما هي المجالات التي استرعت اهتمام المرأة وما مدى إسهامها في الحياة الفكرية ؟

أ- **العلوم الدينية**: يبدو أن نساء البلاط كن في معظمهن متعلمات مثقفات وشاعرات جمعن بين العلوم الدينية والأدب، أمثال الحرّة زينب النفزاوية التي اشتهرت بالعلم والرياسة(2) ولم تبلغ ذلك النفوذ السياسي في عهد يوسف بن تاشفين إلا بفضل مواهبها الفكرية وحسن تدبيرها ومعرفتها للشعر، فقد مدحها القاضي ابن خلفون في صورة بديعية حيث شبهها بالشمس دون سائر نساء الدولة المرابطية(3) كما تبدو عناية الأمراء المرابطين بتعليم بناتهم بما قام به، الأمير إبراهيم المسوفي. الذي كان له ابنتان، إحداهما "حواء" التي كانت لها دراية بالقران ومسكة من العلم وتحاضر في الأدب. أما أختها زينب، وهي زوجة الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، فقد كانت تحفظ جملة من الأشعار. وهذه العناية الأبوية تؤكد شغف والدها للعلم والأدب فجاءت البنتان صورة له وقدوة يحتذي بها(4)

ومن النساء المرابطيات الأميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين، والتي تكنى بأم طلحة، كانت تطلب العلم وتحفظ الشعر وتتخذ الموكلين والكتاب وتبرز إليهم في غير حياء أو خجل، وتحاسبهم دون أن تجد في ذلك غرابة، وقد روى أن الكاتب الذي لقيته بهت لما رآها، فظنت أنه بهت من حسنها وجمالها لأنها كانت سافرة الوجه، فأنشدته:

هي الشمس مسكنها في السماء   فعز الفؤاد عزاء جـــميلا
فلن تســـتطيع إليها الصـــعودا   ولن تستطيع إليك النزول(5)

---

[1] الصلة:رقم 1539، ص 696.
[2] الخليل النحوي: المرجع السابق، ص 289-290.
[3] النويري:المصدر السابق، ص 6. ابن عذاري: البيان، ج4، ص 18.
[4] ابن عبد الله: معجم نساء المغرب، ص 11.
[5] ابن عبد الله: نفسه. حمدي عبد المنعم:المرجع السابق، ص 334.

سعيد الشنتجيالي التي سمعت مع أبيها ومن الشيخ أبي ذر بن أحمد الهروي صحيح البخاري وغيره. وشاركت لأبيها هناك في السماع من شيوخه بمكة المكرّمة. ويضيف ابن بشكوال (1) قائلا: "ورأيت سماعها في أصول أبيها بخطه. وقدمت معه الأندلس وماتت بها".

2- مساهمة المرأة العلمية والأدبية:

إذا كان أمراء المرابطين شجعوا العلم والعلماء، فما هي إذن مظاهر ذلك لدى نساء البلاط ؟ وهل شملت عنايتهم نساء عامة المجتمع أم كان العلم محصورًا في الطبقة الخاصة فقط ؟ وبالتالي ما هي المجالات التي استرعت اهتمام المرأة وما مدى إسهامها في الحياة الفكرية ؟

أ- العلوم الدينية: يبدو أن نساء البلاط كن في معظمهن متعلمات مثقفات وشاعرات جمعن بين العلوم الدينية والأدب، أمثال الحرّة زينب النفزاوية التي اشتهرت بالعلم والرياسة(2) ولم تبلغ ذلك النفوذ السياسي في عهد يوسف بن تاشفين إلا بفضل مواهبها الفكرية وحسن تدبيرها ومعرفتها للشعر، فقد مدحها القاضي ابن خلفون في صورة بديعية حيث شبهها بالشمس دون سائر نساء الدولة المرابطية(3). كما تبدو عناية الأمراء المرابطين بتعليم بناتهم بما قام به، الأمير إبراهيم المسوفي. الذي كان له ابنتان، إحداهما "حواء" التي كانت لها دراية بالقرآن ومسكة من العلم وتحاضر في الأدب. أما أختها زينب، وهي زوجة الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، فقد كانت تحفظ جملة من الأشعار. وهذه العناية الأبوية تؤكد شغف والدها للعلم والأدب فجاءت البنتان صورة له وقدوة يحتذي بها(4)

ومن النساء المرابطيات الأميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين، والتي تكنى بأم طلحة، كانت تطلب العلم وتحفظ الشعر وتتخذ الموكلين والكتاب وتبرز إليهم في غير حياء أو خجل، وتحاسبهم دون أن تجد في ذلك غرابة، وقد روى أن الكاتب الذي لقيته بهت لما رآها، فظننت أنه بهت من حسنها وجمالها لأنها كانت سافرة الوجه، فأنشدته:

هي الشمس مسكنها في السماء　　فعز الفؤاد عزاء جـميلا
فلن تسـتطيع إليها الصـعودا　　ولن تستطيع إليك النزول(5)

---

1 الصلة:رقم 1539، ص 696.

2 الخليل النحوي: المرجع السابق، ص 289-290.

3 النويري:المصدر السابق، ص 6. ابن عذاري: البيان، ج4، ص 18.

4 ابن عبد الله: معجم نساء المغرب، ص 11.

5 ابن عبد الله: نفسه. حمدي عبد المنعم:المرجع السابق، ص 334.

القلاعية(1) التي عاشت في العهد نفسه أو لحفصة بنت الحاج الركونية التي اشتهرت بمجالسها الأدبية في عهد عبد المؤمن بن علي الموحدي(2) وإن كانت المصادر الأندلسية حافظت على أشعار بعض الأندلسيات فإن الأمر لم يكن مماثلا بالنسبة لشواعر المغرب التي اتفقت جل الدراسات على أنهن كن متعلمات أديبات وشواعر، لكني لم أعثر عن آثار مادية لهؤلاء الشاعرات ما عدا بعض الإشارات على ذلك، مثلا أن "ورقاء بنت يانتان كانت تقرض الشعر وذات اهتمام بمطالعتها للكتب إلى جانب صلاحها وحفظها للقرآن".(3) ونظرا لهذه الإشارات الطفيفة، لم يتسن لي معرفة أغراض شعرها ولا نوعية الكتب التي كانت تطالعها. لكن من خلال هذا النص التاريخي يمكنني القول أن الكتب التي استرعت اهتمامها هي الكتب الدينية وذلك لما ذكر من صلاح هذه المرأة ولحفظها للقرآن، وهذه الملاحظة تنطبق على الكثير من نساء المغرب اللائي أشارت إليهن بعض مصادر الفترة باختصار شديد.

وفي هذا الصدد لا أستبعد أن تكون فانو بنت عمر بن يانتان فتاة متعلمة إلى جانب تدريباتها القتالية التي أدهشت جند الموحدين(4) لأن معظم الأميرات كن متعلمات، وفتاة في مثل شجاعتها وجرأتها لا بد أن تكون قد أخذت قسطا من التعليم.

أما خارج البلاط المرابطي فقد اشتهرت بعض نساء طبقة الوجهاء لاسيما بنات العلماء أو العائلات المتدينة، والعائلات الغنية. وهؤلاء العائلات أخذت على عاتقها وجوب تعليم نسائها. فساهمت بعض نسائها في مجالس العلم وروين الحديث وقرأن على الشيوخ. وترددت عدّة أسماء أذكر منهم "زينب" بنت عباد بن سرحان التي روت عن أبيها وأجاز لها. و"فاطمة" بنت الفقيه أبي علي الصدفي، التي ولدت في عام (490 هـ/1096م)، أي أنها عاشت في العهد المرابطي -لكن لم يعرف تاريخ وفاتها-. كانت تحفظ القران والحديث، ولها إطلاع واسع على المكتبة العربية. كما كانت حسنة الخط وزاهدة في الحياة،(5) ويبدو أن زهد فاطمة ليس الانقطاع عن الحياة لكن للتفرغ في طلب العلم الذي شغل معظم أوقاتها حتى وصفت بالزهد.

كما ساهمت طونة بنت عبد العزيز. (عاشت ما بين 437 هـ-1045 م/556 هـ-1160م)، في مجالس العلم.(6) فقد ترعرعت في بيئة متدينة ومتعلمة، وهذا ما يدل على الجوّ الديني والعلمي الذي تربت فيه المرأة في عهد المرابطين، عكس ما ادعاه ابن تومرت عن المرأة المرابطية وغذته

---

[1] سيأتي الحديث عنها خلال هذا الفصل.

[2] المقري: المصدر السابق، ج4، ص 171. بن عبد الله: معجم نساء المغرب، ص 10. رضا كحالة: المرجع السابق، ص ص 267-271. Luis de giacomo : « Une poétesse Andalousse du temps des Almohades » in Hesperis, T : XXXIV, 1947, P 49.

[3] ابن عبد الله: نفس المرجع، ص 24.

[4] البيذق: أخبار المهدي: تح: حاجيات، ص 94.

[5] ابن عبد الله بن عبد العزيز : نفس المرجع، ص 21. Henri Pérès, op cit P 578.

[6] المقري: نفسه، ج١، ص ٥٩٦.

ومن خلال ما تقدم يتبين أن الغاية من تعليم البنت لدى الطبقة الخاصة هو رغبة وليّ أمرها في إنارة عقلها وترقية فكرها وكسب العلم في حد ذاته لتصبح عضوا صالحا في المجتمع. ولم تكن الغاية منه الحصول على عمل لتوفير لقمة العيش[1]

لكن هذه الصورة الجميلة لبنات الأمراء والوجهاء لم تكن تشمل نساء الطبقة العامة في المجتمع تغاضت عن ذكرهن كتابات المؤرخين[2] لكن من خلال النصوص الفقهية نستطيع تكوين رؤية أكثر تكاملا للواقع الاجتماعي لاسيما في الأندلس. فقد اتضح من إحدى نوازل ابن رشد مسألة عن بنات غير متعلمات، استغل جهلهن بالقراءة والكتابة، فهضم حقهن في الميراث[3] مما يثير الانتباه هنا لظاهرة انتشار الأمية في الوسط النسوي الأندلسي ولم تكن خاصة بهذه الفترة فقط. فقد قال في ذلك الفيلسوف القرطبي ابن رشد الحفيد(توفي في 595 هـ/1198م) :"بما أن النساء في هذه المدن غير مستعدات للتمتع من الفضائل الإنسانية، فإنهن كثيرًا ما يشبهن النبات [....] ولا يعرفن من تنشئتها أيا من الأفعال الضرورية في ذلك، عدا القليل من الأفعال مثل الحياكة والغزل [....] لينفقن على أنفسهن"[4] ومن خلال النصين يظهر لي جليا أن تعليم المرأة ومستواها الثقافي ارتبط أساسا مع تفاوت مكانتها الاجتماعية والاقتصادية ولم يكن منتشرًا في الأوساط الشعبية بالصفة التي شاعت عن المرأة الأندلسية، إنما الاهتمام بتعليم المرأة كان سائدا لاسيما في الطبقة الخاصة لدى الأمراء والوجهاء[5].

وإذا كان الهدف من تعليم المرأة هو تكوين العضو الصالح والنافع للمجتمع والأرضية الخصبة لتربية ورعاية الأجيال، فما هي بالمقابل الميادين التي ساهمت من خلالها المرأة في الحياة الفكرية ؟

مما تقدم ذكره من نماذج لبعض نساء الوجهاء المتعلمات، تبيّن لي أن مجالات العلمية التي ساهمت فيها المرأة، اقتصرت على العلوم الدينية من حفظ القرآن بالدرجة الأولى ثم الحديث والاهتمام بالأخص بكتب الصحاح في مقدمتها للإمام مالك لأن الدولة المرابطية قامت على أساس إحياء السنة

---

[1] المقري: النفح، ج4، ص 220. و العريني: المرجع السابق، ص 51.

[2] إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ج1، ص 218.

[3] المسألة:

سئل : عن رجل توفي في قرية كان له فيها ملك وفي غيرها، فاشتغل ابنه الملكين جميعا مدّة ثلاثين عاما بعد وفاة أبيه، ثم قامت عليه أخته تطلب حظها فيما كان لأبيها بالقرية التي توفي بها، فاستظهر عليها أخوه بعقد تضمن ابتياعه منها الملك، فقالت: إنما بعت منك حظي من أملاك الموضع الآخر، فسئلت البينة، فقالت:"نذكر البيع، ولا نذكر في أي ملك،ونحن أميون لا نقرأ ونكتب وإنما نذكر إشهادا على البيع[...]. أنظر: فتاوى ابن رشد، السفر 3 المسألة 576، ص 1566.

[4] نقلا: عن: ماريا فيغيرا: المرجع السباق، ص 1001، وأنظر: Pierre Guichard : op.cit. P[?]

[5] إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ج1، ص 217.

من خلال المذهب المالكي. ولذلك انتشر في وسط النساء. مضافا إليها ما اتصل بهما من علوم شرعية أخرى. أما المجالات العلمية الأخرى التي أولت لها المرأة اهتماما خاصًا فهي الأدب والشعر.

ب- **الأدب والشعر**:

برزت المرأة في مجال الأدب والشعر، واشتهرت عدّة شاعرات سواء من نساء البلاط،(1) أو من نساء العامة. إلا أن ذلك يتجلى أكثر في بلاد الأندلس منه في المغرب، لذلك نجد بعض المؤلفات الأندلسية تحتفظ ببعض أشعار هؤلاء الشاعرات. ولقد تضمن شعر هؤلاء بالأخص: وصف الطبيعة، الغزل، المدح، الهجاء، ولم يساهمن في كل فنون الشعر وموضوعاته(2) ومن هؤلاء الشاعرات أذكر البعض منهن اللائي عشن في عهد دولة المرابطين. فقد اتصف الشعر في هذا العهد بالتزام جانب من الحشمة، ولم يظهر فيه هجاء مقذعا أو غزلا فاحشا أو تهكما لاذعا وهو صورة معبرة من حياة المرابطين المحتشمة(3). ورغم ما وصف به يوسف بن تاشفين من خشونة وعدم تذوقه للشعر، بل وعدم إتقانه للغة العربية(4) فقد أهدى للمعتمد بن عباد جارية شاعرة نشأت بالمغرب، وكانت لهذه الجارية مكانة مقربة من طرف ابن عباد أمير إشبيلية، إذ كان يتسلى بها ويصطحبها في نزهاته. وخرج مرة إلى قصر الزهراء على نهر إشبيلية حين كان مهموما بما بلغه من أخبار عن نية يوسف بن تاشفين في انتزاع بلاد ملوك الطوائف منهم، ولاحظت هذه الجارية إنشغاله بذلك فأنشدته:

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ... ولووا عمائمهم على الأقمـــار

وتقـــلدوا يوم الوغـــى هـــندية ... أمضى إذا نتضيت من الأقدار

إن خوفـــك لـــقـــيت كل كريهة ... أو أمنوك حلـــلـــت دار القرار(5)

فغضب منها ورمى بها في النهر، ولذا عرفت بالجارية المضلومة(6) وربما تفطن أنها إحدى عيون المرابطين في قصره،(7) فهي تهدده بطريقة غير مباشرة وتمدح الملثمين، عوض أن تخفف عنه كربه. هذه واحدة من الشواعر المغربيات التي عثرت لها على هذه الأبيات باستثناء ما سبق ذكره عن الأميرات المرابطيات، أما باقي الشواعر التي سيأتي الحديث عنهن فهن من الأندلس.

---

[1] كما سبق ذكر البعض منهن.

[2] الشكعة: المرجع السابق، ص 239.

[3] ربما هذا ما يعكس أثار الفقهاء في توجيه الأدب، فأبعد عن الأغراض التي تناولها أدباء ملوك الطوائف كالخمريات والغزل. حسن علي حسن: المرجع السابق، ص 491. حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج1، 394. سعد البشري: المرجع السابق، ص 133.

[4] إبراهيم حركات: نفس المرجع، ص 217.

[5] المقري: نفح الطيب، ج6، ص 12. إبراهيم حركات: نفسه.

[6] ابن عبد الله: معجم نساء المغرب، ص 8.

[7] بوفلاقة: المرجع السابق، ص 138.

لقد عاصرت العهد المرابطي الشاعرة اعتماد الرميكية جارية المعتمد ابن عباد وأم أولاده التي قيل عنها أنها كانت جميلة الوجه حسنة الحديث، حلوة النادرة، كثيرة الفكاهة لها في كل ذلك نوادر محكية.(1) وأول ما جمع بينها وبين المعتمد بن عباد هو إجازها للبيت الشعري الذي عجز عن إجازه الوزير ابن عمار، إذ قال المعتمد:

صنع الريح من الماء زَرَدَ.

وكانت اعتماد من ضمن جماعة النسوة اللائي كن يغسلن بجانب الوادي الكبير فقالت:

أي درع لقتال لو جمد(2).

فكان هذا الشطر من البيت الشعري سببا في زواج المعتمد بها حتى هام بها حبا، لكن ما ألاحظه عن هذه "الشاعرة" أنها لم تخلف شعرا في منفاها بأغمات رغم ما أصابها من الذل والهوان (3) بل كل ما قيل عنها كان من ضمن أشعار زوجها المعتمد بن عباد(4).

وأما بثينة بنتها فعدّت من بين شواعر الأندلس في القرن (5 هـ/11م)، ولقد ورثت بثينة الشعر عن أسرتها التي كانت كلها شاعرة(5) وعن محيطها الشعري، إذ كان قصر أبيها منتدى لأكابر شعراء الأندلس في عصرها،(6) ويذكر عنها أنها كانت تشبه أمها في الحسن والجمال. كما كانت حاضرة الجواب وسريعة الخاطر حلوة النادرة. غير أنه لم يبق من شعرها غير القصيدة التي أرسلتها إلى أبيها وهو في منفاه بأغمات، تستشيره في أمر زواجها بابن التاجر الذي اشتراها من سوق النخاسة بإشبيلية.(7) ويبدو أن لبثينة أشعار أخرى كانت مشهورة بها لكنها اندثرت. "وكانت الأديبة بثينة من الفطنة بحيث أقنعت الفتى وأباه بالانتظار، وكانت من الاعتراف بالجميل فحسنت لأبيها الموافقة على الزواج، وخلدت كبريائها فلم تنس أنها أميرة وابنة ملك، وارتضت بحكم القدر واستطاعت بفضل شاعريتها أن تروي قصة واقعية من أكثر القصص في التاريخ أسى وأخذا بمجامع الأحاسيس والخواطر."(8)

---

[1] المقري: المصدر السابق، ج6، ص 211.

[2] نفس المصدر، ص 272.

[3] أنظر الفصل الأول من هذا البحث.

[4] ابن بسام: الذخيرة في محاسن الجزيرة، ق2، مج1، ص 70.

[5] بالإضافة إلى والديها فقد كان جدّها المعتضد شاعرا و كانت جدتها العبادية أديبة ظريفة كاتبة، شاعرة، ذاكرة لكثير من اللّغة. المقري: المصدر السابق، ج6، ص 211.

[6] من هؤلاء الشعراء: ابن زيدون، و ابن عمار، و ابن حمديس، و ابن اللبانة..... أنظر: يوسف فرحات: معجم الحضارة الأندلسية، ص 63، 55، 64.

[7] سبق ذكر القصيدة في الفصل الأول من هذا البحث.

[8] الشكعة: المرجع السابق، ص 169-170.

أما الشاعرة أم الهناء بنت عبد الحق بن عطية، فقد عاشت في (النصف الأول من القرن 6هـ/12م) وسكنت قرطبة. وروي عنها أنها كانت حاضرة النادرة، سريعة التمثل، من أهل العلم والفهم والعقل، ولها تأليف في القبور[1] ولما عيّن أبوها عبد الحق بن عطية قاضيا على المرية[2] وكان شديد التعلق بوطنه قرطبة، فلم يعجبه مفارقة وطنه، فدخل داره والدمع يترقرق في عينيه وجدا لمفارقة قرطبة، فلما رأته ابنته أم الهناء على تلك الحالة أنشدته تواسيه:

يا عين صار الدّمع عندك عـــادة   تبكين في فرح و في أحزان.

ولم يحفظ لها إلا أبيات قليلة جاءت في غزل عفيف حيث تقول:

جاء الكـــتاب من الحبيب بأنّــــه   سيزورني فاستعبرت أجفاني
غلب السرور عـــليّ حتى أنــــه   من عظم فرط مسرتي أبكاني
يا عين صار الدمع عندك عادة   تبكين في فـــرح وفي أحزان
فاستقـــبلي بالبشرى ولـــقائـــه   ودعي الدموع لليلة الهجران[3]

وهكذا يتبين أن القاضي عبد الحق بن عطية لم يكن ير مانعا في أن تقول ابنته شعر الغزل العفيف. فقد تتلمذت على يده، وأخذ الناس العلم عنها[4].

كما عاشت في (النصف الأول من القرن 6 هـ/12م) أديبة أندلسية عرفت باسم هند جارية عبد المالك بن مسلمة الشاطبي[5] التي أرسل لها الشاعر والوزير أبو عامر بن ينق يدعوها للحضور لتطربه[6] فكتبت إليه في ظهر رُقعته وأعادتها إليه:

يا سيّدا حاز العُلا عـــن ســـادة   شمّ الأنوف من الطـــراز الأوّل
حسبي من الإسراع نحوك أنني   كنت الجواب مع الرسول المقبل[7]

والشاعرة نزهون بنت القلاعي الغرناطية:

شاعرة من غرناطة، خفيفة الروح جميلة، قال عنها ابن سعيد[1]: "شاعرة ماجنة كثيرة النوادر". كما وصفت بخفة الروح والانطباع الزائد، والحلاوة وحفظ الشعر والمعرفة بضرب الأمثال، مع جمال

---

[1] المقري: المصدر السابق، ج4، ص 292.

[2] عبد الحق بن عطية عاش ما بين (481هـ-1088م/541 هـ-1146م) وعيّن قاضيا على المرية في شهر محرم (529 هـ/1134م). النباهي: المصدر السابق، ص 109.

[3] المقري: نفسه.

[4] ابن عبد الله: معجم أعلام النساء، ص 7.

[5] ابن الأبار: المقتضب، ص 218. المقري: النفح، ج4، ص 293.

[6] أرسل لها هذين البيتين: يا هند هل لـــك في زيارة فـــتية   نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدوا فتذكروا   نغمات عودك في الثـــقـــيل الأول
توفي هذا الشاعر سنة 547 هت/1152م.

[7] ابن الأبار: نفسه. المقري: نفسه.

فائق وحسن رائق(2) كانت تجالس الوزراء وتساجل الشعراء وتهاجيهم. ولها مهاجات ومشاغبات، ومساجلات، مع مشاهير شعراء ووزراء عصرها، كالأعمى المخزومي(3) الهجاء. وابن قزمان الشاعر الزجال والوزير أبي بكر بن سعيد(4) ومما يروى أنها كانت يوما جالسة في دار الوزير أبي بكر بن سعيد في غرناطة عندما دخل الشاعر أبو بكر المخزومي الأعمى يقوده غلام صغير، فلما استقر به المجلس وأفعمته روائح الند والعود والأزهار وهزت عطفه الأوتار، قال أبيات شعرية(5) ودار الحوار على مرأى ومسمع الشاعرة نزهون الغرناطية صاحبة الروح العدوانية، فأقحمت نفسها في الحوار الذي كاد ينتهي بسلام لو لا تدخلها، فقالت:

"ونراك يا أستاذ قديم النغمة، بنَد وغناء وطيب شراب، تتعجب من تأتيه، وتشبهه بنعيم الجنة، وتقول ما كان يعلم إلا بسماع، ولا يبلغ إليه إلا بالعيان. لكن من يجيء من حصن المدور، وينشأ بين تيوس وبقر، من أين له معرفة بمجالس النِغم؟ فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى، فقالت له دعه. فقال من هذه الفاعلة ؟ فقالت عجوز مقام أمك. فقال كذبت [...]. ويستدرك الوزير أبو بكر الموقف قائلا له: يا أستاذ إنها نزهون بنت القلاعي الشاعرة الأديبة. فقال سمعت بها لا أسمعها الله خيرا ولا أراها إلا[...] فقالت: يا شيخ سوْ تناقضت، وأي خير أفضل للمرأة ؟ ففكر المخزومي قليلا ثم قال:(6) وحينئذ أعملت فكرها وردت عليه على الفور بشعر أكثر بذاءة.

فقالت:

قــل للـوضيــع مــقالا ... يتلى إلى حين يحشر
مــن المــدور أنشئــت ... [...] مــنه أعــطر(7)
حيث البـــداوة أمــست ... في أهــلها تــتبختر

---

[1] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 121. و مصطفى الشكعة: المرجع السابق، ص 154-155.

[2] ابن الأبار: المقتضب، ص 216. ابن الخطيب: الإحاطة، مج3، ص 344.

[3] هو أبو بكر المخزومي الأعمى المدوري (نسبة إلى حصن المدور بقرب قرطبة) كان شديد الشر معروفا بالهجاء مسلطا على الأعراض، سريع الجواب، ذكي الذهن، فطنا للمعاريض وسابقا في ميدان الهجاء إذا مدح ضعف شعره، كان حيا سنة 540 هـ/1145م. أنظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج1،ص 424-427. المقري: نفس المصدر ج4، ص 295. ويوسف فرحات: المرجع السابق، ص 114.

[4] كان قد ولي إشراف غرناطة في إمارة أبي سعيد الميمون بن بدر اللمتوني، وسعى به المخزومي لدى أمير المسلمين علي بن يوسف بقصيدة منها:" وما لإلاه العرش تنفينه حمده وزينب والكأس الذي هو داير". كانت تلك القصيدة سببا في عزله ونكبته.أنظر: ابن الخطيب: نفس المصدر، مج3، ص 216. وهذا ما يدل على استنكار وعدم رضا أمير المسلمين علي بن يوسف على ما كان يحدث في مثل تلك المجالس.

[5] قال: دار السعيدي ذي أم دار رضوان ... ما تـشتهي النـفـس حاضـر دانـــي. أنظر: ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص 425.

[6] قال: على وجه نزهون من الحسن مسحة ... وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا.انظر: ابن الخطيب: نفس المصدر، ج1، ص 427.

[7] حذفت الكلمة لبذاءتها.

لذلك أمسيت صبّا   بكل شيء مدور
خلقت أعمى ولكن   تهيم في كل أعور
جازيت شعرًا بشعر   فقل لعمري من أشعر
إن كنت في الخلق أنثى   فإن شعري مُذكر(1)

فقال لها إسمعي ثم رد عليها ببيتين نابيي اللفظ، فاحشي التعبير لأنه من غير المعقول قبوله الهزيمة أمام الوزير أبي بكر نظرا لما اشتهر به في الأندلس من هجاء لبذاءة اللسان. وتدخل الوزير أبو بكر وحلف أن لا يزيد أحدهما على الآخر في هجوه كلمة، ولكن رغم ذلك ترد نزهون عليه قائلة:

إن كان ما قلت حق   من بعض عهد كريم
فصار ذكري ذميما   يعزى إلى كل لوم
وصرت أقبح شيء   في صورة المخزومي(2)

وبالرغم من هذه المهاجاة اللاذعة يظهر أن نزهون تصالحت مع المخزومي، فقد ذكر أنها كانت في مجلس معه إذ دخل عليهما أبو بكر المتندري فقال للمخزومي مداعبا إياه:"إن تلمذتك فتنة للناظرين، وإن نعمة الأبصار فوتت عليك تلك المتعة. فقال له أجز:

لو كنت تبصر من تجالسُهُ

و لما أطال المخزومي التفكير و لم يستطع الرد عليه، أسرعت نزهون إلى الإجابة قائلة:

لغدوت أخرس من خلاخله

البدر يطلع من أزرّته   والغصن يمرح في غلائله(3)

وكان لنزهون شعرا في الغزل وقد أعطت لنفسها الحرية الكاملة لتتغزل في الرجال دون حشمة أو حياء، فقد أجابت الوزير أبا بكر بن سعيد حينما عاتبها بما يلي:

حللت أبا بكر محملا منعته   سواك، وهل غير الحبيب له صدري
وإن كان لي كم من حبيب فإنما   يقدم أهل الحق حبّ أبي بكر(4)

وتبدو حذاقة نزهون في استعمالها لتروية طريفة في الشطر الثاني من البيت الثاني إذ من المحتمل أنها قصدت بأبي بكر الوزير عشيقها كما يمكن أنها كانت تعني أبا بكر الصديق. لأن لها عدّة أخلاء

---

[1] المغرب: ج2، ص 228. ابن الخطيب: المصدر السابق، ج1، ص 426. الشكعة: المرجع السابق، ص 160، 161.

[2] ابن الأبار: المقتضب، ص 216. السيوطي: المصدر السابق، ص 99.المقري:المصدر السابق،ج4، ص 296. الشكعة: نفس المرجع، ص 161. ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 121.

[3] السيوطي: نفس المصدر، ص 100. المقري: المصدر السابق، ج4، ص 297. الشكعة: نفس المرجع، ص 162. **بوفلاقة: المرجع السابق، ص 120.**

[4] **ابن الأبار: نفس المصدر، ص 216. السيوطي: نفس المصدر، ص 98. الشكعة: نفس المرجع، ص 152.**

وحاولت من خلاله إرضاء الوزير أبي بكر بن سعيد. كما نلمس ذلك في شعرها في وصف إحدى ليالي الأحد، قائلة:

لله درّ الـــليل مـــا أحَـــيْـــسِـــنها وما أحيْسن منــــها ليلة الأحد

لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

أبصرت شمـــس الضحى في ساعدي قـــــمر بل ريم خازمة في ساعـــدي أســـد(1)

ويحكى أنه رآها رجلا ثـــقيل الظل، فأعجب بجمالها وأراد أن يعبر عن إعجابه بها لكنه خانه التعبير عما يريد أن يفصح به، فقالت في شأنه:

وذي شقوة لما رآني رأى له تمنيه أن يصلي معي جحيم الضرب

فقلت له: كلمها هـــنيئا فإنمـــا خلقت إلى لبس المــــطارف والشرب(2)

عموما فإن هذه الأبيات تفصح على مجون هذه الشاعرة التي أطلقت العنان لشاعريتها فكانت سليطة اللسان ومن ذلك ما سبق ذكره فيمن تقدم لخطبتها ولم ترض به زوجا لها،(3)ومن نوادرها في مجلس الوزير أبي بكر بن سعيد أنها استفزت الشاعر ابن قزمان الذي قدم من غرناطة وكان يلبس عفارة صفراء على زي الفقهاء حينئذ. فلما انتهى ابن قزمان من إنشاد شعره قالت له ساخرة:"أحسنت يا بقرة بني إسرائيل، إلا أنت لا تسر الناظرين. "فضحك الحاضرون وأثارت سخريتها غضب الشاعر ابن قزمان:"إن لم أسر الناظرين فأنا أسر السامعين [...]". وهمّ بتأديبها بالضرب، لولا تدخل الحاضرين في المجلس ومنعه من ذلك(4)

وهكذا استطاعت نزهون القلاعية أن تقف أمام شعراء كبار كالأعمى المخزومي والكتندي وابن قزمان والوزير أبي بكر سعيد، فوقفت معهم الند للند، تحاورهم وتجادلهم وتجيزهم وتهاجمهم، ويرجع ذلك لما ملكته من ثقافة واسعة وحرية مطلقة وطلاقة اللسان. إلا أنها كانت ماجنة فاحتوى شعرها على بذاءات فاحشة.(5)وهذا الذي لم يعتد على سماعه من امرأة حطمت الحواجز بينها وبين الرجال.وعلى كل حال فإنها كانت شاعرة مجيدة ومثقفة ثقافة أدبية واسعة، وخفيفة الروح، سريعة البديهة. وهي تعد إحدى الدلائل على أن حكام المرابطين لم يحطموا الروح الشعرية الأندلسية بسعيهم في سحق الثقافة الأندلسية.(6)لأنه اشتهر في عصرهم أيضا شاعرة قديرة تعرف "بحمدة" بنت زيادة بن

---

[1] ابن الأبار:المصدر السابق، ص 216. المقري:المصدر السابق، ج4، ص 296. الشكعة: المرجع السابق، ص 157.

[2] السويطي: المصدر السابق، ص 99. المقري: نفسه.

[3] أنظر الفصل الثاني من هذا البحث.

[4] ابن سعيد:المصدر السابق، ج2، ص 121.السيوطي: نفس المصدر، ص 99. الشكعة: نفس المرجع، ص 162.

[5] الشكعة: نفس المرجع، ص 238. بوفلاقة: المرجع السابق، ص 123.

[6] يوسف أشياخ: المرجع السابق، ص 493-494.

بقي العوفي المؤدب، فقد قال عنها في المقتضب أنها إحدى المتأدبات المتصرفات المتعففات.[1] وإن كانت نزهون القلاعية قد أجادت في الهجاء والغزل فإن حمدة بنت زياد المؤدب من واد آش[2] قد اشتهرت بوصف الطبيعة وبالغزل أيضا. نشأت مع أختها زينب على حب الأدب، فكانتا شاعرتين مشهورتين ويبدو أن حمدونة[3] كانت أكثر حظا أو بالأحرى أكثر قرضا للشعر من أختها زينب التي نالت شهرة بذكر اسمها فقط مرتبط باسم أختها. واشتهرت حمدونة على أنها أديبة نبيلة وشاعرة، ذات جمال ومال مع العفاف والصون. وعكس ما وصفت به نزهون القلاعية، فإن حمدونة خالطت أهل الأدب مع الحفاظ على عفتها وصيانة أخلاقها.[4] وقد كانت تعلم النساء الأدب، فذاع صيتها وعظمت منزلتها حتى لقبت بخنساء المغرب.[5] ولحمدونة ميزة خاصة بين شاعرات الأندلس، فهي تعد شاعرة الطبيعة الأولى من بينهن، مثلها مثل الشاعر ابن خفاجة بين شعراء الرجال في الأندلس،[6] وكالصنوبري بين الشعراء الرجال في المشرق.[7] ومن أروع ما جادت به قريحتها في إحدى نزهاتها بمدينتها ما يلي:

أباح الدمع أسراري بـــــوادي	له للحسن آثـــار بـــــوادي
فمن نهر يطوف بكـــــل روض	ومن روض يرف بكل وادي
ومن بين الضباء مهاة انس سبت	لبي وقــــد ملكـــت فؤادي
لـــــــها لحظ ترقـــــده لأمر	وذاك الأمـــر يمنعني رقادي
إذا سدلت ذوائبـــنـها عـــــليها	رأيت البدر في أفـــق الدآدي
كأن الصبح مـــــات لــه شقيق	فمن حزن تسربل بالـــحداد[8]

[1] ابن الأبار: ص 214. الكتبي محمد بن شاكر: فوات الوفيات والذليل عليها: تق: إحسان عباس: مج1 دار صادر، بيروت، 1973، رقم 142، ص 394.

[2] مدينة أندلسية قريبة من غرناطة، ذات مناظر طبيعية خلابة، اشتهرت بنهرها الذي ينحدر من جبل شلير بجانبها الشرقي، والمدينة كثيرة التوت والأعناب وأصناف الثمار قد أثارت قريحة الشاعرة حمدونة. وتسمى المدينة Guadix. الحموي: المرجع السابق، مج1، ص 198.

[3] يقال لها أيضا حمدونة. المقري: النفح، ج4، ص287 الشكعة. إن هذه الصيغة الإسبانية كانت بسبب شيوع اللغة الرومانسية ومست أسماء الرجال بزيادة "الواو" و "النون" كزيدون، وعبدون، وأضيفت تاء التأنيث لأسماء النساء مثل حمدونة التي كانت تعرف تارة باسم حمدة. أنظر: الشكعة: المرجع السابق، ص 44.

[4] ابن الخطيب: الإحاطة، مج3، ص 490.

[5] المقري: المصدر السابق، ج4، ص 287. االشكعة: ،نفس المرجع، ص 237.

[6] الشكعة: نفسه، ص 237. بوفلاقة: المرجع السابق، ص 125.

[7] يعتبر الشاعران ابن خفاجة والصنوبري مؤسسا مدرسة شعر الطبيعة هذا في الأندلس والآخر في المشرق. أنظر: الشكعة: نفسه، ص 237.

[8] ابن الأبار: المقتضب، ص 214. الكتبي: نفسه، ص 394. السيوطي: المصدر السابق، ص 48. ابن الخطيب: نفس المصدر، ج4، ص 490. المقري: نفس المصدر، ج4، ص 288.

وتندرج هذه الأبيات ضمن شعر الطبيعة الذي يتطلب أن تنقل صورة الطبيعة بصدق وأمانة، ويحتاج إلى الصنعة البيانية والزينة البديعية، ولقد سلكت حمدونة في وصفها للطبيعة ذلك النهج فجاء شعرها عذبا(1)ولم تستطع كبت عواطفها فأباحت أسرارها.

وهذه الظاهرة وهي ظاهرة حب المرأة للمرأة والتغزل فيها خاصة بالأندلسيات،ولم تعرف لا في المشرق ولا في المغرب(2)وهذا ما يدل على الحرية المطلقة التي تمتعت بها بعض نساء الخاصة في الأندلس.

وقد تميز شعرها بالغزل بالعفة فصاغته في إيقاع من غير فحش ولا خلاعة إنما في نطاق من الأسلوب الرائق والمعاني المحتشمة فقالت في بعض الوشاة الذين فرقوا بينها وبين حبيبها ما يلي:

ولما أبى الواشـــون إلا فراقنا | وما لهم عـــندي وعندك من ثأر
وشنوا على أسماعنا كل غارة | وقل حماتي عـــند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيـــك وأدمعي | ومن نفسي بالسيف والسيل والنار(3)

ومن براعة حمدونة في وصف وادي آش وصفا جميلا وجرى على ألسنة المتأدبين ترنيما وترديدا في المغرب والمشرق، حتى نسب بعض المؤرخون المشارقة بعض شعرها إلى الشاعر المشرقي أحمد بن يوسف المنازي)(4)وكانت هذه الأبيات الموالية مصدر خلاف بين بعض المشارقة والأندلسيين الذين يؤكدون على أنها لحمدونة التي أنشدت ما يلي(5):

وقانا لفحة الرمـــضـــاء واد | سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحة فحـــنا علـــينا | حنَو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمئ زلالا | ألذ من المـــــــدامة للنديم
يصد الشمس أنّى واجهـــتنا | فيحجـــــــبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى | فتــــلمس جانب العقد النظيم(6)

وإن كان من الصعب الجزم في نسبة هذه الأبيات لحمدة بنت زياد المؤدب إلا أنه يتبين لي أن حمدة كانت اصدق في تعبيرها من الشاعر المنازي حين قالت في الشطر الثاني من البيت الثاني:

---

1 الشكعة: المرجع السابق، ص 236.

2 بوفلاقة: المرجع السابق، ص 125.

3 ابن الأبار: المقتضب، ص 215. المقري: المصدر السابق، ج3، ص 208.

4 هو أحمد بن يوسف أبو نصر المنازي الكاتب الشاعر والوزير، وزر لأبى نصر أحمد بن مروان الكردي، وترسل إلى القسطنطينية مرارا. وجمع كتبا كثيرة ثم وقفها على جامع آيد. وللمنازي ديوان شعر وهو منسوب إلى مناز كرد، توفي سنة (437 هـ/1045 م). بوفلاقة: نفس المرجع، ص 127.

5 المقري:نفس المصدر، ج4، ص 287. وأنظر الدراسة التي قام بها سعد بوفلاقة: نفس المرجع، ص ص 126-129

6 المقري: نفسه.

حنوا لمرضعات على الفطيم

مما قاله المنازي: حنو الوالدات على اليتيـــم (1)

لأن حنان المرضعة يكون أشد وأقوى على الفطيم المتعلق بها والذي يصعب فراقه، من حنان الوالدات على اليتيم، ومن ذلك تكون حمدونة قد أصابت في تعبيرها على العلاقة الوطيدة بين المرضعة والفطيم التي تنم من غريزة الأمومة لديها. بيد أنه يبدو على المنازي التكلّف في الألفاظ، لأنه مهما بلغت درجة حنان الوالدات على الأيتام فلن يبلغ ذلك حنان المرضعة على ولدها الفطيم. وفيها قال ابن سعيد: "غرناطة يقال لنسائها المشهورات بالحبّ والجلالة "العربيات" لمحافظتهم على المعاني العربية، ومن أشهرهن زينب بنت زياد الوادي آشي وأختها حمدة بنت زياد."(2)

وأضيف إلى هذه النخبة من شواعر الأندلس الشاعرة والأديبة "حفصة بنت الحاج الركونية" من شواعر غرناطة تنتسب إلى بلدة ركانة(3)عاشت هذه الشاعرة في غرناطة خلال القرن (6 هـ/12 م). وعاصرت دولة المرابطين في نهاية عهدها لكن نبوغها الأدبي كان في صدر العهد الموحدي. لم يذكر تاريخ ميلادها بالضبط إلا أن تاريخ وفاتها كان في حوالي (586 هـ/1190م)(4)أثنى عليها الكثير من المؤرخين فقيل عنها: أنها فريدة الزمان في الحسن والظرف والأدب واللذوعية. وكانت أديبة نبيلة، جيدة البديهة، سريعة الشعر. كانت رخيمة الشعر رقيقة النظم والنثر، وقال عنها السيوطي(5)"كانت أديبة شاعرة جميلة مشهورة بالحسب والمال". ولذلك اعتبرت حفصة الركونية من أشراف غرناطة. وهي تعكس صورة للمستوى الثقافي لبعض نساء هذه الفئة الاجتماعية.

ومن المؤسف أني لم أعثر على أشعارها في العهد المرابطي. وكل ما حفظ لها من إنتاجها الأدبي تعلق بالعهد الموحدي. لكن هذا لا يعني أنها لم تكتب شعرا في عهد المرابطين، وهي التي تميزت بالفصاحة والجرأة وامتلكت مواهب شعرية عالية. وربما يرجع إنعدام شعرها في العهد المرابطي إلى الظروف السياسية التي عرفتها الأندلس مع نهاية المرابطين، أو أن شعرها لم يكن في مستوى الغزارة آنذاك مثلما كان في العهد الموحدي. فقد كان لشعر الغزل القسط الأوفر فيما خلفته من

---

[1] المقري: المصدر السابق، ج4، ص 287.

[2] السيوطي: المصدر السابق، ص 51. المقري: نفس المصدر، ص 289.

[3] ركانة: Requena: بلدة أندلسية قديمة على بعد 69 كلم الشرق من بلنسية تتميز بمناظرها الطبيعية الخلابة. ابن الخطيب: الإحاطة، مج1، ص 481، 491، 494. ياقوت الحموي: المرجع السابق، ج3، ص 63.

[4] ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 166. ابن الخطيب: انفسه ، مج1، ص 481، 491، 494. المقري: نفس المصدر، ج4، ص 177.

[5] نزهة الجلسات في أشعار النساء، ص 42.

أشعار لاسيما فيما يخص بعلاقتها مع الشاعر أبي جعفر بن سعيد الذي هام بها حبا وبادلته نفس الهيام(1)

وتميزت بجرأتها في الهجوم على معاني العشق والهيام، فهي تصرح ولا تلمح ولا تكني. فقيل عنها: "إن غزلها بالرجال قد فاق غزل الرجل بالنساء"(2)ويظهر من خلال شعرها أنها خرجت على تقاليد المرأة المغربية بل المرأة العربية في تلك العلاقة.(3)ورغم لذوعيتها فقد أكسبها أدبها وفصاحتها مكانة رفيعة لدى حكام الدولة المأمونية الموحدية،واتخذت أستاذة لتعليم نساء البلاط الموحدي،(4)وهذا ما يدل على إعجاب هؤلاء الحكام بالشاعرة والأديبة حفصة الركونية التي حطمت كل القيود الاجتماعية في علاقاتها الغرامية.(5)وهم الذين –أي الموحدون– عابوا على المرأة المرابطية سفورها في المجتمع ونهوا عن ذلك، رغم ما تميزت به الكثير من النساء من عفة وتديّن وعلم، وأدب–. وتعد الشاعرة حفصة الركونية مثلا على استمرارية حرية تصرف الأندلسيات في المجتمع الموحدي مثلما كن يفعلن في العهد المرابطي. ولم يحقق الموحدون غايتهم في وضع حد لسفور وتبرج النساء طبقا لتعاليم دعوة المهدي بن تومرت. فهذه الشاعرة شبت في العهد المرابطي حيث تلقت تعليمها كسائر بنات الأندلس، ثم ما لبثت أن أنيعت ثمارها في العهد الموحدي بالأخص.(6)وما نماذج النساء اللائي سبق ذكرهن إلا دليلا على أن الحركة الفكرية النسوية لم تتوقف في العهد المرابطين الذين تميزوا على سائر حكام المغرب بإكرامهم للمرأة، وفسح المجال لها للمساهمة في بناء الدولة. فوجدت من بين النساء الأديبة والشاعرة والمعلمة والخطاطة والعالمة الفقيهة.

وللإشارة فإن النبوغ الفكري النسوي استمر طيلة القرنين (5 و 6 هـ/11 و 12م) في بلاد الأندلس. فمما يذكره المقري، أن زوجة قاضي مدينة لوشة،(7) كانت تبث في القضايا الخطيرة والمشكلات المستعصية بين المتقاضين. إذ كان هذا القاضي، حين يستعصي عليه الأمر يلجأ إليها

---

[1] ونافسه في ذلك الأمير أبي سعيد بن عبد المؤمن بن علي. أنظر: ابن سعيد: المصدر السابق، ص 164. ابن الخطيب: المصدر السابق، مج1،ص 481، 491، 494. السيوطي: المصدر السابق، ص 51. و Henri Pérès: Op.cit. P 600-601

[2] الشكعة: المرجع السابق، ص 225.عمر فروخ: الأدب في المغرب و الأندلس، ج5، ط2، دار العلم للملايين، بيروت1985، ص 490.

[3] بوفلاقة: المرجع السابق، ص 162.

[4] ابن الأبار:المقتضب، ص219. الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضود، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص ص 8، 10، 11. رضا كحالة:أعلام النساء، ج1، ص 267، 271.المنوني:حضارة الموحدين، ص 25.

[5] الشكعة: نفس المرجع، ص 228.

[6] المنوني: حضارة الموحدين، ص 21. Luis de giacomo : Op.cit, P49

[7] لوشة: مدينة بالأندلس غربي إلبيرة قبل قرطبة منحرفة يسيرا، و هي مدينة طيبة على نهر سنجل. أنظر: الحموي: معجم البلدان، مج5، ص 26.

يستشيرها، فتشير عليه بما يحكم به. وقيل عنها أنها فاقت العلماء في معرفة الأحكام و النوازل[1] حتى راسل أحدهم القاضي بهذه الأبيات مستهزئا به

بلوشة قاضي له زوجة   وأحكامها في الورى ماضية
فيا ليته لم يــكن قاضيا   ويا ليتـــها كانت قاضـــية

فأجابته كتابيا:

هو شيخ سوء مزدري   لـــــه شـــيوب عـــاصــــية
كلا لئن لـــم يـــنتــــه   لـــنـــســـفـــعـــا بـــالـــناصية[2]

ولم يستثن المرابطون المرأة الذمية من أخذ نصيبها من الحركة الفكرية في الأندلس، فبالإضافة على حفاظها على ثقافتها الخاصة فإنها تعلمت اللغة العربية – لغة الفكر والحضارة الإسلامية–[3] وهذا ما هو إلا دليل على اندماج الذميات في الحياة العامة اندماجا يكاد لا يلاحظ[4] فمن شواعر أهل الذمة أذكر الشاعرة الأندلسية "قسمونة بنت إسماعيل اليهودي"، كان أبوها شاعرا، اعتنى بتأديبها، إلا أنه لم يحدد بالتدقيق العهد الذي عاشت فيه هذه الشاعرة وقيل أنها:"من أهل المئة السادسة[5] كان أبوها قد اعتنى بتأديبها، وكان أبوها ربما صنع القسيم من الموشحة فأتمتها بقسيم آخر"[6] إذ قال لها أبوها يوما، أجيزي:

لي صاحب ذو بهجـــــة قابلـــت   نعمى بظلم واستحلت جرمــــــها

ففكرت غير كثير وقالت:

كالشمس منها البدر يقبس نـــوره   أبدا و يكسف بعد ذلك جرمــــــها[7]

فقام والدها كالمختبل وضمها إليه، وجعل يقبل رأسها و يقول لها:"أنت والعشر كلمات أشعر مني."[8] ويشير بذلك إلى الوصايا العشر التي يؤمن اليهود بها ويقسمون بها.[1] ونظرت في المرآة يوما فرأت جمالها وقد بلغت أوان الزواج ولم تتزوج فأنشدت

---

[1] كما شوهدت ظاهرة تفقه النساء في المغرب الإسلامي لدى عجائز جبل نفوسة. أنظر الفصل الأول من هذا البحث.

[2] المقري: المصدر السابق، ج4، ص 294، Henri Pérès : Op.cit, P 580

[3] المقري: نفس المصدر، ج3، ص530. ليفي بروفنسال: حضارة المغرب في الأندلس، تحقيق دوفان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت (دت) ص 95. وحسن على حسن: المرجع السابق، ص 368.

[4] أحمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1983، ص 244.

[5] وجعلها الريسوني ضمن شاعرات عصر الطوائف الذي ازدهرت فيه الموشحات وقسمونة كانت واشحة: الشعر النسوي في الأندلس، ص 104. لذلك أدرجتها ضمن شواعر الأندلس لهذه الفترة ما بين النصف الثاني من القرن 5هـ/11م والنصف الأول من القرن 6 هـ/12م التي شاع فيها التوشيح. أنظر بوفلاقة: المرجع السابق، ص 184.

[6] السيوطي: المصدر السابق، ص 86.

[7] المقري: نفسه.

[8] السيوطي: نفس المصدر، ص 87. بوفلاقة: نفس المرجع، ص 185.

أيا روضة قدحان منها قطفـــــها   وليس يرى لها جان يمدّ لها يدا
فو آسفي ! يمضي الشباب مضيعا   ويبقى الذي ما إن اسميه مفردا(2)

فلما سمعها أبوها نظر في تزويجها.

وكانت لقسمونة ظبية نظرت إليها فوجدتها تشبهها فأنشدت في ذلك:

يا ظبية ترعى بروض دائـــــــم   إني حكيتك في التوحشي والحور
أمسى كلا منا مفردا عن صاحب   فلنصطبر أبدا على حـــــكم القدر(3)

ومما يلاحظ على شعرها أنه تطفو عليه مسحة من الحزن والشكوى والقلق صادرة عن نفسيتها المضطربة. ولكن الأهم من ذلك أن نبوغ قسمونة في الأدب العربي يؤكد على أن اليهود في الأندلس كانوا يشتغلون بالعلوم العربية سواء أكانوا مسلمين أم من المحافظين على دينهم(4).

هذه إشارة خفيفة لبعض ما ساهمت به المرأة الذمية في المجال الأدبي بالأخص متأثرة بالمرأة المسلمة في الأندلس تحت رعاية المرابطين.

ولكن في الحقيقة فإن هذا الموضوع يتطلب اهتمام خاص نظرا لتناثر المعلومات المتعلقة به في مختلف مؤلفات الفترة. كما يستدعي جهدا ووقتا خاصا للإلمام بمختلف جوانبه.

لكن يبدو لي أن المؤرخين الأندلسيين قد اكتفوا بالإشارة إلى قسم من الأديبات والشواعر الأندلسيات فقط، مع ذكر أبيات متفرقة وقليلة من إنتاجهن الأدبي. وهذا بدليل ما صرح به المقري(5) قائلا:" ولنقتصر على هذا المقدار، ونعد على ما كنا فيه من جلب كلام بلغاء الأندلس ذوي لأقدار ".(6) هذا مما يوحي إلى وجود عدد آخر من الأديبات لم يشر إليهن.

وعلى كل حال فإن هذه الفئة من النساء التي ساهمت في الحياة الفكرية بغض النظر على انتمائهن الطبقي في المجتمع المرابطي، تُفَنِّدُ ما آلت إليه بعض الدراسات لاسيما الاستشراقية "من أن أفول نجم الثقافة الأندلسية في العهد المرابطي عما كان عليه في عهد ملوك الطوائف. ثم ما لبثت أن استرجعت الحياة الثقافية ازدهارها في العهد الموحدي"(7) إذ أولوا حكامها عناية خاصة بتعليم المرأة(8).

---

[1] المقري: المصدر السابق، ج3، ص530.

[2] السيوطي: المصدر السابق، ص 87.

[3] السيوطي: نفسه.

[4] Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne, P317. الشكعة: المرجع السابق، ص 232. بوفلاقة: المرجع السابق، ص 186. كواتي: المرجع السابق، ص 124.

[5] المصدر السابق، ج4، ص 300.

[6] نفسه.

[7] أشباخ يوسف: المرجع السابق، ص 493. Dozy : Ibid, P 348

[8] **العريني: المرجع السابق، ص 149، 150. علام: الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن، ص 234.**

كما تجمع بعض الدراسات على أن المرأة في العهد المرابطي كانت أكثر ظهورا في مجال الحياة العامة وأعظم نفوذا في السياسة وأوسع من المرأة في العهد الموحدي، إلا أن هذه الأخيرة قد نالت قسطا وافرا من التعليم لم يقدر للمرأة المرابطية. "وأن بنات أمراء الموحدين كانوا القدوة الصالحة لبنات الشعب في الإقبال على العلم والأدب ومن هؤلاء الأميرة زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن".(1)

وبالمقارنة مع ما سبق ذكره عن الأميرات المرابطيات وبنات الوجهاء في هذا المجال يبدو لي أن هذا الحكم سطحي وذلك استنادا على الحقائق التاريخيةالتي تنص إن نساء المربطين كن متعلمات وعالمات ابتداء من زينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين، والأميرة حواء أخته والأميرة تميمة بنته والجارية قمر -زوجة وليّ عهده علي-.مما استدل به على أن نساء البلاط المرابطي عشن في بيئة علمية دينية(2)وأستبعد عدم تأثيرهن على نساء الدولة. أما نساء بلاط عبد المؤمن بن علي فلم يكن في هذا المستوى، إنما الأميرة التي درست علوم الدين واللغة ونبغت في علم الأصول هي زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن، -أي حفيدة هذا الأخير- التي اعتبرت قدوة لنساء الموحدين اللائي انصعن لسياسة إجبارية التعليم الابتدائي التي فرضها عبد المؤمن على الرجال والنساء على حد سواء. وقد استهدف من خلال إجبارية التعليم إلى نشر وترسيخ عقيدة ابن تومرت لدى الرعية طوعا أو كره. وهذه السياسة الذكية تنم عن عبقرية عبد المؤمن في تثبيت عقيدة التوحيد في المغرب، لعلمه أن المرأة هي أساس البناء الاجتماعي وهي التي يخوّل لها مسؤولية تربية النشئ فتنمي فيه حبه وولائه لدولته – لأن فاقد الشيء لا يعطيه! – لكن بغض النظر على الأهداف السياسية في هذا المجال فإن هذه السياسة كانت فرصة لنساء العامة لتعلم الكتابة والقراءة اللذان وهما من الماهرات الأساسية للتحصيل العلمي. إلا أنه من الحقائق التاريخية،أن أول مدرسة، أسسها يوسف بن تاشفين في مراكش "مدرسة الصابرين". كما أسس علي بن يوسف "الجامعة اليوسفية" في (514 هـ/1120م) لتكمل مسيرة التعليم في الجامع الكبير بمختلف أنواعه وتعزز بقية المؤسسات الأخرى في المغرب مثل جامع القرويين في نشر العلم والثقافة.(3)فهل يعني أن جهود هؤلاء الحكام ذهبت سداً ولم تنل المرأة في عهدهم نصيبها من العلم ؟ لكن برهنت المرأة من خلال نفوذها في الحكم وصدراتها في المجتمع على امتلاكها لسلاح العلم الذي أهلها لذلك ؟

جـ- الطب:

أما فيما يخص علم الطب، فلم يقتصر على الرجال فقط، بل كان للنساء دور كبير، ولاشك أنه نبغ عدد لا بأس به منهن لكن لم تصلنا أسماء هؤلاء النسوة. ونظرا لأهمية الطب في الحفاظ على الصحة فقد لجأت النساء من أجل تلك الغاية إلى ممارسته بطريقتين وهما الطب الشعبي -التقليدي- والطب العلمي، فالطب التقليدي امْتَهَنَتْهُ الكثير من النساء لاسيما المسنات ذوات الخبرة في الحياة.

---

[1] علام: نفسه.

[2] محمد لمين بلغيث: التعليم والمؤسسات العلمية بالأندلس عصر المرابطين، ص 16.

[3] عبد الهادي التازي: جامع القرويين، ج1، ص 124. و الهرفي: المرجع السابق، ص ص 413-414.

فكانت تلجأ إلى علاج المرضى لاسيما منهم النساء والأطفال بواسطة تحضير بعض العقاقير منها بمواد نباتية إستشفائية.(1)

أما إذا استعصى الداء فإن المريضة كانت تلجا إلى رجل طبيب(2) وبالأخص كان النساء يلجأن إلى بعض الشيوخ أو الأولياء طلبا للشفاء وتبركا بالدعاء. ومن ذلك ما ورد عن الشيخ أبي يعزى الينور، الذي كان مقصدا للمرضى. ويروى عنه أنه جاءته صبية وبها علّة فمسح عليها فشفيت(3) مثلما مسح على عيناي جارية تشتكي ألما فزال عنهما الألم(4) وغيرها من حالات المرض، وهذا الأمر مما أثار حفيظة علماء فاس الذين أنكروا عليه لمس هؤلاء المرضى من النساء والنظر إليهن(5) ويبدو أن انتشار خبر كرمات الشيخ أبي يعزى في بلاد المغرب مما يدل على أنه كان يطغى العلاج الروحي عند العامة أكثر من اللجوء إلى استعمال المواد الكيماوية، وقد اتضح ذلك من خلال شكوى جماعة من الفقهاء المجاورين له، هذا نصها:" ثبت عندنا ولاية أبي يعزى ولكن نشاهده يلمس بيده صدور النساء وبطونهن ويتفل عليهن فيبرأن، ونرى أن لمسهن حرام. فإن نحن تكلمنا في هذا هلكنا وإن سكتنا تحيرنا".(6) ومن هذه النماذج نلمس طريقة العلاج المتبعة في استشفاء المرضى من النساء من جهة، لكن من خلال جواب الشيخ أبي مدين لهؤلاء الفقهاء يتضح أن المرأة المسلمة آنذاك عندما يشتد بها المرض تلتمس الشفاء حتى ولو عند طبيب غير مسلم. إذ أجابهم:"أرأيتم لو أن بنت أحدكم أو أخته أصابها داء لا يطلع عليهاأنه إلا الزوج ولم يجد من يعانيه إلا طبيب يهودي أو نصراني، ألستم تجيزون ذلك، مع أن دواء اليهودي أو النصراني مظنون وأنتم من معاناة أبي يعزى على يقين من الشفاء ومن معاناة غيره على شك."(7) كما رد الشيخ أبو يعزى على فقهاء فاس في إنكارهم له لمس صدور النساء أنه :"أليس يجوز عنهم أن يلمس الطبيب تلك المواضع ويراها للضرورة، فهلا عدوني واحدا من أطبائهم ؟ وأنا إنما ألمس ذوات العاهات للتداوي بذلك".(8)

---

[1] السقطي: المصدر السابق، ص 54. الجزنائي: المصدر السابق، ص 59. التادلي: المصدر السابق، ص 324. السلاوي: المصدر السابق، ج1، ص 212.

[2] التادلي: نفس المصدر، ص 202. الغبريني: عنوان الدراية، ص ص 56، 133.

[3] التادلي: نفسه.

[4] نفس المصدر، ص 119.

[5] نفس المصدر، ص 196. Dermenghem: Op.cit, P 64

[6] التادلي: نفس المصدر، ص321. السلاوي: الاستقصا، ج1، ص 212.

[7] التادلي: نفس المصدر، ص 329. السلاوي: نفسه.

[8] نفس المصدر، ص 196. Dermenghem : Ibid . P 64.

بأغمات[1] ويبدو أنه كان شائعا في مدينة فاس حسب جواب الشيخ أبي يعزى، وهذا ما يوحي أنه كان يوجد نقصا في الأطباء الرجال أو نقص في خبرة بعضهم[2] حتى كانت المسلمات يلجأن إلى طبيب نصراني أو يهودي[3] ومما يرجح نقص الخبرة الطبية في المغرب هو لجوء أمراء المرابطين إلى أطباء بني زهر من الأندلس عندما يستعصي علاج مرضاهم[4] ولقد سبقت أن ذكرت حالة مرض الأمير أبا طاهر تميم ودور الطبيب أبو العلاء بن زهر وابنه أبو مروان عبد الملك في علاجه[5] كما عالج هذا الأخير أمير المسلمين علي بن يوسف. مما يدل على دور أسرة بني زهر في ميدان الطب الحديث آنذاك.[6] فقد نالت نساء هذه الأسرة بني زهر سمعة مرموقة في علاجها للمرضى من النساء أمثال أم عمر بنت أبي مروان بن زهر وهي أخت الحفيد، صارت أشهر طبيبة في عصرها فكانت مولدة ماهرة بجانب قدرتها على العلاج العام لسائر أمراض النساء. كما خلفتها ابنتها التي امتهنت الطب، ولذا فقد ذاع صيتها بالولادة وعلاج بعض أمراض النساء المستعصية في العهد الموحدي حيث كانت هي طبيبة نساء بلاطه[7] ومما سبق يظهر أن الطب التقليدي الشعبي كان أكثر انتشارا في الوسط النسوي ما عدا في عائلة ابن زهر التي اشتهرت نساؤها في مجال الطب العلمي.

---

[1] المراكشي: المعجب، ص 155.

[2] الغبريني: المصدر السابق، ص49.

[3] رغم منع ذلك من طرف ابن عبدون في الأندلس. أنظر: المصدر السابق، ص 57.

[4] ابن زهر: التيسير، ص 97-98. عصمت دندش: أضواء جديدة، ص 134.

[5] ابن زهر: نفسه. ملحق رقم 4.

[6] ظهر بنو زهر في عصر كانت فيه الحضارة الإسلامية في أوجها. فلمع في علم الطب عدد كبير من أفرادها الذين ألفوا في هذا المجال مؤلفات نادرة ونفيسة أدهشت علماء الغرب. ومنهم أبو العلاء زهر بن أبي مروان (توفي 525 هـ/1131م) وأبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء يعرف في اللاتينية Avenzoar وأبو بكر محمد المعروف بالحفيد بن زهر (توفي 595 هـ/1198م). ابن أبي صبيعة: المصدر السابق، ص245. ابن عبد المالك: المصدر السابق، السفر6، ص 403. يوسف فرحات: المرجع السابق، ص 236-237. فعائلة ابن زهر مثال تقتدي به عائلات المسلمين، حيث يعمل كل فرد على تعليم أبنائه وأقربائه رجالا ونساء لخدمة الدين والأمة. عبد الله الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1406هـ/1986م، ص183. يوسف فرحات: نفس المرجع، ص 237.
Danielle Jaquart et François Micheau : La Médecine arabe et l'occident médiéval, Maisonneuve et Larose, Paris, 1996, P142, 143.

[7] ابن أبي صبيعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الباب الثالث عشر في أطباء إفريقية والأندلس. نشر: نور الدين عبد القادر وهنري جاهيه، منشورات كلية الطب والصيدلة، الجزائر، 1377 هـ/1958 م، ص105. عبد العزيز بن عبد الله: الطب والأطباء بالمغرب، المطبعة الاقتصادية، الرباط 1960، ص 5، 6. عبد الفتاح عاشور، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ص 319.

3- مساهمة المرأة الفنية:

أ- الموسيقى والغناء:

أما فيما يخص بعض الفنون كالموسيقى والغناء والرقص، فقد كانت سائدة بشكل واسع من قبل لاسيما في عهد ملوك الطوائف(1) وقد ظهر جليا الاهتمام بتلقين الغناء والموسيقى في الأندلس أكثر مما ساد في المغرب. ويبدو لي أن هذه الفنون لها علاقة وطيدة بطبيعة حياة الأمراء والأغنياء والوجهاء. في حين كان المرابطين يعيشون حياة الشضف والتقشف في مواطنهم. فإن ملوك الطوائف أظهروا حياة البذخ بتشييدهم للقصور الفاخمة(2) وانغماسهم في حياة اللهو والأنس والطرب بكل ما تحتويه من نساء -جواري- وغلمان وخمر وموسيقى وغناء دون أن يعبروا اهتماما لمقاييس الدين الخلقية(3) وقد اهتم ملوك الطوائف في المنتصف الأول من القرن (5 هـ/11م)، بالموسيقى والغناء وما يرافقها من رقص بوجه عام، إلا أن إشبيلية كانت سابقة في هذا الفن حتى قال بشأنها ابن رشد (توفي 595 هـ/1198م): "حينما كان يموت عالم في إشبيلية ويراد أن تباع كتبه بثمن عظيم، ترسل إلى قرطبة وإن مات موسيقي في عاصمة الأندلس -قرطبة- كانوا يرسلون آلاته الموسيقية ومخطوطاته إلى إشبيلية التي ولع أهلها بالموسيقى أشد الولع".(4)

وهكذا يتضح أن مدينة إشبيلية كانت منطقة جذب فني عندما دخل المرابطون الأندلس. هذا الأمر الذي يستدعي التساؤل عن مدى تأثر المرابطين بهذه الفنون بعد ضمهم إشبيلية إلى إمارتهم في (484 هـ/1091م) وما موقفهم من ذلك ؟

بالمقارنة بين نساء إشبيلية لاسيما بلاط المعتمد بن عباد والأميرات المرابطيات يبدو الفرق الشاسع في نمط المعيشة. ففي حين كانت نساء قصر المعتمد ابتداء من اعتماد الرميكية وبناتها وجواريها كن ينعمن في الترف والغناء، والطرب(5) فإن حالة الأميرات المرابطيات كانت عكس ذلك في المغرب، نظرا لما أبدته بعضهن كزينب النفزاوية وحواء بنت تاشفين من جهود في بناء الدولة

---

[1] كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، مؤسسة شهاب الجامعة، إسكندرية، 1993، ص 89، 90، 91.

[2] المراكشي: المصدر السابق، ص 70.

[3] كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي، مركز الأندلسية للكتاب، دت، ص 235-236. صالح خالص: المرجع السابق، ص 45.

[4] من أشعر القصور: قصر طليطلة الذي بناه المأمون بن ذي النون وقصور بني عباد في إشبيلية، كالمبارك والزاهر على نهر إشبيلية وهذا القصر الأخير الذي شهد مقتل الجارية المظلومة بسبب تشاؤم المعتمد بن عباد من غنائها. صالح خالص: نفسه. عبد الوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية، ص 320. عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج2، ص 103.

[5] المراكشي: نفس المصدر، ص 155. المقري: نفح الطيب، ج6، ص 440، ج4، ص 211.

ومن ورع وتقى(1)ويبدو أن المرابطين حافظوا على عاداتهم وأخلاقهم ولم تغويهم ملّذات اللّهو في الأندلس في عهد يوسف بن تاشفين وفضلوا إصلاح المجتمع ومواصلة الجهاد. رغم ذلك فإن هذا الأخير كان قد أهدى جارية مغنية للمعتمد بن عباد في مستهل علاقته به. ويبدو أن غناء هذه الجارية لم يكن للمتعة والطرب كما جرت عادة جواري المعتمد، إنما استفزته بطريقتها حتى نقم منها.(2)وقد كان يوسف يؤمن أن سبب ضعف وتفكك الأندلس هو انغماسهم في مظاهر الأبهة والترف.هذا ما يعد أحد عوامل عزوفه عن هذا النمط المعيشي. أما في عهد علي بن يوسف فقد تم الانصهار الحضاري بين العدوتين وتأثر بعض أمرائهم بالحياة المترفة في الأندلس بعد أن استقر لهم الوضع بها.(3)

وفيما يخص ممارسة الموسيقى والغناء(4)فقد تواصل بها هذا الفن ولم يكن محضورا من طرف الحكام المرابطين على عامة الناس، ولاسيما على الطبقة الأرستقراطية التي كان لها أعمق الأثر في الحياة الفكرية والأدبية والثقافية للمجتمع. وانطبق ذلك على نسائها اللائي كان لهن الحظ الأوفر في المساهمة في الحياة الفكرية والفنية.(5)والملاحظ أن الحرائر من النساء ساهمن بالأخص في الحياة الفكرية كما سبق ذكره. أما الجواري وأمهات الأولاد فقد ساهمن في الغناء(6)والموسيقى والرقص - القنيات- التي شاعت في الأندلس. ورغم محاولة الفقهاء الجاهدة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يقع في مجالس اللّهو والطرب فإن مظاهر هذه الأخيرة كانت منتشرة خاصة في المدن الأندلسية.(7)

---

[1] ابن عذاري: البيان، ج4، ص 22، 23، 57. بن عبد الله عبد العزيز: معجم نساء المغرب، ص 11.

[2] المقري: المصدر السابق، ج4، ص 276. حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج1، ص 217.

[3] عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 111. يرجع سبب ذلك أنه تربى في الأندلس وتعلم بها إضافة إلى أن أمه كانت أم ولد رومية مما كان له الأثر في طبعه وتربيته. أنظر: حسن علي حسن: المرجع السابق، ص 497. الهرفي: المرجع السابق، ص 96.

[4] ان ابن باجة حضر مجلس سرقسطة أي بكر إبراهيم بن تفلويت وألقى على بعض قيافته موشحته، فطرب ذلك التلحين سمع الأمير ابن تفلويت. أنظر: عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج2، ص 112.: جيريلين دودز: "فنون الأندلس": ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص 874.

[5] نفسه. صالح خالص: المرجع السابق، ص 45.

[6] وجد الغناء بالأندلس قبولا يكاد يكون شاملا، وقد كاد أن يكون اعتماد الأندلسيين كليا على التلاحين المشرقية، إذ كان أمراؤهم يؤمنون بتفوق الجواري المشرقيات في الغناء. ويعد الحكم بن هشام (180-206 هـ/796-822 م) من أكثر أمراء بني أمية عناية بالغناء، إذ كان له عددا من الجواري المغنيات منهن "مهجة وفاتن وغيرهما.." واستمرت هذه الظاهرة لدى ملوك وأمراء الطوائف، في حين لم يشهد بمثل ذلك لأمراء المرابطين. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، ص 59. كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بلنسية، ص 244.

[7] ابن عبدون: المصدر السابق، ص 51-83. عبد العزيز سالم: قرطبة، ص 100-101-105-109.

أما مجال ممارسة الغناء والرقص فنجده في انعقاد حفلات الأفراح من زفاف أو ولادة أو ختان الصبيان، من ذلك ما صدفه ابن تومرت عندما مرّ بتلمسان. ووجد زفافا فيه غناء ولهو نهى عنه وأمر بتكسير آلات اللهو.(1)ولم يكن ابن تومرت سباقا لهذا النهي، بل نهت كتب الحسبة المرابطية عن ذلك، فالمذهب المالكي، يعد أشد المذاهب الفقهية في تحريم آلات الموسيقى ما عدا الدف.(2)كما نهت هذه الكتب النساء الراقصات من كشف رؤوسهن (3)نظرا لما يحدث من اختلاط بغير المحارم. ويبدو أن بعض الراقصات والمغنيات في الأفراح كن يقمن بذلك مقابل عطاء المتفرجين لهن، أي كن يسترزقن من ذلك،(4) فالحاجة إذن هي التي دفعتهن لذلك إرضاء لأسيادهن ولم يكن ذلك الفعل بدافع المتعة والطرب فقط كما تفعله بعض الراقصات في قصور الأغنياء.

وإن كانت هذه الفنون مرتبطة بالمناسبات لدى العامة من المجتمع، فإن قصور الخاصة لاسيما في المدن الأندلسية كانت مشهدا مستمرا لمجالس الغناء والموسيقى والطرب،ولم تكن محددة بمناسبات خاصة.(5)ونظرا لضرورة ذلك لدى الطبقة الخاصة أصبح تعليم الجواري الموسيقى كالضرب على العود وتعليمهن الغناء (6)والرقص من المهمات الرئيسية لتجار الجواري في أسواق الرقيق بالمدن الأندلسية. وكلما كانت الجارية حسنة الصوت وجميلة الصورة اعتنى بها أكثر وارتفع سعرها،ومن ذلك أن إحدى القنيات بيعت بثلاث آلاف دينار،(7)ومن ذلك شكل هذا الصنف من الجواري الذي عرف بالقنيان مصدر رزق هام لهؤلاء البائعين من جهة.(8)كما كان مثار مشاكل عائلية كالغيرة والدسائس مع الحرائر -سيّدات القصور- أو ربات البيوت الغنيات اللائي وجدن من هؤلاء الجواري منافسة لدى أزواجهن من جهة أخرى،(9)وكما انعكست مجالس الطرب بالسلب على بعض النساء الحرائر اللائي إلتزمن الحجاب والعفة. لأن المرأة العربية -عامة- ظلت بعيدة ما أمكن عن احتراف الرقص والغناء.

---

[1] البيذق: أخبار المهدي، تق: حاجيات، ص 40. برشنفيك: المرجع السابق، ص 432.

[2] ابن عبدون: المصدر السابق، ص 83. الجرسيقي: رسالة في الحسبة، ص 859.

[3] ابن عبدون: نفسه، ص 51، 83.

[4] الونشريسي: المصدر السابق، ج5، ص 188.

[5] ابن الآبار: المقتضب، ص 144. ابن بسام: الذخيرة، ق1، مج2، ص 859.

[6] لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسناء الغناء، وإنما كانوا يعلمون الصفر والسود، وأول من علم الجواري المثمنات هو إبراهيم الموصلي (150-235 هـ/767-850م) فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ ورفع من أقدارهن وكلما زادت في الغناء زاد في السومة. أنظر: أحمد تيمور بان: الموسيقى والغناء عند العرب، ط1، دار الاتحاد، القاهرة، 1963، ص 21. سعد زغلول: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 430. وكان لدخول زرياب إلى الأندلس أثر كبير في مجال الموسيقى والغناء. أنظر: إحسان عباس: المرجع السابق، ص 54. أنظر: زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، نقله فاروق بيضون وكمال دسوقي مراجعة مارون عيسى الخوري، ط9، دار صادر، بيروت، 2000، ص 490، 492.

[7] الشكعة: المرجع السابق، ص 43. كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بلنسية، ص 247.

[8] عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1976، ص 144.

[9] صالح خالص: المرجع السابق، ص 93. حركات: المجتمع الإسلامي، ص Guichard : Op.cit, 79.100

وأبت النزول إلى مستوى الجواري من غير العربيات وتبذلهن، معتزة في ذلك بشرفها وفخورة بعفتها.(1) ونتيجة لظهور طبقة من الهجان المولدين الذين يتكلمون لغة أمهاتهم الإسبانيات –أمهات الأولاد– شاع استعمال اللغة الرومانسية التي عرفت عند المؤرخين العرب باللّغة اللاتينية. وانتشرت هذه اللغة بشكل واسع لدى العامة لاسيما مع أشعار الزجل والموشحات(2) التي كانت تلحن للطرب وتلقن للجواري المغنيات(3) مما يدعو للتساؤل عن الشروط أو المقاييس التي تخضع لها الجواري المغنيات ؟

لا يمكن تصور تعلم الغناء بالأمر الهيّن على القيان. فقد ذكر أن قنية قضت ما لا يقل على ساعتين في غناء بيت واحد، ورغم احتمال المبالغة في هذا إلا أنه لا يخلو من الإشارة إلى أن القيان كانت تجتهد في الوصول إلى غاية الإرتجال في سلسلة الإرتجال والتأليف، ويرى التيفاشي(4) أن مثل هذه الخبرات كانت تتركز في إشبيلية. والأهم من ذلك أن فن الغناء كان على يد مغنيات متقدمات في السن احتكرن هذه الصنعة في تعليم الجواري ليبعنهن بأثمان تتناسب وبراعتهن في الموسيقى والغناء. وكان سعر الجارية منهن الذي يبدأ بألف دينار، يُذيل بقائمة ما أتقن من ذخيرة في الغناء والموسيقى. ويتضح من هذا أن مهارة الإرتجال يجب أن تقابلها، إن لم تتفوق عليها، قدرة على حفظ عدد كبير من المؤلفات. وكانت بعض المؤلفات تقتصر على أغاني صعبة لا يقوى على أدائها سوى البارعات من الجواري اللائي كانت الصفوة المثقفة الغنية مستعدة لدفع أغلى الأثمان مقابل الحصول عليهن(5) فبلغ سعر إحداهن ثلاث آلاف دينار.(6) ويتبين جليا أن هذا الفن من موسيقى وغناء ورقص كان مقتصرًا بالأخص على شريحة معينة في المجتمع وهي جواري المتعة التي مارست نشاطها الفني في قصور الأغنياء وفي مجالس بعض الأدباء والشعراء. ومن الأمثلة على ذلك مراسلة الشاعر الوزير أبو عامر ابن ينق (توفي 547 هـ/1152م) إلى هند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبي(7) فأسرعت هذه المغنية

---

[1] عبد العزيز عتيق: نفسه. عبد الفتاح عاشور :"موضوع المرأة"، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ص319.

[2] جيمس، ت.مونرو James, T. Monroé :"الزجل والموشح: الشعر الأندلسي والتراث الرومانسي ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، (مركز دراسات الوحدة العربية) ص 571-595. عبد العزيز سالم: قرطبة، ج2، ص 187. وما لبثت أن تجاوزت الموشحات هذه الأغراض إلى مجالي الدين والتصوف.أنظر: عبد العزيز سالم: نفسه.

[3] الشكعة: المرجع السابق، ص 43.

[4] التيفاشي أحمد:"متعة الإسماع في علم السمع" نقلا عن:عبد العزيز سالم:قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس،ج2، ص 36

[5] أوين رايت (Owen Wright):"الموسيقى في الأندلس": الحضارة العربية الإسلامية، ج1، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 815.

[6] الشكعة: نفس المرجع، ص 43.

[7] يا هند هل لك في زيارة فـتية — نبذوا المحارم غير شرب السلسل

سمعوا البلابل قد شادوا فتذكروا — نغمات عودك في الثـــقيل الأول

أنظر: المقري: نفح الطيب، ج4، ص 293-294.

إلى تلبية دعوته لتسمعه نغمات عودها. وما هذا المثال إلا واحد مما تردد في مجالس اللهو والطرب خاصة في الأندلس، ولا عجب في ذلك لأن المرأة الأندلسية ولاسيما الجواري تمتعت بحرية كاملة.(1)

أما فيما يتعلق بالآلات الموسيقية المستعملة آنذاك فهي عديدة، يأتي في مقدمتها الدّف الذي كان مسموح استعماله من طرف المذهب المالكي بشرط أن يكون خاليا من الأوتار المشذوذة تحت الجلد والشناشن: "الصنوج الصغيرة".(2) لكن في الحقيقة أن الحفلات الغنائية التي كان يقيمها السكان عامة بغض النظر على الفوارق الاجتماعية، لم تكن تحترم التعاليم الدينية.(3) فإضافة إلى آلات الإيقاع السابقة الذكر -الدف والصنوج- استعمل العود (4) والرباب والطبل وآلات النفخ التي تمثلت في المزمار والبوق.(5)

كما استعمل المرابطون الطبل في الأغراض العسكرية كأداة تنبيه وإرهابا للعدو من جهة، وتشجيعا للمسلمين.(6) وما يزال في بعض قبائل موريتانيا "كبني حسان" و "إيدوعيش" استعمال طبل رسمي ينقر في المناسبات.(7) كما عرف عن بعض نساء قبائل الطوارق استعمال آلة الرباب مصحوبة بأغاني ترددها جماعة من المغنيات.(8)

كما كانت تعقد نساء بعض النبلاء "إيمامن Emmamen" (9) اللاتي منحت لقب تيمانوكلين Timanokolin سهرات فنية تجلب إليها عدد من المعجبين (الرجال) الذين يأتون من أماكن بعيدة للاستمتاع بأغاني هؤلاء النسوة على إيقاع الطبول والرباب، وقيل على هؤلاء النسوة أنهن يقضين أوقاتهن في المطالعة والخط والموسيقى والطرز ويترفعن عن أشغال المنزل التي تعتني بها الخدم.

---

[1] بوفلاقة: المرجع السابق، ص 182. و ربما زاد من ميوعة الأخلاق لبعض الجواري تساهل الفقهاء في عقابهن، إذ في كثير من الأحيان لم يقع عليهن العقاب في حالة انتهاك حدود الشرع (كالزنى وشرب الخمر) إنما يترك أمرها لسيدها، كما أن بعض الجواري بقين على ديانتهن المسيحية فتصرفن بمطلق حريتهن. صالح خالص: المرجع السابق، ص 99. إبراهيم حركات: المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، ص 100-101.

[2] برشفينك: المرجع السابق، ص 43.

[3] ابن عبدون: المصدر السابق، ص 51، 83.

[4] أحدث زرياب (هو أبو الحسن بن نافع، الذي وفد على الأندلس في القرن 3هـ/6م) الوتر الخامس للعود (في الأندلس) مما كان له أثر كبير في ازدهار الغناء في الأندلس. أنظر: زغلول: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص 436. وأوين رايت: نفس المرجع، ص 805، 806.

[5] إحسان عباس: المرجع السابق، ص 59. أوين رايت: المرجع السابق، ص 820. لمزيد من المعلومات أنظر: ياسين محمد حسن: الإسلام و قضايا الفن المعاصر، دار الألباب، بيروت، 1990، ص ص 217-228.

[6] الحلل الموشية: ص 41. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 196. حركات إبراهيم: النظام السياسي والحربي، ص 178.

[7] المختار بن حامد: حياة موريتانيا، ج2، ص 186.

[8] ATTILIO-Gaudio: op.cit, P99. Duveyrier : Op.cit, P362

[9] Ibid: P344. Ibid P 430. محمد السويدي: المرجع السابق، ص 97.

ويتبين أنه نتيجة لثقافة هؤلاء النسوة فقد حظين بمكانة خاصة في المجتمع وتركن أمور البيت للتفرغ لتلك النشاطات الثقافية. ومن ذلك اعتبرت المرأة الطارقية هي "الأمينة" على ثقافة الطوارق التقليدية.(1)

ومن الملاحظ أن بعض أجزاء الذخيرة الموسيقية الأندلسية ما تزال متداولة في المغرب الإسلامي. فيقال أن أسلوب إشبيلية قد استمر في تونس وأسلوب غرناطة عاود الظهور في فاس وتطوان، وأسلوب قرطبة في تلمسان(2) وما هذا إلا نتيجة للإتصال المتبادل الذي دعمه أسلوب حياة المغنيين المحترفين الذي غلب عليه التجوال من جانب. كما يكون قد ساهمت في ذلك الجواري التي نقلت إلى المدن المغربية. أما من جانب آخر فيرجع ذلك إلى سهولة الاتصال بين العدوتين والأمن عندما ضم المرابطون الأندلس تحت لوائهم، وبالتالي انعكس ذلك بالإيجاب على حركة السكان والتبادل الثقافي والحضاري بين أجزاء الغرب الإسلامي. "وقد قيل في هذا الشأن أن المغرب كان يقدم المقاتلة والأندلس يقدم العلم والفن الرفيع، والمغرب أخضع الأندلس سياسيا، لكن الأندلس أخضع المغرب ثقافيا."(3) وقد يبدو هذا الرأي صحيحا لحد ما، لكنه لم يقتصر على الفترة المرابطية فقط.

ب- الخط والزخرفة:

---

[1] محمد السويدي: المرجع السابق، ص 97.

[2] أوين رايت: المرجع السابق، ص 823.

[3] حسن أحمد محمود: الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986، ص 162. وبرشتفيك: المرجع السابق، ص 43.

أما في مجال الخط (1) الذي يعتبر إحدى الوسائل الأساسية المساهمة في الحياة الفكرية، لما يدوّن من تأليف العلماء وإثراء للمكتبات العلمية. ولقد اشتهر وراقي الأندلس (2) أنهم أمهر الوراقين وأحذقهم في هذا الميدان. وهذا ما يوحي أن النساء اللائي تعلمن الخط ونسخن المؤلفات كن في مرتبات شهرة الرجال إذ لوحظ اهتماما بالغا لهذا الميدان وذلك لما فيه من عمل يقربهم إلى الثواب الطيّب والذكر الحميد. (3)

ولذا قامت بعض النساء الراغبات في ذلك بدور معتبر في هذا الميدان. ومارست النسخ جماعة كبيرة منهن. ووصفت بعض الناسخات بالبراعة وجودة الخط حتى بلغت بعضهن منزلة عالية. (4) وقيل أنه كان في قرطبة وضواحيها المختلفة طائفة كبيرة من النساء البارعات في الخط اللائي كن ينسخن المصاحف. وأن في الربض الشرقي فقط كانت مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي. (5) وقد استمرت هذه العملية في العهد المرابطي ومما دفعني للتساؤل عن الكيفية التي كانت تتم بها عملية النسخ وهل بإمكان كل النساء الناسخات اقتناء أدوات الكتابة المكلفة، وفيما تجلى أثارهن في الحياة الفكرية ؟

إن وسائل النسخ أو الخط المستعملة من طرف النساء هي نفسها التي كان يستعملها الرجال الخطاطون، (6) وإن كانت هذه الأدوات تشبه في بعضها ما يستعمل في النسخ في الطريقة التقليدية، إلا

---

[1] اشتهرت الحضارة العربية الإسلامية بخطوطها الجميلة البديعة استعملت في عملية النسخ، أو في الزخرفة، ولقد سمى العرب الخطوط بأسماء المدن التي وردت منها: كالخط النبطي والحيري والانباري، والخط المكي والمدني وكلّها مشتقة من خط الأنباط. وظهر بعد الإسلام الخط البصري والخط الكوفي اللذان حذقهما العرب. أنظر: يحي وهيب الجبوري: الخط والكتابة في الحضارة العربية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص 120، 121. وأنظر: يوسف بدوي ويوسف اسمند: الدراسات الأكاديمية في تاريخ الخط العربي وجمالياته وتقنياته، ط1، دار لؤي، دمشق، 1417هـ/1996م. ص ص 105، 154. أما الخط المغربي فاشتق من الخط الكوفي القديم، وكان يسمى بالقيرواني نسبة لقيروان (تأسست في 50هـ/670م) لأنها كانت تعد مركز المغرب العلمي بفضل جامعتها، فتحسن بها الخط المغربي وعرف بها، كما كان مستعملا في الأندلس في القرون الوسطى. وما لبثت أن عرفت الأندلس: الخط الأندلسي أو القرطبي منذ عهد الخلافة الأموية، وكان يعد الخط المغربي امتدادا للخط الأندلسي، ففي عهد الدولة اللمتونية غلب الخط الأندلسي على الخط المغربي في معظم أنحاء المغرب الإسلامي. أنظر الجبوري: نفس المرجع، ص 142، 143 وأنظر: يوسف بدوي ويوسف اسمند: نفسه، ص ص 105، 154.

[2] عرفت الأندلس حرفة الوراقة (صناعة الورق) منذ القرن 4 هـ/10م، وظهرت بها طائفة اشتغلت بشؤون الكتاب من: بيع الورق وأدوات الكتابة والنسخ وتجليد وتجارة للكتاب، مما كان له أثر بالغ في انتشار الحركة العلمية بها، وساهمت في ذلك بعض النساء، أنظر: سعد عبد الله البشري: المرجع السابق، ص 133.

[3] **المرجع السابق، ص 130.**

[4] ابن بشكوال: الصلة رقم 1539، ص 696. المقري: المصدر السابق، ج4، ص 696.

[5] المراكشي: المعجب، ص 372. ابن عبد الله عبد العزيز: معجم نساء المغرب الأقصى، ص17.
Henri Pérès : Op.cit. P579

[6] الجبوري: المرجع السابق، ص 119، 157، 284، 286.

أنني فضلت أن أذكرها من خلال أبيات شعرية خلدتها إحدى الخطاطات وهي الأديبة صفية بنت عبد الله الربيّ. عرفت هذه الخطاطة بالبراعة في الكتابة وجودة الخط. وقد حدث أن عابتها إحدى النساء على خطها فقالت لها:

وعائبة خطي فقلت لها أقصري — فسوف أريك الدر في نظـــم أسطري

وناديت كفي كي تجود بخطـــها — وقربت أقلامي ورقّي ومحـبــــري

فخـــطت بأبيات ثلاث نظمـــتها — ليبدو لها خطي وقـــلت لها أنظـــري[1]

ومن خلال الشطر الثاني للبيت الثاني يمكننا معرفة أدوات الخط التي كانت تستعملها بعض الخطاطات الأندلسيات، وهي:

الأقلام[2] لأن جمال الخط يعتمد على نوعية القلم، لذلك أطلقوا اسم القلم على الخط نفسه[3] وخير القلم الذي يؤدي هذا الغرض قيل عنه:"خير الأقلام ما استحكم نضجه في جرمه، ونشف ماؤه في قشره وقطع بعد إلقاء بزره وبعد أن اصفر لحاؤه، ورق شجره وصلب شحمه وثقل حجمه."[4] إذن للبراعة وحسن الخط، كانت الخطاطة تختار القلم الجيّد وإضافة للشروط السابقة الذكر فيما يخص القلم كانت تراعي طوله وتقعيره ونحته وشقه[5] أما الوسيلة الثانية فهي الرّق[6] (أي القرطاس) الذي اختلف حسب العصور وحسب الإمكانيات، وثالث الوسائل هي المحبرة، وللإشارة فكان لاختيار نوع المداد[7] أثر بليغ في مجال الخط، لكن هل يكفي توفير هذه الأدوات لتكون الخطاطة ذات خط حسن ؟ في الحقيقة أن

---

[1] الضبي: بغية الملتمس، ص 528. صالح البشري: المرجع السابق، ص 133.بوفلاقة: المرجع السابق، ص 70.

[2] والقلم: قصبة تقط وتقلم وتبرى، وقد تكون من السعفة أو الغاب، (وقد تستعمل ريش الطيور كأداة للكتابة). الجبوري: المرجع السابق، ص 234.

[3] بقي منها ستة أقلام أو خط، شائعة وهي: الكوفي، الثلث، النسخ، الديواني، الفارسي، والرقعة. أنظر عفيف البهنسي: **معجم المصطلحات الخط العربي والخطاطين**، ط1، مكتبة لبنان الناشرون، بيروت، 1995، ص: ز، ح، ي، ف.

[4] القلقشندي:صبح الأعشى في صناعة الإنشا،ج3، تصنيف وإعداد:محمد قنديل البقلي،عالم الكتب1383-1963،ص 38

[5] أنظر: الجبوري: نفس المرجع، ص ص 286-289. والبهنسي: نفس المرجع، ص: ع.

[6] الرّق: هو جلد الغزال استعملته هذه الخطاطة ربما استعملته فعلا في النسخ، كما يمكن قد استعملت هذه الكلمة لتلائم سياق البيت الشعري، لأن صناعة الورق كانت قد انتشرت في الأندلس ومن أهم مراكز صناعة الورق: مدينة شاطبة، ومدينة طليطلة التي تعد أول مدينة انتقلت إليها صناعة الورق من القيروان، ما مدينة قرطبة فقد اشتهرت بها في القرن 5 هـ/11 م. أنظر: صالح البشري: المرجع السابق، ص 128-129.

[7] المداد: في الأصل كل شيء يمدّ به، ثم كثر الاستعمال لما تمد به المدواة فغلب على كل شيء. أما الحبر فأصله اللّون وأثر المداد في القرطاس، وصناعة المداد نوعان هما:

الأولى: يصنع من العفص والزاج والصمغ، وهذا يناسب الرّق. وهذا النوع هو المحتمل استعماله من طرف الأديبة **والخطاطة صفية بنت عبد الله الربيّ.**

أما النوع الثاني: فهو يصنع من الدخان وهو يناسب الورق ولا يصلح للجلود والرّق. أنظر القلقشندي: المصدر السابق، ج2، ص ص 464-472. والبهنسي: نفس المرجع، ص:ف.

هذه الأدوات في متناول الجميع لكن لبراعة اليد في مسك القلم وفي الاستمداد من المدواة (المحبرة) شأن كبير حتى قيل في ذلك:"أما الاستمداد فهو أصل عظيم من أصول الكتابة" و "من لم يحسن الاستمداد وبري القلم فليس من الكتابة في شيء"(1) لذلك نادت الخطاطة كفها لتجود عليها بخط أحسن من الأول لكي لا تعاب ثانية. ويرجع الفضل في ذلك للمرأة التي أعابتها حتى دفعتها لنظم الأبيات التي من خلالها يمكن وضع صورة لمهنة المرأة الخطاطة وحرصها في إتقان الكتابة حتى بلغت مرتبة من الإبداع والتفنن في الخط. وفي هذا الصدد أذكر بعضهن، أمثال: ورقاء بنت ينتان(2) التي كانت بارعة الخط . وفاطمة بنت أبي علي الصدفي التي كانت حسنة الخط(3) ومثلها "طونة" بنت عبد العزيز التي كانت حسنة الخط(4) وابنة وزوجة أحمد بن عبد الله بن الحطية(5).

من هذه النماذج تتضح مدى مشاركة المرأة في الحياة الفكرية، لأن ازدهار عملية التدوين والنسخ دليل على ازدهار الكتابة وانتشار الثقافة وزيادة الطلب على المعرفة. وقد تتدرج الناسخة في مهنتها من كتابة عادية إلى حُسْن في الخط ثم إلى براعة فيه،لأن الخط أو القلم، ليس مجرد حرفة كالوراقة. بل الخط هو فن يتطلب موهبة وفطنة وتدريب طويل، وقليل من الوراقين من يصل إلى درجة خطاط.(6) ومع ذلك فقد وجدت نساء خطاطات تفننت أناملهن في كتابة المصاحف وكتب الحديث وما يتعلق بها من كتب دينية نظرا لما اشتهرت به الدولة المرابطية ذات الطابع الديني.

أما بالنسبة للعلوم الإنسانية الأخرى فكانت تتفاوت في درجة نسخها حسب مهارة الناسخة(7) مما دفعني للسؤال عن نوع الخط الذي أتقنته هؤلاء الخطاطات. ففيما يخص الخط المستعمل فقد كتبن بالخط الأندلسي أو القرطبي، مثلما استعملن الخط الكوفي بالربض الشرقي في قرطبة. ويبدو أن هذا الخط الأخير كان شائعا بين النساء الخطاطات(8) كما يكون قد استعملن الخط المغربي بصفة محدودة(9) ومن جهة أخرى يبدو تأثير التفاوت الاجتماعي والطبقية واضحا على هذا الفن، فبنات الوجهاء والفقهاء والعلماء، كن خطاطات تميزن بالبراعة وحسن الخط، أما بنات العامة كن ناسخات للكتب. فالفئة

---

1 القلقشندي: نفس المرجع، ج3، ص 38. والجبوري: نفس المرجع، ص ص 290-295.

2 ابن عبد الله: معجم نساء المغرب، ص 24.

3 نفسه: ص 21.

4 المقري: المصدر السابق، ج4، ص 696.

5 أصله من فاس: نزل بمصر وعيّن قاضيا بها في 533 هـ/1138م، لكنه امتنع عن ذلك.أنظر: ابن عبد الله: المرجع السابق، ص 9.

6 البهنسي: المرجع السابق، ص:ز.

7 للخط قواعد وأصول يعتمد عليها وموازين يقوم بها.أنظر: بدوي واسمند: المرجع 3721.، ص 7. رغم ذلك فقد حذقت فيه بعض النساء الخطاطات.

8 المراكشي: المصدر السابق، ص 372 . عبد الله علام: الدولة الموحدية، ص 278.

9 ابن عبد الله: نفسه، ص 9.

الأولى نظرا لغناها،توفرت لديها أدوات العمل المختلفة كما ونوعًا، وتخصصت في كتابة المصاحف وكتب الحديث. أما الفئة الثانية فتظهر عدم قدرتهن في اقتناء لوازم وأدوات الخط، لذا برز دورهن في نسخ مختلف الكتب وبيعها. وقد فضل الناس الكتب التي نسختها النساء لأنها نظيفة ومتقنة من جهة، كما أنها تباع بثمن منخفض عن تلك التي يبيعها النساخ من الرجال من جهة أخرى(1) وهذا يستدل به أن النسخ كان أحد طرق الاسترزاق لبعض النساء.

ويظهر أن الاهتمام النسوي بالخط ما يزال سائدا في بعض قبائل الطوارق، فإن نساء العائلات الوجيهة تقضي أوقات فراغها في المطالعة والكتابة. ويرجع الفضل في وجود خط التيفيناغ (2) في المنطقة إلى بعض النساء اللائي يتقن كتابته ويتولون تعليمه محافظة له وخوفا من زواله(3). ويضيف دي فيري Duveyrier أن إحدى النساء المتعلمات تطوعت لتعليمه خط التيفيناغ، إذا رغب في ذلك.(4) كما يبدي المختار بن حامد نفس الملاحظة في استمرارية وجود نساء خطاطات بارعات ينسخن الكتب في بعض مناطق بلاد شنقيط، وهذه الميزة تدل على أن المرأة الصحراوية ما تزال في بعض الأنحاء تحافظ على معالم الثقافة العربية الإسلامية ولم يتوقف دورها في الحياة الفكرية(5)

أما فيما يخص بعض الفنون الأخرى كالطرز الذي ساهمت فيها بعض النساء، فقد اقترن هذا الفن بصناعة النسيج والجلود التي عرفت ازدهارا كبيرا في المغرب ولاسيما الأندلس وقتئذ(6) ومما يلاحظ هو استمرارية هذا الفن لدى نساء الطوارق خاصة ونساء المغرب العامة.(7) وتعكس أنواع الطرز المختلفة التي عرفتها المرأة مستواها الفني وذوقها الجمالي. ومن الدلائل على ذلك أن العروس المغربية كانت تجهز من المدن الأندلسية بأنواع من الأقمشة الموشحة بالذهب والمطرزة.(8) وإن كنت لم أعثر عن أسماء لأشهر الطرازات كما كان الشأن لبعض الأديبات والخطاطات، فيبدو لي أن سبب ذلك راجع إلى الوسط الذي انتشر فيه فن الطرز. ومما يلاحظ عنه أنه كان مقترنا بصناعتي النسيج والجلود في أوساط الطبقة الشعبية، وأن اهتمام المؤرخين بتدوين أخبار الحكام وحاشيتهم والوجهاء

---

[1] Henri Pérès : Op.cit. P579 . المراكشي: المصدر السابق، ص 372.

[2] الخط التيفيناغ: نوع من الكتابة القديمة، استخدم من طرف الطوارق. وهو مشتق من الكتابة الليبية القديمة التي استخدمتها الممالك المحلية في البلاد المغربية في العصر القديم. أنظر: محمد الهادي حارش: التاريخ المغاربي القديم، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1995، ص ص 133، 144.

[3] Duveyrier: Op.cit. P 387

[4] Duveyrier: Ibid, P388.

[5] الخليل النحوي: المرجع السابق، ص 239.

[6] كانت المنسوجات تزدان بالزخارف الهندسية والنباتية القائمة على تشابكات ومربعات وحواش مكتوبة بالخط النسخ. أبو الفضل تاريخ مدينة المرية، ص 176. كما ضمت مدينة المرية ثمانمائة طرازا الحرير. أنظر: الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص 562.

[7] ابن الخطيب: الإحاطة، مج2، ص 502. ماريا فيغيرا: المرجع السابق، ص 1004.

[8] Duveyrier : Ibid, P429. عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص 217-218.

وبناتهم، جعلهم يغفلون عن بنات العامة.1 وبالمقابل فإن استعمال الألبسة أو الأدوات المطرزة اختصت بها نساء الأمراء والوجهاء، أما نساء العامة فكانت تحتفظ بها لمناسبات الأفراح فقط.

جـ- العمران:

إن الجدير بالذكر في الناحية العمرانية أن بناء مدينة مراكش(2) كان له علاقة بزواج زينب النفزاوية من أبي بكر بن عمر ثم من يوسف بن تاشفين. وذلك بناء على ما ورد عن صاحب الاستبصار (3) في ذلك:" فتزوجها بعده –أي أبي بكر- يوسف وبنى لها مراكش" وهذا الربط لصاحب الاستبصار بين بناء المدينة وزواج زينب يوحي كأن المدينة قدمت منزلا لها وكأنها بعض صداقها.(4) ورغم اختلاف الروايات عن مؤسس مدينة مراكش، فإن زينب تبقى عامل ربط لهذا الإنجاز العمراني، إذ ذكر ابن عذاري،(5) أن الناس اشتكوا من ضيق المجمع السكاني بمدينة أغمات، وطلبوا من أبي بكر بن عمر البناء في موضع آخر أفسح منه. وكانوا يعيشون في الأخبية والخيم من الشعر والوبر، وأثناء ذلك كان أبو بكر يفكر في الزواج من زينب وربما لذلك قيل أنه أنشأ مراكش ليعرس فيها بزوجته.(6) ويستنتج من ذلك أن زواجه منها كان من الأسباب التي شجعت على تقرير البناء في المدينة الجديدة – مراكش-،لكن لما استغاثت به قبيلته استقبل رسولها في موضع اشتغاله بالبناء،(7) ثم سافر إلى الصحراء وترك أمر المدينة ليوسف بن تاشفين،(8) وهذا الحدث مما يستدل به على أن بداية بناء مدينة مراكش تم على عهد الأمير أبي بكر بن عمر في (462 هـ/1069م)، ولما سافر هذا الأخير إلى الصحراء ترك

---

1 عز الدين موسى: نفسه.

2 مراكش اسم بربري قديم قد يكون مشتقا من كلمة أوركش يعني ابن كوش، وكوش بالبربرية معناها الأسود، وفي هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشي:"إنما سميت بعبد أسود كان يستوطنها ويخيف الطريق اسمه مراكش." أنظر: المعجب، ص 100. ويروي ابن خلكان أن "مراكش" معناها "امش مسرعا" بلغة المصامدة. وكان موضعها مأوى للصوص، وكان المسافرون يقولون لرفاقهم هذه الكلمة، فعرف الموضع بها. وفيات الأعيان، ج5، ص 113. المراكشي: نفسه، ص 372.

3 مجهول: ص 209.

4 زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج4، ص 240.

5 البيان، ج4، ص 19. الاستبصار: ص 290. Lagardère : Op.cit, P 74.

6 حسين مؤنس: تاريخ المغرب و حضارته، ج1، ص 21. الحلل الموشية: ص 15، 16.

7 ابن عذاري: نفسه. الحلل الموشية: نفسه.

8 الحلل الموشية: نفسه.

أمر المغرب كله لابن عمه يوسف بن تاشفين[1] الذي استكمل بناء المدينة "مراكش" مما جعل البعض ينسب تأسيسها إليه[2].

وعلى كل الأحوال فكلتا الروايتين ربطت بناء مراكش بزواج زينب النفزاوية بمؤسس المدينة الجديدة. وهذا هو المهم في هذا المقال. فأول ما بني هو قصر الأمير ومركز الإدارة وما يلحق بهما من مسجد ويحيط بها من أسوار وهي التي تعرف بقصر الحجر.[3] وهكذا تكون زينب النفزاوية أول النساء التي سكنت مراكش في بيت من حجر بعدما كان من وبر. لذلك قال فيها صاحب الاستبصار[4] "[...] وبنى لها مراكش ".

وتشير التنقيبات الأثرية الحديثة أن بقايا "سور الحجر" يقع الآن بمراكش شمال جامع الكتيبة. وتؤكد أن موضع جامع القصبة المرابطية الأولى هي التي بنى عليها عبد المؤمن بن علي جامع الكتيبة. واستنادا على هذه التنقيبات الأثرية الحديثة، فقد يحتمل أن بقايا هذه الآثار العمرانية تعد من الإنجازات التي ساهمت فيها زينب النفزاوية. استثمرت ثروتها في بناء المدينة "مراكش" بالأخص، وفي خدمة الدولة المرابطية عامة، وذلك منذ مستهل زواجها من يوسف بن تاشفين. وهكذا تكون حاضرة المرابطين ثم الموحدين مدينة لزينب النفزاوية ببقاء مدينة مراكش، التي لا تزال إلى حد الآن تحافظ على مكانتها الحضارية والتاريخية ضمن مدن المغرب الإسلامي بل العالم الإسلامي[5].

لقد عرفت بعض مدن الأندلس صناعة التوابيت وشواهد القبور،[6] ومن بين الآثار المتبقية شاهدة قبر تعود للأميرة المرابطية "بدر" ابنة الأمير أبي الحسن علي بن تعيشة الصنهاجي[1] عثر

---

[1] الحلل الموشية: ص 15، 16.

[2] حول تأسيس مدينة مراكش أنظر الدراسة التي قام بها: أحمد المختار العبادي:" دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" مجلة تطوان، العدد3، 4، تطوان، المغرب الأقصى 1958-1959، ص ص 143-144. أما فيما يخص وصف المدينة وأهميتها أنظر : الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص 233-234.

[3] ابن عذاري: نفسه. ملحق رقم 8.

[4] مجهول: ص 209. لقد ساهمت اعتماد الرميكية في الحياة العامة للبلاد، ويتجلى ذلك فيما تحمله النقوش من ذكر اسمها يوم الشروع في بناء صومعة إشبيلية سنة 478 هـ/1085م. أنظر: Levi Provençal : Inscriptions Arabes d'Espagne, E,J, Brill Leyden –Hollande, 1931 et imprimerie Orientaliste, E, Larose, Paris, 1931, n°32, P40. وأنظر: أحمد بن عبود: التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، مطابع "الشيوخ" تطوان 1983، ص 192-193.

[5] مثل ما قامت به أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري في تمويل جامع القراويين بفاس. أنظر الفصل الأول من البحث.

[6] انتقلت صناعة شواهد القبور إلى مدينة المرية في عصر المرابطين من المشرق الإسلامي والتي عرفت باسم: شواهد المرية "Almerienses Lasestelas" ومنها انتشرت في شتى نواحي الأندلس، وينسب إلى هذه المدينة معظم التوابيت التي اكتشفت في مقابر الأندلس. أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية، ص 178. وقد تكون شاهدة قبر هذه الأميرة "بدر" من نفس المدينة نظرا لوفاتها المبكرة في قرطبة.

عليها في قرطبة وحفظت في متحف الآثار القديمة في مالقا[2] وهي تحمل الكتابة التالية داخل القوس

"(1) بسملة.... (2) وصلّى الله على محمد هذا القبر (3) بدر بنت الأمير أبي الحسن (4) علي بن تانشا الصنهاجي (5) توفيت رحمها الله ليلة الإ(6)ثنين نصف ربيع الآخر سنة ست وتسعين وأربع مائة". وحول القوس:" (1) أعوذ بالله من الشيطان الرجيم شهد الله أنه لا إله (2) إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم صدق الله[3]. وتاريخ وفاتها (496 هـ/ يوافق 26 جانفي 1102م). وكتبت هذه الآيات بالخط الكوفي الذي كان يستعمل في الزخرفة. ونقشت نخيلات مدورة على هذه القطعة الأثرية.[4] كما وجدت شاهدة قبر مكتوب عليها في واجهة المثلث الأولي:"(1) بسملة....وصلّى الله على محمد هذا القبر زينب(2) بنت يحيا ابن إبراهيم الطليطلي توفيت رحمة(3)الله عليها". وفي الواجهة الثانية كتب ما يلي:" ونفع الله بها أبويها ليلة الأحد (5) لاثني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة عام أربع عشر وخمس مائة". وهذا التاريخ (ما يوافق 6 مارس 1120م).[5]

ومما سبق يتأكد أن المرابطين أكرموا المرأة في حياتها. كما أولوها عناية حتى بعد وفاتها. فشاهدة قبر الأميرة "بدر" تشبه في زخرفتها ونقشها واجهة الساباط في جامع قرطبة.[6] والأهم من ذلك فقد تساهم هذه القطعة الأثرية في إثبات بعض الحقائق التاريخية منها:

- انتقال بعض النساء المرابطيات إلى الأندلس مع ذويهم من أمراء أو جند المرابطين.
- أن نقش أشكال نخيلات على شاهدة القبر توحي على حنين هذه الأميرة وأهلها لوطنهم الأصلي (الصحراء).
- أنها تكتسي قيمة تاريخية لأنها تعطينا إسم الأمير المرابطي الذي كان وليا على قرطبة في ذلك الوقت وهو الأمير أبي الحسن علي بن تاعشت الصنهاجي.[7]

أما من الناحية الفنية فقد احتفظت بنوع من الخط المستعمل وهو الخط الكوفي الذي شاع استعماله في الزخرفة آنذاك، والأهم أنه ساهمت في نشره الكثير من النساء الخطاطات والناسخات لاسيما في قرطبة.

---

[1] انتونيو فرنانديز بويرتاس"Antonio Fernandez Puertas": "فن الخط العربي في الأندلس" ضمن الحضارة العربية في الأندلس، ج2، ط2، بيروت 1999، ص 936. (مركز دراسات الوحدة العربية).

[2] مالقا أو مالقة: مدينة عامرة بالأندلس من أعمال ريّة، يسورها على شاطئ البحر بين جزيرة الخضراء والمرية، كانت مقصدا للمراكب والتجار، وينسب إليها جماعة من أهل العلم: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج5، ص 43.

[3] Lévi Provençal : inscriptions arabes d'Espagne, n°24, P30-31.

[4] بويرتاس: نفسه. وأنظر الصورة: ملحق رقم 14.

[5] Lévi Provençal: Op.cit, n°126, P 113

[6] انتونيو بويرتاس: نفسه، ص 936.

[7] Provençal : ibid. P 131

هذه بعض معالم البيئة العلمية التي ساهمت خلالها المرأة في العهد المرابطي فجاءت إسهاماتها تتوج لمدى اهتمام وعناية الحكام المرابطين وما بلغوه من تكريم المرأة ورفع مقامها الاجتماعي. لقد أفسحوا مجال التعليم مفتوحا أمام المرأة ولم يحاولوا تحديد ذلك ولا تقييدها لاسيما في الأندلس، فواصلت المؤسسات التعليمية عملها مثلما كانت من قبل رغم التغيير السياسي الذي طرأ عليها. ونتيجة لذلك أسفرت الحركة الفكرية على ظهور فئة من النساء متعلمات وعالمات في الفقه والأدب والشعر والنسخ وبعض الفنون.

ونظرا لاقتران العملية التعليمية بالكتاب فإن الكثير من النساء ساهمن في نسخ الكتب. فاشتهر عدد من الخطاطات البارعات اللاني كن يكتبن المصاحف بالدرجة الأولى مع مؤلفات في شتى أنواع العلوم. هذا الدور أدى إلى اتساع نطاق العلم وتداوله بين الناس، بل اتسعت دائرته إلى مختلف أرجاء البلاد وكان لهن دوراً إيجابيا في إثراء المكتبات الخاصة والمؤسسات التعليمية. فإذا قالت زيغريد هونكة [1]:"أن بقرطبة ستمائة مسجد وثمانين مدرسة وسبع عشرة مدرسة عليا وعشرين مكتبة تضم آلاف الكتب". فهذا يعني وبدون شك -أن لنساء قرطبة الناسخات- أيادي بيضاء في تموين هذه المؤسسات بما تحتاجه من مصاحف بالأخص، فقد كان يوجد في الربض الشرقي فقط من قرطبة مائة وسبعون امرأة ينسخن المصاحف. وكأنها شكلت شبه -مركز للطبع- تنسخ فيه المؤلفات مما ساهم في ازدهار العلوم الدينية والفقهية في العهد المرابطي، مما يوافق تماما أهداف الدولة الإصلاحية.

أما فيما يخص الآداب والشعر فقد كان للأندلسيات الحظ الأوفر في إثراء الأدب العربي بإنتاجهن، رغم قلة ما بقي منه. لكن بالمقابل فإن العوام من المغربيات لم يحظين بهذا الاهتمام، إذ يكاد ينعدم الإنتاج الفكري للمرأة المغربية في هذه الفترة. لكن هذا لا يعني أنه لم يكن آنذاك أديبات، فالبلاط المرابطي ضم نساء أديبات ومتعلمات مثل حواء بنت تاشفين التي كان لها مجالس أدبية يحضرها كبار الشعراء، ومثلها تميمية بنت تاشفين وبعض بنات الوجهاء، كحواء بنت إبراهيم بن تافلويت وأختها زينب غيرهن.... والمؤسف أنه لا يوجد أثر ملموس لنشاطهن الأدبي لكي يتسنى لي معرفة أغراض الشعر النسوي المغربي المرابطي، مثلما كان الأمر بالنسبة للشواعر الأندلسيات، فقد شمل إنتاجهن الفكري جانب الغزل و وصف الطبيعة الخلابة التي زخرت بها أرض الأندلس.

وفي الحقيقة أن احتكاك المرأة المغربية بالأندلسية كان له تأثير في انتقال بعض الفنون الأندلسية إلى المغرب، ومن المحتمل أن يكون ذلك عاملا مساعدا في دفع حركة التعليم في أوساط النساء المغربيات. لكن نظرا لشحة النصوص التاريخية لإثبات ذلك، يبقى دور المرأة المغربية مهمشا في هذا المجال. ومن الصعب إيجاد تفسير للتوفيق بين هذا التعتيم وبين الدور الذي تقوم به نساء المحاضر في القبائل الشنقيطية وبعض قبائل الطوارق حاليا، في مجال تعليم العلوم الدينية ومساهمتها

[1] شمس العرب تسطع على الغرب، ص 456.

في نشر المذهب المالكي. ولعلا هذا الدور التي قامت به يعتبر إحدى العوامل التي ساعدت على تثبيت وترسيخ هذا المذهب في أوساط السكان رغم المجهودات الموحدية لاستئصاله من قلوب الناس طوعا أو إكراها. ومن هنا تعد المرأة في العهد المرابطي إحدى حماة المذهب المالكي في المنطقة.

وإن كانت بنات الوجهاء ونسائهم ساهمن في العلوم الدينية والأدبية ونبغ عدد منهن في ذلك كما سبق ذكرهن، فإن الجواري -القنيات- ساهمن في فن الموسيقى والغناء. وخضعت ذوات القدرة والمواهب الصوتية إلى تعليم خاص من طرف نساء محترفات في هذا المجال، وكذا من طرف مغنيين رجال. وزينت بهن مجالس اللّهو والطرب في العائلات الغنية والمترفة، وكذلك في المجالس الأدبية للشعراء نظرا للصلة الوطيدة بين الشعر والغناء. ولذا استغل بعض تجار الرقيق هذه الفئة من الجواري الحسنة الصورة والصوت في تحقيق أموال طائلة من ورائها.

واتسعت دائرة هذه التجارة في المدن المغربية إذ يعتقد أن هؤلاء القنيات تعد إحدى قنوات انتقال الموسيقى والغناء الأندلسي إلى مدن المغربية مثل: تلمسان، قسنطينة، تونس، فاس، ومن ذلك يعرف أحد ألوان هذه الموسيقى بالموسيقى الأندلسية متوارث في هذه المدن إلى حد الآن.

أما في المجال المعماري فإن بناء مدينة مراكش تعد تخليدا لذكرى زينب النفزاوية التي كانت في طليعة النساء إسهاما في هذا الإنجاز الضخم الذي أصبح حاضرة المرابطين ثم الموحدين. ويعد هذا الإنجاز نقطة تحول في البناء المرابطي، فارتقى بنيانهم من الخيم والأخبية إلى الدور والقصور من الحجر. ولا تزال بعض آثار سور الحجر بمراكش تدل على ذلك. لكن هذه المرأة لم تنل نصيبها من التقدير والتنويه بما قامت به في هذا المجال من طرف الدارسين. وهكذا تكون زينب النفزاوية هي التي دشنت أول منزل في مراكش وحققت طموحها. وتزوجت من حاكم المغرب -أمير المسلمين يوسف بن تاشفين-.

أما آثار المقابر فهي تدل على حركة السكان التي كانت بين العدوتين، فقبر اعتماد يوجد بأغمات - بعد ما كانت إحدى السيدات بإشبيلية في الأندلس-. أما شاهدة قبر الأميرة "بدر" بنت أبي الحسن علي بن تاغيشت الصنهاجي فقد وجدت بالأندلس، وهي في غاية التحفة والنقش والزخرفة بالخط الكوفي الذي خطت به آيات قرآنية مع ذكر هوية صاحبة القبر وتاريخ وفاتها، ويظهر من خلالها مدى التأثير الحضاري الأندلسي على المرابطين القاطنين بالأندلس وانصهارهم في حضارتها. وعموما فإن هذه الآثار المادية لها قيمة تاريخية بحيث تعد إحدى المصادر التاريخية التي يعتمد عليها الباحث لتدعيم ما نصت عليه الوثائق المكتوبة في إثبات حقيقة الحدث التاريخي.

الخـــاتـــمـــة

لقد أبرزت من خلال هذه الدراسة جملة من الحقائق التاريخية التي يمكن لي استخلاصها فيما يلي:

- أن النفوذ السياسي للمرأة المرابطية عند قيام الدولة كان إيجابيا وبناء. وذلك بدليل ما قدمته زينب النفزاوية من إسهامات مادية ومعنوية. وأن هذه المرأة شخصية تاريخية واقعية وليست خيالية ولا أسطورة يونانية، فهي تضاهي نساء حكام المسلمين رفعة وشهرة في المغرب والمشرق. وبفضل مشورتها وسداد رأيها وحدّة ذكائها وتجاربها السابقة في الزواج من بعض حكام منطقة سوس بالمغرب الأقصى، استطاعت أن توفق بين أميرين يطالبان بحكم واحد وحقنت بذلك دماء الإخوة. ونتيجة لنجاح خطتها تدعمت أركان الدولة، وتوسع نفوذها بمواصلة أميريها يوسف بن تاشفين وأبو بكر بن عمر لمهمتهما الجهادية شمالا وجنوبا على التوالي، وهذا خير دليل على حنكة وعبقرية زينب النفزاوية.

- أما وصف المؤرخ عبد الواحد المراكشي بأن فساد الحكم المرابطي وإضعاف كيانه تسببت فيه كل امرأة من لمتونة ومسوفة، ليس له أساسا من الصحة، بدليل أن نساء لمتونة ومسوفة كن صالحات متدينات، حيث أنفقن أموالهن في أعمال البر والخير، وإضافة إلى ما أكدته مصادر الفترة، على أن فترة الرخاء التي عرفتها الدولة المرابطية لم تسمح لطبقة اللصوص بالظهور، وبالتالي لم يكن للمرأة اللمتونية -أي نساء بلاط- صلة بهذه الفئة.

وانطلاقا من الموضوعية التاريخية أشير إلى أن وصف المراكشي لنساء دولة المرابطية، إنطبق على ما وقعت فيه الدولة الموحدية بعد عام (621هـ/1224م) حيث ظهر فيها جليا نفوذ نساء البلاط الموحدي التي احتكرت الأموال المستعملة في تدعيم ذويها في الحكم. ومن ثم يتبين لي أن عبد الواحد المراكشي أسقط واقع نهاية الدولة الموحدية المزري على نساء لمتونة ومسوفة في آخر عهد المرابطين،والتي لم يوفيهن حقهن في كتاباته التاريخية، خاصة عندما ركز على نساء قبيلتي لمتونة ومسوفة. ذلك لأن واقع الدولة المرابطية لم يخل من النفوذ النسوي والذي تمثل في الجارية قمر -أم ولد أمير المسلمين علي بن يوسف- فكان لتدخلها في شؤون الحكم جانبا سلبيا وخطيرا. وانعكس ذلك بالدرجة الأولى على أمن الأندلس، حيث اشتدت الغارات النصرانية بعد عزل واليها وقائدها المغوار "تاشفين بن علي" في حين كانت الأندلس بحاجة ماسة إلى جهوده. أما في المغرب فقد تسببت هذه

الجارية في إثارة الشحناء والفتن والصراع بين الأمراء الأواخر من أجل الحصول على ولاية العهد. إن ظاهرة نفوذ أمهات الأولاد لم تخل منها أي دولة إسلامية مشرقا ومغربا، سابقة للمرابطين أو لاحقة لهم، إلا أن المراكشي لم يقصد في كتابه نفوذ هذه الجارية -ربما لأنها أندلسية -، وإنما إقتصر ذكره على نساء لمتونة ومسوفة، الأمر الذي يخالف الحقائق التاريخية. ولعلا أصدق برهان على جدية المرابطيات هو دفاع الفتاة المقاتلة فانو بنت يانتان على قصر الإمارة بمراكش إلى آخر لحظة من حياتها، متصدية لجند عبد المؤمن بن علي. ومن الصدفة أن يقام قصر الإمارة بإسهامات زينب النفزاوية، ولم يدخله الموحدون إلا على جثة امرأة -فانو بنت يانتان- وبالتالي تعتبران دليلا قاطعا على الدور الإيجابي للمرأة المرابطية التي تطلعت للأمن والاستقرار والبناء الحضاري. ويبدو لي أنّ تخصيص المراكشي المرأة اللمتونية والمسوفية ما هو إلا حكم مقصود له غايته السياسية فهو يندرج ضمن الصراع القبلي الصنهاجي-المصمودي. لأن ما شاع من فساد كان خاصا بالمجتمع الأندلسي الذي اختلطت فيه الأجناس وتغيرت فيه الموازين والقيم.

أما عن نهي محمد بن تومرت عن التبرج والاختلاط فهي مظاهر، صادفته في مختلف البلاد الإسلامية التي مر بها أثناء رحلته، ولم تكن خاصة بالمرابطين فقط. كما أني لا أستبعد أن ذكاءه الحاد لم يكن يدرك تمام الإدراك أن عادة تلثم رجال المرابطين وسفور نسائهم هي عادة قبلية قديمة موروثة، وليست خروج عن الدين، وهذا ما دفعه إلى تكفير المرابطين ومجاهدتهم وتحليل أموالهم وحريمهم. والدليل أن هذه العادة في اللباس لم يعارضها الفقهاء والعلماء وقتئذ، كما أنها لا تزال مستمرة لدى قبائل الطوارق لحد الآن دون أي إشكال، ليكن بذلك هذا الإدعاء حجة غذى بها ابن تومرت حملته الدعائية في انتقاد سياسة البلاط المرابطي والإطاحة به.

أما فيما يخص دور المرأة الاجتماعي، فقد استمرت على نفس المسار الذي سلكته المرأة المسلمة عامة مغربا ومشرقا. وذلك بتربية أبنائها ورعاية شؤون أسرتها وسعيها الدؤوب لتوفير وتلبية متطلبات أفراد أسرتها. وبالتالي كان لابد لنساء العامة لاسيما في البوادي المشاركة في مختلف الأنشطة الاقتصادية لتحسين المستوى المعيشي لأسرهن. ومن أجل ذلك تحكمت الظروف الطبيعية والفوارق الاجتماعية في تحديد نوع النشاط الاقتصادي للمرأة ومكانتها في السلم الاجتماعي، وقد تجلى

ذلك بوضوح في بعض قبائل صنهاجة الجنوب التي قامت على رابطة الأمومة-أي الانتساب إلى الأم- أن يقال ابن فلانة وليس ابن فلان، فإن هذه العادة ليست معممة على كل الملثمين لأنها في الحقيقة كانت تخضع لظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية في القديم. وبعد إسلامهم تقلصت هذه العادة نوعا ما، بدليل أن حكام المرابطين كانوا يدعون لأبائهم ويوصون بالحكم لأبنائهم من بعدهم، هذا ما يدفعني إلى الاستنتاج أن هذه العادة ما تزال في بعض العائلات المحافظة على التقاليد إلى حد الآن.

والأهم في الأمر هو سوء فهم الأندلسيون لهذه العادة التي استنكروها حيث اعتبروها سيادة للنساء على الرجال، لأن أشهر القادة المجاهدين في الأندلس حملوا أسماء أمهاتهم إلى جانب أسمائهم. وربما هذه النظرة السطحية لمكانة المرأة المرابطية، ترجع أساسا إلى عدم الاحتكاك بين الأندلسيين والصحراويين، وفتور العلاقات بينهم نظرا لبعد المسافة بينهما، حتى لو كانت الأندلس تحت لواء الدولة المرابطية. لكن من جهة أخرى لم يستنكروا سفور النساء الذي شاع فيهم.

أما القول بأن المرأة المرابطية لم ترق إلى المستوى العلمي الذي بلغته المرأة الموحدية، فهذا الحكم يبدو أنه يندرج ضمن سياسة الموحدين والمؤرخين الموالين لهم. لأن النصوص التاريخية تؤكد على اهتمام المرابطين بتعليم الفتاة وتربيتها وتهذيبها، مستهدفين من ذلك الحصول على ثواب العلم فقط، على عكس الموحدين الذين قد رغبوا في العلم وأجبروه على الرعية (رجالا ونساء) لخدمة أغراض دعوة ابن تومرت في التوحيد. فأدى بهم ذلك إلى نشر العلم في وسط الخاصة والعامة لتظهر نتائجه واضحة على الرعية؛ كما ساعدهم في ذلك طول عمر الدولة الموحدية (541هـ-668هـ/1146-1269م). الأمر الذي لم ينطبق على الدولة المرابطية التي كانت فترة حكمها قصيرة (448هـ-541هـ/1056-1146م). لكن نظرا لقلة المصادر المعاصرة للدولة المرابطية التي أطلعت عليها، فقد استطعت من خلال هذه الدراسة إبراز عددا من النساء المتعلمات اللاتي استقطبتهم بالأخص العلوم الدينية والأدب والشعر وبعض الفنون.

فإن كان إهتمام النساء بالعلوم الدينية ناتج عن طابع الدولة الديني الذي انعكس على الرعية، فإن الشعر النسوي الأندلسي، هو دليل على استمرارية المجالس الأدبية مثلما كان معهودًا به في عهد ملوك الطوائف، ولم يقاومه المرابطون رغم بذاءة ألفاظ بعض شواعر الأندلس. وهذا الشعر النسوي

الأندلسي هو الذي يفند أقوال الكتاب الأجانب أمثال:دوزي ويوسف أشباخ الذين يزعمون أن عجلة الحضارة الأندلسية توقفت في العهد المرابطي. وخير دليل على تعلم المرأة في عهد المرابطين هو استمرارية ذلك في العهد الموحدي الذين وجدوا الأرضية ممهدة لإقبال النساء على التعلم، وما يزال اهتمام المرأة بالعلوم مستمرا في محاضر موريتانيا حاليا.

ومما سبق ذكره يمكن لي أن أعتبر هذا البحث مساهمة علمية بسيطة، حاولت من خلالها إعادة الاعتبار لدور المرأة المرابطية في بناء نسيج الدولة المرابطية خاصة والعالم الإسلامي عامة.

وما زال هذا الموضوع مجالا مفتوحا لدراسات أكاديمية مستقبلية نظرا لما يكتسبه من أهمية إجتماعية وثقافية في تاريخ المغرب الإسلامي من جهة، وإضافة إلى تناثر مادته في الكتب الفقهية والأدبية من جهة أخرى.

الفهارس

1- فهرس الأعلام والشعوب والقبائل

2- فهرس الأماكن

3- فهرس الآيات القرآنية

4- الملاحق: النصوص- الأشعار- الخرائط- والصور

5- قائمة المصادر والمراجع والدراسات

6- فهرس المحتويات

فهرس الأعلام والشعوب والقبائل

-أ-

ابن الأثير: 56-57-58-103
إبراهيم بن تاشفين: 19-200
إبراهيم بن تاعيشت: 135
أحمد بن الحطية: 177-206
أحمد شوقي: 176
الأدارسة: 27-28
إدريس الأول: 27
الإدريسي: 28-157-164
إدلال: 153
إسحاق بن علي بن يوسف: 18-70-71
اسحاق بن ياران: 132
أسماء بنت أسد بن الفرات: 28
إسماعيل أبي إبراهيم: 84
اعتماد الرميكية: 86-87-196-198-212-184-170
الأعمى التطيلي: 62-63-125-143-144
الأعمى المخزومي: 186-187-188
الأغالبة: 28
إفريقية: 3-12-41-181
ألفونسو الأول (ابن ردمير): 75
ألفونسو السادس: 13-14-89-91-92-93
أم البنين: 28-41
أم الحسين بنت وابوركن: 119
أم الخطاب: 26
أم الربيع: 26
أم الهناء بنت عبد الحق بن عطية: 185
أم طلحة: 178
أم عمر بنت أبي مروان بن زهر: 197
أم ملال بنت المنصور بن يوسف الصنهاجي: 30
أم هانئ: 177
الإمام أفلح: 25
إمامن (قبيلة): 121-137
امنة بنت يغروسن: 167
أهل الذمة: 155-156-158-193
أولاد أبي السباع: 134
أولاد العالية: 135
أولاد الكسيمية: 134
أولاد بنت السيد: 135
أولاد بنت كلاد: 135
أولاد حسان: 202
أولاد عيشة: 135
أولاد مبارك: 135
أولاد مية: 134
ايدو عيش: 202

- ب -

بثينة بنت المعتمد بن عباد: 88-92-107-108-184
بدر بنت أبي الحسن علي بن تعيشة الصنهاجي: 209-210-212
ابن بشكوال: 32- 178
أبو بكر بن العربي: 115-123
أبو بكر بن اللبانة: 134-150
أبو بكر بن زهر: 113
أبو بكر بن عمر : 6-8-10-11-27-40-41-42-43-44-45-46-47-49-50-51-52-

53-54-73-132-103-147-207-208

أبو بكر يحي بن رواد: 74

البكري: 129-157

بلارة زوجة الناصر بن علناس: 30

بنو حسان: 202

بنو زهر: 197

بنو غانية: 15-135-137

بنو ورتنطق: 4

بني مزغنة: 12

البيذق: 35-36-79-80-84-151-153

- ت -

تازكاي العرجاء: 142

تاشفين بن علي بن يوسف: 18-77-78-123

تاعيشت (أو تعيشت): 132-135

تامكونت بنت سيرين وريبل: 83

تعلو : 140-151

تميمة بنت يوسف بن تاشفين: 104-147-170-178-195

تيمانوكلين: 202

- ث -

ثريا: 167

- جـ -

جدالة: 4-5-7-10-45-73-100

أبو جعفر بن سعيد: 192

الجوهر بن سكم: 6

- حـ -

ابن الحاج: 90- 115-125-126-130-134-137

ابن حزم: 31

أبو الحسن بن سكينة: 134

الحسنى بنت سليمان النجاعي: 27

حفصة بنت الحاج الركونية: 170-179-191-192

حمدونة بنت زياد بن بقي العوفي: 177-189-190-191

ابن حمدين (القاضي): 130

حمير : 3-7-142

أبو حنيفة النعمان: 29

حواء (أم الأمير محمد بن عبد الله) : 133

حواء بنت إبراهيم المسوفي: 178-211

حواء بنت يوسف بن تاشفين: 61-62-63-64-65-66-95-133-137-139-103-104-108-115-123-124-126-130-143-144-147-159-164-165-179-195-198-211

حواء زوجة يعزى بن مخلوف: 83

- خـ -

خديجة بنت سحنون: 29

خديجة بنت علي محمد عبد الله الستجيالي: 29-32-177

ابن خفاجة: 66-143-144- 189

ابن خلفون (القاضي): 56- 130-139- 178

خنساء المغرب: 189

خولة بنت الأزور: 80

- د -

داود بن عائشة: 15-140-133

دوزي: 175

الدولة الرستمية: 25

دون سانشو (الأنفت): 89-91

دي فيري: 142-181-207

- ر -

الراكنة: 134

رالف لنتون: 135

ابن رشد (ابو الوليد): 24—37-64-111-118-124-125-126-106-110-153-160-161-182-198

ابن رشد (أبو الوليد) ابن رشد الحفيد: 182

- ز -

زايدة المسلمة: 89-93-96-93-96-170

زروع الأرجانية: 26

ابن الزقاق: 123-125

ابن زكون: 118

زليخا زوجة المعز بن باديس: 30

زناتة: 48-142

زيغريد هونكة: 211

زينب النفزاوية: 10-11-15-48-40-41-42-43-44-46-47-49-50-51-52-53-54-55-56-57-58-59-60-61-63-71-73-74-75-88-95-101-103-123-124-129-130-135-139-140-145-147-164-165-198-208-209-211-212-178-189-195

زينب بنت عباد بن سرحان: 167

زينب بنت علي بن تاشفين: 85-143

زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن: 195

- س -

ست الملك بنت الخليفة العزيز: 29

سعد بن مردنيش: 139

أبو سعيد الميمون بن بدر اللمتوني: 186

السقطي: 120-166

سكوت البرغواطي: 11

سير بن أبي بكر اللمتوني: 15-56-86-88-61-88-62-63-64-66-67-68-69-103-115-133-137-159

السيوطي: 24-118-191

- ص -

الصدفي: 167-180-206

صفية بنت عبد الله الربي: 205

صنهاجة: 3-4-7-11-12-18-44-53-94-133-140-142-143

الصورة (أميرة): 36-37-39-89-165

- ض -

ضوء الصباح: 67-69-88-140-164

- ط -

أبو طاهر تميم: 58-63-65-66-103-104-106-126-197-178

الطوارق: 104-105-107-118-121-131-136-137-141-165-177-181-202-203-207-211

طونة بنت عبد العزيز: 177-180-181-206

- ع -

عائشة (أم داود): 132-133

عائشة بنت أحمد القرطبية: 119

عائشة بنت ياران بن تاغيشت (أم إبراهيم): 53-132

عاتكة بنت علي بن عمر بن إدريس: 27

أبو عامر بن ينق: 185-201

عباس الجراري: 181

أبو العباس السبتي: 119
ابن عبد الرؤوف: 117-149-158
عبد الرحمن الداخل : 30-31
عبد السلام التونسي: 147-167
عبد العزيز التونسي: 119-168
عبد العزيز بن عبد البر: 177-181
عبد الله بن باديس بن حبوس: 86-104
عبد الله بن بلكين: 120
أبو عبد الله بن عائشة: 53-135-132
عبد الله بن ياسين: 5-6-7-9-11-12-15-
43-44-59-103-111-118-129-164-
176
أبو عبد الله محمد بن تفلويت اللمطي: 4
عبد المؤمن بن علي: 19-76-77-78-
79-81-83-84-95-110-151-180-
195-209
ابن عبدون: 149-159-171
ابن عذاري: 44-47-58-62-66-78-91-
94-96-115- 178-208
أبو العلاء بن زهر: 196-197-65-68-87
علي بن يحي المسوفي: 133
علي بن يوسف: 10-16-17-53-36-40-
89-94-95-96-61-62-63-67-68-
69-70-76-79-83-133-134-140
108-123-129-143-165-176-195-
197-199
ابن عمار: 184
عمر العذري الدلائي: 177-181
أبو عمران الفاسي: 5

- غ -

غالبة بنت محمد: 32
غانية: 15-131-133-134-137-106
- ف -
فاطمة (أم محمد): 133
فاطمة الزهراء: 139-140
فاطمة بنت محمد الفهري (أم البنين): 28-41
فاطمة بنت الفقيه أبي علي الصدفي: 180-206
فاطمة بنت حواء بنت تاشفين: 61-62-66-115-
123
فاطمة بنت يحي بن يوسف المغامي: 32
فاطمة بنت يوسف الزناتية: 84
فانو بنت عمر بن يانتان: 15-95-78-79-80-
95-180
فانو بنت يوسف بن تاشفين: 133
الفضل: 57-58-135-123

- ق -

أبو القاسم المقرئ: 181
ابن قانونة: 133
ابن قزمان: 118- 186-188
قسمونة بنت إسماعيل اليهودي: 193-194
ابن القصيرة: 179
قمر (زوجة علي بن يوسف): 67-68-69-70-
71-72-73-123-140-135-108-195
قمر (زوجة يوسف بن تاشفين): 57-79-88-95-
61-63-66-108

- ك -

كتامة: 3-29
كنزة الأوربية: 27

- ل -

لقوط بن يوسف المغراوي: 9-41-42-43-
145

لمتونة: 5-6-7-10-11-17-4-39-45-
72-73-78-134-136-137-140-100
143-169-170-141

لمط بن عزاغ: 142

لواتة: 3

- م -

المأمون: 89-90-91-92-93-72

محمد بن الحاج اللمتوني: 90-134-137

محمد بن تومرت: 18-34-36-96-121-
133-148-169-170

محمد بن سكينة: 134

محمد بن عائشة: 132-135

محمد بن عبد الحق بن عطية (القاضي): 177

محمد بن عبد الله بن يغمر بن حواء: 133

أبو محمد بن عبد الله بن فاطمة: 133-140

محمد بن علي المسوفي: 134

محمد بن علي بن غانية المسوفي: 15-133

محمد بن فاطمة: 140-133-135

محمد بن وجاج بن زلو: 5

المختار بن حامد: 59-112-141-207

المخزومي: 186-187-188

المذهب المالكي: 12-29-200-202-212
181-183

المرابطين: 3-4-6-7-8-11-14-15-16
17-18-34-35-37-38-39-40-41-
42-43-45-50-51-53-59-91-93-
94-194-198-167-183

المنصور بن الناصر بن علناس: 82-94

مهجة القرطبية: 105

الموحدون: 19-79-84-85-139-117-192

ميمونة بنت يانتان بن عمران: 94-83-84-133

- ن -

نزهون بنت القلاعي الغرناطية: 101-102-170-
179-185-186-187-188-189

النصارى: 14-16-17-89-91-92-93-94-
73-75-76-80-81-139-140-108-109-
169

النويري: 131

- هـ -

أبو هريرة: 38-47-102

هند جارية عبد الملك بن مسلمة الشاطبي:185-
201

هنون العبيدي: 135

- و -

ورقاء بنت يانتان: 168-206-180-206

ولادة بنت المستكفي: 32-105-157-179

الونشريسي: 111-127-156

- ي -

يانتان بن عمر: 83

يحي بن إبراهيم الجدالي: 5

يحي بن إسحاق المسوفي (أنجمار): 85

يحي بن الصحراوية: 104-117-131-133-139

يحي بن تاكغت: 78

يحي بن عبد الرحمن بن عبد الله: 167

يحي بن عمر: 6-8

يحي بن غانية (أبو زكرياء): 133-134-138-
139-140-129

يحي بن فانو أو فانوا: 133
يحي بن مريم الزجالي: 133-83
ابن يغمر اللمتوني: 133
أبو يعزى الينور: 197-196-167-151
اليهود: 156-161-193-194
يوسف بن تاشفين : 9-10-11-12-13-
14-15-4-40-41-42-45-46-47-48-
49-50-51-52-53-54-55-56-57-
58-59-60-86-88-89-92-93-94-
95-96-61-64-73-76-81-82-135-
139-103-104-106-108-121-123-
124-129-132-133-170-144-147-
185-199-208-209-212-175-178-
179-183

فهـــرس الأمـــاكن

-أ-

أدرار: 181

أراجون: 75

إسبانيا: 13

أستجة: 134

إشبيلية: 13- 14- 55-62- 63-64-65-
69-86-87-
88-91-93-107- 126- 183- 181
198- 201-
203-212

أغمات: 9- 10- 15- 40- 41- 42-43-
44- 52-
53-86-87- 108- 135- 147- 148-
157- 184-
197- 208-212

أغمات إن ويلان: 116

أغمات وريكة: 43- 45-168

أفرغة: 16-75

إقليش: 16-90-91-93- 140- 169

الأندلس: 13- 14- 15- 16- 17- 18- 19-
25-30-32-33-55-62-63-66-69-70-
72-73-74-75-76- 80-81-85-86-88-
89-91-92-93-95-96- 102- 105-
108-125-134-111-112-113-114-
115-117-118-119-139-140-143-
145-149-152-153-155- 157-158-
159-163-167-168-169-170-171-
175- 176-178-179-182-183-184-
187-189- 190-191- -192-193-194-
197-198-199-202-203-204- 207-
209-210-211-212

أودغشت: 8

اوليل: 46

-ب-

بجاية: 12- 30- 39

بحر الزقاق (مضيق جبل طارق): 14

البرانس (جبال): 3

برغواطة: 8- 9- 164

بطليوس: 13

بلاد السوس: 36- 40- 47-84- 114- 145-
148- 157- 164

بلنسية: 106- 133- 153

البليار (جزر): 4-15-133- 134

-ت-

تادلة: 148

ترغة:

تطوان: 100- 136-203

تللين (حصن): 84

تلمسان: 11- 12- 18- 35- 37- 82- 83-
85
114- 115- 128- 133- 153- 160-
168- 200
203- 212

تنيكي: 181

تونس: 147- 203- 212

تيغيغايين: 84

تينملل: 38- 39- 83- 84

- جـ -

جامع القرويين: 12- 28- 41- 195

الجامع الكبير: 12- 195

جامع الكتبية: 209

الجامعة اليوسفية: 195

جبال درن: 3-9

جبل أجليز: 84

جبل مرنيسة: 127

جبل نفوسة: 26-27

جدالة: 4- 5- 7- 10- 45- 73- 100

الجزيرة الخضراء: 55

- حـ -

حاحة: 164

حصن المدور: 90- 186

حصن أليدو أو لبيط: 14

الحماديين: 82

- خـ -

الخردون (حيوان): 165

- د -

داي (مدينة): 148

درعة: 8- 132-133

- ر -

الراكنة: 134

رباط: 6- 7- 59- 176

رباط البغدادية: 168

رجراجة: 8- 149- 157

الرقيبات (قبيلة): 134

ركانة: 191

198-203-204-206-210-211

- ز -

الزلاقة: 14-19-93-94

- س -

سبتة: 58- 124- 145

سجلماسة: 5- 11- 42- 78- 114- 133- 148- 157- 165

سرقسطة: 13

السودان: 3- 5- 6- 8- 11- 15- 48- 74- 122

- ش -

شنقيط: 137-207

- ط -

طليطلة: 13- 14- 91

الطوارق: 104- 105- 107- 118- 121- 131- 136- 137- 141- 165-177-181- 202-203-207-211

- ع -

العبيدات (قبيلة): 135

العدوتين: 17- 69-176-199-203-212

- غ -

غرناطة: 65- 86-185-186-188-191- 203

فاس: 10- 12- 18- 27- 37-28-37-41- 77- 94- 104- 114- 117- 133- 134- 139- 160- 164-196-197-203-212

- ق -

القاهرة: 168

قرطبة: 30-31-65- 74- 89- 90- 92- 105- 130- 133- 134- 137- 152-185-

قشتالة: 13- 89- 90- 91- 93
قصر الحجر: 79-209
قصر الزهراء: 183
قلعة بني حماد: 30
القليعة: 16
القيروان: 5- 29- 41

- ل -

لمتونة: 4- 5- 6- 7- 10- 11- 17- 39- 45- 72- 73- 78- 134-136- 137- 140- 141- 100- 143- 169- 170

- م -

مالقة: 149
المدور (حصن): 90-186
مراكش: 11- 13- 17- 18- 19- 34- 36- 37-39- 50-51- 54- 62- 63- 64- 65- 66- 69- 70- 71- 72- 76- 78- 79- 83- 85- 108- 116- 121- 149-160- 161- 163- 165- 167- 178-195-207- 208-209-211-212
المرية: 149- 158-185
مسوفة: 4- 7- 39- 72- 73- 78- 100- 134- 137- 140- 169- 170
المشرق: 5- 24- 25- 30- 32- 33- 39- 61- 147- 170-177-179-189-190
مضمودة: 3- 48- 157
المغرب: 3- 4- 8- 9- 10- 11- 12- 13- 14- 15- 16- 17- 18- 24- 28- 33- 40- 41- 42- 44- 45- 46- 47- 48- 49- 50- 51- 52- 55- 58- 59- 61- 76- 81- 82- 85- 86- 88- 94-95- 100- 101- 102- 103- 104-111- 113- 114- 115- 117- 118- 123- 127- 131- 132- 134- 139- 141- 145- 147- 148- 150- 155- 157- 164- 171- 179- 180- 183- 189-190- 192- 195- 196- 197- 198- 203- 207- 208- 209- 211- 212
مكة: 32- 178
مليلة: 84
المور (قبائل):138
موريتانيا: 59- 112- 134- 137- 177- 202

- ن -

ندرومة: 12
نهر إشبيلية: 183
نهر السنغال: 3- 6
نهر النيجر: 3

- و -

وادي آش: 159- 190
الوادي الكبير: 184
وجدة: 35- 37
وهران: 11- 18- 71- 78- 85

فهرس آيات السور القرآنية

الآيات	صفحات
آل عمران: الآية: 195	144
: 200	6
النساء: الآية: 1	100
: 4	111
: 25	107
: 128	127
الأنفال: الآية: 60	6
التوبة: الآية: 71	23
النحل: الآية: 97	23
النور: الآية: 41	35
الروم: الآية: 21	101 -124
الأحزاب: الآية: 5	136
العلق: الآية: 1	171
الحجرات: الآية: 13	3

الملاحق:

- النصوص
- الأشعار
- الخرائط
- الصور

الملحق4

مدح الحرة حواء

1 يا ربع ناجية أنهلت بك السحب
أما ترى كيف نابت دونك النواب

2 وعاد قلبي من ذكراه عيد جوي — هو الخيال، وإن قالوا هو الطرب

3 أبعد حول تقضى للنوى كشب
ولا الذي بيننا نبع ولا غرب

4 أرتاب بالشيء مما كنت أذكره — يادهر إن أحاديث المنى ريب

5 مما يبرح بي حتى أبوح به
وإن احاطت بي الأوصاد والرقب

6 ذكرى اذا نزعت قلبي شياطنها — فانظر إلى أصل دائي كيف ينشعب

7 ولي حبيب وإن شط المزار به — بيني وبين الردى في حبه سبب

8 وسنان يكسر جفنيه على جوار — فيه الصبابة جد والهوى لعب

9 نزودت منه عيني نظرة عرضا
أصبحت وهي بقلبي لوطة عجب

10 قالوا الهوى عيشة ضنك فقلت لهم :
لا خير في دعة لم يجنها تعب

11 والخمر لولا حمياها وسورنها
لم تغرس الكرم أو لم تعصر العنب

12 يادولة الوصل هل لي فيك من امل
هيهات ليس لشيء فات مطلب

13 كانت يد الدهر عندي فاستبد بها
ما اعلم الدهر باسترجاع ما يهب

14 كم ليلة بتها أجدو غيا هبها — ببدرها التم، لامين وكذب

15 يعلني كلما مال العناق به — كأسا من الري ما في ثغره حبب

16 هبت تعاتبني زهر وقد علمت — أن العتاب شجى في القلب أو شجب

17 قالت: قعدت، وقام الناس كلهم
الا يعللك الأثراء والرتب ؟

18 فقلت كفى فما تغني مقارعتي   في أزمة ضاع في أثنائها الأدب
19 فاستضحت ثم قالت : أنت في سعة   من أن تسيم، وهذا الماء والعشب
20 أما رأيت ندى حواء كيف دنا   بالغيث، إذ كاد يأتي دونه العطب
21 دنيا ولا ترف، دين ولا قشف   ملك ولا سرف، درك ولا طلب
22 بر ولا سقم، عيش ولا هرم   جد ولا نصب، ورد ولا قرب
23 رد غمرة ترتمي من كل ناحية   عبا بها الفضة البيضاء والذهب
24 مليكة لا يوازي قدرها ملك
كالشمس تصغر عن مقدارها الشهب

25 وهضبة طالما لاذوا بجانبهــــا   فما لهم لم يقولوا معقل أشب
26 أنثى سما باسمها النادي وكم ذكر   يدعى كأن اسمه من لؤمه لقب

27 وقلما نقص التأنيث صاحبه   إذا تذكرت الأفعال والنصب
28 والحية الصل أدهى كلما انبعثت   من أن تمارسها الأرماح والقضب
29 وهذه الكعبة استولت على شرف   فذبذبت دونها الأوثان والصلب
30 ينمك كل بعيد الشأو فائته   له البساطة أم والسماح أب
31 من كل منصلت يسعى بمنصلت
والموت بينهما يندى ويلتهب

32 إذا رضوا فارجهم في كل نائبة   وكن على حذر منهم ويلتهب
33 إذا دعوا قامت الهيجا على قدم   كأنما تنتمي فيهم وتنتسب
34 هم ثبتوا الدين إذ ضاقت مذاهبه
بأنفس صيغ منها الدين والحسب
35 أيام جبريل داعيهم إذا نزلـــوا   وعزرائيل راعيهم إذا ركبوا

36 حتى استقر الهدى في عقر دارهم
وأيقن العجم أن القادة العرب
37 هم أورثوك واستخلفوك على   آياتها، وخذا الأعقاب والعقب
38 أهللت بالحرة العليا الى أمل   لمثله كانت الأشعار تنتخب
39 وشمت برق نداها طي سورتها   فاقتادني رغب واعتادني رهب
40 والمرء، ليس له نفع ولا ضرر،   كالنار ليس لها ضوء ولا لهب

41 بنى لك ابن علي بيت مكرمة — له العوالى عماد والظبا طنب

42 ولاك أبهج فخر تفخرين به — اذا انتدى للفخار السادة النجب

43 يأخت خير ملوك الأرض قاطبة — وان أعدوا وان أسموا وان نسبوا

44 محمد وأبو بكر، وخيرهم

يحيى، وحسبك عزا كلما حسبوا

45 ثلاثة هم مراد الناس كلهم

كالدهر: ماض، وموجود، ومرتقب

46 حواء ياخير من يسعى على قدم

ولست عبدك إن لم أقض ما يجب

47 إليك أهديت مما حاكه خلـــدي — فخرا يجد، وتبلى هذه ما يجب

48 وافتك سود خطوط كلما احتضرت — القت مقالدها الاشعار والخطب

49 قد عم برك أهل الأرض قاطبـــة — فكيف أخرج عنه جارك الجنب.

أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة - 525 هـ:

ديوان الأعمى التطيلي: تحقيق د. إحسان عباس. ص. (15، 16، 17، 18)

الملحق رقم 5: رسالة الأمير أبو طاهر تميم للفقيه أبي الوليد بن رشد.

تقول الرسالة وكتب اليه (أي أبي الوليد بن رشد) رضي الله عنه الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين – أصلحه الله - من مدينة إشبيلية يسأله في يمين حلفت بها زوجة الحرة حواء بنت تاشفين – صانها الله- إثر موت زوجها الأول قبله ونصها من أولها إلى اخر ما فيها – بسم الله الرحمن الرحيم. ما تقول رضى الله عنك في امرأة توفى عنها زوجها. وكان ساكنا معها في دار الإمارة بالبلد الذي توفي فيه. اذا كان أميرا فيه، فلما وضع في نعشه، وخرج من دار الإمارة إلى قبره. فلما فرغ من دفنه وهو على شفير قبره قال لها قائل: قومي وارجعي إلى دارك، فقالت مجيبة له إلى أي دار تعني؟ قال لها: إلى دارك المعروفة التي خرجت منها، فقالت: ثلث مالي إلى المساكين صدقة. وصوم سنة ورقيقي أحرارا لوجه الله. لا رجعت إلى تلك الدار أبدا. أين الوجوه التي كنت أعرفها فيها. وأسكنها معهم. ولما كان بعد زمان تزوجها أمير تلك البلدة الساكن في دار الإمارة. فجبرها على السكنى معه فيها. ولم يوسعها في ذلك عذرا. وقد كانت أخرجت الثلث من مالها بعد هذه اليمين لحنث آخر لزمها في يمين أخرى قبل سكنى الدار. وزال عن ملكها من كانت تملك من الرقيق في وقت اليمين المذكورة. إفتنا في ذلك موفقا مأجورا مشكورا عن شاء الله.

كتاب الفتاوى لابن رشد: السفر 2. مسألة رقم 395. ص ص 1223. 1224.

الملحق رقم 6: مرض أمير المسلمين علي بن يوسف.

وأذكر وأنا فتى حديث السن أعالج أعمال الطب بين يدي أبي رحمه الله، وعن رأيه استدعيت يوما إلى تميم أخي الشقي عليّ. وكان ولي إشبيلية، فوجدته يزعم أنّ الموت قد حلّ به، وأنه لا يطيق أن يتكلّم فضلا عن أن يتحرّك حركة نقليّة، فلم يدل نبضه على شيء من ذلك، إلا على سوء مزاج حارّ، أو خلط حار في معدته، فسقيته ماء ورد وعصارة تفاح مع يسير من ماء النعنع على نزر يسير من صندل ومن مصطكى مسحوقين، فتماثلت حاله. ثم حضرت يوما آخر عنده مع أبي رحمه الله وهو على حاله من التوهم، فالتزمت الإقامة والمبيت عنده، فكانت حاله مرة تخفّ ومرة تشتد. فوقع في بالي أن ذلك عن داخلة تدخل عليه من خارج. وبقينا لا نعرف أي شيء هو ذلك، إلى أن استدعيْت في الليل ماء للشرب، فسقيت بالآنية التي كان تميم يشرب بها، فوجدت في الماء طعما منكرا مجته نفسي، مع عطريّة ورائحة كريهة كادت تخفى، فلم أشرب منه، ولم أتمالك أن صحت وكيف يبرأ وأنتم تسقونه ما فيه هلاكه هو هذا. ونصحني أحد عبيده، فلم أجد (معينا) من نفسي على السكوت، وتابعت القول فظهر لي الغضب من زوجته حوّاء ومن خوادمها، وأعقب ذلك سعيا علي (وخزيا لي)، فلم يصرفني شيء من ذلك عن قول الحق. وعزم علي بعض أصحابي في السكوت والعودة إلى حظوتي، فرأيت أن ذلك ضرب من التلبيس، فلم أجب إليه. وكشف الغيب بعد ذلك أن الذي كان يسقاه لحمٌ مجفّف كان قد عفن أقذر تعفين ثم جفّف وسحق، وكانوا يصرونه ويسقونه في الآنية. وإذا نظر الطبيب علم أنه لحم غليظ قد ناله تعفّن ثم جفوف وعلم أن العفونة تدب دبيبا. فكان الرجل ما دام ذلك في معدته وما حولها تصعد منه أبخرة سوء إلى دماغه فكان يتوسوس. ورام علاجه وبرءه كلّ من كان يعالجه من أطباء كانوا في البلد حينئذ، فلم يبرأ حتى عزله الشقيّ أخوه، فانقطع الرجاء من ماله وارتفع لا شك عنه ذلك العمل السوء بانقطاع الطمع في ماله، ورأيته بعد ذلك بمراكش، وقد سجنني أخوه، وهو خامل لا وسواس به.

ابن زهر: كتاب التيسير في المداواة والتدبير، ص 97- 98.

الملحق رقم 7:

قصيدة كتبها لمريم بنت إبراهيم

يمّمتُ من علياك خير مُيمّم ... وحللتُ من مغناك دار مخيّم
فخلعت عن عنقي حميلة صارم ... وأرحت نفسي من حمالة مغرم
ونزلت من خصب بأمرع منزل ... وحللت من أمن برأس يلملم
ولئن تهادتني المطايا والسّرى ... وعباب لجّة كلّ ليل مظلم
فلقد سكنت، ولليالي جولة ... كحلت، بهبوتها، عيون الأنجم
وكفى احتماء مكانة، وصيانة، ... أنّي علقت بذمة من مريم
ذات الأمانة والدّيانة والتّقى ... والخلق الأشرف والطرّيق الأقوم
ذات الجلالة والجزالة والنّهى ... والبيت الأرفع والنّصاب الأكرم
من أسرة يتلثمون إلى الوغى ... يوم الحفيظة، بالعجاج الأقتم
من بيت عزّ، من نبال، حيث لا ... تلقى يغير مسوّد ومعظّم
متهلّل للطارقين بشاشة، ... أو ضارب رأس الكميّ المعلم
طلق يشفّ لثامه عن كوكب ... متألّق، في الحادث المتجهّم
متقدّم في صدر كلّ كتيبة ... شهباء، يندى جانباها بالدّم
يثني بها، عطفيه، كلّ مثقّف ... لدن، ويضحك كلّ أبيض مخذم
إن جاد جاد هناك حاتم طيّء، ... أو صال صال ربيعة بن مكدّم
وإن استجرت به استجرت بهضبة ... مأوى الطّريد بها وكنز المعدم
لا تعثر الأحياء، دون طروقه، ... إلا بشلوة لهذم أو ضيغم
تنمى إليه، من الحرائر، حرّة، ... تغنى بسؤدد ذاتها أن تنتمي
مشهورة في الفضل، قدما، والنّهى ... والنّبل، شهرة غرّة في أدهم
جاءت بها الغرّ الكرام كريمة، ... لا تشرئب إلى بياض الدّرهم
سطة القلادة رفعة، ومكانها، ... من كلّ معلاة، مكان اللّهذم
تولي الأيادي عن يد نزل النّدى ... منها بمنزلة المحبّ المكرم
من كلّ عارفة، كما انسجما الحيا، ... وافترّ بارق مزنة عن مبسم
علقت بها، حرّ الثّناء، عقيلة، ... أندى يدين من الغمام المرزم
جود تنوء به الرّكاب على السّرى ... من منجد أرج الرّياح ومتهم
يندى به النّبت الهشيم نضارة، ... وينمّ ذيل الريّح طيب تنسّم

خبط البلاد يمرّ غير مغيّـــــم في حالة، ويصوب صوب مديّـــم
ويفك من أغلال أسرى فاقـــة، وفصيح قوم في مقادة أعـــــجم
ملكت به، الأحرار، أكرم حـــرّة، بسط المقلّ لها يمين المعــــــدم
حمل، الثّناء، بها القريض، وإنّما حمل الحديث رواية عن مسلــــم

ديوان ابن خفاجة (أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح ولد 450هـ/1058م توفي 533هـ/1137م)، تحقيق كرم البستاني، دار صادر ودار بيروت، بيروت 1381-1961.

الملحق رقم 9:

رثائه زوجته

1. ونبئت ذاك الوجه غيّره البـــلى على قرب عهد بالطّلاقة والبشـــر
2. بكيت عليه بالدّموع ولو أبـــت بكيت عليه بالتّجلّد والـــصبر
3. فليتهم واروا ذكاء مكـــــــانهولو عرفت في أوجه الأنجم الزّهر
4. وليتهم واروه بين جوانـــــحـــي
على فيض دمعي واحتدام [لظى صـــ]دري
5. أمخبرتي كيف استقرّت بــك الـــنّــوى
على أنّ عندي ما يزيد على الخبر /33 ظ
6. وما فعلت تلك المحاسن في الثرّىفقد ساء ظنّي بين أدري ولا أدري
7. يهوّن وجدي أن وجــهــك زهــــــرة
وأن ثراها من دمــوعــي عــلــى ذكــر
8. ويحزنني أني شغلت ولــم أكــن أسائل عما يفعل الدمع بالـــزّهــر
9. دعيني أعلّل فيك نفسي بالمنـــى فقد خفت ألا نلتقي آخر الـــدهــر
10. وأن تستطيبي فابدئيني بزورة فـــانـــك أولـــى بالزيارة والـــبـــر
11. منى أتمناها ولا يد لي بـــهـــا سوى خطرات لا تريش ولا تبري
12. وأحلام مذعور الكرى كلما اجتلى سرورا رآه وهو في صورة الذّعر
13. آآمن أن أجـــــزع عليك فـــانــــي
رزئتك أحلى من شبابي ومن وفــــري
14. آآمن لا والله ما زلت موفـــيا ببينك لو أني أخذت له حـــذري
15. خذي حدّثيني هل أطقت على الـــنّوى
أحدّثك أني قد ضعفت عن الصـــــبر
16. مغالطة لولا الأسى ما حملتـــها على مركب مما وصفت به وعـــر
17. ونبئتهم قد أجمعوا عنك ســلوة لعشرين مرّت من فراقك أو عشـــر
18. وأذهلهم حبّ التراث فكفكفـــوا به زفرة تعتاد أو عبرة تجري /34و
19. ولم يبق إلا ذكرة ربما امترت بقية دمع الشوق في أكؤوس الختـــر
20. وأمّا أنا فالتعت والله لـــوعة هي الخمر لو سامحت في لذّة السكر
21. أهزّ لها عطفّي من غير نشوة على ما بجسمي من كلال ومن فـــتر

22. وأودعها عينيّ لا لصـــبابة ولكن لتمري دمع عيني كما تمـــري
23. فلا تبعدي إن الصبابة خطّـــة لشخصك في قلبي وإن كان في القبر
24. ولا تبعدي إني عليك لواجـــد ولكن على قدر الهوى لا على قدري
25. ذكرتك ذكر المرء حاجة نفسه وقد قيل إن الميت منقطع الــــذكر
26. و والله ما وفّيت رزءك حقّــه ولكنه شيء أقمت بــــه عـــذري
27. أصيخي إلى الدّاعي فليس بنازح وما بك عنه من وقار ولا وقـــــر
28. ولا تبعثي طيف الخيال فإنه سمير هموم لا يضيف ولا يـــقري
29. متى يسر نحوي يلق دوني كتائبا من السّهد آلت لا تسير ولا تســـري
30. وعـــهـــدي به إن لـــم تــحلـــه يد البـــلى
جديرا بأن يشكو الونى وهي في الخـــدر
31. إذا أجرس الحلي استطير وقلّما مشى فيه إلا ريث يختال للزهر/34ظ
32. فإن يأب إلا برّه فابعثي بــــه على رقبة مما هناك وفي ســـتر
33. وكان الأسى نذرا عليك نذرته ولكن أراد الشوق أكبر من نذري
34. ومن لي بعين تحمل الدمع كلّه فأبكيك وحدي، لا اقـــرّ ولا ادري
35. ولي مقلة أفضت بها لحظاتها إلى عبرات جمّـــة وكـــرى نـــزر
36. وكان حراما أن تجود بدمـــعة وقد تركتها الحـــادثات بلا شـــفـــر
37. ولكن حداها الحزن فاستوسقت به واكبر ما يعطي البخيل على قـــسر
38. فإن أنا لم استسقها لك نجدتي فلا عرك الورّاد من سبل القـــطر
39. أتمضي الـــليالـــي لا أراك وربـــــمّا
عدتني العوادي عن طلابك في الــــحشر
40. فلي عزمة لو خفتها لسبقتها إليك، ولو بين السماكين والنـــسر
41. ألا ليت شعري هـــل ســـمـــعـــت تـــأوهي
فقد رعت لو أسمعت قاسية الصـــــخر
42. وهل لعبت تلك المعـــاطف بالنـــهـــى
كسالف عهدي في مجاسدها الحمـــــــر
43. ونبئت ذاك الجيد أصـــبـــح عـــاطـــلا
خذي أدمعي إن كنت غضبى على الـــدر
44. خذي فانظميها فهي كالدرّ إنني أرى علتي أورى بها وهي كالجمر
45. خذي اللؤلؤ الرطب الذي لهجوا به: محارته عيني ولجّته صـــــدري
46. لعلك يوما أن تريه فتذكـــري وسائل لم تعلق بلوم ولا عـــذر

47. خذي فانظميه أو كليني لنظمه حليّاً على تلك الترائب والـــــنحر

48. ولا تخبري حور الجنان فربما غصبنكه بين الخديعة والــــــمكر

49. أيا قرّة العين اعتبارا وحسرة أجدّك قد أصبحت قاصمة الـــظهر

50. برغمي خلّي بين جـــســـمـــك والـــثّـــرى
وإن كنت لا أخشى التراب على التـــبـــر

51. هنيئا لقبر ضمّ جسمك إنـــه مقرّ الحيا أو هالة الـــقـــمر الـــبـــدر

52. وإنك فيه كلما عبث البلـــى بأرجائه كالغصن في الورق النـــضر

53. إذا جئت عدنا فاطلبينا فقلّما تـــقـــدمـــتـــنـــي إلا مشيت على الأثر

54. ولا تعذليني إن أقمت فربّما تـــأخّـــر بـــي ســـعيي وأثقلني وزري

الأعمى التطيلي: ديوانه: ص 70-71-72-73.

الملحق رقم 10:

رثاء بعض النساء

1. هات اسقيني لا على شيء سوى ذكري
راحا من الدّمع في كأس من الـسـهـر

2. وغنني بزفيري بين تلك وذي — مكان صوتك بين الناي والوتر
3. أما ترى كيف أسودَ سائـــره — وهبه ليلا أما يفضي إلى سحر
4. وأين أنجمه أم غال أنفسـهـا — هذا الردى المتقفّي أنفس البشر
5. لا بل عناها فأنساها مطالعـها — معنى تردّد بين الشمس والقمر
6. إحدى قوارع رضوى نالها قدر — هلاّ تناولها شيء سوى القـدر
7. إذن للاقى رداه دون عقوتـــها — حيران من قلق حرّان من ضجر
8. بحيث لا يهتدي سهم إلى غرض — لو نصلوه ببعض الأنجم الزّهـر
9. هو الحمام ولم يضرب له أجـلا — فلا تقل ليتني منه على حـــذر
10. يغتال حتى أبا شبلين ذا لـبد — رحب الذراع حديد الناب والظفر
11. يظلّ في غيله من رأس شاهقة — ممّا به من بقايا الهام والقـــصر

12. يـدعـو الـفـراش بألهـوبين من ضـرم
كـأنـمـا استـودعـا وقـبين في حجر

13. ورد له كلّ يوم من هنا وهنا — ورد من الدّم لا يفضي إلى صدر

14. كلّ سيودي وإن طـالـت سـلامـتـــه
يا حامل الحـرب لا تـغـتـرّ بالـظّفر

15. هذا عليّ على عجب الزّمان به — لم يسقه الصفو حتى شاب بالكدر
16. سمت إليه فما ارتابت ولا ندمت — نكراء جلّت له عن حادث نــكـر
17. عن مصرع الدين والدنيا وما وسعا — لعمر صرف الليالي إنّه لـــجري
18. يا قبر أمّ علي هل علمت بـــها — إنّ السيادة بين الشّرب والـمـدر
19. أنثى ولكن إذا عدّوا فضائـلها — لم يدّع الفضل من أنثى ولا ذكـر
20. تتلو الكتاب ونتلومن مآثرهـا — آيا كآي، ولم تظلم ولـــم تـجـر
21. قوامة الليل تتلوه وتـقـنـته — على اختلافيه من طول ومن قصر
22. حتى إذا الصبح جلّى ليلها فزعت — إلى صيام بمرضاة الإله حـــري
23. كأنّ محرابها، والليل معتكر، — في هالة البدر بين البيض والعشر
24. والحور قد برزت من كلّ مطّلع — تكاد تفصح بالإصغاء والـنـظر

25. وإنك ابن أبي صفوان قد علموا تناسق المجد بين العين والأثـــر

26. من معشر لم يزدهم صرف دهرهم إلا الجراء على أزماته الــكــبــر

27. لم يذهبوا، وبلى والله قد ذهبوا كالمزن أفضت بما فيها إلى الغــدر

28. نتلو نثاهم ونغذو فضل أنعمهم لولا اشتياق إلى الأشكال والصـــور

29. هنيهة ثمّ تبديهم قــبـــورهـــم مثل الكمام قد انشقت عن الــزهــر

الأعمى التطيلي: ديوانه: ص 68-69-70.

الملحق 11: نص عقد وقف (حبس)

بسم الله الرحمان الرحيم، صلّى الله على سيدنا محمد و على آله و سلم وتسليما.

أشهدت فاطمة بنت هشام بن المشاقوطي التي كانت زوجا للوزير الفقيه أبي عبد الملك الخولاني إلى أن توفيت عنها، أن لابنتها زينب التي هي زوج لأبي القاسم بن بدرون قبلها في مالها وذمتها أربعمائة متقال ذهبا عباديا أسلفتها اياها مؤخرا عنها إلى انقضاء عشرين سنة لابراءة لفاطمة المذكورة، إلا بدفعها لمن يجب له إقامة البينة على دفعها بذلك كله من أشهدته فاطمة المذكورة فوق هذا بجميع ما ذكره عنها فيه، وذلك في رجب من سنة ثمان وخمسمائة، إبراهيم بن خلف بن محرز اللخمي، وكان قد أوقع اسمه حين أشهدته في عقد غير هذا متى قيم به واسمه فيه فإنما هي هذه الأربعمائة متقال.

فتاوى ابن رشد: السفر 1، م 169 ص 734

الملحق رقم 12: عقد بيع وشراء

خوطب (ض) من مدينة بلنسية بنسخة عقد مبايعة وقع بين إمرأتين في ملك ثبت عند حاكم الموضوع فحكم به وأمضاه، ثم رجع من شهوده رجلان، فخشي الحاكم أن يبطل العقد بسبب رجوعهما عن الشهادة، فبعث إليه بنسخة سائلا عن ذلك:" والسؤال يعقبه، وهذا نص جميع ذلك من أوله إلى أخره: بسم الله الرحمن الرحيم، اشترت إدلال أم ولد فلان من عائشة بنت فلان جميع الدار التي بحاضرة بلنسية وداخل سورها المحدث وبحومة كذا ومنتهى حدها كذا وجميع الجنة التي يخرج مدينة بلنسية بموضع كذا ومنتهى حدها كذا بعامة جميع حقوق الدار والجنة المبيعتين المحدودتين فوق هذا ومنافعهما ومرافقهما الداخلة فيها والخارجة عنهما وبقاعة ذلك كله وبنياته وأنقاضه علو ذلك كله وسفله وبما في الجنة من ضروب الشجرات وأنواع الغرسات المثمرة وغير المثمرة إشتراء صحيحا تاما مبتولا دون شرط ولا تنيا ولا خيار عرفتا قدر ذلك ومبلغه بثمن مبلغه كذا، برئت المبتاعة إدلال المذكورة بجميعه إلى البائعة عائشة المذكورة طيبا جيدا مقلبا وقد باعته البائعة المذكورة منها على الصفة المذكورة وأبرأتها منه براءة تامة. وخلص للمبتاعة المذكورة إدلال ملك جميع ذلك، وحلت فيه محل البائعة المذكورة ونزلت منزلتها ومحل ذي الملك في ملكه على سنة المسلمين في بيوعهم ومراجع إدراكهم بينهم. شهد على إشهاد المتبايعتين إدلال وعائشة المذكورتين على أنفسهما بالمذكور في هذا الكتاب عنهما من سمعه منهما وعرفهما وإدلال منهما بحال صحة وجواز أمر، وعائشة المذكورة عليلة الجسم ثابتة العقل والذهن وعاين قبض البائعة عائشة للثمن الموصوف من المبتاعة إدلال وذلك في شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة.

فتاوى ابن رشد : م: 321، ص 1071-1072.

الملحق رقم 13:

في تلثيم الملثمين

وسئل – رحمه الله – عما نشأ عليه المرابطون من التلثيم الذي هو زيهم، هل يجب عليهم التزامات، أو يستحب ذلك لهم، أو هو مكروه لهم يستحب ذلك له ؟

فأجاب على ذلك بأن قال:

" تصفحت سؤالك و وفقت عليه، و قد خلق الله الخلق أجمعين، وجعلهم شعبا وقبائل، وباعد بينهم في البلاد و خالف بينهم في الأزياء والهيئات، فلا يجب على أحدد منهم الرجوع عما اختاره من زيه وهيئته إلى زي سواه وهيئته، لأن ذلك من قبيل الجائز المباح للعباد. قال الله عز وجل:" قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة" آية 30 – الأعراف- والتلثيم للمرابطين زيهم الذي اختاروه لأنفسهم ونشأوا عليه وتوارثوه، ودرجوا عليه سلفا عن خلف فلا كراهية فيه بل يستحب لهم إلتزامه والمحافظة عليه، وتكره لهم مفارقته، لأنه شعارهم الذي تميزوا به من سائر الناس في أول أمرهم، إذ قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، ففي التزامهم إياه لتظهر كثرتهم، ويتوفر في أعين الناس عددهم غيظ للمشركين، وعزّ للمسلمين، لأنهم حماتهم الذابون عنهم والمجاهدون دونهم. ويكره لمن كان معروفا به منهم فنبذ الدنيا، وأقبل على العبادة أن يطرحه تواضعا وزهادة من باب الشهرة، ولئلا ينسب إليه الرياء والسمعة، ومخافة أن يذكر حتى يشار إليه فيه بالصابع فربما دخلت عليه داخلة من قبل الشيطان، لأنه يأتي الإنسان من كل وجه. قد روي أن النبي عليه السلام قال:" ما استوى رجلان صلحان، أحدهما يشار إليه." وروي عنه عليه السلام أنه قال:" كفى بامرئ من الشر أن يشار إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصم الله."فلا ينبغي أن يفعل ذلك إلا القوتي في دين الله تعالى، ومن إلتزامه يستحب له أن يزيله عند الصلاة، فإن صلى به تمت صلاته، ولم يكن عليه في ذلك إثم، ولاحرج وبالله التوفيق.

فتاوى ابن رشد: تحقيق المختار بن الطاهر التليلي
السفر 2، المسألة 277، ص 963، 964، 965، 966.

ملحق رقم: 1

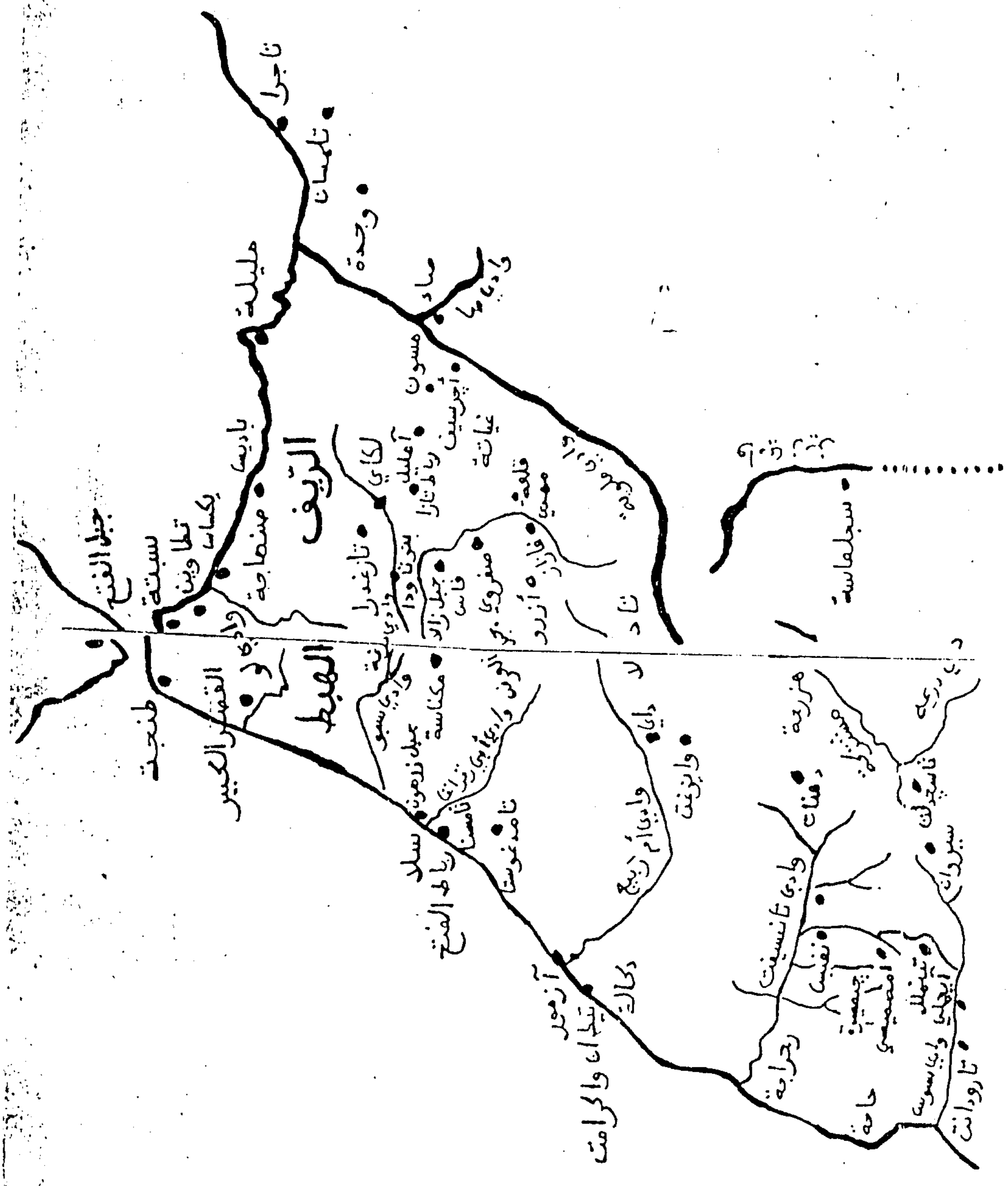

- خريطة المغرب الأقصى في القرن السادس الهجري

- عن كتاب: أخبار المهدي بن تومرت: تحقيق حاجيات.

ملحق رقم: 2

حدود الدولة المرابطية عند وفاة يوسف بن تاشفين

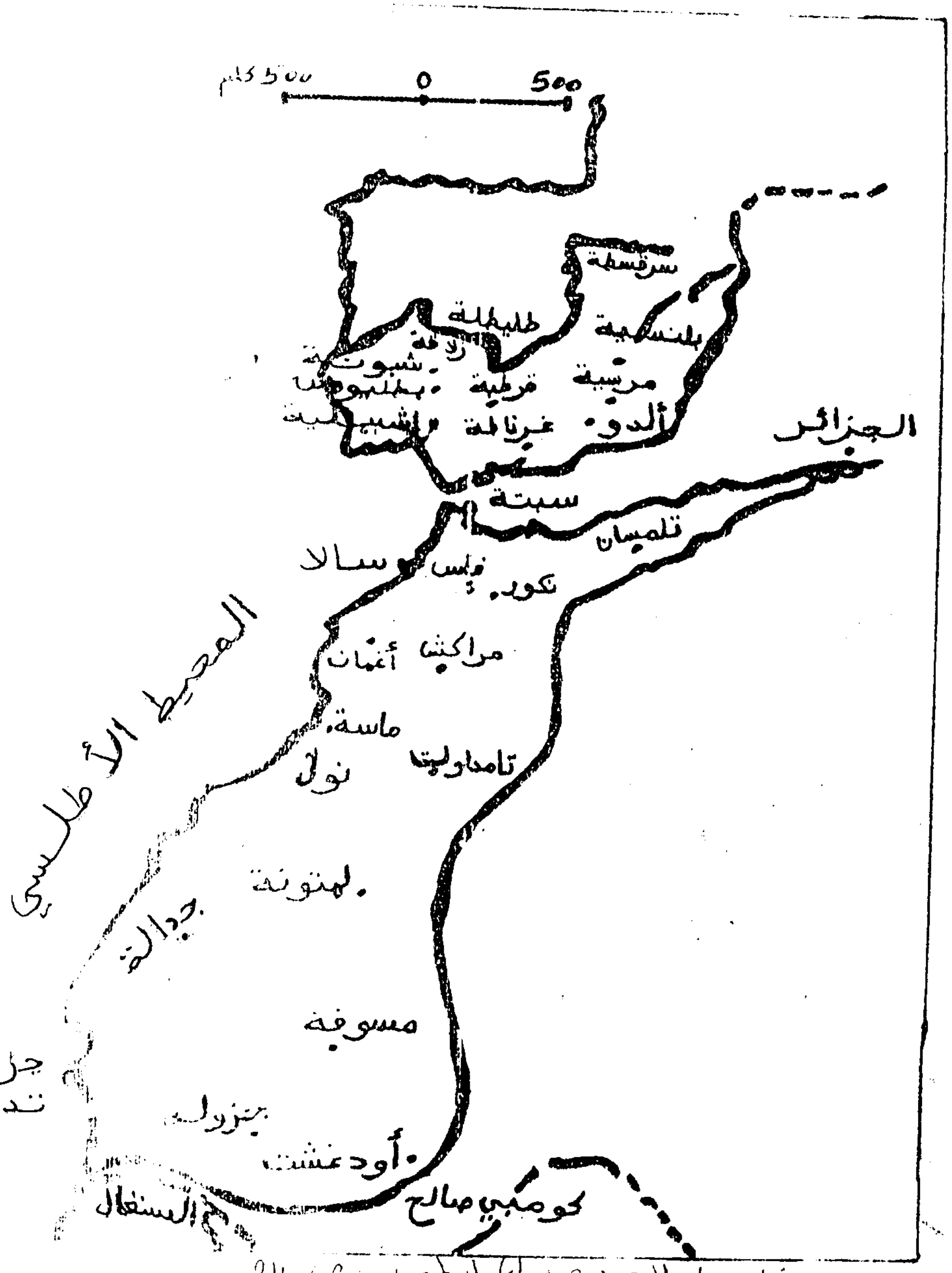

فنسون لاجرديع: المرابطون ص 24

Vincent Lagardère : Les Almoravides

P: 24

ملحق رقم : 3

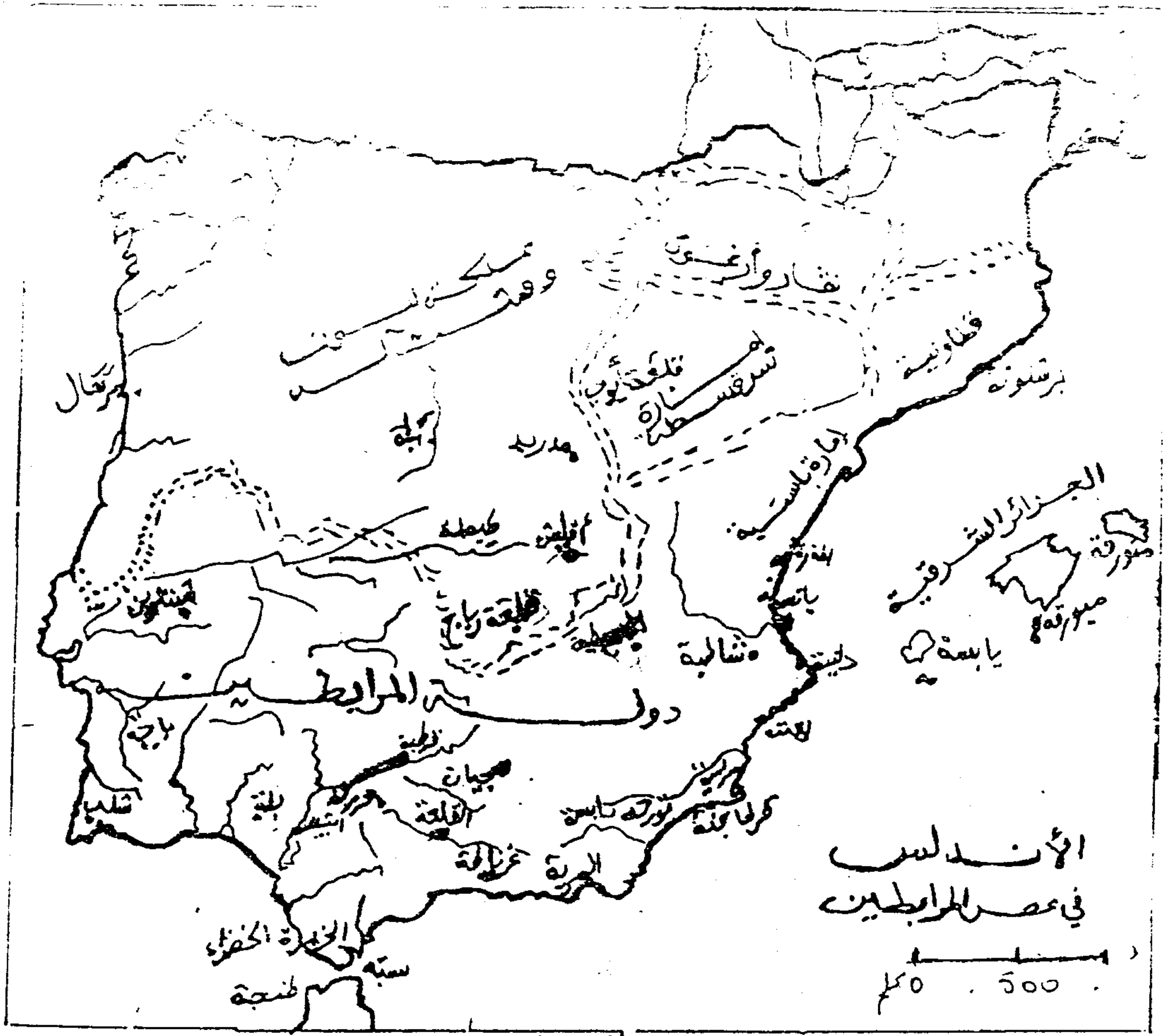

عبد الله عنان :
خريطة الأندلس في عصر المرابطين ، ص 137

ملحق رقم: 8.

- أسوار مراكش وأبوابها في عهد المرابطين -

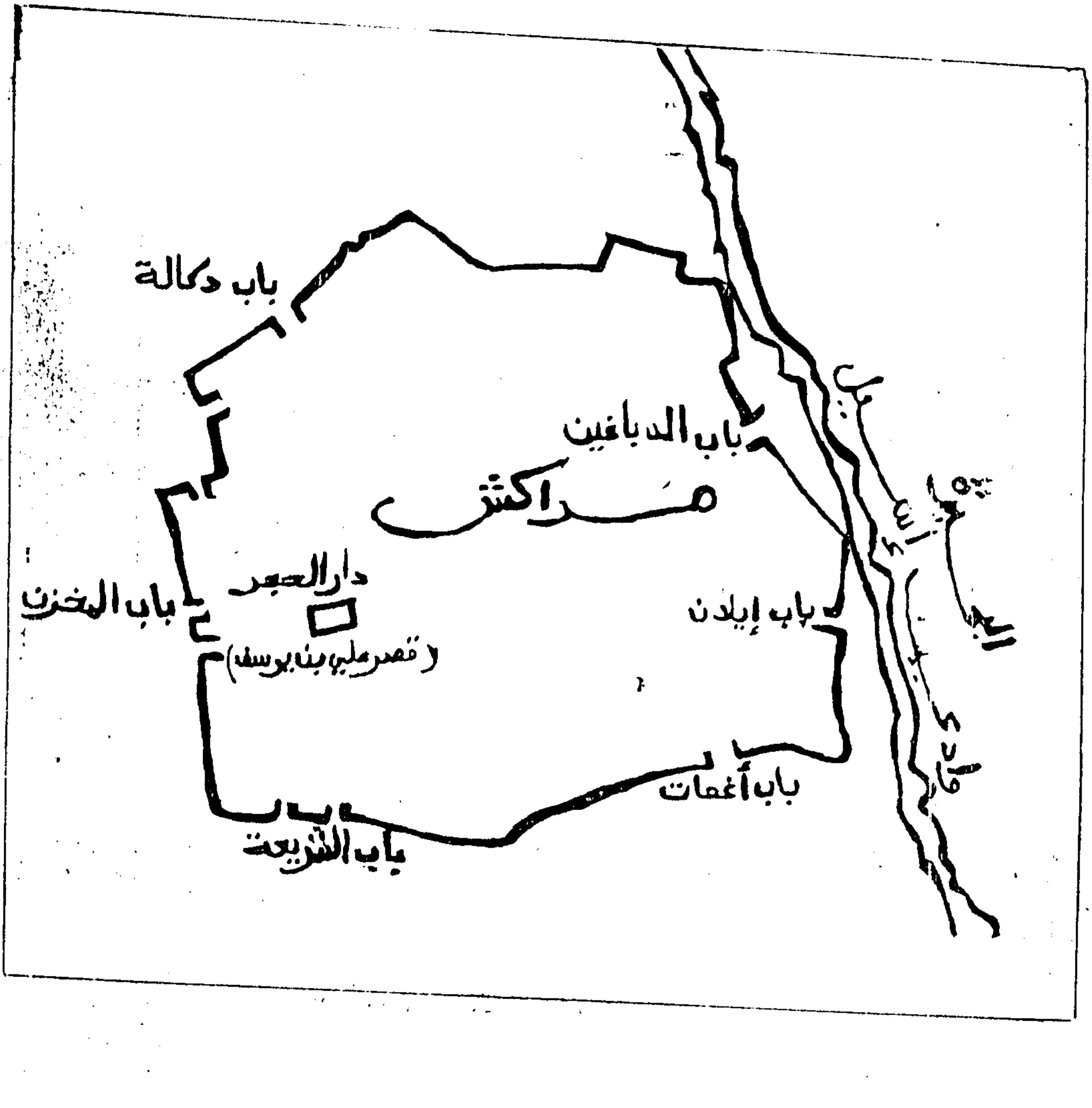

- عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ص: 187.

صورة فوتوغرافية ملتقطة من مهرجان تافسيت
27-28-29 أفريل 2002

من ضريح الأميرة المرابطية بدر (المتوفية 496هـ /1103)

بمتحف الآثار بمالقة - إسبانيا -

عن مركز دراسات الوحدة العربية :

الحضارة العربية اللاإسلامية في الأندلس ج2، ص 917.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

أ- المخطوطات

ب- المصادر العربية المطبوعة

ثانيا: المراجع:

أ- العربية

ب- الأجنبية

ثالثا: المقالات:

أ- العربية

ب- الأجنبية

رابعا: الرسائل الجامعية

خامسا: الموسوعات والمعاجم

أولا: المصادر العربية

أ- المخطوطات:

1- البرزلي: مختصر في فقه مالك، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة، تحت رقم 1337.

2- ابن الحاج أبو عبد الله بن خلف: (ت 529هـ/1134م)
نوازل ابن الحاج،الخزانة العامة للوثائق بالرباط، المغرب الأقصى، رقم ج55.

ب-المصادر العربية المطبوعة:

1- القرآن الكريم

2- ابن الأبار أبو عبد الله: (ت 658هـ/1260م)
بن أبي بكر القضاعي: الحلّة السيراء، ج2، تحقيق حسين مؤنس ط1، القاهرة، 1963.

3- ———— : المقتضب: تحقيق إبراهيم الأبياري، ط3، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1410هـ/1989م.

5- ابن الأثير: عز الدين: (ت 630هـ/1232م)
الكامل في التاريخ: مراجعة محمد يوسف الدقاق، المجلد، 8، 9، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1998م

4- ابن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم: (ت677هـ/1278م)
عيون الأنباء في طبقات الأطباء (الباب الثالث عشر) في أطباء إفريقية والأندلس، نشره نور الدين عبد القادر، وهنري جاهية، منشورات كلية الطب والصيدلة، الجزائر، 1377هـ/1958م

6- ———— : عيون الأنباء في طبقات الأطباء: تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت،1965.

7- ابن أبي بكر يحي أبو زكرياء:
سير الأئمة وتاريخهم: تحقيق إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر 1979.

8- البخاري: عبد الله: (ت 656هـ/1258م)
محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري: مراجعة محمد علي القطب، وهشام البخاري، ج3 و4، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1417هـ/1997م.

9- ابن بسام: أبو الحسن علي الشنتيري: (ت 542هـ/1147م)
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: تحقيق إحسان عباس، القسم 2 مج1، دار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981م.

10- ابن بشكوال أبو القاسم بن عبد الملك: (ت 578هـ/1182م)
الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، القاهرة، 1955م.
11- ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد: (ت779هـ/1377م)
رحلة ابن بطوطة المعروفة بتحفة النظار في عجائب الأمصار، شرح طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت(دت).
12- البغوي أبو محمد الحسين مسعود: (ت516هـ/1122م)
بشرح السنة: ج1، تحقيق علي محمد معرض، وعادل أحمد عبد الموجود، ط1، دار الكتب العلمية – بيروت، 1412 هـ/1992 م.
13- البكري: أبو عبد الله: (ت 487هـ/1094م)
المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، أدريان، ميزوناف، باريس1965.
14- البيذق: أبو بكر الصنهاجي: (ت أواخر القرن 6هـ/12م)
أخبار المهدي بن تومرت: تحقيق عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986.
15- ــــــــــــــــ: أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين: تحقيق ليفي بروفنسال، بولس كتنر باريس 1928م.
16- التطيلي: (أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة): (ت 525هـ/1130م)
ديوان الأعمى التطيلي: تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1963.
17- ابن تومرت: محمد: (ت 524هـ/1129م)
أعز ما يطلب: تحقيق عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
18- الجرسفي عثمان: (عاش في القرن 6هـ/12م)
رسالة في الحسبة: تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة 1955.
19- الجزنائي علي: (ت في القرن 8هـ/14م)
جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الرباط، 1998م.
20- الحميري عبد المنعم: (ت 900هـ/1507م)
الروض المعطار في خبر الأقطار: تحقيق إحسان عباس، ط1، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1975-1984.

21- ابن حزم الأندلسي: (ت 456هـ/1083م)
طوق الحمامة في الألفة والألاف: ضبطه بالشكل وفسّر عاضمه سعيد محمود عقيل، ط1، دار الجيل، بيروت، 1417هـ/1997م.
22- الخشني: أبو عبد الله محمد: (ت 361هـ/971م)
قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.
23- ابن خفاجة (أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح): (ت 533هـ/1137م)
ديوان ابن خفاجة: تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، 1961م.
24- ابن الخطيب: لسان الدين: (ت 776هـ/1374م)
الاحاطة في أخبار غرناطة: تحقيق عبد الله عنان، مج 4، ط1، القاهرة 1397هـ/1977م.
25- ـــــــــ: تاريخ المغرب في العصور الوسطى، القسم الثالث من كتاب أعمال الإعلام: تحقيق أحمد الكتاني ومختار العبادي، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.
26- ابن خلدون: عبد الرحمن: (ت 808هـ/1405م)
المقدمة: تحقيق درويش الجويدي، ط2، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1418هـ/1998م.
27- ـــــــــ: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 3، 6، 13، 12 مؤسسة موفم للنشر، الجزائر 1995.
28- ابن خلكان: أبو العباس خير الدين: (ت 681هـ/1282م)
وفيات الأعيان وأنباء الزمان: تحقيق إحسان عباس، مج 5 و7، دار صادر، بيروت 1994م.
29- ابن رشد: أبو الوليد: (توفي ما بين 520هـ- 530هـ/1126م - 1135م)
فتاوى ابن رشد: تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ثلاث أسفار2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1407هـ/1987م.
30- ـــــــــ: مسائل ابن رشد: تحقيق محمد الخطيب التجكاني، مج2، ط2، دار الجيل، بيروت ودار الأفاق الجديدة، المغرب، 1414هـ/1993.
31- أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني: (ت 675هـ/1276م)
صحيح سنن أبي داود: تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط1، مكتبة المعارف، الرياض، 1419هـ/1998م.

32- ابن أبي زرع: أبو الحسن: (كان حيا قبل 726هـ/1325م)
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، أوبسالا، 1846م.
33- الزركشي: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم: (ت حوالي 893هـ/1488م)
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية: تحقيق محمد ماضود، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966.
34- ابن الزيات التادلي: (ت 627هـ/1230م)
التشوف لرجال التصوف، باعتناء أدولف فور، الرباط، 1958م.
35- ابن زهر: أبو مروان عبد الملك: (ت 595هـ/1198م)
التيسير في المداواة والتدبير: تحقيق ميشال خوري، دار الفكر، دمشق، 1983م.
36- ابن سعيد: محمد بن سعد بن منيع: (ت 230هـ/844م)
الطبقات الكبرى: تحقيق محمد بن عبد القادر، ج8، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1418هـ/1997م.
37- ابن سعيد بن موسى: (ت 685هـ/1286م)
المغرب في حلى المغرب: تحقيق شوقي ضيف، ج2، دار المعارف، القاهرة، 1964م.
38- السقطي أبو عبد الله: (عاش في القرن 6هـ/12م)
كتاب آداب الحسبة: تحقيق ليفي بروفنسال وكولان، إرنست لروا، باريس، (د ت).
39- السيوطي: جلال الدين: (ت 911هـ/1505م)
نزهة الجلساء في أشعار النساء: تحقيق صلاح الدين المنجد، دار المكشوف، بيروت، 1958.
40- ابن صاحب الصلاة: أبو مروان بن عبد الملك: (ت 594هـ/1198م)
المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين: تحقيق عبد الهادي التازي، السفر2، دار الأندلس، بيروت 1964م.
41- الضبي: أحمد بن يحي بن عميرة: (ت 599هـ/1202م)
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: تحقيق إبراهيم الأبيار، ج2، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت 1410هـ/1989م.

42- ابن عبد الرؤوف: (ت في القرن 6هـ/12م)
في آداب الحسبة والمحتسب: تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955م.

43- ابن عذاري المراكشي: (ت 695هـ/1295م)
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،
ج3: تحقيق كولان وبرفنسال.
ج4: تحقيق إحسان عباس، ط5، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995م.

44- ————: البيان المغرب، قسم خاص بالموحدين: تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر، محمد بن تاويت وعبد القادر زمامة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.

45- العسقلاني: شهاب الدين: (ت 852هـ/1448م)
الإصابة في تمييز الصحابة: تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1412هـ/1992م.

46- عياض (القاضي): (ت 533هـ/1149م)
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: تحقيق محمد سالم هاشم المجلد 1، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1418هـ/1998م.

47- ————: الغنية:
تحقيق ماهر زهير جرار، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1402هـ/1982م.

48- الغبريني: أبو العباس أحمد بن محمد: (ت 704هـ/1304م)
عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1970.

49- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري: (ت 671هـ/1272م)
الجامع لأحكام القرآن، المجلد 11 و 12، ط.5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/1996م.

50- ابن القطان الكتامي (أبو علي الحسن): (عاش في القرن 7هـ/13م)
كتاب نظم الجمان: تحقيق محمود علي مكي، المطبعة المهدية، تطوان، (د ت).

51- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي: (ت 821هـ/1418م)
صبح الأعشى في صناعة الإنشا: تصنيف وإعداد محمد قنديل البقلي، ج3، عالم الكتب 1383هـ/1963م.
52- الكتبي: محمد شاكر: (ت 764هـ/1362م)
فوات الوفيات والذليل عليها: تحقيق إحسان عباس، مج1، دار صادر، بيروت، 1973م.
53- ابن الكردبوس: (عاش في القرن 6هـ/12م)
تاريخ الأندلس: تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م.
54- الماوردي: أبو الحسن بن محمد: (ت 450هـ/1058م)
الأحكام السلطانية: تحقيق عبد الرحمن عميرة، ج2، دار النصر للطباعة الإسلامية، القاهرة، 1934م.
55- مؤلف مجهول: (عاش في القرن 6هـ/12م)
كتاب مفاخر البربر: تحقيق محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون، مدريد، 1996م.
56- مؤلف مجهول: (عاش في القرن 6هـ/12م)
كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار: تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، 1986م.
57- مؤلف مجهول: المقتبس من كتاب الأنساب: نشره ليفي بروفنسال، باريس، 1928م.
58- المراكشي: (محمد ابن عبد الملك الأنصاري الأوسي): (ت 647هـ/1249م)
الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: تحقيق إحسان عباس.
- السفر5، القسم1، دار الثقافة، بيروت، 1965.
- السفر6، القسم1، ط1، دار الثقافة، 1973م.
59- المراكشي عبد الواحد:
المعجب في تلخيص أخبار المغرب: تحقيق محمد سعيد عريان ومحمد العلمي، ط1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.
60- ابن مريم: أبو عبد الله: (ت 1020هـ/1611م)
البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: نشره محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1326هـ/1908م.

61- مسلم: أبو الحسين بن الحجاج: (ت 261هـ/874م)
مختصر صحيح مسلم: تحقيق أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1419هـ/1998م.
62- المقري: شهاب الدين أحمد بن محمد: (ت 1041هـ/1631م)
نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج1، 2، 3، 4، 5، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.
64- الناصري: أبو العباس أحمد: (ت 1315هـ/1890م)
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، الدار البيضاء، المغرب 1954م.
65- النباهي: أبو الحسن بن عبد الله بن المالقي: (ت 713هـ/1313م)
تاريخ قضاة الأندلس: وسماه كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضا والفتيا: تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ط5، بيروت، 1403هـ/1983م.
66- النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: (ت 733هـ/1332م)
تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب": تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء (د ت).
67- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك المعافرى: (ت 218هـ/833م)
السيرة النبوية: تحقيق طه عبد الرؤوف، المجلد 2، دار الجيل، بيروت (د ت).
68- هوميروس: إلياذة هوميروس، نقلها للعربية عنبرة سلام الخالدي، دار المعارف، مصر، 1319هـ/1947م.
69- اليعقوبي: كتاب البلدان، ط1، ج6، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1408هـ/1988م.

ثانيا : المراجع

أ- المراجع العربية:

1- أشباخ يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين: ترجمة عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة، 1985م.

2- الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحي بو عزيز، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.

3- بالنثيا أنخيل جنثالت: تاريخ الفكر الأندلسي: ترجمة، حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955م.

4- برنشفيك روبر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م: ترجمة حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.

5- بروفنسال ليفي: حضارة المغرب في الأندلس: تحقيق دوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت (د ت).

6- بروكلمان كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية: ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي، ط 13، دار العلم للملايين، بيروت، 1998م.

7- البستاني بطرس: معارك العرب في الأندلس، دار مارون عبود، بيروت، 1987م.

8- البشري: سعد عبد الله: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1417 هـ/1997م.

9- بل ألفريد: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم: ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

10- بلغيث محمد الأمين: النظرية السياسية عند المرادي وآثارها في المغرب والأندلس،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

11- بنت الشاطئ عائشة: تراجم للسيّدات بيت النبوة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1402هـ/1982م.

12- بنسباع مصطفى: السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف مابين عصري المرابطين والموحدين: تقديم محمد بنعبود، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، (د ت).

13- بدوي يوسف وأسمند يوسف:
الدراسات الأكاديمية في تاريخ الخط العربي وجمالياته وتقنياته، ط1، دار لؤي، دمشق، 1417هـ/1996م.
14- عفيف البهنسي: معجم المصطلحات الخط العربي والخطاطين، ط1، مكتبة لبنان الناشرون، بيروت، 1995م.
15- بوتشيش إبراهيم القادري:
المغرب والأندلس في عصر المرابطين(المجتمع. الذهنيات، الأولياء)ط1، دار الطليعة، بيروت، 1993م.
16- بوروبة رشيد: الدولة الحمادية:
تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م.
17- بوفلاقة سعد: الشعر النسوي الأندلسي (أغراضه وخصائصه الفنية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995م.
18- بيضون إبراهيم: الدولة العربية في إسبانيا، ط3، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م.
19- التازي عبد الهادي: جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس، المجلد1، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972م.
20- الجبوري يحي وهيب: الخط والكتابة في الحضارة العربية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م.
21- حارش محمد الهادي: التاريخ المغاربي القديم، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1995م.
22- ابن حامد المختار: موسوعة حياة موريتانيا، ج1: التاريخ السياسي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م.
23- ———: موسوعة حياة موريتانيا، ج2: الحياة الثقافية، دار العربية للكتاب، تونس، 1990م.
24- حركات إبراهيم: المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب)، بيروت، 1998م.
25- ———: المغرب عبر التاريخ: ج1، دار الرشاد، الدار البيضاء، 1984م.
26- ———: النظام السياسي والحربي عند المرابطين، منشورات الوحدة العربية، الدار البيضاء، (د ت).

27- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، 4 أجزاء، دار الجيل، بيروت، ومكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1411هـ/1991م.

28- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1980م.

29- حسن ياسين محمد: الإسلام وقضايا الفن المعاصر، دار الألباب، بيروت، 1995م.

30- ابن حمدة عبد المجيد: ثقافة المجتمع القيرواني في القرن الثالث الهجري، ط1، القصبة، تونس، 1418 هـ/1997م.

31- حمدي عبد المنعم محمد حسين:

تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دولة علي بن يوسف المرابطي، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، 1986م.

32- خلاص صلاح: إشبيليا في القرن الخامس الهجري: دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية (414هـ/461م)، دار الثقافة، بيروت، (د ت).

33- الخولي سناء: الأسرة والحياة العائلية، دار النهضة العربية، بيروت، 1984م.

34- الدفاع عبد الله: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1406هـ/1986م.

35- دندش عصمت عبد اللطيف:

الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/1988م.

36- ـــــــ: أضواء جديدة على المرابطين، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991م.

37- ديماند (م، س): الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، ط 3، دار المعارف، القاهرة، 1982م.

38- الذنون عبد الحكيم: آفاق غرناطة، ط1، مطبعة الصباح،دمشق، 1988م.

39- رشوان حسين عبد الحميد أحمد:

علم اجتماع المرأة، المكتب الجامعي الحديث (د م)، 1998م.

40- الريسوني محمد المنتصر:

الشعر النسوي في الأندلسن دار الحياة، بيروت، 1978م.

41- روجر الهادي: الدولة الصنهاجية، (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10م إلى القرن 12م)، ج1، ط1، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م.
42- زبيب نجيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج2، ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1415هـ/1995م.
43- زغلول سعد عبد الحميد:
تاريخ المغرب العربي، الأجزاء، 2، 3، 4، ط1، منشأة المعارف الإسكندرية، 1995م.
44- زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب: نقله فاروق بيضون وكمال دسوقي، مراجعة مارون عيسى الخوري، ط9، دار صادر، بيروت، 2000م.
45- عبد العزيز سالم والمختار العبادي:
تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ج2، مؤسسة شباب الجامعة، بيروت 1993م.
46- سالم عبد العزيز: المغرب الكبير، ج2، دار النهضة العربية، بيروت، 1991م.
47- ———: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1970م.
48- سالم سحر عبد العزيز: مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شهاب الجامعة، الإسكندرية، 1996م.
49- سعدون عباس نصر الدين:
دولة المرابطين في الأندلس، عهد يوسف بن تاشفين، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1405هـ/1985م.
50- السويدي محمد: بدو الطوارق بين الثبات والتغيير (دراسة سوسيو-انتربولوجية في التغيير الاجتماعي)،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
51- السيد محمود: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، مؤسسة شهاب الجامعة، الإسكندرية، 1999م
52- الشكعة مصطفى: الأدب الأندلسي، دار النهضة العربية (د م)، 1972م.
53- شلبي أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج1، ج4، ج7، مكتبة النهضة المصرية، 1984م.

54- طار وجان جيروم: أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب في عهد المرابطين والموحدين: ترجمة أحمد بلفريج ومحمد الفاسي،الرباط، 1409هـ/1988م.

55- الطالبي محمد: الدولة الأغلبية(184-296 هـ/800-909م) التاريخ السياسي: نقله للعربية المنجي الصباحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.

56- أبو ضيف مصطفى: أثر القبائل العربية خلال عصري الموحدين وبني مرين (524هـ-876هـ/1130م-1472م)، ط1، دار النشر العربية، دار البيضاء، 1982م.

57- عاشور عبد الفتاح، سعد زغلول والمختار العبادي:
تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ذات السلاسل، الكويت، 1985م.

58- عالية سمير: نظام الدولة والقضاء والعرف في الإسلام، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1997م.

59- عباس إحسان: تاريخ الأدب الأندلسي:
عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، 1971م.

60- عبد الرؤوف عصام الدين:
تاريخ الإسلام وحضارته، دار الكتاب الحديث (د م)، 1416هـ/1995م.

61- ابن عبد الله عبد العزيز:
تاريخ الحضارة المغربية، ج2، دار السلمى، الدار البيضاء، 1962م.

62- ———— : الطب والأطباء بالمغرب: المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1960م.

63- ———— : معجم أعلام نساء المغرب الأقصى، مطبعة فضالة المحدية، المغرب، 1970م.

64- ابن عبود أحمد: التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، مطابع الشيوخ تطوان، 1983م.

65- عبد الوهاب حسن حسني:
شهيرات التونسيات، بحث تاريخي أدبي في حياة النساء النوابغ بالقطر التونسي من الفتح الإسلامي إلى الزمان الحاضر، دمشق، 1352هـ/1957م.

66- العربي إسماعيل: القارة الإفريقية والأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق للشريف الإدريسي، ديوان المطبوعات، الجزائر، 1983م.

67- العريني يوسف بن علي بن إبراهيم:
الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، ط1، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1416 هـ/1995م.
68- علام عبد الله: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، القاهرة، 1971م.
69- عنان عبد الله: تراجم إسلامية، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1947م.
70- ———: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني: دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، دارسحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1960م.
71- ———: دول الطوائف، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، 1960م.
72- ———: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ج1 خاص بالمرابطين، ج2 خاص بالموحدين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1964م.
73- الغنيمي محمد عبد الفتاح:
موسوعة المغرب العربى، مج2، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة 1414هـ/1994م.
74- الفاخوري حنا: منتخبات الأدب العربي، المكتبة البوليسية، بيروت (د ت).
75- فرحات يوسف: معجم الحضارة الأندلسية، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 2000م.
76- فرح محمد: الإستراتيجية العسكرية الإسلامية، النظرية والتطبيق، القاهرة 1395هـ/1957م.
77- فروخ عمر: الأدب في المغرب والأندلس، ج5، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1985م.
78- فكري أحمد: قرطبة في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية 1983م.
79- قبيسي بشرى: المرأة في التاريخ والمجتمع، ط1، دار أمواج، بيروت، 1995م.
80- ابن قربة صالح: المسكوكات المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
81- ———: عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، رغاية، 1985م.
82- كحالة عمر رضا: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام: ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1379هـ/1969م.

83- كواتي مسعود: اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط الدولة الموحدية، دارة هومة، الجزائر، 2000م.
84- محمود حسن أحمد: قيام دولة المرابطين، ط2، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1416هـ/1996م.
85- ———: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م.
86- أبو مصطفى كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصري دولتي المرابطين والموحدين، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، (د ت).
87- ———: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997م.
88- ———: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، 1993م.
89- ———: تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي، مركز الأندلسية للكتاب، (د ت).
90- ———: بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، 1993م.
91- المنوني محمد: حضارة الموحدين، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، 1989م.
92- مؤنس حسين: موسوعة تاريخ الأندلس، ج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1416هـ/1996م.
93- ———: تاريخ المغرب وحضارته، مج 1 و2، ط1 العصر الحديث، بيروت، 1412هـ/1992م.
94- ———: نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الظاهر، 1420هـ/2000م.
95- ———: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الظاهر، 1420هـ/2000م.
96- موسى عز الدين: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن 6هـ/12م، دار الشروق، القاهرة، 1983م.
97- ———: الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1411هـ/1991م.

L'Histoire du Maghreb, Un essai de synthèse : centre culturel arabe, Casablanca-1995.

11- Jaquart Danielle et François Micheau :
La Médecine arabe et l'occident médiéval : Maisonneuve, Paris, 1996.

12- Lhote Henri : Le Hoggar espace et temps : Armand Colin, Paris 1984 (collections civilisations).

13- Lagardère Vincent :
Les Almoravides : L'Harmattan-Paris-1989.

14- Marçais georges:
L'art musulman: PUF,Paris 6e ,1962.

15- Marchesin Philippe:
Tribus, ethnies et pouvoir du Mauritanie : Ep :Karthala , Paris ;1992.

16- Meunié Jacques :
Le Maroc saharien des origines au XVIème siècle : Librairie Klincksick, 1982.

17- Provençal Lev :
Histoire de l'Espagne musulmane : T3, Le siécle du Califat de Cordoue, ı Maisonneuve et Larose, Paris 1999.

18- ———— : Inscriptions Arabes d'Espagne : E. J. Brill Leyden Hollande, 1931 et imprimerie Orientaliste, E, Larose, Paris, 1931.

19- ———— : l'Espagne musulmane au Xème siècle : Larose, Paris, 1932 et Maisonneuve et Larose, Paris 1996.

20- Terrasse Henri :
Islam d'Espagne : librairie Plon Paris 6ème, 1958.

21- ———— :
Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français : Atlantides, Casablanca, 1949.

ثالثا : المقالات:

أ- العربية:

1- الأهواني عبد العزيز: "مسائل ابن رشد"، مجلة المخطوطات العربية، مج4، ج1، ماي، 1958م، (ص ص 75-77)

2- بلغيث محمد لمين: التعليم والمؤسسات العلمية بالأندلس في عصر المرابطين، مقال مرقون، الجزائر 2000،(ص ص 2-40)

3- بوبه مجاني: "دور المرأة في الحركة العلمية بجبل نفوسة" من القرن 3- 6هـ/9-12م، مجلة الحياة، العدد2، جمعية التراث، قرارة، غرداية، 1419 هـ/1998م، (ص ص 155-163)

4- بويرتاس انتونيو فرنانديز:
"Antonio Fernandez Puertas"، "فن الخط العربي في الأندلس" ضمن الحضارة العربية في الأندلس، ج2، بيروت 1999، (ص ص 907-951)

5- دندش عصمت عبد اللطيف:
"أدوار سياسة لنساء في الدولة المرابطية"، ضمن مجلة MAE Agencia Española de cooperacion Internacional, Instituto de cooperacion com el Mundo Arabe, Madrid, 1992(ص ص 49-61)

6- دودز جيريلين: "فنون الأندلس"، ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،1999، (ص ص 863-882)

7- رايت أوين (Owen Wright):
"الموسيقى في الأندلس"، الحضارة العربية الإسلامية، ج1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، (ص ص 803-830)

8- العبادي أحمد المختار:
" دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية"، مجلة تطوان، العدد3، 4، تطوان، المغرب الأقصى 1958-1959، (ص ص 143-145)

9- ابن عبد الله عبد العزيز :
"وحدة الفكر من الخليج إلى المحيط"، مجلة التاريخ العربي العدد11، المغرب، 1420هـ/1999م، (ص ص 21-44)

10- فيغيرا ماريا MARIA-J- Viguera:
"أصلح للمعالي، عن المنزلة الاجتماعية لنساء الأندلس" ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، (مركز دراسات الوحدة العربية)، بيروت،1999، (ص ص 995-1013)

11- ابن قربة صالح:
"العمارة المرابطية بالجزائر"، مجلة سيرتا، مطبعة البعث، العدد 3، قسنطينة، الجزائر، 1980، (ص ص 42-56)، العدد 4، 1981، (ص ص 35-55)

12- لجنة خطبة الجمعة:
"نظام الأسرة في الإسلام"، ضمن مجلة هدي الإسلام، العدد 2، مج40، المملكة الأردنية الهاشمية، 1417هـ/1996م، (ص ص 112-115)

13- ميراندا امبروسو هويسي:
"علي بن يوسف وأعماله في الأندلس"، مجلة تطوان، العدد 3 و4، تطوان المغرب، 1958، 1959، (ص ص 153-176)

14- مونرو -ت- جيمس، James, T. Monroé:
"الزجل والموشح: الشعر الأندلسي والتراث الرومانسي ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، (مركز دراسات الوحدة العربية)، بيروت، 1999، (ص ص 571-595)

15- الناني ولد الحسين:
"موريتانيا من عهد غانا إلى المرابطين": مجلة تاريخ موريتنيا فصول ومعالجات، نواكشوط، 1999، (ص ص 7-35)

ب- **الأجنبية:**

1- Allain Charles et Gaston Deverdun :
« Les portes anciennes de Marrakech » in Hesperis, T XLIV, Larose, Paris, 1957, PP 85-126

2- Balencie Jean Marc, Arnaud de la grange :
Monde rebelles « La question Touareg :(acteurs, conflits et violences politiques), ed Michalon, Paris, 1996, PP 229-255

3- Dr Ferriol : « Les Ruines de Tinmel » : in Hespéris, T II, 1922, PP 62-69

4- Faure Adolphe : «Abbu Abbas Sabti»La justice et la charité : in Hesperis XLIV, Paris, 1956, PP 448-456

5- Giacomo (deluis) :
« Une poétesse Andalouse des Almohades » : in Hésperis, T : XXXIV, Larose, Paris, 1947, PP 9-101

6- Miranda HUICI (Ambrosio) :
« El Rawd Al Quirtas ylos Almoravide »: in Hespèris Tamuda, Vol I, Fas 1, ED : Techniques Nord Africaines, Rabat, 1960, PP 513-541

7- Pérès Henri : La culture intellectuelle des femmes musulmanes en Espagne au Moyen Age » : Art: in Revue de la Méditerranée, n° 6, T 17 Paris-Alger,1957, PP 577-602

8- Provençal Levi : «La Mora Zaida » : femme d'Alphonse VI de castille, et leur fils : « L'Infant D.Sancho » : In Hesperis, T.XVI, fascicule I, 1er Trim, IMP : A. Tayone, 1934, PP 1-8

9- Rachel Arié : « le traité de Hisba d'Ibn Abd ALRA'ÜF » : in, Hesperis Tamuda, VI, 1ère Fax, ED : Techniques Nord

Africaines, Rabat, 1960, PP 16-38

رابعا: الرسائل الجامعية:

1- بلغيث محمد لمين: الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، تحت إشراف عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1406هـ/1986.

2- عبريق سهيلة: فن المديح في عهد المرابطين بالمغرب والأندلس، رسالة ماجستير تحت إشراف: يوسف عروج، معهد اللغة وآدابها، جامعة الجزائر، 1421هـ/2000م.

3- عجنق رابح: السياسة الداخلية لدولة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين، رسالة ماجستير تحت إشراف محمد الصالح مرمول، الجزائر، 1980-1981.

خامسا: الموسوعات والمعاجم:

أ- بالعربية:

1- الموسوعة العربية الميسرة:

إشراف محمد شفيق غربال، مج2، دار الجيل والجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، بيروت، 1416هـ/1995م.

2- الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، 8 مج، ط12، دار العلم للملايين، بيروت، 1997م.

3- حيران مسعود: الرائد: معجم لغوي عصري، ط1، بيروت، 1984م.

4- ابن منظور: لسان العرب، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة: يوسف خياط، 7مج، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت 1408هـ/1988م.

5- ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد 8، ط 2، دار صادر، بيروت، 1995م.

ب-الأجنبية:

Encyclopédie de l'Islam :

- ART : « Maures » :
  T VI, Leinden et Maisonneuve, Paris 1999, (PP 839-841).
- ART «Murabitum » :
  T.VII, Leinden, New york et Maisonneuve, Paris, 1993, (PP 584-591)
- ART : « MURITANIYA » :
  T VII, Leinden, New york et Maisonneuve, Larose, Paris, 1993, (PP 610-627).
- ART: «Ribat »: T VIII, Leinden, New York, 1995 (PP 510-524).

فهرس المحتويات الصفحات

المقدمة: .... أ – ر

المدخل التاريخي: .... 1 –19

أصل المرابطين وظهورهم على مسرح الأحداث: 3

الدولة المرابطية: 5

مرحلة الدعوة: 5

مرحلة التأسيس والقوة:.. 8

مرحلة التراجع والانهيار: 16

الفصل الأول:

مساهمة المرأة السياسية والعسكرية..20

لمحة عن المرأة المسلمة في التاريخ: 23

المرأة المرابطية والدعاية الموحدية: 34

المرأة والسياسة: 40

زينب النفزاوية: 40

حواء بنت تاشفين: 61

مريم بنت إبراهيم: 66

الجارية قمر: 67

المرأة والحرب: 73

السبي والأسر: 80

الفصل الثاني:

دور المرأة في الحياة الإجتماعية والاقتصـــادية: ....97 – 171

تكوين الأسرة: 100

الزواج: 101

نظرة المجتمع للزواج:.. 117

مكانة الأم:.. 131

مكانة المرأة الاجتماعية والاقتصادية:.. 141

لباس المرأة وزينتها:.. 157

اللباس:.. 157

الحليّ: 163

مواد التجميل:.. 164

الفصل الثالث:

مساهمة المرأة العلمية والفنية: .... 172 - 212

تمهيد: 175

تعليم المرأة: 176

مساهمة المرأة العلمية والأدبية: 178

العلوم الدينية: 178

الأدب والشعر: 183

الطب: 195

مساهمة المرأة الفنية: 196

الموسيقى والغناء: 196

الخط والزخرفة: 203

العمران: 206

الخاتمة: .... 213 - 217

الفهارس العامة: 218- 273

فهرس الأعلام والشعوب والقبائل: 220-225

فهرس الأماكن: 226- 228

فهرس الآيات والسور القرآنية: 229

ملاحق: نصوص- الأشعار-الخرائط- والصور: 230- 250

قائمة البيبليوغرافية: 251- 271

فهرس المحتويات: 272-273